# الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ

إعداد
محمد موسى النعيمات

المشرف
الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي

قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلّبات درجة الدكتوراه في
اللغة العربيَّة وآدابها

كليَّة الدراسات العليا
الجامعة الأردنيَّة



تموز، ٢٠١٤م

## قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الأطروحة (الرسائل الفنّيّة في مصر في العصر الفاطميّ)، وأجيزت بتاريخ ٢٠١٤/٧/٢٤م.

| أعضاء لجنة المناقشة | | التوقيع |
|---|---|---|
| الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي | رئيساً ومشرفا | ................. |
| **أستاذ الأدب العباسيّ والفاطميّ** | | |
| الدكتور ياسين خليل عايش | عضواً | ................. |
| **أستاذ مشارك- الأدب العباسيّ** | | |
| الدكتوره فوز سهيل نزّال | عضواً | ................. |
| **أستاذ مشارك- البلاغة العربيّة والأسلوبيّة** | | |
| الأستاذ الدكتور محمّد محمود الدروبيّ | عضواً | ................. |
| **أستاذ الأدب العباسيّ (جامعة آل البيت).** | | |

# الإهداء

اعترافا مني بالجميلِ، وإعطاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه يسعدني أن أهدي جهدي إلى:

**والدي الحبيب..**

الذي أتاحَ لي الظروفَ المعنويةَ والماديةَ طيلةَ فترة الدراسة.

**وإلى أمي الحنون...**

التي بسطت الطريق لي بصادق دعائها ورجائها.

**وإلى زوجتي الغالية...**

التي يسَّرت عليَّ مهام الحياة.

**وإلى ابني أحمد وآدم...**

أسأل الله أن يحفظهما.

**شكر وتقدير**

الحمد لله حمدَ شاكرٍ خيرَه كلَّه في أول الأمر وآخره، وصلى الله وسلم على النبي الأمّيّ المصطفى لهداية الناس أجمعين.

أما بعدُ،

فلا يسعني في هذا المقام إلا أن أوّجّه عظيمَ الشكر وجزيلَ الامتنان إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي، الذي أحاطَ هذه الأطروحة برعايتِهِ وعميمِ عطفه، وتحمَّلَ عبءَ القراءة، وعناءَ الفحص، فكان لنصائحِهِ ودقَّةِ إشاراته كبيرُ العونِ وعظيمُ الأثر، له منّي وافرَ الشكر والتقدير.

وأتقدم بجزيل الشكر لأعضاء هيئة المناقشة:

١. الأستاذ الدكتور محمد محمود الدروبي.

٢. الدكتور ياسين عايش خليل.

٣. الدكتورة فوز سهيل نزال.

مقدرا لهم جميعا تفضلَهم بقَبولِ مناقشةِ هذه الأطروحةِ، وتحمُّلِ عناءِ قراءتِها، ومناقشتِها، وإبداءِ الرأي والملاحظات، بما يعينُني على معرفةِ عَثَرَاتي وهَنَاتي، ويرشدُني إلى ما فيه خيري وخيرُ العلم.

كما أشكرُ كلَّ من مدَّ لي يد العون.

# فهرس المحتويات

**الرسائل الفنِّيَّة في مصر في العصر الفاطميّ**

إعداد
**محمد موسى النعيمات**
المشرف
**الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي**

**الملخص**

تعدّ "الرسائل الفنِّيَّة في مصر في العصر الفاطميّ" دراسة أدبيَّة، يدرس الباحث من خلالها الرسائل التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطمي. مبينا بذلك التطوّر الذي طرأ على الكتابة الفنية تحديدا الرسائل الفنيّة في تلك الحقبة.

وجاءت الدراسة في تمهيد وخمسة فصول. أما التمهيد، فقد حاول الباحث من خلاله أن يبيِّن دور ديوان الإنشاء في تطوِّر كتابة الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ، حيث كان ديوان الإنشاء المؤسسة الأُولى التي يتأهل الكتّاب فيها تحت إشراف نخبة من مشاهير الكتَّاب.

أما الفصل الأول من الدراسة، فجاء في الرسائل الديوانية التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطمي، يقدم الباحث من خلالها أبرز الأحداث السياسية والوقائع التاريخية التي دارت في بلاط الدولة الفاطمية في مصر، وما اشتملت عليه من الترتيبات الإداريّة والماليّة والدينيّة التي نظَّمت عمل الدولة الفاطميَّة في مصر، وكيف أن ديوان الإنشاء فرض على الكتَّاب الفاطميين في هذا النوع من المكاتبات نماذجَ كتابيِّة لا يمكنهم التحرر منها.

وفي الفصل الثاني، تناول الباحث في دراسته الرسائل الإخوانية التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطمي، وكان الكتاب فيها أكثر تحررا من الرسائل الديوانية، فتنوعت المضامين التي عبَّرت عنها هذه الرسائل، فجاءت في التّهنئة، والتّعزية، والتَّهادي والملاطفة، وغيرها من المضامين التي شكلت ميدانا حرًّا للكتاب الفاطميين يعبرون من خلاله عمَّا يجول في نفوسهم من مشاعرهم تجاه الآخرين.

وجاء الفصل الثالث بعنوان "الرسائل الأدبيَّة في مصر في العصر الفاطمي"، وتضمن هذا الفصل شكلين من الرسائل الأدبية: الأول الرسائل الأدبية المضمون، وتمثلت في الرسائل "الأفضليات" التي أنشاها ابن الصيرفي، والثاني الرسائل الأدبية الغرض، وتمثلت في رسائل الهجاء، والرثاء، والوصف. وتعكس هذه الرسائل مدى القدرة الأدبيَّة والثقافة الكتابيَّة التي امتلكها الكتَّاب الفاطميون.

وفي الفصل الرابع وقفت الدراسة عند خصوصية النثر الفني في العصر الفاطمي في مصر، حيث أثَّرت عقيدة الفاطميين في الرسائل الفنية خاصة الرسائل الديوانية الصادرة عن ديوان الإنشاء، وكيف كان التشيع حاضرا في تلك الرسائل من حيث فكرة الإمامة، والتأويل، وما طرأ من موضوعات نثريّة جديدة على النَّثر في العصر الفاطميّ.

وانتهت الدراسة بالفصل الخامس الذي جاء بعنوان "التقويم الفني للرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ"، وبين الباحث من خلاله كيف عني الكتَّاب الفاطميون برسائلهم التي حبَّروها، فحرصوا على مدِّها بكل ما يحيطون من الموروث الديني والأدبي، وبالغوا في التنغيم الصوتي المبني على الجناس والسجع والطباق، واعتنوا بالتصوير الفنّيّ.

## المقدمة

الحمد لله حمد شاكر يكافئ نعمَه، والصّلاة والسّلام على أصفى خلقه، وسيّد رسله، وخاتم أنبيائه، أشرف العرب والعجم، محمّد بن عبد الله، صلّى الله عليه وسلّم.

وبعد، فتمثّل الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ خيرَ شاهد على تطوّر النّثر الفنيّ في مصر، فرغم الجهود الكثيرة التي بذلها المؤرخون والأدباءُ بعد انتهاء الدولة الفاطميّة في مصر في منتصف القرن السادس الهجريّ، من أجل محوِ كلِّ ما يتعلق بنتاج الفاطميين وتاريخهم لأنهم ادَّعوا الإمامة من بعد النبي محمد، صلَّى الله عليه وسلم، إلا إنَّ بعض الكُتب حملت فيها من الرسائلِ التي تعود إلى مصر في عهد الفاطميين ما يكفي لتسليط الضوء على تطوِّر النثر الفنيّ متمثلا بفَنِّ الرسائل.

ولا يخفى على من يدرس الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ أن هناك عوامل عدَّة ساهمت في تطوّر فنّ الرسائل، فمحاولات الطولونيين بالنهوض بالكتابة في مصر قبل الفاطميين، وعناية الفاطميين البالغة بديوان الإنشاء وكتابه، وإغراقهم بالعطاء، والتَّنافس فيما بينهم، وتأهيلهم في ديوان الإنشاء، كلُّ ذلك ساعد على تطوّر فنّ الرسائل في مصر الفاطميّة.

وأهمية هذه الدراسة تتأتى من أكثر من جانب، فهي دراسة متخصصة بالرسائل الفنيَّة في مصر خلال قرنين حكم فيهما الفاطميون مصر، وتشتمل على مجموعة من الرسائل الديوانيَّة والإخوانيَّة والأدبيَّة التي تمَّ جمعها من مختلف المصادر والمراجع، ولهذه الرسائل قيمة أدبية، حيث تعبِّر عن القدرة الأدبيَّة والثقافة الكتابيِّة التي امتلكها كتَّابُ البلاط الفاطمي، خاصة ما يتعلق بالعقيدةِ الفاطمية، وضرورة معرفة الكتَّاب بها، وكيف بدا ذلك واضحا في الرسائل التي أنشاؤها. كما تحظى الرسائل بقيمة تاريخيّة وسياسيّة، حيث تقدّم لنا أهمّ الأحداث التي دارت في البلاط الفاطميّ في مصر، وكيف كانت الدولة الفاطميَّة تدار في مصر.

وأما الفضل في فكرة هذه الدراسة فيعود إلى الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي الذي وجَّهني إلى دراسة الأدب الفاطمي منذ أن كنت طالبا في مرحلة الماجستير، حيث لفت انتباهي إلى أحد الكتَّاب الفاطميين المشاهير، فكانت رسالة الماجستير بعنوان "ابن الصيرفي كاتبا"، ولمَّا شرعت بإعداد مشروع أطروحة الدكتوراه في الأدب العربيّ تطوَّرت فكرة العمل لديَّ لفهم الأدب الفاطميّ في مصر أكثر، فوجهني إلى الكتابة في الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطمي.

وبعد أن بدأت بجمع الرسائل الفنيَّة التي أنشأها الكتَّاب الفاطميون في مصر في عهد الخلافة الفاطمية وأخذتها من مصادرها الأدبيّة والتاريخيّة وجدت نفسي أمام موروث أدبيّ لم يحظ بدراسة تحليليّة وافية، وكلّ ما تناوله الأدباء والمؤرخون بالدراسة من هذه الرسائل لم يتجاوز

عرض بعضها هنا وهناك، وتكاد معظم الجهود التي وقع عليها الباحث من الدراسات السابقة للرسائل الفنيّة في مصر في العصر الفاطميّ تنحصر في الاتجاهات الآتية:

**أولا:** اتجاه عني بدراسة رسائل بعينها نظرا لشهرة كاتبها، وممن يمثل هذا الاتجاه الدكتور محمد زغلول سلّام في كتابه **"الأدب في العصر الفاطميّ الكتابة والكتاب"**، حيث أفرد الباب الخامس من كتابه لمشاهير الكتّاب والأدباء في العصر الفاطمي أمثال المجيد العسقلانيّ ابن أبي الشخباء، وابن الصيرفيّ، والموفق يوسف بن الخلَّال، وأبي الفتح ابن قادوس، وغيرهم، ثم يتبع التعريف بهم نماذج كتابيّة من إنتاجهم.

**ثانيا:** اتجاه عني بتقديم صورة موجزة عن الرسائل وتطوّر النّثر في العصر الفاطميّ في مصر ضمن دراسة النّثر العربيّ عامة، ويمثّل ذلك الاتجاه الدكتور محمد كامل حسين في كتابه **"في أدب مصر الفاطميّة"** حيث أفرد الباب الثانيّ من الكتاب في النّثر في مصر الفاطميّة، وضمنه حديثا عن ازدهار النّثر من خلال ديوان الإنشاء ومشاهير الكتَّاب الذين عملوا فيه، فيتحدّث عن ابن خيران، وابن الصيرفيّ، وابن قادوس، والموفّق يوسف بن الخلَّال، وغيرهم، ويأتي ببعض النماذج الكتابيّة التي حبَّرها هؤلاء الكتّاب بأقلامهم في أثناء عملهم في ديوان الإنشاء الفاطميّ، متحدثا عن أبرز السمات الفنيّة التي اتسمت بها كتاباتهم من جانب، وتأثرها بالعقيدة الفاطمية من جانب آخر.

ويمثل هذا الاتجاه أيضاً الدكتور شوقي ضيف في كتابه **"الفن ومذاهبه في النّثر العربي"**، حيث يتحدث في الفصل الثاني من الكتاب الثالث عن نهضة النثر في مصر الفاطميّة، فيتناول ابن أبي الشخباء مثالاً على تطوّر الكتابة في مصر في عهد الفاطميين، ويعرض بعض الرسائل التي أنشأها، مبينا السمات الفنية التي اتسمت بها. وللدكتور شوقي ضيف كتاب آخر بعنوان **"عصر الدول والإمارات- مصر"** إذ يتحدث في الفصل الخامس من الكتاب عن النّثر وكتَّابه في مصر، فيأتي بحديث مختصر حول عدد من الكتَّاب الفاطميين، أمثال: ابن الصيرفيّ، والقاضي الفاضل البيسانيّ، والمجيد العسقلانيّ ابن أبي الشخباء، متوقفا عند أبرز الرسائل الديوانية والشخصية التي أنشأها هؤلاء الكتَّاب، وأبرز السمات الفنيَّة التي اتسمت بها خلال عهد الدولة الفاطميَّة في مصر.

**ثالثا:** اتجاه يعنى بدراسة رسائل بعينها لقيمتها التاريخيّة والسياسيّة، ويتمثّل ذلك في الرسائل الديوانيّة التي جمعها الدكتور جمال الدين الشيَّال وقدمها لدارسي الأدب العربي وتاريخه في دراسة تحليلية من خلال كتابه **"مجموعة الوثائق الفاطميّة وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة"**، وعددها ثلاث وعشرون وثيقة أو رسالة ديوانيَّة، تمثل نماذج ضخمة لفنِّ النَّثر عامّة وللكتابة الديوانيِّة في مصر الفاطميِّة خاصة، وقد صدرت عن ديوان الإنشاء، وأنشأها عدد من

مشاهير الكتَّاب في مصر في عهد الفاطميين، من أمثال: ابن الصيرفي، والموفق بن الخلَّال، ووليّ الدولة عليّ ابن خيران، والقاضي الفاضل البيسانيّ.

وبعد هذا كلّه، فقد تبين للباحث أن الدراسات التي تناولت الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ بالدراسة لم تكن وافية من جانب، ولم تتناول أدب الرسائل خلال تلك الحقبة بما يتناسب مع المادة الأدبيّة الموجودة في بطون الكتب الأدبيّة والتاريخيّة من جانب آخر، وهذا ما يسوّغ للباحثِ أن يقيمَ دراسة علميّة حول موضوع "الرسائل الفنيّة في مصر في العصر الفاطميّ" تتناول المضامين، والأثر العقدي، والسمات الفنيّة، مستفيدا من المناهج المختلفة بحسب ما تقتضيه طبيعةُ الدراسة.

فالباحث يحلل ما وصل من الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطمي معتمدا على المنهج التاريخيّ في تسليط الضوء على أبرز الأحداث التي دارت في مصر خلال حكم الفاطميين، كما يلجأ إلى المنهج الاجتماعي في محاولة لتصوير مختلف مظاهر الحياة التي عاشها المجتمع المصريّ في عهد الفاطميين. ويستفيد من المنهج النفسي لمعرفة حقيقة رؤى الكتَّاب ومواقفهم المختلفة. وتتوحد هذه المناهج جميعا لتُقَدِّمَ صورةً واضحةً للرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ.

وانتظمت مادة هذه الدراسة في تمهيد وخمسة فصول، جاء التمهيد بعنوان "ديوان الإنشاء وأهميته في الكتابة في مصر في العصر الفاطميّ" وعمد الباحث إلى تخصيص التمهيد لهذا المضمون؛ لأهميّة ديوان الإنشاء في تطوِّر فنِّ الرسائل في مصر في العصر الفاطميّ، فتصدّى الباحث لدراسة ديوان الإنشاء وأهميته في الكتابة من حيث الكتابة وعلاقتها بديوان الإنشاء، وديوان الإنشاء في مصر قبل العصر الفاطميّ، وفي أثناء حكم الفاطميين، والأثر الذي تركه في الكتابة في مصر في العصر الفاطميّ.

وبسطتُ الحديث في الفصل الأول منها عن الرسائل الديوانيّة في مصر في العصر الفاطميّ، وقد تشعب الحديث في هذا الفصل إلى محورين أساسيين:

المحور **الأول** تمثّل في رسائل المخاطبات الإعلاميّة من رسائل المنشورات، ورسائل المبايعات، ورسائل انتقال الخلافة إلى الخليفة، ورسائل الأمانات، حيث حرص الخلفاء الفاطميون على وصول مثل هذا النوع من الرسائل الديوانيّة إلى كل أعمال الدولة في مصر؛ لأهميّة معرفة الناس خطابَها والعمل به. أمَّا المحور **الثاني** فيتمثّل في رسائل التنظيمات الإداريّة والماليّة، وقد عبرت الرسائل التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطميّ في هذا المحور عن أربعة مضامين رئيسية، هي: رسائل الوزارة، ورسائل الولاية، ورسائل الوظائف الدينيّة، ورسائل الشؤون

الماليّة، ورسائل زمِّ الطوائف، ورسائل إقرار النعوت، وتشكلّ مجتمعة الترتيبات الإداريّة والماليّة التي حكم بها الفاطميّون مصر على مدار قرنين.

ومضيت في الفصل الثاني في دراسة الرسائل الإخوانيّة في مصر في العصر الفاطميّ، لما لهذا اللون من قدرة على التعبير عن عواطف الأفراد والروابط الوجدانية التي تجمعهم بعيدا عن اللون الديوانيّ، فجاءت الرسائل الإخوانية، بحسب المناسبات الاجتماعية والقضايا الوجدانية، وفق الأغراض الآتية: رسائل التهنئة، ورسائل التعزيّة، ورسائل التّهادي والملاطفة، ورسائل العتاب، ورسائل الاعتذار، ورسائل الاستماحة، ورسائل الاستعطاف والاسترضاء، ورسائل الشّكر.

وجعلت الغاية في الفصل الثالث مصروفةً إلى الرسائل الأدبيَّة في مصر في العصر الفاطميّ، وتناولها الباحث بالدراسة من خلال نوعين من الرسائل الأدبيّة التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطميّ: النوع الأول الرسائل الأدبيّة المضمون، وهي رسائل طوال، يحاول الكاتب من خلالها أن يستعرض مدى إحاطته بالموروث الأدبيّ، وبيان بلاغته، وتمكّنه من النقد الأدبي، ويتمثل هذا النوع في الرسائل "الأفضليّات" التي أنشاها ابن الصيرفيّ للأفضل بن بدر الجماليّ، وهي سبع رسائل هي: رسالة العفو، ورسالة ردَّ المظالم، ورسالة لُمَح المُلح، ورسالة منائِح القرائِح، ورسالة مناجاة شهر رمضان، ورسالة عقائِل الفضائِل، ورسالة التَّدلِّي على التَّسلي. والرسالة الواحدة من هذه الرسائل قد تأتي في أكثر من غرض، فتأتي في الشكر، والمدح، بحسب حاجة الكاتب. أما النوع الثاني من الرسائل الأدبيّة التي وصلت إلينا من مصر الفاطميَّة فهي الرسائل الأدبيَّة الغرض، والرسائل التي وصلت إلينا من العصر الفاطميّ في مصر في هذا الجانب تمثل ثلاثة أغراض هي: رسائل الوصف، ورسائل الهجاء، ورسائل الرثاء، وهي قليلة جدا لا تتجاوز في مجملها بضع رسائل.

ولما بدا أثر التشيع واضحا في الرسائل الفنيَّة تحديدا الديوانية منها فقد جاء الفصل الرابع بعنوان "أثر التَّشيّع في الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ"، وحاولت من خلاله أن أتبيَّن أثر التّشيّع في الرسائل من ثلاثة جوانب: الأول فكرة الإمامة، وكيف بدت في جلّ رسائلهم الديوانيّة حيث حرص الكتّاب الفاطميّين على تضمين رسائلهم حديثا عن الإمامة وأهميتها في حياة الدولة الفاطميّة وفضلها على النّاس. والجانب الثاني اختصاصهم بالتأويل، وكيف بدت مسألة الظاهر الباطن في القرآن الكريم في فكرهم، ومحاولتهم إقناع النَّاس بعقيدتهم عن طريق تأويل القرآن الكريم، وقصص الأنبياء، وعناصر الطبيعة، بما يتناسب مع أهويتهم وأغراضهم السياسيَّة. وأمَّا الجانب الثالث فيتمثَّل في الأغراض النثريّة الجديدة التي طرأت على النثر العربيّ من جانب، وتوسّع الكتّاب في بعضها من جانب آخر؛ وذلك نتيجة للفكر الفاطميّ الذي تشيَّع له

الكتَّاب وروَّجوا له في جُلِّ رسائلهم الديوانية، فالدعوة للدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها، من الأغراض النثريّة الجديدة الطارئة على النَّثر الفنيّ في مصر في العصر الفاطميّ، كما توسَّع الكتَّاب الفاطميون في الكتابة في بعض الأغراض النثرية الموجودة أصلا، ومن ذلك أنَّهم لم يكتفوا بكتابة الرسائل بسلامة ركوب الخليفة في عيدي الفطر والنحر، بل تجاوزوا ذلك لكتابة الرسائل في سلامة ركوب الخليفة في غرَّة السنة، والجمعة الأولى والثانيّة والثالثة من شهر رمضان.

وتوجهت في الفصل الخامس، والذي جاء بعنوان: التقويم الفنيّ للرسائل الفنيّة في مصر في العصر الفاطميّ، إلى رصد أبرز السمات الفنيّة التي طالعتنا في مجمل الرسائل الفنيّة، فجاء الحديث في اتجاهين: الأول حول بناء الرسالة الفنيَّة من حيث المقدمات، والمضمون، والختام. والثاني تمثّل في الظواهر الأسلوبية التي لجأ إليها الكتَّاب في صياغة رسائلهم، وهي: توظيف الموروث الدينيّ، وتوظيف الموروث الأدبيّ، والإيجاز والإطناب، والصنعة الفنيَّة، والتصوير الفنيّ.

ولمَّا كانت الرسائل مادة الدراسة الأساسيَّة فقد شكَّلت الكتب التاريخيَّة والأدبيَّة وكتب الإنشاء أهم مصادر الدراسة التي استقى الباحث منها مادته؛ فقد حوت هذه المصادر بين دفَّتيها مجموعة من الرسائل الديوانيَّة والإخوانيَّة والأدبية، كما عبرت عن تطوّر النّثر الفنيّ في مصر خاصة فنّ الرسائل خلال حكم الفاطميّين لمصر على مدار قرنين، ولعلّ من أهمّ تلك المصادر: موادّ البيان لعلي بن خلف الكاتب، والقانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيّرفيّ، والرسائل الأفضليّات لابن الصيرفي، والرسالة الموسومة بالهداية الآمريّة في إبطال دعوى النزاريّة، ويتلوها إيقاع صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام لابن الصيرفي، وجمهرة الإسلام ذات النّثر والنّظام للشَّيْرزي، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشنديّ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطيّ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين الأتابكيّ، والمواعظ والاعتبار المعروف بالخطط للمقريزيّ، واتّعاظ الحُنفا بأخبار الأئمة الفاطميّين الخلفا للمقريزي، وذيل تاريخ دمشق لابن القَلانِسيّ، ومعجم الأدباء للحمويّ.

وفي أثناء زمن إعداد هذه الدراسة واجهتني بعض الصعوبات التي نتجت عن:

١. قلَّة الدراسات التي تناولت الرسائل الفنيَّة في مصر في عصر الفاطميّين، حيث كان الدارسون يتناولون نثر تلك المرحلة في ثنايا دراساتهم بوصفها جزءاً من الأدب العربيّ في مصر.

٢. صعوبة الحصول على بعض الدراسات النادرة والمتخصّصة في الأدب الفاطميّ تحديدا الرسائل الفنيّة، ومن ذلك دراسة بعنوان "رسائل ابن أبي الشخباء الإخوانيّة دراسة فنيّة" للدكتور إبراهيم أبو زيد، حيث حاولت الحصول عليها بمختلف الطرق، ولكن لم أصل بأيٍّ منها إلى الكتاب.

٣. ما جمعته من الرسائل الفنيَّة التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطميّ احتاج منِّي إلى قراءة معمَّقة وطويلة لفهم خطاب الكتَّاب الفاطميّين؛ ولعلَّ ذلك مردّه إلى العقيدة الفاطميَّة وأثرها في رسائل هذه المدة، فكان لا بدَّ من الاطلاعِ على بعض الدراسات التي تحدثت عن فكر الفاطميّين وعقيدتهم لفهم بعض ما يكتبون، وهذا ما كلَّفني وقتا أطول في إعداد الدراسة، تجاوزت ثلاث سنين.

٤. تداخل أغراض الرسائل وموضوعاتها تداخلا أربك الباحث، وهذا ما دفعني إلى الاستعانة بمصادر الفاطميّين أنفسهم، فكان كتاب "موادّ البيان" لعلي بن خلف الكاتب أكبر معين لي، حيث صنَّف الرسائل التي جاء بها في كتابه، والرسائل التي لم يصنّفها في بابها، تحدَّث عن الشكل الذي تأتي عليه.

٥. الكتب المتخصصة بالعقيدة الفاطمية منتشرة وكثيرة، ومضامينها تحتاج إلى غير قراءة لفهمها ومعرفة ترتيبها عند الفاطميين.

وبعد، فهذه دراسة أتقدمُ بها لنيل درجة الدكتوراه، وإني لست أزعم الوصول فيها إلى مرحلة الكمال، أو أني أحطت بموضوعها من كلّ جوانبه، وإنما هي محاولة أطرق بها باب أدب العصر الفاطمي في مصر، لعلّي، إن كتب لي، أن أقدم شيئا لأدبنا العربي. وحسبي أنِّي حاولتُ، واجتهدتُ، وإني لأرجو الله تعالى أن أكونَ قد وفِّقتُ.

ويطيب لي في هذا الموضع أن أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، المشرف على هذا العمل، فقد كانت متابعته الحثيثة، ونصائحه الرشيدة خيرَ عون لي في إتمام هذه الدراسة، فله الشكر على صبره وسعة صدره، وأن فتح أمامي آفاقا علميَّة واسعة، فجزاه الله عنِّي خير الجزاء، إنه سميع مجيب الدعاء. وما الكمال إلا لله، عليه توكلت وإليه أنيب.

محمد النعيمات

الجامعة الأردنيّة – عمّان

تموز- ٢٠١٤م

# التمهـيـد:

## ديوان الإنشاء وأهميَّته في الكتابة في مصر
## في العصر الفاطميّ

## الكتابة وعلاقتها بديوان الإنشاء

### فضل الكتابة:

حظيت الكتابة برتبة عالية بين غيرها من الصناعات التي عرفها البشر، وقد نالت قدراً عالياً، وكان لها شأن عظيم على مر العصور، و دليل مكانتها ورفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها إلى نفسه حينما قال عزَّ اسمه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾(١)، وقد جعل الله الكتابة وصفاً للحفَظَة الكرام من ملائكته، يقول جلَّ جلاله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾(٢)، ثم أقسم الله تعالى بالقلم، آلةِ الكتابة، وما يسطر به، قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾(٣)، والقسم لا يقع منه تعالى إلا بكريم ما خلق من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها. و يقول الله عزّ وجلَّ في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾(٤) وهذا دليل قاطع على الحاجة إلى الكتابة وضرورتها، فمن فضائل العلوم التي يُعلِّمُها أنبياءه الكتابة التي تَجْمَعُ في إدراكها الحكمة، فمن أدرك الكتابةَ وألمَّ بأصولها فقد نَالَ دروب الحكمة والخير.

وقد أدرك السلف قيمة الكتابة، فمدحوها وحثُّوا عليها، فقد قال سعيد بن العاص(٥): "مَنْ لَمْ يكتبْ فيمينُه يُسرى"(٦). وقال مَعْن بن زائدة(٧): "إذا لم تكتبِ اليدُ فهي رِجْل"(٨). ويتنبّه علي بن

---

(١) سورة العلق: ٣، ٤، ٥.

(٢) سورة الانفطار: ١٠، ١١.

(٣) سورة القلم: ١.

(٤) سورة آل عمران: ٤٨.

(٥) أبو عثمان وقيل أبو عبد الرحمن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاصي بن أمية بن عبد شَمس، من الصحابة وأحد الذين كتبوا المصحف لعثمان. (ينظر: النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات، ط١، تحقيق: الشيخ علي محمد معوّض و الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار النفائس، ٢٠٠٥م، ٣٠٨- ٣٠٩).

(٦) القلقشندي، أحمد بن علي (٨٢١هـ). صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ١: ٦٥.

(٧) أبو الوليد معن بن زائدة الشيباني، كريم، شجاع، كثير المعروف، ولي سجستان أواخر أمره وانتقل إليها، وقتل فيها على يد الخوارج سنة ١٥٢هـ (ينظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د إحسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٧٧م، ٥: ٢٤٤- ٢٥٤).

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٦٥.

خلف الكاتب[١] إلى رفعة وفضل الكتابة، ويقول في ذلك: "الكتابةُ تمامُ قوَّةِ النطقِ والمبلِّغُ به إلى أكملِ غاياته، ولذلك جعلَها رسول ُالله، صلى الله عليه وسلم، عِقَال العلوم، فقال: "قَيِّدوا العلمَ بالكتاب"[٢]، ويضيف في موضع آخر مبيّناً فضل صناعة الكتابة على غيرها من الصنائع، حيث يقول: "اعلَمْ أنَّ جميعَ الصنائعِ وسائلُ إلى دَرْكِ المطالبِ ونَيْلِ الرغَائبِ، وأنَّ عوائدَها تتفاضلُ في الكثرةِ والقلَّةِ بحسبِ تفاضلِها في الرفعةِ والضعةِ؛ إذ كان منها ما لا يفي بالبُلْغَة من قوامِ العيشِ نحو الصَّنائعِ المَهنيةِ السُّوقيةِ الدَّاخلةِ في المرافقِ العاميَّةِ، ومنها ما يُوصِلُ إلى الثَّروةِ، ويتجاوزُ حدَّ الكفايةِ، ويُحظى بالمالِ الدثِرِ والنِّعمِ الخطيرةِ، وهي الصَّنائعُ الخاصةُ، وإذا تُؤُمِّلَ ما هذه صفتُه ُ منها عُلِم أنَّه ليس منها ما يلحقُ بصناعةِ الكتابةِ ولا يساويها في هذا النوعِ، ولا يُكسبُ ما تكسبُه من الفوائدِ والمَعَاونِ مع حصولِ الرَّفاهيةِ ومجانبةِ التَّبذُّلِ والتَّنزهِ عن دنايا المكاسبِ، ولا ما يُوصلُ إلى ما توصلُ إليه من الحظوة و رفاغةِ العيشِ ومشاركةِ الملوكِ المستعبدينَ للكافةِ، في المساكنِ الفسيحةِ، والملابسِ الرقيقةِ، والمراكبِ الجميلةِ، والدوابِ الفرهةِ، والخدمِ والحشمِ، وغيرِ ذلك من الأدواتِ الملوكيةِ"[٣]، فالصناعات متفاوتة في الرفعة والضعة، وأكثر الصناعات علوّاً في منزلتها صناعة الكتابة، التي تمنح صاحبها رفعة وحظوة ورفاهية تجعله يشارك الملك كل شيء.

ويقول ابن الصيرفي مبيناً منزلة الكتابة، متمثلة بالكتَّاب، التي تأتي بعد الملوك مباشرة مثلها مثل الوزارة: "فإنِّي وجدتُ اللهَ، سبحانَه، قد جعلَ الخليقةَ أطواراً يفتقرُ بعضُها إلى بعض، ويكونُ تباينُ مراتبِها ومنازلِها سبباً لعمارةِ الأرضِ، فجعلَ الأنبياءَ أعلى الآدميينَ محلّاً وشأناً، والأئمةَ من بعدِهم أفخرَهم رتبةً وأرفعَهم مكاناً، والملوكَ الإسلاميينَ أشرفَهم منزلةً وأعلاهم سلطاناً، ووزراءَهم وكتَّابَهم الناهضينَ بأعبائِهم والموازينَ لهم في رخائِهم وولائِهم أسمحَهم ذكراً وأرجحَهم ميزانا"[٤]، ويؤكد الملك المؤيد[٥] ترتيب منزلة الكتابة والكتَّاب وأهميتها بعد الخلافة في قوله: "الكتابةُ أشرفُ مناصبَ الدنيا بعدَ الخلافةِ، إليها ينتهي الفضلُ وعندَها تقفُ الرغبة"[٦]،

---

(١) من كتَّاب الإنشاء في الدولة الفاطمية، وله في مصطلح الإنشاء كتاب مواد البيان، وكثيراً ما ينقل عنه صاحب صبح الأعشى. ( ينظر: أحمد الأسكندري وآخرون، المنتخب من أدب العرب، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٩٤١م، ٢ : ١٠٥ هـ١ )

(٢) علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تحقيق: حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٨٢م، ٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ٥٢.

(٤) ابن الصيرفي، علي بن منجب، القانون في ديوان الرسائل ، تحقيق : أيمن فؤاد سيد ، الدار المصرية اللبنانية، ٣-٤.

(٥) أبو الفداء ابن كثير، إسماعيل بن علي بن محمود، الملك المؤيد، صاحب حماة، مؤرخ، جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين والفلسفة والطب، توفي سنة ٧٣٢هـ (ينظر: الكتبي، محمد بن شاكر، محمد شاكر (ت٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١: ١٨٣- ١٨٨).

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٦٥– ٦٦.

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد[١]، في جملة رسالة: "الكتابة أُسُّ الملك، وعمادُ المملكة، وأغصانٌ متفرقةٌ من شجرةٍ واحدة، والكتابةُ قُطْبُ الأدبِ، وملاكُ الحكمةِ، ولسانٌ ناطقٌ بالفصلِ، وميزانٌ يدلُّ على رَجَاحةِ العقلِ، والكتابةُ نورُ العلمِ، وفِدَامة[٢]العقول، ومَيْدانُ الفضلِ والعدلِ، والكتابةُ حلْيةٌ وزينةٌ ولَبُوسٌ وجمالٌ وهَيْبةٌ وروحٌ جاريةٌ في أقسامٍ متفرقة، والكتابةُ أفضلُ درجةً وأرفعُ منزلةً، ومَنْ جَهِلَ حقَّ الكتابة فقد وُسِمَ بوسمِ الغُواة الجهلة، وبالكتابةِ والكتَّابِ قامتِ السيَّاسةُ والرياسةُ، ولو أنَّ فضلاً ونُبْلاً تُصوِّرَا جميعاً تُصوِّرت الكتابةُ، ولو أنّ في الصناعات صناعةً مربُوبةً لكانتِ الكتابةُ ربَّاً لكلِّ صنعة"[٣].

وإذا أنعمنا النظر في كلام من تقدم عن الكتابة والكتّاب وجدناه شاملاً في بيان فضل الكتابة في نشأة الأمم ورقيّ الحضارات؛ فهي أساس قيام الملك، والمنظم لشؤون المملكة، وبها نمت سياستها الداخلية والخارجية، وترأست بفضل الكتابة بعضها بعضا، ومن امتلك هذا السلاح -الكتابة- فقد نال أعلى درجة، وأرفع منزلة لعلو مكانتها بين الصناعات التي فُضِّلت عليها.

ولما كانت صناعة الكتابة من بين الصناعات تحظى بمنزلة عالية ورتبة شريفة وقدّمت على غيرها، لأهميتها في نشأة الممالك؛ قُرِّب الكاتب من السلطان أو الملك، وحظي بمرتبة عالية امتاز بها عن غيره، قال علي بن خلف الكاتب: "ولعلمِ الملوكِ الحزمةِ بخطرِ هذه الصّناعةِ وأهلِها، وعائدتِهما في أمورِ السلطانِ صرفوا العنايةَ إلى الكَتَبَة، وخصُّوهم بالحظوةِ، وعرَفُوا لهم فضلَ ما جمعوه من الرأيِ والصّناعة"[٤]، وكانت ملوك الفرس تقول: "الكتَّاب نِظام الأمورِ، وجمالُ المُلْك، وبهاءُ السلطانِ، والألسنةُ الناطقة عنه، وخُزَّانُ أموالِه، والأمناءُ على رعيتِه وبلادِه، وهم أغنى الناسِ عن المُلوكِ والرَّعية، وأولاهم بالحِبَاء والكرامةِ، وأحقُّهم بمحبَّةِ السِّلامة"[٥]، وبفضل الكتابة تشبه الكتَّاب بالملوك. قال الزبير بن بَكَّار[٦]: "الكتَّابُ ملوكٌ وسائرُ الناسِ سُوقةٌ"[٧]، وقال ابن المقفع: "الملوكُ أحوجُ إلى الكتَّابِ من الكتَّابِ إلى الملوك"[٨]، ومن كلام الفضل بن أحمد: " للكتَّابِ أقرَّتِ الملوكِ، وإليهم أُلْقِيَتِ الأعنَّةُ والأزِمَّةُ، وبهم اعتصَمُوا في النازلةِ

---

(١) أبو جعفر الفضل بن أحمد بن عبد الله، أمير المؤمنين المسترشد بالله بن المستظهر بن المقتدى، بويع بالخلافة سنة ٥١٢هـ (ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، ٣: ١٧٩).

(٢) فِدامة: المصفاة والأبريق ونحوه. (ينظر: ابن منظور ٦٣٠- ٧١١هـ، لسان العرب، ط٣، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م، ١٠: ٢٠٤).

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٦٦.

(٤) مواد البيان، ٤٤- ٤٥.

(٥) المصدر نفسه،٤٥.

(٦) أبو عبد الله، الزبير بن بكّار مؤرخ وراوية صاحب كتاب "جمهرة نسب قريش وأخبارها"، توفي سنة ٢٥٦هـ (ينظر: القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر، (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، الحُلة السِّيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ط١، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م، ١: ٢٥).

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٧٣.

(٨) المصدر نفسه، ١: ٧٣.

والنَّكبةِ، وعليهم اتَّكلوا في الأهلِ، والولدِ، والذخائرِ، والعقدِ، وولاةِ العهد، وتدبيرِ المُلكِ، وقِرَاع الأعداءِ، وتوفيرِ الفيء، وحياطةِ الحريم، وحفظِ الأسرار، وترتيبِ المراتبِ، ونظمِ الحروب"[(١)].

## أقسام الكتابة الديوانية:

تتنوَّع الكتابة الديوانية بتنوع الموضوعات التي تشغلها ويجري بها القلم، إلا أنَّ من يتأمل قول القلقشندي الآتي يبصر أنَّ الكتابة لا تخرج عن أصلين مهما تنوَّعت ، يقول: " الكتابةُ وإن كثُرت أقسامُها وتعددت أنواعُها، لا تخرجُ عن أصلين: كتابةِ الإنشاءِ، وكتابةِ الأموال؛ فأمَّا كتابة ُالإنشاءِ فالمرادُ بها كلُّ ما رَجَعَ من صناعةِ الكتابةِ إلى تأليفِ الكلامِ وترتيبِ المعاني: من المكاتباتِ، والولاياتِ، والمسامَحَاتِ[(٢)]، والإطلاقاتِ[(٣)]،ومناشيرِ الإقطاعاتِ[(٤)]، والهُدنِ، والأماناتِ، والأَيمانِ، وما في معنى ذلك ككتابةِ شؤون الحُكمِ ونحوِها. وأمَّا كتابةُ الأموالِ فالمرادُ بها كلُّ ما رجعَ من صناعةَ الكتابةِ إلى تحصيلِ المالِ وصَرْفِه، وما يجري مجرى ذلك ككتابةِ بيتِ المالِ والخزائنِ السُّلطانيةِ، وما يُجبى إليها من أموالِ الخراجِ وما في معناه، وصرفِ ما يصرفُ منها من الجاري والنفقاتِ وغير ذلك، وما في معنى ذلك ككتابةِ الجيوشِ ونحوِها مما ينجرُّ القولُ فيه إلى صنعةِ الحُسَّاب"[(٥)]، ومن هذا يتضح أنّ الكتابة الديوانية حتى القرنين الثامن والتاسع الهجريين– عصر القلقشندي– لم تخرج عن أصلين ضمَّا كلَّ أشكال الكتابة الديوانية الداخلية والخارجية الصادرة عن الخلافات، والممالك، والإمارات، وهذان الأصلان كما سبق هما: كتابة الإنشاء، وكتابة الأموال.

## أهميّة كتابة الإنشاء:

لا تخفى أهمية الكتابة في تنظيم أمور الحكم والأموال في الممالك والدول، والكتابة لا تخرج، كما أفاد القلقشندي، عن كونها أصلين: كتابة الإنشاء، وكتابة الأموال، ولكلِّ أصل منهما قدر عظيم في حياة الأمم، ولكن إذا ما نظرنا فيما جاء به السلف من تراث، قاصدين المفاضلة بين الأصلين، وجدنا أنَّ أهل التحقيق في الأدب يقدّمون ويفضّلون كتابة الإنشاء على غيرها من الكتابات؛ فكتابة الإنشاء مستلزمة للعلم بكل نوع من الكتابة، ولا بدّ للكاتب أن يكون عالماً بصناعة من يَكْتُبُ له بخلاف كاتب الأموال. وكتابة الإنشاء تشتمل البيان الدَّال على لطائف المعاني التي

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٧٣.

(٢) جمع مسامحة وهي الجود والموافقة على ما أريد منه، (ينظر: البقلي، محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ٣٠٩).

(٣) وهي إما تقرير يوافق عليه السلطان أو الملك لما قرّره من سبقه، وإما زيادة على ما هو مقرر، وإما ابتداء لتقرير ما لم يكن مقرراً من قبل، (ينظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ٣٦).

(٤) أمر سلطاني مكتوب بإقطاع من أراض أو مال أو غير ذلك (ينظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ٣٣٢).

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٨٤ – ٨٥.

هي زبدة الأفكار وجواهر الألفاظ التي تتزين بها المكاتبات، وتستلزم كذلك زيادة العلم، وغزارة الفضيلة، وذكاء القريحة، وجودة الرويَّة، والأهم من ذلك اختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقربه منه وتعظيم خواصِّه[1].

ولعلّ هذا ما يفسر لنا سبب تقدير الخلفاء والملوك لكتَّاب ديوان الإنشاء وإكرامهم في مختلف العصور، ومنها العصر الفاطمي، فكاتب الإنشاء لا بدَّ أن يكون موسوعةً في مختلف العلوم والآداب، متمرّساً على الكتابة، عارفا أشكالَها، ومن يحصِّل هذا الأمر ويُوفّق أن يكون بليغاً، لا بدَّ أن ينال مرتبةً عاليةً، ويحظى بتشريف الملوك، ويُقدَّم على غيره، وهذا ما دفع الفاطميين لأن يولّوا أمرَ الكتابة إلى مَنْ تفوّق في مجالها، يقول القلقشندي: "ولمَّا وَلِيَ الفاطميّون الديارَ المصريةَ، صرفوا مزيدَ عنايتِهم لديوانِ الإنشاءِ وكتَّابِه، فارتفعَ بهم قدرُه، وشاعَ في الآفاقِ ذكرُه، ووَلِيَ ديوانَ الإنشاءِ عنهم جماعةٌ من أفاضلِ الكتَّاب وبلغائهم ما بين مسلمٍ وذمّي"[2]، فالمجال مفتوح لكل شرائح المجتمع، فلم يفرّقوا بين المسلم والذّمّي في هذا الأمر، إلا إنَّ ابن الصيرفي، وهو سابق للقلقشندي، وأحد أشهر الكتّاب الفاطميين، يؤكد ضرورة أن يكون كاتب ديوان الإنشاء متديّناً، وأن يكون دينه الإسلام؛ ويرى العلة في ذلك قرب الكاتب من الملك، وهو بمنزلة الوزير، ولا يجب أن يتخذ لهذا الأمر من خرج عن دين الإسلام[3]، ولا يبدو من هذا أنّ هنالك تناقضا بين ابن الصيرفي والقلقشندي في أمر تدين الكاتب بالإسلام في عهد الفاطميين، فقد وضح ابن الصيرفي المسألة في ذلك عندما قرن هذا الشرط بالفترة التي صنَّف بها كتابه "القانون في ديوان الرسائل" يقول: "فأولُ ما يتَجَنَّبُ الملكُ من نَهَى اللهُ جلَّ جلالُه وتقدَّسَت أسماؤه عن اتِّخاذِه وليًّا، بل الواجبُ على الإطلاق، وخاصةً بحكمِ الوقتِ الحاضر، أن لا يطَّلعُ على أسرارِهِ من يخالفُ شريعةَ الإسلامِ لقربِ دارِ العدوِّ خذلَهُ اللهُ وأباده"[4]، فابن الصيرفي يشير صراحة إلى أن ديوان الإنشاء استخدم في عهد الفاطميين الكتَّاب من غير المسلمين، ولم يميز فعلا بين المسلم والذمي، إلا أن قرب الفرنجة من الديار المصرية في عهد الفاطميين في نهاية القرن الخامس الهجري خوف الفاطميين وكتابهم من الكتَّاب الذميين وقلة أمانتهم إذا اطلعوا على أمر من أمور الدولة.

ويمكننا أن نتلمس أهمية الكتابة في ديوان الإنشاء من خلال المكانة الأدبية والاجتماعية والسياسية التي حظي بها كتَّاب الإنشاء، فهم الصفوة المثقفة في الأمة؛ إذ حصَّلوا العلوم وتفقهوا في الدين، واستوعبوا من التاريخ والسير والحكم والأمثال واللغة والشعر والعلوم الأخرى ما

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ٨٥- ٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ١: ١٣٠.
(٣) ينظر: ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ٨.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ٨.

يعجز غيرهم عن إدراكه. وإذا أنعمنا النظر في قول عبد الحميد الكاتب يخاطب الكتَّاب: "بكم يَنْتَظِمُ المُلْك، وتستقيمُ للملُوكِ أمورُهم، وبتدبيرِكُم وسياستِكُم يُصْلِحُ اللهُ سلطانَهم، ويَجتمعُ فيئُهم، وتَعْمرُ بلادُهم"(١)، لأدركنا أهمية الكتابة والكتَّاب في إدارة شؤون الدولة، فهم في هذا الأمر شركاء الخلفاء وأولي الأمر، وهم المستشارون لهم، والناطقون باسمهم، والمؤتمنون على أسرارهم، شفاعتهم مقبولة، وكلمتهم مسموعة، ولهذا نظر لهم المجتمع نظر إجلال وتعظيم حتى أنهم قُدِّموهم على قوَّاد الجيوش، يقول القلقشندي: "كفى بالكتابةِ شَرفاً أنَّ صاحبَ السيفِ يزاحمُ الكاتبَ في قلمِهِ ولا يزاحُمه الكاتبُ في سيفِهِ"(٢)، فهذا مجد سياسي واجتماعي يضاف إلى المجد الأدبي الذي ينعم به الكاتب، وسبب هذا أهمية الأمر القائم عليه وهو الكتابة، فرفعة الكاتب الأدبية، والاجتماعية، والسياسية هي في الأصل رفعة للكتابة، ولكنها تحل في من يتقن مزاولتها، فالكتابة هي أعظم الصناعات وأنبلها؛ لذا كان لا بد لممتهنها أن يكون أنبل الناس وأنبههم، ومن هنا تظهر أهمية الكتابة في ديوان الإنشاء.

## ديوان الإنشاء في مصر قبل العصر الفاطميّ:

لقد كان ديوان الإنشاء(٣) على مرِّ العصور أحد أبرز مظاهر التقدم الحضاري الإسلامي، وأكبر دليل على رقي الدول و استقرار الحكم فيها، وشكلا من أشكال التمدن التي عرفها العرب.

ومصر منذ أن دخلها الفتح الإسلامي على يد القائد عمرو بن العاص سنة ٢٠هـ /٦٤٠م وإلى أن وليها الطولونيون كانت ولاية تابعة للخلافة (٢٠هـ- ٢٥٤ هـ ) لم تعرف ديوان الإنشاء، يقول القلقشندي: "ولم يكنْ لديوانِ الإنشاءِ بالديارِ المصريةِ في هذه المدَّةِ صَرْفُ عناية"(٤). ويؤكد السُّيوطي عدم وجود ديوان للإنشاء في مصر بقوله: "وأما مصر فلم يكنْ بها ديوانُ إنشاءٍ من حين فُتحت إلى أيَّام أحمد بنِ طولون"(٥).

ويردُّ القلقشندي غياب ديوان الإنشاء عن مصر خلال عهد الولاة (٢١هـ -٢٥٤هـ) إلى أنَّ مصر طوال مدة حكم الولاة كانت ولاية تابعة لدار الخلافة متضائلة إلى جانبها، وما كان

---

(١) الرفاعي، عبد العزيز، من عبد الحميد الكاتب إلى الكتَّاب والموظفين، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م، ٤٩- ٥٠.

(٢) صبح الأعشى، ١: ٦٧.

(٣) اسم مركب من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء، أمَّا الديوان فاسم للموضع الذي يجلس فيه الكتَّاب، وهو بكسر الدال، قال النَّحاس في صناعة الكتاب: وفتحها خطأ، قال: وأصله دِوَّان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان، ويجمع على دواوين...، وأما الإنشاء فمصدر أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه واخترعه، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين: أحدهما– أنَّ الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ عنه وتُبدأ منه، والثاني– أنَّ الكاتب ينشئ لكلِّ واقعة مقالا، وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسمية له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه، لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمُّها، وربما قيل ديوان المكاتبات ثم غلب عليه هذا الاسم– ديوان الإنشاء – وشهر به واستمر عليه. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٢٣- ١٢٤).

(٤) المصدر نفسه، ١١: ٢٦.

(٥) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٨٤٩هـ). حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٨م، ٢: ٢٠٣.

يصدر عن الولاة من مكاتبات لا تحتلُّ تلك المكانة التي تحظى بها المكاتبات الصادرة عن ديوان الخلافة[١]، ويرى في موضع آخر أن هذا الأمر متعلق بتطور النظام الحياتي والإداري الذي تنتظم به الأمم بحسب قربها أو بعدها عن المراكز الحضارية، يقول: "وكان حالُ ديوانِ الإنشاءِ فيهم بحسب ما يكونونَ عليه من الحضارةِ والبداوةِ، فأوائلُ الدولِ القريبون عهدا بالبادية لا عنايةَ لهم بكتابةِ الإنشاء، وإذا استحضَرت الدولةُ صَرفتِ اهتمامَها إلى ديوانِ الإنشاء وترتيبِه"[٢]، فقيام ديوان الإنشاء لا بد له من أمرين : الأول: تنظيم إداري متطوِّر بحاجة إلى ما يرتب الأمور والمكاتبات الصادرة عنه. والثاني: لا بد لقيام ديوان الإنشاء في أية دولة وتحت أية خلافة من استقلال الحكم عن غيره؛ حتى يتعاظم أمره وأمر ما يصدر عنه، وهذا ما أكَّده الطولونيون الذين أقاموا منارَ ديوان الإنشاء في مصر، في حين ظلت مصر طوال مدة الولاية من دون ديوان للإنشاء.

وهذا الأمر لا يعني أن مصر لم تعرف الكتابة في عهد الولاة، بل وجد في مصر مجموعة من الكتَّاب الذين يكتبون للأمراء، وعرفت مصر كذلك ديوان البريد، يقول المقريزي: "وأمَّا مصر فإنَّه كان بها في القديم، لما كانت دارَ إمارة، ديوانُ البريد، ويُقال لمتولِّيه صاحبَ البريد، إليه يرجعُ ما يَردُ من دار الخلافة على أيدي أصحابِ البريدِ من الكتب، وهو الذي يُطالِعُ أخبارَ مصر، وكان لأمراءِ مصر كتَّابٌ ينشئونَ عنهم الكتبَ والرسائلَ إلى الخليفةِ وغيرِه"[٣].

وإلى جانب ديوان البريد عرفت مصر ديوان الخراج[٤]، وكان يتولاه الكتّاب المشهورون في الشام، فقد وَلَّى الخليفةُ سليمانُ بنُ عبد الملك أسامةَ بنَ زيد التنوخي الكاتب[٥] ديوان الخراج في مصر[٦]. ويتبيَّن مما سبق أنَّ مصر عرَفت ديواني البريد والخراج، ووُجِدت بعض المكاتبات التي تصدر عن هذين الديوانين، إلا أنَّ تبعية الولاية إلى الخلافة كان يمنع وجود ديوان للإنشاء؛ ولعلَّ السبب في ذلك أن وجود ديوان الإنشاء في أية بقعة يعني استقلالها عن غيرها، وكأنه ديوان

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١١: ٢٦-٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ١: ١٢٨.

(٣) المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ). المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: د أيمن فؤاد سيِّد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن،٢٠٠٢م، ٣: ٩٧.

(٤) وتجري فيه الرِّباع والمكوس (الضرائب)، وعليه حوالات أكثر المرتزقين، ويرتبط عمله بديوان الإنشاء، حيث يُعيَّن في ديوان الإنشاء كاتب، يُخرج ما يختص بديوان الخراج من الأمور التي ترد ضمن الكتب في معنى الخراج في أوراق، ويُعين فيها الكتب التي وصلت منها، وتاريخها، والجهة التي وردت منها، وينص على هيئتها، ويوجهها إلى ديوان الخراج فيُجاب عنها منه (ينظر: محمد البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ١٤٦).

(٥) من أهل دمشق، ومتولي سلطنة مصر وديوان الخراج في عهد سليمان بن عبد الملك، (ينظر: ابن سعيد، المُغرب في حُلى المَغرب- القسم الخاص بمصر، عني به وحققه: د شوقي ضيف وآخرون، فؤاد الأول، ١٩٥٣م، ١: ٧١).

(٦) الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتَّاب، ط١، (تحقيق: مصطفى السقا وآخرون)، مطبعة مصطفى الباني، ١٩٣٨م، ٥١.

البلاط في يومنا هذا؛ إذ يستعين الحاكم بديوان البلاط في ترتيب أمور الدولة، وفي الإشراف على كلِّ ما يتعلق بها من مكاتبات وغيرها داخلية كانت أو خارجية.

وما أن نصل إلى عهد الطولونيين (٢٥٤هـ-٢٩٤ هـ) وتأسيس السلطنة الطولونيَّة في الدِّيار المصرية على يد أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ حتى نبصر عصراً جديداً في حياة ديوان الإنشاء في مصر، فمنذ أن استقرَّ أحمد بن طولون بمصر واستقلَّ بها عن بغداد، وأخذ بتحقيق مآربه السياسية، وتوسعت دائرة أعماله، برزت الحاجة إلى اتخاذ مجموعة كتَّاب يخاطبون بأقلامهم الملوك والخلفاء، يقول القلقشندي: "وأحمد بنُ طولون أوَّلُ من أخذَ في ترتيبِ المُلك وإقامةِ شعارِ السلطنة بالدِّيار المصرية، ولما شمخَ سلطانُه، وارتفعَ بها شأنُه أخذَ في ترتيبِ ديوانِ الإنشاءِ لما يحتاجُ إليه في المكاتباتِ والولايات"[١]. وهذا ما يدل على عظم أمر ديوان الإنشاء ودوره في تحقيق استقرار الدولة الطولونية، كونه أساسا تُنظَّم به البلاد ويضبط به الحكم، كما أنه شكل نقطة تحول في اتجاه المكاتبات، فبعد أن كانت العيون لا تبصر إلا ما يصدر عن بلاط بغداد من مكاتبات، أصبحت في العهد الطولوني تطالع مكاتبات صادرة من الديار المصرية لا تقل قيمة عن غيرها، التي تصدر عن العواصم الإسلامية.

ويتضح لنا مما سبق أن ديوان الإنشاء يعدُّ الأساس الأول الذي يحرص الخلفاء والأمراء على تمتينه؛ لأنه متمم أساس ومثبت للحكم، وبه تترتب شؤون الدولة. فهو ضرورة لاستقرار الأمم واستحضارها وتيسيرها وضبط أمورها.

ولكي ينهض ديوان الإنشاء بالمهام الموكَّلة إليه، أدرك ابن طولون ضرورة أن يكون القائم على هذا الأمر من أفاضل الكتَّاب الموثوق ببلاغتهم وترسلهم؛ لذا لجأ إلى كتَّاب من خارج إقليم مصر، فاستكتب ابن عَبْد كَان[٢]، يقول القلقشندي: "كان مِمَّن اشتهرَ من كتَّابهم، الطولونيين، بالبلاغةِ وحسنِ الكتابة: أبو جعفر محمد بنُ أحمد بنِ مودود بنِ عَبْد كان، كاتب أحمد بن طولون، وكان مبدأ الكتَّابِ المشهورين بها"[٣]. وهو بغداديٌّ الأصل، ولكن مصر هي التي ظفرت به، وكلُّ الذين ذكروه اكتفوا بمدحه، وذِكْر كفايته وبلاغته، فابن النديم يقول: "اسمه محمد... كاتبُ

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١١: ٢٧.

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد بن مَوْدُود المعروف بابن عَبدْ كان، من الكتَّاب والمنشئين، وليَ البريد بدمشق وحمص، وصار كاتب الطولونيين بمصر، وله الرسائل المدوَّنة في عشرة مجلدات، توفى سنة ٢٧٠هـ، (ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ٣: ٢٥٥).

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٢٩.

الطولونية كـان بليغـاً مترسلاً فصيحاً ولـه ديوانُ رسـائل كبير"[١]، ويُروَى أنَّ أهل بغداد كـانوا يحسدون مصر على ابن عَبْد كَان الكاتب وطَبْطَبِ المحرر[٢].

ومن الكتّاب الذين عملوا في ديوان الإنشاء في العهد الطولـوني الحسين بن مُهاجر[٣]، الذي انتقل إلى مصر في عهد الولاة واستقر بها، ثم استكتبه أحمد بن طُولُون، وأكثر من إغداق النعم عليّه، حتى قيل: إنَّ مجموعَ ما أَخَذَهُ ابنُ مُهاجر من ابنِ طُولُون يَقْرُبُ من مائـةِ ألفِ دينـار. ومنهم أيضاً جَعْفَرُ بنُ عبدِ الغَفَّار[٤]، وجعفرُ بنُ حدار[٥]، وأحمد بن أبـي يَعْقوب[٦]، وكـان هنالك عدد من الكتَّاب ممن عملوا في ديوان الإنشاء من الوافدين من خارج مصر، فقد عمل إسحاق بن نصير البغدادي[٧]، وأحمد بن أيمن[٨]، وأحمد بن محمد الوَاسِطي[٩]، وهم جميعاً من العراق، وقد ارتحلوا إلى مصر من للعمل في ديوان الإنشاء.

وهذا دليل على نهضة ديوان الإنشاء في عهد الطولونيين، حيث أدرك أحمد بن طولـون قيمة ديوان الإنشاء التي تتأتى من مدى بلاغة وفصاحة الكتَّاب العاملين فيه، ولكثرة ما كـان يغدق على الكتَّاب، ويوسع عليهم، ويرفع مكانتهم كان يَقْدِمُ إليه الكتّـاب من العراق من أجل نيل هذه الحظوة، وهذا دليل على أنَّ ديوان الإنشـاء بمصر فـي عهد ابن طولـون ضـاهى بمرتبته ديوان الإنشاء في بغداد.

---

(١) ينظر: النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب، كتاب الفهرست، تحقيق: رضا– تجدَد، طهران، ١٩٧١م، ١٥٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ١٨.

(٣) أبو الجيش حسين بن مُهَاجِر، أحد كتَّاب ديوان البريد، عرف بحسن عقله و رجاحته، (ينظر: ابن سعيد، المُغرب في حُلى المغرب- القسم الخاص بمصر، ١: ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨).

(٤) أحد كتَّاب الإنشاء الذين اختارهم ابن طولون لنفسه، لم يكن وافياً في الكتابة، لكن ابن طولون احتمله لأنَّه مصري الأصل. (ينظر: ابن سعيد، المُغرب في حُلى المغرب- القسم الخاص بمصر، ١: ٧٤، ٨٣).

(٥) أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن حدار الكاتب، كثير الشعر، حسن البلاغة، عالم، له ديوان شعر ومكاتبات كثيرة حسنة. (ينظر: الحموي، ياقوت. معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م، ٢: ٧٩٠- ٧٩١).

(٦) متولي ديوان الخراج في عهد ابن طولون في بَرْقَة: وهي منطقة في ليبيا، عرفت بكثرة خيراتها، فتحها عمرو ابن العاص سنة ٢٦هـ، (ينظر: ابن سعيد، المُغرب في حُلى المغرب– القسم الخاص بمصر، ١٢٢).

(٧) إسحاق بن نصير البغدادي أبو يعقوب كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عَبْدِ كَان، أصله من العراق، استقل بديوان الإنشاء في عهد خُمارويه بن أحمد بن طولون، قال ابن زولاق: إنَّه مات سنة ٢٩٧هـ. (ينظر: الحموي، معجم الأدباء، ٢: ٦٢٨- ٦٢٩).

(٨) كاتب أحمد بن طولون، عرف بكبر جثته وحسن إيقاع صوته، (ينظر: ابن سعيد، المُغْرب في حُلى المَغرب– القسم الخاص بمصر، ١: ١٠٩، ١١٢).

(٩) كاتب أحمد بن طولون، وموضع ثقته، دخل مصر مع ابن طولون سنة ٢٥٤هـ، وهو شاب (ينظر: المصدر نفسه، ١: ٧٥، ٧٦، ٨٣، ٨٤، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٩- ١٢٦، ١٢٨، ١٣١).

ومع براعة هؤلاء الكتَّاب، إلا أنَّ أحمد بن طولون كان يفضِّل الكاتب المصري الأصل على الكاتب غير المصري، ويرى أن الكاتب المصري حريص على خدمة الوالي وحمايته، وعلى مصلحة البلاد وجبايتها أكثر من غيره[١].

أما في عهد خُمَارويه بن أحمد بن طولون[٢]، فقد تولَّى ديوان الإنشاء إسحاقُ بنُ نصير البغدادي الذي قدم من العراق، فالتمس به ابن عبد كان البلاغة والترسل، واستخدمه في الردِّ على المكاتبات، فلم يزل مع ابن عبد كان إلى أن توفي سنة ٢٧٠هـ، فترأَّس ديوان الإنشاء بعده علي بن أحمد المـاذرَّائي[٣]، وألزم إسحاق بن نصر البغدادي منزله، ولكن المـاذرَّائي لم يكن موفّقاً في الكتابة في حضرة خُمَارويه، فاستخدم بدلاً منه على الديوان إسحاق بن نصر البغداديّ، وطلب منه أن لا يفارقه، وصرف له مرتباً شهرياً وصل إلى ألف دينار، وبقي على هذا إلى أن توفى سنة ٢٩٧ هـ.

وهذا دليلٌ على أن كاتب الإنشاء في العصر الطولوني كان يحظى بمرتبة عالية، وشهرة في فنِّ الإنشاء، ومما ساعد ابن عبد كان ليحتلَّ مثل هذا المنصب بين الكتّاب، ليكون زعيماً لهم في مصر آنذاك؛ عمله في ديوان البريد بدمشق، وانتقاله للعمل في حمص، فاكسبه كثيراً من النُّظم الكتابيَّة، والثقافة الديوانية، التي تعينه على النهوض بديوان الإنشاء.

والجدير بالذكر أن الكتَّاب الذين عُرفوا في عهد الطولونيين وقبلهم هم من الذين اشتهروا بالكتابة وعملوا بها خارج مصر، فسليمانُ بنُ عبد الملك أسامةُ بنُ زيد التنوخي الكاتب من أهل دمشق، وابن عبد كان من بغداد، والمراد من هذا أن مدرسة الكتابة الطولونية في مصر، على يدي هذين الكاتبين وغيرهما، لم تخرج عن حدود المدرسة البغدادية ونظم كتابتها.

وفي عصر الإخشيديين خفت صوت ديوان الإنشاء من جديد، وعاد إلى ما كان عليه قبل أن يدخل أحمد بن طولون مصر- عصر الولاة السابق- فلا نجد كاتباً مشهوراً يمكن أنْ يَحِلَّ في مرتبة ابن عبد كان، الذي باهى به ابن طولون كتَّاب بغداد. و كان زعيم الكتَّاب في العصر الإخشيدي إبراهيم بن عبد الله النُّجَيْرِمِيُّ[٤]، وَوُصِف بأنه كان نحوياً كلفاً بالعلوم العربية الخالصة،

---

(١) ينظر: محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، ١٩٨-٢٠٠.

(٢) أبو الجيش خُمَارَويه بن أحمد بن طولون، والي مصر في أيام المعتمد على الله، تولاها بعد وفاة أبيه، وهو ابن عشرين عاماً، عُرف بحسن خطه، قتل سنة ٢٨٢هـ على يد غلمان له في دمشق. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢: ٢٤٩– ٢٥١).

(٣) أبو بكر محمد بن علي البغدادي الماذرَّائي، كاتب، محدث، من الوزراء، وزر لخمارويه صاحب مصر، وعاش نحو تسعين عاماً، ولد سنة٢٥٨هـ، وتوفي سنة ٣٤٥هـ. (ينظر: ابن سعيد، المُغرب في حلى المغرب- القسم الخاص بمصر، ١: ٣٥٠-٣٥٣).

(٤) أبو إسحاق النحوي اللغوي، سمي بـ النَّجِيرمِيّ نسبة إلى نَجيرِم، ويقال: نجارم، وهي موضع بالبصرة. (ينظر: الحموي، معجم الأدباء، ١: ٨٧– ٨٨).

وكـان لهذا أثـر فـي كتاباتـه، كمـا أنَّـه عـالم بوجوه العربيـة[١]، وظلَّ النُّجَيْرِمِـيُّ يعمـل فـي خدمـة الإخشيديين حتى اتصل بكافور الإخْشِيْدِي[٢].

ومن الكتَّاب الذين عرفوا في عصر الإخشيديين أيضـاً: محمد بن كَلا[٣] الذي كـان يكتب لهم، وقد كان موضع ثقة الإخشيد ورسوله إلى العراق[٤].

**ديوان الإنشاء في مصر في العصر الفاطميّ:**

لما تولى الفاطميون أمر الديار المصرية، وقع الاهتمام بديوان الإنشاء، يقول القلقشندي: "ولما وليَ الفاطميونَ الديارَ المصريةَ، صرفوا مزيدَ عنـايتِهم لـديوانِ الإنشـاءِ وكتَّابِـه، فـارتفع بهم قدرُه، وشـاع فـي الآفـاق ذكـره"[٥]. ومـن هـذا يتضـح لنـا أنَّ الفـاطميين أدركـوا قيمـة وجـود ديـوان للإنشاء في تثبيت مملكتهم في تلك الديار، فأولوا اختيار الكتَّاب المرتبة الأولى من العناية، ولعلَّ الغرض من ذلك حاجتهم لمن يدافع عن مذهبهم، ويمكِّنه في قلوب النـاس، فكـانوا لا يولُّـون عليـه إلا أجلَّ الكتَّـاب وبلغـائهم، هـذا الانتقـاء أهَّـل ديـوان الإنشـاء الفـاطمي ليكـون المنـافس الأول بـين دواوين الإنشاء الموجودة آنذاك .

ويشير المقريزي إلى البداية التي استقل بها ديوان الإنشـاء فـي العصـر الفـاطمي، وأصـبح مؤسسة قائمة بذاتها، يقول: " فلمَّـا صـارَتْ مصـرُ دارَ خلافـةٍ، كـانَ القائـدُ جـوهرُ[٦] يوقـعُ[٧] علـى قصصِ الرافعينَ، إلى أن قَدِمَ المُعِزُّ لدين الله[٨]، فوقَّع وجَعَلَ أمـرَ الأمـوالِ ومـا يتعلـقُّ بهـا ليعقـوب ابـن كِلِّس[٩]، فلمَّـا كانـت أيـامُ المستنصـرِ بـالله أبـي تمـيم مَعَدِّ بـنِ الظـاهر[١٠]، صَـرَفَ أبـا جعفـر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٧: ٩.

(٢) أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي، كان عبداً لبعض أهل مصر، اشتراه سيده أبو بكر محمد الإخشيد، فاهتمَّ به حتى صار من كبار القوَّاد، عرف بحزمه، وتعقله، وحسن تدبيره للأمور. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤: ٩٩- ١٠٥).

(٣) كاتب الإخشيد بدمشق، انتقل إلى القاهرة بأمر من الإخشيدي ليتلمس له ولاية مصر، وهو أخص الناس به. (ينظر: ابن سعيد، المُغرب في حُلى المغرب- القسم الخاص بمصر، ١: ١٦٥).

(٤) محمد كامل حسين، أدبنا العربي في عصر الولاة، ١١٥.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٣٠.

(٦) أبو الحسن جوهر بن عبد الله القائد المعزي، المعروف بالقائد الرومي، كان من مولى المعز العبيدي، دخل مصر سنة ٣٥٨هـ، وهو أول من أذن بـ "حي على خير العمل" في مصر، وهو من بَنَى القاهرة، وصاحب الجامع الأزهر. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١: ٣٧٥- ٣٨٠).

(٧) من التوقيع على حواشي القصص، وظهورها، كالتوقيع بخط الخليفة، أو السلطان، أو الوزير، أو صاحب ديوان الإنشاء، أو كتَّاب الدست، أو من جرى مجراهم، مما يعتمد في القضية التي وقِّعت القصة بسببها. (ينظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ٧٨)

(٨) مَعَدُّ بن إسماعيل، أوَّل الخلفاء الفاطميين في مصر، ورابعهم من المهدي، وإليه تنسب القاهرة، ولد سنة ٣١٩هـ، وتوفى سنة ٣٦٥هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ : ٢٢٤ – ٢٢٨).

(٩) أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كِلِّس، وزير العزيز نزار بن المعز العبيديّ صاحب مصر، يهودي الأصل، ولد ببغداد سنة ٣١٨ هـ، ونشأ بها وتوفي سنة ٣٨٠هـ بعد مرض شديد، وهو أول من وَزَر للدولة الفاطمية في الديار المصريّة. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧: ٢٧- ٣٤).

(١٠) خامس الخلفاء الفاطميين في مصر وثامنهم من المهدي، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر لإعزاز دين الله، ولد سنة ٤٢٠هـ ، وتوفى سنة ٤٨٧هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥: ٢٢٩- ٢٣١).

المغربي(١)عن وزارتِهِ، وأَفردَ له ديوانَ الإنشاءِ، فَوَلِيَهُ مدَّة طويلةً، وأدرَكَ أيامَ أميرِ الجيوشِ بدرٍ الجمالي(٢)، وصارَ يلي ديوانَ الإنشاءِ بعدَهُ الأكابرُ إلى أنْ انقرضَتْ الدولة وهو بيد القاضي الفاضلِ عبدِ الرَّحيمِ بنِ علي البيسانيِّ(٣)"(٤)، فالبداية الحقيقة لديوان الإنشاء التي استقلَّ بها عن البريد، وأصبح مؤسسة إدارية تنتظم فيها أمور الدولة، كانت في عهد المستنصر بالله، عندما صَرَفَ وزيره أبا جعفر عن الوزارة، وولاه ديوان الإنشاء. ونلمح من قول المقريزي أنَّ منصب متولي ديوان الإنشاء بعد تولية أبي جعفر المغربي خُصَّ به أكابر رجالات الدولة الفاطمية، وهذا ما يعني أنَّ الكتابة كانت قبل ذلك جزءاً من مهمات الدولة التي يُكلَّف بها من يتقنُها، ولم تكن مستقلة بديوان خاص بها.

ويورد القلقشندي أسماء مجموعة من أفاضل الكتَّاب الذين تولّوا ديوان الإنشاء في عهد الفاطميين، يقول: "وَوَلِيَ ديوانَ الإنشاءِ عنهم جماعةٌ من أفاضلِ الكتَّابِ وبلغائهم: ما بينَ مسلمٍ وذميٍّ، فكتبَ للعزيزِ باللهِ ابنِ المُعزِّ(٥) أبو المنصور بن سُوردينَ النصرانيّ(٦)، ثمَّ كتبَ بعده لابنِهِ الحاكمِ(٧) وماتَ في أيامِهِ، فكَتَبَ للحاكمِ القاضي أبو الطاهِرِ البَهزَكِي(٨)، ثم كتبَ بعده لابنِهِ

---

(١) أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المغربيّ، وزير المستنصر، صرف عن الوزارة سنة ٤٥٢هـ، وهو أوَّل من تولَّى كتابة السر في ديار مصر، توفى سنة ٤٧٨هـ. (ينظر: ابن مُيَّسر، تاج الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف، ( ت٦٧٧هـ). المنتقى من أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٠م، الصفحات ١٨، ٢٢، ٢٥، ٤٧).

(٢) بَدْر بن عبد الله الجمالي، وزير المستنصر، أرمنيّ الأصل، استدعاه المستنصر بالله في أعقاب الشدة العظمى، وبتولي بدر وزارة السيف والقلم، بدأ عصر الوزراء العظام، ولم يبقَ للخلفاء إلا الخطبة. (ينظر: المصدر السابق، ٥٢، هـ ٢٠٨).

(٣) أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف البيساني وقيل العسقلاني، لقب بمجير الدين، وكان وزيراً للسلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، تفوَّق في صناعة الإنشاء، ولد في عسقلان سنة ٥٢٩هـ، توفّي في القاهرة سنة ٥٩٦ هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣: ١٥٨- ١٦٣، والأصفهاني، العماد، (ت٥٩٧هـ). خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر)، تحقيق: إحسان عباس وآخرون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١: ٣٥-٤٥).

(٤) الخطط ، جـ٣ : ٩٨.

(٥) أبو المنصور نزار بن المعز بن المنصور بن المهدي العبيدي، ثاني الخلفاء الفاطميين في مصر وخامسهم من المهدي.( ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥: ٣٧١– ٣٧٦).

(٦) بشر بن عبيد الله بن سُورِين، تولى ديوان الإنشاء منذ أواخر عهد العزيز بالله إلى السنة التي توفّي بها ٤٠٠هـ، ويقال: ابن سورين كان كاتبا للحاكم أيضاً، وقد بالغ الناس في استحسان ما كتبه عن الإمام الحاكم إلى عامل القدس: "وقد خرج الأمر عن حضرة الإمامة بأن تسير إلى قمامة، فتجعل طولها عرضاً، وسماءها أرضا"، فذكر ابن الصيرفي أن اختصر من هذا ما قاله: "سر إلى قمامة فعجل لها القيامه". ( ينظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ١٧٩، والنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة - القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب، ، ٢٤٨ – ٢٤٩، والشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ١٤٨، هـ١).

(٧) أبو علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي ، الملقب بـ الحاكم بأمر الله، ثالث الخلفاء الفاطميين في مصر وسادسهم من المهدي، ولد سنة ٣٧٥هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥: ٢٩٢– ٢٩٨).

(٨) محمد بن رجاء أبو الطاهر، وَلِيَ القضاء بعد محمد بن عبد الله الحاكم، فلم يزل إلى أن مات سنة ٤٩٣ هـ. (ينظر: ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: د علي محمد عمر، ط١، الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م، ٣٧٥).

الظاهر[١]، وكتبَ للمستنصرِ القاضي وليُّ الدين بنُ خَيرَان[٢]، ثمَّ وليُّ الدولةِ موسى بنُ الحسنِ[٣] قبلَ انتقالِهِ إلى الوزارة، وأبو سعيد العميدي[٤]. وكتبَ للآمرِ[٥] والحافظِ[٦] الشيخُ الأجلُّ أبو الحسنِ عليُّ بنُ أبي أسامةَ الحلبي[٧]، إلى أن توفّي سنةَ اثنتين وعشرين وخمسمائة، فكتبَ بعدَهُ ولدُهُ الأجلُّ أبو المَكَارِم[٨] إلى أن توفى في أيَّامِ الحافظ، وكانَ يكتبُ بينَ يديهِمَا الشيخُ الأمينُ تاجُ الرئاسةِ أبو القاسمِ عليُّ بنُ سليمان بن منجد المبصري المعروف بابنِ الصيرفيّ[٩]، والقاضي كافي الكفاةِ محمودٌ بنُ القاضي الموفَّقِ أسعدُ بنُ قادوس[١٠]، وابنُ أبي الدَّم اليهوديّ[١١]، ثمَّ كَتَبَ الشَّيخ أبى المَكَارِم بن أبي أسامةَ- المتقدِّم ذكرُهُ- القاضي الموفَّقُ ابن الخَلَّال[١٢] أيَّامَ الحافظِ وإلى

---

(١) أبو هاشم علي بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله، رابع الخلفاء الفاطميين في مصر وسابعهم من المهدي، ولد بالقاهرة سنة ٣٩٥هـ، وتوفى سنة ٤٢٧هـ. ( ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣: ٤٠٧- ٤٠٨).

(٢) ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي بن أحمد بن خيران الكاتب المصري، وصاحب ديوان الإنشاء للظاهر والمستنصر، كان رزقه في كل سنة ثلاثة آلاف دينار، كان شابا حسن الوجه، جميل المروءة، واسع النعمة، ونظمه ونثره قد دوِّنا؛ إذ هما أعلى ما يدوّن، توفّي في رمضان ٤٣٢هـ. (ينظر: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ٢٤٤– ٢٤٨، و الحموي ، معجم الأدباء، ١: ٣٨٠-٣٨٤).

(٣) بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسن من كبار موظفي الدولة الذين تقلبوا في المناصب المختلفة، تولى الشرطة السفلى، ثم صار واليا على الصعيد سنة ٤١٢هـ، ثم ولى ديوان الإنشاء، قتل سنة ٤١٣ هـ. ( ينظر: ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ٦٦، و المناوي، د محمد حمدي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف بمصر، ٢٥١)

(٤) من أفاضل الكتَّاب وبلغائهم تولّى ديوان الإنشاء في مصر أيام المستنصر، له تصانيف في الأدب، توفي سنة ٤٣٣هـ. (ينظر: الحموي، معجم الأدباء، ٥: ٢٣٤٨– ٢٣٤٩، والقلشندي، صبح الأعشى، ١: ١٣٠).

(٥) أبو علي المنصور بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي، سابع الخلفاء الفاطميين في مصر وعاشرهم من المهدي، ولد سنة ٤٩٠هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥: ٢٩٩).

(٦) أبو الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم المهدي، ثامن الخلفاء الفاطميين في مصر والحادي عشر من المهدي، ولد سنة ٤٦٧هـ وتوفّي سنة ٥٤٣هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣: ٢٣٥- ٢٣٦).

(٧) أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن ابن أبى أسامة، الحلبي الأصل المصري الدار، صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الآمر، توفي سنة ٥٢٢هـ. ( ينظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ٩٠، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٣٠).

(٨) أبو المكارم بن علي بن أحمد بن أبي أسامة، متولي ديوان الإنشاء بعد أبيه في أيام الحافظ لدين الله الفاطمي. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١١: ١٢٩).

(٩) علم الرؤساء ابن الصيرفي أبو القاسم علي بن منجب كاتب إمامهم الآمر وغيره من خلفاء مصر. ( ينظر: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ٢٥٢- ٢٥٤).

(١٠) القاضي المفضل كافي الكفاة أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن حميد الدمياطي، أحد كتَّاب الإنشاء في بلاط الحافظ توفى سنة ٥٥٣هـ.(ينظر: الخريدة– قسم شعراء مصر، ١: ٢٢٦-٢٣٤، و ابن ميسر، المنتقى من أحبار مصر، ١٥٧).

(١١) أحد كتَّاب الإنشاء في عهد الآمر بأحكام الله. ( ينظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ١١٢).

(١٢) أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخَلَّال الملقب بالموفق، صاحب ديوان الإنشاء في عهد الحافظ، توفي سنة ٥٦٦هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٧: ٢١٩– ٢٢٥، والأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ). والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط ٢ ، مركز تحقيق التراث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥م ، ٥ : ٢٩٤، والنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ٢٦١ – ٢٦٢، والخريدة – قسم شعراء مصر، ١: ٢٣٥-٢٣٧).

آخرِ أيَّامِ العاضد(١)، وبه تخرَجَ القاضي الفاضل البَيْساني، ثم شرَّك العاضدُ مع الموفق بن الخلال في ديوان الإنشاء القاضي جلالَ الملك محمود بنِ الأنصاري وكان في أيامه القاضي المؤتمن كاسيبويه(٢). ثم كتب القاضي الفاضلُ بينَ يدي الموفق بنِ الخلال قربَ وفاته في سنةِ ستٍّ وستينَ وخمسمائة في وزارةِ الملك الناصرِ صلاح الدين يوسف بنِ أيوب، وكتب من إنشائِه عدةَ سجلاتٍ ومكاتباتٍ عن العاضد آخرِ خلفائهم"(٣).

ولا يمكننا الاعتماد على نصِّ القلقشندي في ذكر مَنْ تولّى ديوان الإنشاء أو عمل به كاتبا، فابن الصيرفي يورد لنا أنَّ أبا الحسن طاهر بن وَزِير الذي خدم في مصر كاتبا في ديوان الإنشاء في عهد المستنصر، وهو من أهل طرابلس الشام تولى ديوان الإنشاء(٤).

ويأتي المقريزي كذلك بغير الذين ذكرهم القلقشندي في نصِّه، وكان لهم نصيب في تولي الديوان أو الكتابة، فيذكر لنا أن أبا عبد الله الحسين بن جوهر القائد تولَّى ديوان البريد والإنشاء في عهد الحاكم الفاطمي(٥)، وكذلك خطير الملك عمار بن محمد(٦) تولى ديوان الإنشاء في عهد الحاكم وبقي فيه حتى زمن الظاهر، إلى أن جاء ابن خيران وتولَّى الديوان ثم صرف عنه، وتولَّى أمره بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسن(٧).

ومن الكتَّاب يذكر المقريزي أبا الحسن طاهر بن الوزير الطرابلسي أحد الذين تولوا الوزارة في عهد المستنصر الفاطمي، وكان كاتباً في ديوان الإنشاء(٨)، وسناء الملك محمد بن محمد الحسيني أحد كتَّاب ديوان الإنشاء في عهد المستعلي الفاطمي(٩)، واستمرَّ فيه إلى أن توفي في خلافة الحافظ الفاطمي(١٠)، ومن الذين كتبوا في ديوان الإنشاء وأطلق عليه كاتب الدَّست في العهد الآمري الشيخ الأجل علي بن أحمد بن الحسن ابن أبي أُسامة(١١).

---

(١) أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن منصور بن نزار بن المنصور بن القائم بن المهدي، عاشر الخلفاء الفاطميين في مصر والرابع عشر من المهدي، ولد سنة ٥٤٤هـ وتوفّي سنة ٥٦٧هـ. (ينظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٥: ٣٣٤).

(٢) علي بن محمد، من صدور الكتَّاب في مصر، نال مكانة في الدولة المصرية، آواه القاضي الفاضل لما انقرضت تلك الدولة ودافع عنه، واستوزره الملك عز الدين فرُّخْشَاه بن شاهنشاه بن أيوب وأغناه، وهو ذو جاه عريض. (ينظر: الخريدة، ١: ٥٤ – ٥٦ ، والنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ٢٦٤– ٢٦٦).

(٣) صبح الأعشى، ١: ١٣٠، و السيوطي، حسن المحاضرة، ٢: ٢٠٨.

(٤) ينظر: ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزراة، ٩٢.

(٥) ينظر: اتعظا الحنفا، ٢: ٦.

(٦) الأمير الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسين عمار بن محمد. (ينظر: الإشارة إلى من نال الوزارة ،٦٥).

(٧) ينظر: اتعظا الحنفا، ٢ : ١٢٨.

(٨) ينظر: المصدر نفسه، ٢: ٣٣٣.

(٩) ينظر: المصدر نفسه، ٢: ١٢-١٣.

(١٠) ينظر: المصدر نفسه، ٣: ١٨٥.

(١١) ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٦١، ٨١.

و يذكر من الكتَّاب الفاطميين الجليس بن الجَبَّاب[١] الذي تولَّى ديوان الإنشاء إلى جانب الموفق بن الخلال في وقت الفائز الفاطمي[٢]، ومن الكتَّاب الفاطميين أبو الرضا سالم بن علي بن أبي أسامة، الذي خلف أباه على بن أبي أسامة في مدة الآمر الفاطمي[٣].

ومن الذين كتبوا في عهد الفاطميين واشتهروا ابن أبي الشخباء[٤] صاحب الرسائل الذي كتب في عهد المستنصر الفاطمي.

ومنهم علي بن خيران وهو أحد الكتّاب المشهورين في العهد الفاطمي الذي كتب في عهد الظاهر ثم المستنصر الفاطميين، وكانت رزقه في كل سنة ثلاثة آلاف دينار، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهود وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شيء يحسبه[٥]. وتولَّى ديوان الإنشاء في مصر ابن مَمَّاتي[٦] أحد الكتّاب الفاطميين في عهد المستنصر، وأبو جعفر المغربي متولي ديوان الإنشاء في عهد المستنصر[٧].

## أثر ديوان الإنشاء في الكتابة في العصر الفاطميّ:

نال كاتب الإنشاء مرتبة مرموقة في الدولة الفاطمية تتناسب وحاجتها لكلِّ بليغ فصيح، يقول ابن الصيرفي فيمن يتولى الكتابة في ديوان الإنشاء: "فإنَّه بمنزلةٍ كبيرةٍ، ورتبةٍ خطيرةٍ يتحكمُ بها في أرواحِ النَّاسِ وأموالِهم"[٨]، وقد نال كاتب الإنشاء جاهاً وثراءً بقلمه لم ينله غيره بسيفه، يقول المقريزي واصفاً المكانة الاجتماعية لكاتب الإنشاء: "وهو أوَّلُ أرْبابِ الإقطاعاتِ وأرْبابِ الكُسْوَةِ والرُّسومِ والمُلاطفاتِ[٩]، ولا سبيلَ أن يدخلَ إلى ديوانِه بالقصرِ، ولا يجتمعَ بكتَّابِه أحدٌ إلا الخَواصُّ، ولـه حاجبٌ من الأمراءِ الشيوخِ وفرَّاشون، ولـه المرتبةُ الهائلةُ، والمَخَادُ، والمَسْنَدُ،

---

(١) القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الجَبَّاب من ذرية بني الأغلب التميميين سلاطين إفريقية ، عُرف بشعره ونثره، تولّى ديوان الإنشاء للفائز مع الموفق أبي الحجاج، مات في مصر سنة ٥٦١هـ، ينظر : الخريدة- قسم شعراء مصر ١: ١٨٩– ٢٠٠، و النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ٢٥٤- ٢٥٩، و أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزِّيبق، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م ، ٢: ٦).

(٢) ينظر: نفسه، ٣: ٢١٦، و الأصفهاني، العماد، خريدة القصر وجريدة العصر( قسم شعراء مصر)، ١: ١٨٩-٢٠٠.

(٣) ينظر: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ٢٤٩– ٢٥٠، الخريدة– قسم شعراء مصر، ٢: ٦٥– ٦٦).

(٤) الحسن بن محمد بن عبد الصمد بن أبي الشخباء أبو علي العسقلاني صاحب الرسائل مات سنة ٤٨٢هـ معتقلا في مصر في خزانة البنود وكان يلقب بالمجيد ذي الفضيلتين، أحد البلغاء الفصحاء الشعراء، له رسائل مدونة مشهورة، قيل إن القاضي الفاضل منها استمدّ وبها اعتدّ. (ينظر: الحموي، معجم الأدباء، ٣: ٩٩٩-١٠١٢).

(٥) ينظر: الحموي، معجم الأدباء، ١: ٣٨١.

(٦) أسعد بن مهذب بن زكريا بن قدامة بن مِينا شرف الدين مماتى أبو المكارم بن سعيد بن أبي المليح الكاتب المصري، كان جوادا ممدوحا وزير مصر أيام الخليفة المستنصر بالله. (ينظر: المقريزي، الخطط ٣ :٥٣١ )

(٧) ينظر: نفسه، ٣: ٩٨.

(٨) القانون في ديوان الرسائل، ٧.

(٩) أو الملطفات، ومعناها الرسائل، وكانت تكتب عادة للأمراء للترضية والمدح، أو التغرير و التأمين تمهيداً لما يزعمه لهم السلطان من عقوبة أو قتل، وكانت الملطفات تكتب بقلم الغبار. (ينظر: محمد البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ٣٢٧).

والدَّواةُ[١] لكنَّها بغيرِ كرسي، وهي من أخَصِّ الدُّوى، ويحملُها أستاذٌ من أستاذي الخليفة"[٢]، كما أنه أصبح أقرب الناس إلى الخليفة والملك، يستشيره في جلِّ أموره، ويودعه أسراره، حتى أنه لا يستغنى عنه لا في ليل ولا في نهار، يقول المقريزي: "وإليه تُسلَّمُ المكاتباتُ الواردةُ مختومةً فيعرضها على الخليفةِ من يَدِه، وهو الذي يأمرُ بتنزيلِها والإجابةِ عنها للكتَّاب، والخليفةُ يستشيرُه في أكثرِ أمورِه، ولا يُحجبُ عنه متى قصدَ المثولَ بينَ يديه، وهذا أمرٌ لا يصلُ إليه غيرُه، وربما باتَ عندَ الخليفةِ ليالي، وكان جاريه مائةً وعشرين دينارا في الشهر"[٣]، فقد شرَّف الفاطميون الكتَّاب البلغاء فأغدقوا عليهم من العطاء وأحلُّوهم مكانة اجتماعية تنافس عليها الكتَّاب، فكلٌّ من آنس من نفسه القدرة والبلاغة، ودرَّب قلمه ونفسه على مكاتبة الخلفاء ومجالستهم ، سعى لنيل هذا الشرف.

وقد ترك التنافس بين الكتَّاب لمثل هذه المكانة أثراً واضحاً في تطور أساليب الكتابة بين الكتاب، فكلٌّ كاتب يحاول أن يقدم أسلوباً كتابياً أكثر فصاحة وبياناً، يتفوق به على غيره من الكتَّاب، ويقدمه لينال التشريف والحظوة التي خص بها الفاطميون الكتَّاب.

ومن أراد أن يحظى بتلك المكانة، التي مني بها كاتب الإنشاء، لينعم بذاك العطاء، لا بدَّ له من إعداد طويل يستغرق سنوات من التحصيل والمران. فعليه أن يأخذ بجميع الآداب والعلوم ليستطيع أن يتجاوزَ أقرانَه في هذا الميدانِ. يقول ابن الصيرفي في حديثه عن متولي الكتابة: "ويجبُ أنْ يكونَ من البلاغةِ والفصاحةِ إلى أعلى رتبةً وأسنى منزلةً، وبحيث لا يوجدُ أحدٌ في عصرِه يفوقُه في هذا الفنِّ؛ فإنَّه لسانُ السلطانِ الذي ينطقُ به، ويدُه التي يكتبُ بها. ورُبَّ كاتبٍ بليغٍ أصابَ الغرضَ في كتابته فأغنى صاحبَه عن الكتائبِ، وأعملَ القلمَ فكفاهُ إعمالَ البيضِ القواضب"[٤]، فهذا إشارة واضحة لابن الصيرفي أحد أعلام الكتابة في العصر الفاطمي، يؤكد فيها التنافس الحاد بين الكتَّاب للوصول إلى فصاحة وبلاغة عاليتين، تجعله الوحيد الذي يستحق أن يولى أمر الكتابة والكتَّاب بين أقرانه، وينعم من ثم بميزاته الاجتماعية والسياسية التى جعلها الفاطميون بها للكتَّاب.

ولا بدَّ لمن أراد أن يتدرب على الكتابة، ويدخل مضمار التنافس من مدرسة، يحصِّل فيها تلك الثقافة الديوانية، وديوان الإنشاء هو المكان الذي يتدرب فيه الكاتب ليصل من البلاغة والفصاحة مكانة عليَّة، حيث شكَّل ديوان الإنشاء عبر العصور مدرسة يجمع فيها الكتَّاب شتى

(١) هي دواة صنعت من الذهب، وحليتها مصنوعة من المرجان على صلابته ومناعته، تُلَف في منديل شرب أبيض مذهب، ويحملها شخص من الأستاذين في المواكب أمام الخليفة. (ينظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ١٣٩).
(٢) الخطط، ٢: ٣٣٦.
(٣) المصدر نفسه، ٢: ٣٣٦.
(٤) ابن الصيرفيّ، القانون في ديوان الرسائل، ١٠.

المعارف والعلوم ويمرّنون أنفسهم على الإنشاء البليغ، حتى أصبح المؤسسة الأولى التي يُنظر إليها بين مؤسسات الدولة، وأصبح تعلم الكتابة واجباً اجتماعياً، خاصة لدى أرباب القوم، فيحدّثنا القاضي الفاضل: "إنّه كان من عادةِ أربابِ الدواوينِ في تربيةِ أبنائِهم أنَّهم كانوا يرسلونَ هؤلاءِ الأولادِ إلى ديوانِ المكاتباتِ ليتعلمَ فنَّ الكتابةِ ويتدربَ ويرى ويسمعَ، فأرسلني والدي، وكان إذْ ذاك قاضيا بثغرِ عسقلان، إلى الديارِ المصريةِ في أيامِ الحافظِ، وأمرني بالمسيرِ إلى ديوانِ المكاتبات، وكان الذي يرأسُ به في تلكَ الأيامِ رجلٌ يقالُ له: ابن الخَلّال، فلما حضرتُ الديوانَ، ومثلتُ بينَ يديه، وعرَّفتُه من أنا وما طلبي رحَّبَ بي وسهل، ثم قال: ما الذي أعددْتَه لفنِّ الكتابةِ من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أنَّي أحفظُ القرآنَ العزيزَ وكتابَ الحماسةِ، فقال: وفي هذا بلاغٌ، ثم أمرني بملازمتِه، فترددتُ عليه وتدربتُ بينَ يديه، ثم أمرني بعدَ ذلك أنْ أحلَّ شعرَ الحماسةِ فحللتُه من أولِه إلى آخره، ثمَّ أمرني أن أحلَّه مرةً ثانيةً فحللتُه"(١)، ومِثلُ هذا النص يحمل قيمة تاريخية كبيرة، ففيه إشارة على لسان رجل نال شهرة لم ينازعه عليها أحد في عهده، وهو القاضي الفاضل، الذي يروي أمرا مهمّا في سيرة حياة الكتابة العربية، فالكتابة لعلوّ شأنها أصبحت منال كبار القوم وأرباب الديار آنذاك، يدفعون أبناءهم لتعلمها؛ لأنهم يعلمون أنَّ مَنْ أصاب الكتابة فقد نال رتبة جليلة، وحسب الرواية يتضح لنا أنَّ مصر أصبحت في ذلك الحين قبلة يتوجَّه إليها كلُّ من أراد تعلُم هذا الأسلوب الكتابي.

ويتضح مما سبق أنَّ للكتابة آلات لا بدَّ لمن أراد الكتابة أن يتسلح بها، فالموهبة وحدها لا تكفي كما هي الرغبة التي لا تكفي أيضا لتعلم الكتابة، ولا بدَّ لمن أراد أن يجعل قلمه فصيحا بليغا أن يمتلك ثقافة ديوانية تعدُّه للدخول في عالم الكتابة والكتَّاب، فحفظ القرآن الكريم وأشعار العرب، والتدرب على حلِّها من أهم مواد الكاتب التي يجب أن يعدها لتعلم الكتابة .

وفي النص إشارة صريحة وواضحة إلى أنَّ ديوان الإنشاء لم يكن يعنى بإصدار المكاتبات فقط، وإنما يقوم على تهيئة الكتَّاب وفق منهج علمي، فابن الخَلّال لم يكتفِ بما جاء به القاضي الفاضل من حفظ القرآن وكتاب الحماسة، بل جعله ملازما له، يأخذ عنه أخلاق الكتَّاب التي يتصفون ويمتازون بها عن غيرهم، و يتتبعه في كل ما يكتب، ويتلقى منه الأوامر الأدبية، التي تجعل كتابته متفقة والأساليب العربية، فينال بذلك المرتبة التي بحث عنها.

ومما تقدم نرى أنَّ الكتَّاب في العصر الفاطمي يتلقون تدريبا منهجيا على الكتابة في ديوان الإنشاء، ويشرف عليهم من تفوق في هذا الفن، ودليل ذلك ما ذكره القلقشندي عندما مرَّ بذكر الكتَّاب الذين ترأسوا ديوان الإنشاء في حضرة الفاطميين، فقد أشار إلى أنَّ تاج الرياسة ابن

(١) أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الطبعة الأولى، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م، ١: ١٩٢.

الصيرفي، والقاضي الموفق أسعد بن قادووس، وابن أبي الدم اليهودي كانوا يكتبون في ديوان الإنشاء في عهد الآمر الفاطمي، وكان يشرف على مكاتباتهم الشيخ الأجل علي بن أبي أسامة وابنه أبو المكارم[١].

فديوان الإنشاء أثَّر بشكل جلي في تطوِّر الكتابة في الديار المصرية، فإلى جانب دوره في تنظيم أمور الدولة وإصدار المكاتبات الداخلية والخارجية، كان لحقبة طويلة مدرسة أدبية يجتمع فيها أعلام الكتابة وأئمة النثر العربي، وكان معهداً يتخرج فيه كلُّ من أراد أن يعملَ كاتباً. أمثال ابن أبي الشخباء، وابن الصيرفي، وابن قادووس، وابن الخَلَّال، والقاضي الفاضل وغيرهم، الذين حملوا بأقلامهم لواء الكتابة المصرية، ونافسوا بها كتَّاب عاصمة الخلافة بغداد، فبعد أن كانت الألسن لا تتناقل إلا ما يصدر عن ديوان الخلافة ببغداد، أصبحت المكاتبات الصادرة عن الديوان المصري محطَّ اهتمام الكتَّاب والمؤرخين.

ولا يقف دور ديوان الإنشاء وأثره في الكتابة الفاطمية عند حدِّ التأهيل، فقد نال أهمية سياسية وتاريخية إلى جانب الأهمية الإدارية، رفعت القيمة الأدبية والتاريخية للمكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء، فلم تعد كتابة يتفنن بها كاتب الإنشاء مُظهِراً بلاغته وفصاحته، وإنما كتابة تحمل في أحشائها فكرا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا؛ إذ حرص الفاطميون فيما يصدر عن دواوينهم على تسجيل كل دقيقة وعظيمة في سجل يخرج من الديوان[٢]، فإذا انتقلت الإمامة[٣] من إمام مضى إلى وصيّه خرج بذلك سجل من الديوان، وإذا عُيِّن شخص في إحدى وظائف الدولة خرج سجل بذلك، وإذا أرادوا تحويل السنة الخراجيَّة إلى السنة الهلاليَّة خرج سجل بذلك، وإذا ركب الخليفة في مختلف المواسم والأعياد خرج السجل بذلك من ديوان الإنشاء، وهذا ما يوجب على الكاتب أن يكون ملمّا بعلوم الأدب آخذا بكلّ فن من فنون عصره بطرف، حتى إذا وردت مسألة دينية، أو سياسية، كان مستطيعا أن يخوض فيها[٤]؛ لهذا حرص الفاطميون على أن يولُّوا ديوان الإنشاء أفاضل الكتاب، يقول القلقشندي:" وكان هذا المنصبُ لا يتولاهُ في الدولةِ الفاطميةِ إلا أجلُّ كتَّابِ البلاغة"[٥]، ونتيجة ذلك جاءت السجلات الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي

---

(١) ينظر: صبح الأعشى، ١: ١٣٠.

(٢) ينظر: د محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٥٠م، ٣١٢.

(٣) **الإمامة**، في معتقد الشيعة، هي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عن النبي محمد، صلّى الله عليه وسلّم، فهي رئاسة والناس فيها مرؤوسون، والإمامة لا تحد بحد بل هي في جميع الشؤون الدينية والدنيوية، في مجال الحكم التشريعي والتنفيذي فيما يتعلق بالإدارة والسياسة وجميع قضايا الحياة، فلها جميع مقومات وصلاحيات النبوة باستثناء ما يتعلق بالوحي ويختص بالنبي، فالإمام ليس نبيا بل نائبا عن النبي. (ينظر: المعلم، محسن علي، العقائد من نهج البلاغة، الطبعة الأولى، دار الهادي، بيروت، ١٩٩٩م، ٢٣٦- ٢٣٧).

(٤) ينظر: د أحمد أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، الطبعة الثانية، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٣٣٩.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٣٦.

منسجمة مع بلاغة أولئك الكتَّاب، قوية في أسلوبها، نلحظ فيها ثقافة الكاتب الأدبية، وسعة اطلاعه على التاريخ، ومعرفته بأمور الدين.

ولم يقف الفاطميون عند هذا الحد من العناية، بل أدركوا أهمية وجود قانون يضبط به ديوان الإنشاء، ويضع الحدود التي ترقى بالكتابة، غايتهم في ديوان الإنشاء، فجاءت محاولات بعض الكتَّاب الفاطميين بحكم بلاغتهم وخبرتهم وعملهم في ديوان الإنشاء فوضعوا العديد من المصنَّفات التي تهتمُّ به وبتنظيمه، لتكون فيما بعد مرجعا يعتمده كلٌّ من وجد في نفسه رغبة في الكتابة.

ومن أشهر الكتب التي صُنِّفت في العصر الفاطميّ، واهتمت بالكتابة الفنيَّة في ديوان الإنشاء كتاب "مواد البيان" لعلي بن خلف الكاتب. وصاحب هذا الكتاب لا نعلم عنه شيئا سوى أنه كان أحد كتَّاب ديوان الإنشاء في الدولة الفاطميّة، وله الكتاب المذكور الذي كثيرا ما نَقل عنه صاحب صبح الأعشى وغيره.(١)

وقد جاء كتاب مواد البيان في عشرة أبواب، بدأها بحديث عن فضيلة الكتابة ومنفعتها وأقسامها، متناولا بعد ذلك العلوم والآداب التي تلزم كل من أقبل على هذه الصناعة، فتحدث عن البلاغة مبينا أقسامها، والبديع وأبوابه، وما يُخرج الكتابة عن أحكام البلاغة، ومنهج السابقين في الكتابة، والخطّ وقوانينه، وأشكال المكاتبات الديوانية، وكل ما يلزم الكاتب ولم يجتمع له في مصنف واحد.

ويبين المؤلف سبب تصنيف الكتاب في الباب الأول؛ فلفضيلة الكتابة ولأنها أنبل الصناعات وأكثرها خطرا وأثرا على أصحابها، أراد أن يصنِّف كتابا جامعا لما تحتاجه هذه الصناعة من العلوم والآداب الخاصة، فيجد الكاتب فيه الفروع والأصول التي نثرها المؤلفون في مصنفاتهم مجتمعة في هذا الكتاب.(٢)

ومن المصنفات التي عنيت بتنظيم ديوان الإنشاء وعدَّت دستورا كتاب ابن الصيرفي "القانون في ديوان الرسائل"، الذي أراد منه أن يكون قانونا تُعرف به صفات من يجب أن يُولَّى رئاسة الديوان، وواجباته، ومن يأتي تلوه في المنزلة من المعاونين، والشروط التي تؤهلهم جميعا للعمل في هذا الديوان، ويبين الطرق التي يجب أن تتبع في ديوان الإنشاء لضبط أموره وتجنب وقوع الفساد أو الاختلال، ويجب على كل من يعمل في الديوان– كما يرى ابن الصيرفي– أن

(١) ينظر: مواد البيان، مقدمة المحقق، ٦– ١١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٢٦- ٢٧.

يأخذ بفهم وحفظ كل ما في هذا الكتاب، فهو دستور يستضيء بنوره كلٌّ من يعمل في هذا الديوان.[1]

ويرى ابن الصيرفيّ أنَّ أكثر الناس نفعاً من هذا الكتاب هم الملوك؛ فإنّهم متى اعتمدوه في اختيار كتَّابهم، وجاءوا– الكتَّاب - محققين لتلك الشروط التي وجبت في كلٍّ منهم كما وردت في الكتاب، أمِن بذلك من اختلال أمورٍ كثيرة في دولته، ودخول العيب على مَن في خدمته. [2]

ولعلنا نلحظ فيما يورده ابن الصيرفي من حديث عن هذا الكتاب وأهميته أمراً بالغ الأهمية، وهو أن المُلك أو الدولة تصلح بصلاح ديوان الإنشاء فيها؛ فتنظيم ديوان الإنشاء يفضي إلى تنظيم الدولة، وبصلاح كتَّابه يصلح الحكم، وهذه إشارة واضحة إلى أنَّ ديوان الإنشاء هو المؤسسة الأولى في الدولة، وأنَّ الكتَّاب هم بطانة الحاكم وأقرب الناس إليه في الدولة، وهذا ما دفع ابن الصيرفي لأن يجعل صفات الديْن والورع والأمانة أولى الصفات التي تشترط فيمن يتولى رئاسة الديوان.[3]

فأثر ديوان الإنشاء بدا واضحاً في الكتابة في العصر الفاطمي نتيجة لأهمية هذا الديوان في تنظيم حياة الأمم خاصة الفاطميين في مصر، الذين وجَّهوا عنايتهم لكل ما يتعلق بهذا الديوان، فأهَّلوا الكتَّاب البلغاء، واعتنوا بكل ما يصدر عن ديوان الإنشاء من مكاتبات خاصة ما يتعلق بالخليفة، وتحرَّوا الدقة المتناهية في اختيار بلغاء الكتَّاب، حتى إذا ثبتت بلاغتهم أغدقوا عليهم العطاء، ونالوا المرتبة الاجتماعية العالية، يتنافسون عليها بأقلامهم وتنوع أساليب كتابتهم.

كما أنَّ حرص الكتَّاب أنفسهم على الكتابة دفعهم لوضع المصنفات التي تبين الحدود التي يختار على أساسها الكاتب؛ فتوفرت فيه صفات الكاتب، وتسلح بالعلوم والآداب التي تعينه على الكتابة، كلُّ هذا وغيره دفع الكتابة في عصر الفاطميين لتكون أنموذجا كتابيَّاً ينافس النماذج الكتابية خارج الديار المصرية.

## متولّي ديوان الإنشاء:

عندما نتحدث عن متولي ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي، فإننا ندور في فلك أمرين: الأول: مكانته التي يحظى بها بين غيره من الكتَّاب، وهي مكانة عالية بين أقرانه من الكتَّاب، أساسها حسن الترسل وبلاغة اللسان، فمتولي ديوان الإنشاء، أو متولي الرسائل، كما يشير إلى ذلك علي بن خلف الكاتب في مصنفه[4]، هو من يترأس طبقات الكتَّاب، وهو لسان حال الملك

(١) ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ٦.
(٢) المصدر نفسه، ٦.
(٣) المصدر نفسه، ٧.
(٤) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٧٥.

الناطق بحجته[١]، يحظى بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة، يتحكم فيها في أرواح الناس وأموالهم[٢]، وهو من أجلِّ الكتَّاب، إذ يخاطب بالشيخ الأجل، ويقال له: كاتب الدَّست الشريف[٣]، وهو أول أرباب الإقطاعات، وله حاجب من الأمراء، وله المرتبة الهائلة[٤].

ومما سبق يتبيَّن لنا مدى العناية التي لقيها متولّي ديوان الإنشاء الفاطمي من قبل أسياده، فقد حظي بمكانة لم ينلها غيره، ولا غرابة في مثل هذا الأمر؛ فمتولي الديوان لسان حال الخليفة، وقلمه الذي تُخط به المكاتبات، ولا بدَّ أن يكون اللسان فصيحا، والقلم بليغا، حتى تتجلَّى عظمة الخليفة، وتزداد هيبته في قلوب الناس، ولا بدَّ بالتالي من هيبةٍ لأقرب الناس منه وهو متولّي ديوان الإنشاء؛ لذا فقد نال المكانة الهائلة، وحظي بإغداق الخليفة عليه من النعم، فكان مهيبا ممَّن هم دونه من الكتَّاب والناس عامة، ومهيَّئا لمجالسة الخليفة، وبثّ دعوته، والدّفاع عنه.

أما الأمر الثاني فهي صفات متوليّ ديوان الإنشاء التي يتحلَّى بها وتؤهله لمثل هذه المكانة، فعليه أن يتقدَّم الكتَّاب الذين يترأسهم بما خص به من وقار العلم، والحكمة، ورجاحة الفهم، وبعده عن الطيش وخفة الأحلام، وزلل اللسان[٥]. ويرى ابن الصيرفي أنَّ أوَّل ما يجب أن يكون عليه متولي ديوان الرسائل "أنْ يكونَ صاحبَ دينٍ وورعٍ وأمانة؛ فدينُهُ يمنعُهُ عن ارتكابِ الآثام، وورعُهُ يبتعدُ بهِ عن الفتكِ بالمحارم، وأمانتُهُ تمنعُهُ مِنْ أنْ تمتدَّ يدُهُ إلى رشوى"[٦]، ويلاحظ أن ابن الصيرفي في هذا الموضع يأتي بالصفة ثم يتبعها بعلة الاختيار، فالدين يجنب الكاتب الآثام، والورع يقصيه عن هتك المحارم، والأمانة ترتقي بالنفس عن الرشوى، كما أنه يقدم صفة الدين على البلاغة والعلم، ويؤكد في موضع آخر أن يكون دينة الإسلام، مفسرا ذلك بقوله: "ويجب أن يكون دينه الإسلام؛ لأنه من الملك بمنزلة الوزير، والوزير مشتق من الموازرة، والموازرة هي المساعدة والمعاونة والمظاهرة، ولا يجب أن يتخذ لهذا الأمر من يخرج عن دين الإسلام"[٧]؛ ولعلّ ما دفع ابن الصيرفي إلى مثل هذا التحديد هو أنَّ الفاطميين لم يفرِّقوا بين مسلم وذمّيّ في تولية ديوان الإنشاء[٨]، ووجد أن إصلاح مثل هذا الأمر واجب، خاصة في المرحلة

---

(١) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٧٥.
(٢) ينظر: ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل،٧.
(٣) من موظفي ديوان الإنشاء ، وسمي بكاتب الدَّست، إضافة إلى دست السلطان، وهو مرتبة جلوسه لجلوسهم للكتابة بين يديه، وهؤلاء هم أحقُّ كتَّاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين. (ينظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ٢٨١).
(٤) ينظر: الخطط، ٢ : ٣٣٦.
(٥) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٧٥.
(٦) القانون في ديوان الرسائل، ٧.
(٧) المصدر نفسه، ٨.
(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٢٩.

التي صنَّف كتابه فيها[١]، حيث شعر بخطر الكاتب غير المسلم على المسلمين، إذ كان العدو على مقربة من دار الخلافة، وكاتب الإنشاء مطَّلع على أسرار الملك وأسرار الدولة، فلا يُؤمَن جانبُه إن لم يكن مسلما، كما أنَّ المسلم أكثر حفاظا على الأسرار وحرصاً على مصالح المسلمين.[٢]

ولابدَّ لهذا الكاتب "أن يتمذهبَ بمذهبِ الملكِ"[٣]، فابن الصيرفي لا يكتفي في ذكر صفات متولّي الديوان بالدين وكونه الإسلام، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ليكون أكثر تحديدا حينما يجعل التمذهب بمذهب الملك من صفات متولي ديوان الإنشاء، ويشير إلى أن قرب الكاتب من الملك إلى هذا الحد يجعله مجتهدا في خدمتِهِ، مخلصاً له في نصيحتِهِ، فهما على مذهب واحد- المذهب الإسماعيلي– والملك أو الإمام له أسرار تخصّ مذهبه الذي هو عليه، ولا يجوز للمسلمين من غير هذا مذهبه أن يطلعوا على تلك الأسرار، ولهذا لا بدَّ له من كاتب على مذهبه يجنبه التحفظ على الأسرار، والحذر إن لم يكن على مذهبه.[٤]

ولما كان رئيس ديوان الإنشاء هو المستشار في جليل الأمور، فلا بدَّ أن يكون ممكنا من عقله، فإنَّه إن كان تامَّ العقل، كاملَ الرأي، وضع الأشياءَ فيما ينشئ في مواضعها، وخاطب كلَّ واحد بما يناسبه الخطاب، في الشدَّة واللين والرفعة والحِطَّة.[٥]

وفي مجال المؤهلات الأدبيَّة التي يتحلى بها رئيس ديوان الإنشاء فإنَّ عليه أنْ يكونَ بليغاً فصيحاً، لا يوجد أحدٌ في عصره يفوقه في هذا الفن، فهو لسانُ الملكِ الذي إنْ هدَّد ملأ القلوب رعباً وخوفاً، و إن شكرَ ملأ النفوسَ مسرَّة وهدوءاً، و إن عظَّم فخَّم وأحسنَ التعظيم. وينبغي له أنْ يكونَ ملماً و متمكناً بفنون الكتابة، عالماً بأصولها، وأن لا يسبقه أحدٌ إلى هذا، فإنه الأصل ُالذي يرجع إليه باقي الكتَّاب، وهو من تُعرض عليه كتبُهُم فيتصفَّحها، ويحكم عليها، وعليه أن يكونَ أكثرَهم بفنونِ الكتابةِ ونقدِها درايَة، و إن تقدَّمه أحدٌ بهذا كان أولى بمكانه منه.[٦]

وعلى متولي ديوان الإنشاء أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى، ملماً بأخبار رسوله، صلَّى الله عليه وسلَّم، راوياً لأخبارِ الملوكِ الماضين، فإنَّه أحوجُ الناسِ إلى ذلك؛ للاستشهاد بهذا في مكاتباته، وينبغي أنْ يكون عارفاً بالفقه، يعلمَ الحلالَ منَ الحرام؛ ليجيبَ متى سُئلَ عن ذلك، ويجب

---

[١] كانت طلائع الفرنجة قد وصلت إلى الشام قبل ذلك بسنوات في سنة ٤٩٢هـ. (ينظر: القانون في ديوان الرسائل، ٨، هـ٢).
[٢] ينظر: ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ٨.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٩.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٩.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٠.
[٦] ينظر: المصدر نفسه، ١٠– ١١.

أن يكون حافظاً للأشعار، راوياً للكثير منها، واجداً لها متى أرادَ الاستشهادَ بها، فربما حلَّ المنظومَ فأتى به منثوراً في طياتِ كتابِهِ، فللمنظوم أثر على النفس لا يأتي به المنثور.[١]

ويلزمه أن يكونَ ملماً بعلوم العربيَّة وتصريفها، فإنَّه بحاجة ماسة لها، ليتكلَّم بألفاظِ الفصحاء، وعلمِ البلغاء، لا يخفى عليه شيءٌ مما يجري به المكاتبات، ويكثر في المحاورات، مبتعداً عن الحوشي من الكلام والغريب من الألفاظ.[٢]

وفي مجالي الخَلْق والخُلُق لا بدَّ له أن يكونَ صبيحَ الوجه، فصيحَ الألفاظ، طلقَ اللسان، فهو في حضرة الملك، يراه ويحاوره دائماً، وعليه أن يكونَ وقوراً، حليماً، مؤثراً للجدِّ على الهزل، محبَّاً للشُّغلِ أكثر من محبَّته للفراغ، كثيرَ الأناة، قليلَ العجلة،حسنَ الكلام والإصغاء، محبًّا لأهل العلم والأدب، يُهدي النصيحة إلى الملك دون أن يُوجِدَ الخَلل فيما رآه، ويكون ذا أصل وحسب في قومه، بعيدا عن الدناءة في الأب، والذمامة في المكسب، فكلُّ إنسان مردُّه إلى أصله.[٣]

وعليه أن يكون كاتما للسر لا يدانيه في هذه المنزلة أحد ، يتناسى كلَّ خبر يسمعه، فإنَّه بهذا ينتفع وينفع الملك، وعليه أن يسند الرأي الصواب إلى الملك لا إليه، فإن تحدَّث الملك وأصاب في رأيه أشاع ذلك، وعظَّمه، وفخَّمه، وكرَّره على الناس، وأوجب على الناس حمده، وإن قال الملك قولا ولم يصب به، انتظر إلى الخلوة معه ليكشف له الستار عما أخطا، مبينا له وجه الصَّواب، وعليه أن يتابع الملك دالَّه الأخلاق والطِّباع الشَّريفة التي يثبِّت بها حكمه ورأيه في قلوب الناس.[٤]

ويمكننا أن ندرك مما سبق مدى العناية الفائقة التي أحلّها الفاطميون بديوان الإنشاء وكتّابه، وندرك كذلك أهمية ديوان الإنشاء في ترتيب الأمور السياسية والإدارية في الدولة، حيث شكل مظهراً مهماً من مظاهر الاستقرار في الدولة الفاطمية في مصر، وأهميته في تطور الأساليب الكتابية ونهضة النصوص النثرية التي حبرها الكتّاب آنذاك، إذ شكّل ديوان الإنشاء مدرسة أدبية يتأهل فيها كلّ من وجد في نفسه الرغبة والقدرة على تعلم الكتابة.

كما نلحظ مما سبق مدى عناية الفاطميين بالكتّاب القائمين على تولي أمر الديوان وكتابة السجلات، بالإضافة إلى الإشراف على الكتّاب والمكاتبات فيه، والمكانة التي نالها متولي ديوان الإنشاء بحكم قربه من الملك، وحصانته، وكثرة الصلاحيات التي وضعت بين يديه، وإنَّ الناظر في تلك الصفات التي اشترطت فيمن يتولَّى أمر ديوان الإنشاء، لا يساوره الشكُّ بأنه هو الحاكم الحقيقي للدولة، فهو المستشار، وكاتم الأسرار.

---

[١] ينظر: ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ١١.

[٢] ينظر: المصدر نفسه ، ١١.

[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١١.

[٤] ينظر: المصدر نفسه،١٣-١٤.

# الفصل الأول:

# الرسائل الديوانيَّة في مصر في العصر الفاطميّ

## الرسائل الديوانيَّة:

تعد الرسائل الديوانية الأهمَّ بين المكاتبات التي أنجزها الكتَّابُ خاصة في العصر الذي نتناوله في دراستنا هذه، العصر الفاطمي في مصر؛ "لأنَّها الكتبُ النافذةُ في جلائلِ الخطوبِ، ومعاظمِ الأمورِ وسياسةِ الجمهورِ وقوامِ الدنيا ونظامِ الدين" [(١)]. فمع دخول الفاطميين مصر على يد القائد جوهر الصقلي، والإمام المعز لدين الله الفاطمي، أدرك الفاطميون حاجتهم لتنظيم شؤون الدولة وتقوية أواصرها لتثبيت الحكم، وبثِّ الدعوة التي لم يكتب لها قبل ذلك النجاح؛ فأخذوا يعتنون بالكتابة والكتَّاب من خلال ديوان الإنشاء، ووظفوا فيه كلَّ من عُرف ببلاغته وفصاحته، فيحبِّرون على لسانهم كلَّ ما أرادوا بثَّه إلى الثغور والولايات التابعة لهم من أوامر سلطانية، توجههم للعمل تارة، وتنشر دعوتهم تارة أخرى، فيضمنون بذلك التبعية في المذهب والتماسك في النظام.

ولا يغيب عن الباحث أن الفاطميين أغدقوا العطاء، وأنفقوا الكثير في سبيل تمجيدهم، ورفع ذكرهم، وإعلاء قدرهم، وإيقاع هيبتهم في قلوب الناس؛ لذا نجدهم يحرصون في كل مكاتباتهم الديوانية على تسجيل كل كبيرة وصغيرة، ورصد الأحداث بأدق تفاصيلها.

و من يطالع الرسائل الديوانية التي وصلتنا من العصر الفاطمي في مصر، يدرك أنها تعبر عن حاجة الفاطميين، لذا نجدها تفرعت في نمطين يحققان الغاية المرجوة منهما: النمط الأول تلك الرسائل التي تمثل المخاطبات الإعلامية، و الثاني الرسائل التي تمثل التنظيمات الإدارية والمالية.

## أولا: المخاطبات الإعلاميّة.

استطاع الفاطميون بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ أن يسيطروا على البلاد المصرية، ودُعي لهم في السنة ذاتها على المنابر في الحرمين الشريفين، ومدُّوا أيديهم بعد ذلك إلى بلاد الشام، محاولين إثبات أحقيتهم في خلافة المسلمين، منكريها على العباسيين.

ونتيجة ذلك أدرك الفاطميون أهمية المخاطبات الإعلامية في إرساء دعائم دولتهم الفاطمية في مصر، واثبات نسبهم، وأحقيتهم في خلافة المسلمين، وردِّهم على الحرب الإعلامية التي شنتها الدولة العباسية ضد الفاطميين عندما طعنوا في صحة نسبهم إلى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء، رضي الله عنهما[(٢)]، وروجوا إلحادهم؛ لادعائهم الألوهيَّة، أو الصفات

---

(١) مواد البيان، ٥٠٨.

(٢) ينظر: محضر الطعن الذي أورده المقريزي، اتعاظ الحنفا، ١: ٥٨– ٦٠.

الإلهية كعلم الغيب[1]، من أجل ذلك بدا حرص الفاطميين على إثبات نسبهم إلى علي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء، وحقهم في الخلافة الإسلامية، وتحقق الإمامة في نسلهم واضحاً في كل ما يصدر عنهم من مخاطبات، بما يلبي طموحهم في بناء مجدهم ودولتهم من جهة، وتحقق الاتصال بين الخلفاء، والأمراء، والقضاة، والنواب، والرعية من جهة أخرى.

من هنا، برزت أهمية الرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء؛ فهي تمثل لغة الإعلام التي استطاعت الدولة من خلالها أن تبثَّ أفكارها المذهبية، وترد على معاديها، وتبيّن لرعيتها مواقفها السياسية والاجتماعية، وتوصلها إلى الرعية في مختلف أركانها.

إن الرسائل الديوانية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي ليست بحجم الرسائل التي وصلت من العصور الأخرى السابقة والتالية له؛ ولعل ذلك مرده إلى ندرة أخبار الكتَّاب أنفسهم، حيث أهمل مؤلفو كتب التَّراجم ذكر رجال الدولة الفاطميَّة حقداً عليهم؛ إذ الناس على دين ملوكهم، فدولة الفواطم كانت دولة مذهبها شيعي، وبعد انقضائها وانتهائها على يد السلطان صلاح الدين، عمل وقاضيه البيسانيّ على طمس كل ما يتعلق بالمذهب الفاطمي ونشر المذهب السني، فألزم الناس بذلك، وأبطل مذهب الشيعة من ديار مصر[2]. ويستدلُّ على ذلك بما جاء به السيوطي في كتابه" تاريخ الخلفاء" بأنه لم يورد أحداً من الخلفاء العبيديين؛ لأنَّ إمامتهم غير صحيحة[3]. فإذا كان السيوطي قد أغفل ذكرَ خلفائهم عمداً، فكيف يذكر كتَّاب أهل السنَّة كتَّاب الفواطم الذين يروِّجون لدعوتهم[4]، فجاءت أخبار الكتَّاب الفاطميين منقوصة في بطون الكتب، وهذا ما ينعكس بطبيعة الحال على الرسائل التي قاموا بإنشائها.

ورُغم ذلك فإنَّ بعض الكتب في تراثنا نحو كتاب "مواد البيان" لعلي بن خلف، و"الإشارة إلى من نال الوزراة" لابن الصيرفي، و"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقلقشندي، و"الخطط" للمقريزي، حوت مجموعة من المخاطبات الإعلامية التي حبَّرها كتَّاب الفاطميين المعروفون ببلاغتهم وفصاحتهم، ووصلت إلينا متنوعة في أغراضها، متباينة في أساليبها باختلاف الغرض منها ومادتها، فكانت رسائل المنشورات، ورسائل البشارات، ورسائل المبايعات، ورسائل انتقال الخلافة، ورسائل الأمانات.

---

[1] ينظر: العوفيّ، محمد سالم بن شديد (١٩٨٢م) العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي (٤٤٧– ٥٦٧هـ)، ط ١، ٦٧.
[2] ينظر: ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، مقدمة المحقق على بهجت، مطبعة الواعظ، ١٩٠٥م، ٩.
[3] ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن محمد بن عثمان (٩١١هـ). تاريخ الخلفا، تحقيق الشيخين: قاسم الرفاعي، و محمد العثماني، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ٢٠٠٢م، ٩– ١٠.
[4] ينظر: ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، مقدمة المحقق على بهجت، ١١.

### ١. رسائل المنشورات:

واحدها منشور. وهو كل سجل أو مكاتبة لا تحتاج ختماً ولا عنواناً[١] أي منشورة غير مطوية، " يُكتبُ في الإقطاعات: من عَالِيها ودانيها، للأمراء، والجند، والعربان، والتُّرْكُمان، وغيرهم"[٢]، يُتلى على مسامع الناس ليتسنى لهم العلمُ بمضمونه.[٣]

فالمنشور بلاغٌ إعلامي، صادر عن ديوان الإنشاء، موجه مباشرة إلى العامة في شأن من شؤونها، وربما يوجه إلى الأمراء والجند لإبلاغهم أمراً طرأ على إقطاعاتهم.

وقد جاءت المنشورات التي وصلت إلينا عن العصر الفاطمي في مصر متنوعة في بياناتها الإعلامية، وتقترب من موضوعات قد نجدها ضمن مادة التقليد، فمنها ما كتب في تجديد النيابة في الحكم في أموال الأوقاف وأهل الذمة في أحد الثغور[٤]، وآخر بالحكم بالأعمال الغربية[٥]، ومنها كتب في تجديد خدمة في بعض الوظائف الديوانية[٦]، ومنها تكليف بتدريس في المدرسة الحافظية[٧]، ومنها بمباشرة الأغنام والمطابخ[٨]، والإشراف على أموال المواريث الحشرية[٩]، إلا أن الباحث سيتناولها مستقلة عن التقليدات؛ لأنَّ الكتَّاب الفاطميين عمدوا في أثناء كتابة هذا النوع من السجلات إلى تحديد نوعها؛ إذ كان يذكر ذلك صراحة خلال السياق بأن نوع السجل منشور، كأن يقول: "تقدَّمَ فتى مولانا وسيدِنا بكتْبِ هذا المنشور"[١٠]، أو أن يذكر ذلك بمعناه، فيأتي بإحدى المفردات التي تشير إلى معنى ذلك، فيقول: "وأمرنا بكتْبِ هذا المَسْطُور شدّاً لأزْرِكَ وتشييداً لأمْرِكَ"[١١]؛ فالغرض من هذا السجل، كما يظهر لنا من السياق، الإعلان إلى العامة عن تجديد ولاية أحدهم بتجديد ثقة أمير المؤمنين به، وهذا لا يكون إلا في منشور. ولعل هذا هو سبب تحديد مثل هذا النوع من السجلات، فهي منشورات، ويجب على حاملها أن يقرأها على العامة، فالمضمون يحمل بياناً إعلامياً لا بدَّ للعامة من الاطلاع عليه.

---

(١) ينظر: الكاتب، مواد البيان، ٥٠٥- ٥٠٦، وابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ١٩.
(٢) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى،١٣ : ١٦٢، و العمري، ابن فضل الله أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، ط١، تحقيق: سمير الدروبي، الكرك، منشورات جامعة مؤتة، ١٩٩٢م، ١١٧.
(٣) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٦٦، والدروبي، محمد محمود، (١٩٩٩م). الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط١، عمان، دار الفكر، ١٤.
(٤) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٥٩ .
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٠.
(٦) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٨.
(٧) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٤.
(٨) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٧١.
(٩) ينظر: المصدر نفسه،١٠: ٤٧٢.
(١٠) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٩.
(١١) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦١.

وتأتي المنشورات بعدة بيانات إعلامية تُعنى بترتيب أمور الدولة فيما يتعلق بالعامة و الخاصة، فمنها ما جاء يحمل بياناً لعامة الناس، مثل المنشور الذي وجه إلى القاضي الرشيد، ويتضمن تجديد مهامه في الإشراف على أموال المواريث التي لا وارث لها، والحكم في تقسيمها كما شرع الله(١)، ومنها ما جاء في تنظيم أمور طائفة من الناس -أهل الذمة- نحو منشور يحمل في طيِّه تجديد مهمة الإشراف لأحد الأمراء على الأموال التي تؤخذ من أهل الذمة من ضريبة مقررة على رقابهم(٢)، ومنها ما هو موجه إلى طائفة الأمراء وأهل القصر، نحو المنشور الذي جاء بتكليف أحد القضاة بالإشراف على حاجات القصر وتدبيرها فيما يخصُّ شراء اللحوم وتدبير أمر المطابخ(٣).

وكلُّ هذه المنشورات جاءت على نمط تحريري واحد، ابتدأها الكتَّاب بمقدمة، تتضمن شكراً وحمداً للقاضي أو الأمير المكلف، وذكر المؤهلات الخُلقية والمهنية التي يتحلى بها، وينتقل بعدها إلى موضوع المنشور وهو إما تقليد أو تجديد، وبيان الجهة الصادر عنها المنشور، ويختم بتأييد المكلف شدًّا لأزره، وتأكيدا لأمره، وإعلاء لكرامته، وإنفاذا لأمره في الرعية، والملاحظ على مثل هذه المنشورات أنها جاءت مختصرة الخطاب، وتخلو من المصطلحات الفاطمية.

ومن الموضوعات التي جاءت بها المنشورات لتكون بياناً إعلاميا يُلقى على مسامع العامة التقليد في المهام الدينية، وهذا ما تضمنه المنشور الصادر في النيابة في القضاء في الأعمال الغربية(٤)، وفي مثل هذا المنشور تتضح لنا المكانة العالية التي يحظى بها القاضي في دولة الفواطم، "ولك الخِدْمةُ السنية التي لا تَطْمَحُ إليها كلُّ أُمْنِيَّة ، والرتبُ الرفيعةُ ... وكلُّ ما حُظِر على غيركَ مباحٌ لكَ لاستيجابِك له واستحقاقِك"(٥)، ومكانة القاضي هذه نابعة من المهام الموكلة إليه، فهو الذي يصلي في الناس، ويخطب بهم، ويقضي بينهم، وهذه المهام لا تخفى أهميتها بالنسبة للدعوة الفاطمية، فهو على هذا الأمر عين من أعيان الدعاة الفاطميين، الذين يبثون معتقدات الفاطميين في المجتمع المصري آنذاك، ويعلون شأن الخليفة، الإمام، ويمجدونه، لذا كان لا بدَّ له من مرتبة خاصة به، وعناية تليق به بين الناس.

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٦٨.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٨، ٤٥٩.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٧١.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٠.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦١.

ومثل هذا المنشور من حيث الأهمية منشور آخر كُتب في تقليد الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر[١] أمور الإشراف على المدرسة الحافظية في الإسكندرية[٢]، ولا يقل هذا المنشور أهمية عن المنشور الذي سبقه، فمضمونه يشير إلى أمر مهم، وهو العناية التي صرفها الخلفاء الفاطميون نحو التعليم وبناء المراكز العلمية، التي تعينهم على بث معتقداتهم بين الناس، ويضاهون بها الدولة العباسية التي يكنون لها كل عداء، فعمدوا إلى بناء المدارس، وأمَّروا عليها أجلَّ علمائهم، لذا قام أمير المؤمنين بإنشاء المدرسة الحافظية في الإسكندرية لجمع شمل العلماء من قرَّاء وفقهاء.

ويعد هذا المنشور أطول المنشورات التي بين أيدينا، ولعل مردّ ذلك أن الكاتب جاء في مقدمة المنشور على ذكر أمير المؤمنين، لذا كان لا بدَّ له من الوقوف للثناء عليه، وبيان فضله على الأمة، كما أن هذا المنشور يعد الأهم بين المنشورات التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر؛ فهو يحمل بياناً إعلامياً يتعلق بمهمة جليلة القدر، وهي تولي أمور المدرسة الحافظيَّة، ولا تخفى جهة الخطاب، فهو موجّه إلى ثغر لا يقل أهمية عن القاهرة المُعزيَّة وهو الإسكندرية، فكان لا بد من الوقوف عند ميزته.

وأبرز سمة تتصف بها المنشورات أنَّ صيغتها موجزة، لا تحتمل وصايا ولا إطناب كتَّاب[٣]. ويمكننا أن نلحظ هذا في نسخة المنشور الذي أورده صاحب "صبح الأعشى" فيما يخص الإشراف على أموال المواريث[٤]، فنجد كاتب المنشور لم يُطِلْ الحديث فيه، إذ يكتفي بتحديد جهة الخطاب، فهو موجه من السيد الأجل الأفضل، إلى القاضي الرشيد، سديد الدولة، أبي الفتوح محمد ابن القاضي السعيد، عين الدولة أبي محمد عبدالله بن أبي عقيل. ثم يثني عليه مبينا الصفات الموجبة لإبقائه في منصبه وهو الإشراف على أموال المواريث. حتى يصل إلى ذكر أن هذا منشور يُقرُّ العمل والنهج الذي يسير عليه عمله في ترتيب أمور المواريث.

ولعل الداعي إلى الإيجاز في مثل هذه المنشورات أنها تكتب في الغالب من أجل تجديد مهمة أرباب وظائف الفاطميين، ولهذا فهي تخلو من الإطناب، ولا تتضمن حديثاً عن المهام

---

[١] محمد بن بنان، تولى ديوان النظر بثغر الاسكندرية في الدواوين السلطانية، وهو من أرباب مناصبها الكبار، عالما، أديبا، كاتبا، وله تفسير القرآن المجيد، وكتاب المنظوم والمنثور، ولد في مصر سنة ٥٠٧هـ ومات بها في٥٩٦هـ. (ينظر: النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة، ٢٥٩- ٢٦١).

[٢] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠ : ٤٦٤.

[٣] ينظر: البقلي، التعريف بالمصطلح الشريف، ١١٧.

[٤] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠ : ٤٧٢.

الموكلة لصاحبها، وهذا مالا نلمحه في التقليد[١]، ففي المنشور لا توجد مهام، لأن القائم على الأمر مرضي عنه، ويدرك المطلوب منه، فجُدِّدَ له، فجاء المنشور إشادة وتأييداً وشدَّاً لأزره أمام العامة؛ ليستمر على ما هو عليه، وهذا ما نلمحه في غير منشور.[٢]

وقد جرت العادة في المنشورات ذكر الشخص الذي صدر عنه المنشور، إلا إن الكتَّاب لم يلتزموا نهجاً واحداً في هذا، فمرة نجدهم يبدؤون المنشور بذكر من صدر عنه، فيقال في مستهل المنشور: "هذا كتابٌ من أميرِ المؤمنين"[٣]، أو يقال: "منشورٌ تقدَّمَ بكتْبِه فتى مولانا وسيدُنا السيِّدُ الأجل الأفضل"[٤]، ومرة أخرى نجدهم يذكرون هذا في أثناء المنشور، فيقال: "تقدَّم فتى مولانا وسيدِّنا بكتْبِ هذا المنشور"[٥]، أو أن يقال: "وأمرنا بكتْبِ هذا المسطورِ شدَّاً لأزرِك"[٦]، وبناء على هذا، يمكن للباحث التفريق بين الأمرين، فالمنشور الذي يقدم فيه ذكر الأمير أو الوزير، فإنه يكتب إما بيده، كما هي الحال في المنشور الصادر في المواريث، حيث إن الوزير المعني هو من كتب المنشور بيده، ويتضح هذا من صيغة الخطاب "تقدم بكتْبِه". أو أن يكون المنشور خُطَّ في حضرة الأمير، فيُقدَم على غيره في النصّ[٧]. وأما إن كان الخطابُ محبَّراً في ديوان الإنشاء بتكليف من أمير أو وزير، فإن ذكرهما يأتي في أثناء المنشور، وهذا ما يُستدَلُ عليه من النصوص، فقد يأمر الأمير أو الوزير متولي الديوان بكتابة المنشور[٨]، فيقوم بناء على تكليف أحدهما بإنشاء المنشور. وفي هذه الحالة لا يتقدم ذكر أمير ولا وزير، وإنما يأتي ذكرُهما في أثناء المنشور، وأغلب المنشورات جاءت على هذا الشكل.

ورغم قلَّة المنشورات التي وصلت إلينا من مصر مدة العصر الفاطمي، إلا إن ما وصل منها يؤكِّد حقيقة أن المنشورات بيانات إعلامية من الدرجة الأولى، حرصت الدولة الفاطمية على تبليغها الرعية؛ لضرورة ما يحمله البيان. ولعلنا لا نخطئ القول: إن كل منشور تقليد، وليس كل تقليد منشوراً، لأن المنشور يتضمن موضوعات تأتي بها الرسائل الأخرى كالتقاليد، ولكنه يختلف

---

[١] جمع تَقْليد. يقال قلَّدتُه أمر كذا إذ وليته إياه، ولا تكون إلا لكفلاء الملك كأكابر النواب والوزراء، ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة، فأمّا عامة القضاة فالواجب أن لا يسمى ما يُكتب لهم إلا تفاويض، وأغلب الرسائل الديوانية هي تقليدات مهمتها تنظيم إدارة البلاد المصرية لدى الفاطميين. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١١: ١٠١، والعمري، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ١١٢).

[٢] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٧١،٤٧٢، ٤٧٣، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٩.

[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٣: ١٤٠.

[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٧٢ .

[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٠.

[٦] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦١.

[٧] ينظر: المصدر نفسه، ١٣: ١٤٠.

[٨] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦١.

عنها أنه موجز، ويقرأ على الأشهاد، ويحدد الكاتب أنه منشور في أثناء السجل، كما يقل فيها استخدام المصطلحات الفاطمية، التي اعتاد الكُتّاب الفاطميون تضمينها لسجلاتهم.

## ٢. رسائل البِشَارات:

وهي أحد أشكال المخاطبات الإعلامية في الدولة الفاطمية، الموجهة من الخلفاء إلى العمَّال والولاة في المواسم والحوادث السارة.(١)

وقد عني الفاطميون بهذا النوع من المخاطبات الإعلامية عناية فائقة. فنظام الدولة وسياستها كان آنذاك تحت قبضتهم، إلا إن الرعايا التي كانت محكومة من قبلهم لم تكن متجانسة المذهب ولا الآراء؛ لذا فقد عمد الخلفاء الفاطميون إلى مكاتبة عمَّالهم وولاتهم بسلامة المواسم الإسلامية كلها؛ لأنها تجمع جميع الأصناف وذوي الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة والقلوب المتعادية والمتصاحبة في أمر الدين والدنيا، فيكونوا ضيَّعوا على كل متربص لفتنة الفرصة لبثها بين الرعايا. ويحفظون بذلك هيبة الدولة. فهم ما يزالون قائمين على أحوال الرعية، وأصحاب السلطة و الأحقية في خلافة المسلمين. (٢)

وقد عرف عن الدولة الفاطمية أنها تمتعت بثراء عريض لم تعرفه الدول الإسلامية المعاصرة لها، وبدا هذا الثراء من خلال الاحتفالات التي كانت تقيمها الدولة الفاطمية في المواسم والأعياد(٣)، فلم يترك الفاطميون مناسبة دينية أو مذهبية إلا واحتفلوا بها؛ محاولين بذلك مضاهاة دولة العباسيين، مظهرين مدى ما هم عليه من ثراء وقوة؛ فلا تحدثهم أنفسهم بالتجرؤ عليهم.

أما اختيارهم المناسبات الدينية والمذهبية لإعلان سلامتها؛ فلعل ذلك مرده إلى أنها المناسبات التي تفرح بها غالبية الرعية، إذ يشترك في بعضها السُّني والشيعي، فتكتب بهذا المناسبات رسائل البشارات لتقرأ على الناس، ويتسنى لهم بذلك المشاركة بالاحتفالات، التي هي بمثابة مكافأة يقدمها الخلفاء للرعية، فيدخلون الفرح والسرور إلى قلوبهم، محاولين إلهاء الرعية

---

(١) ينظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ٦٥.

(٢) ينظر: علي بن خلف الكاتب، مواد البيان ،٥٧٢، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣١٨.

(٣) كان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم، وهي: موسم رأس السنة، وموسم أول العام، ويوم عاشوراء، ومولد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ومولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد فاطمة الزهراء– رضي الله عنهم، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، ومواسم ليلة رمضان، وغرّة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج، ويوم النَّوروز، ويوم الغِطاس، ويوم الميلاد، وخميس العدس، وأيام الرُّكوبات. (ينظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(ت ٨٤٥ هـ)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخِطط والآثار، م ٢، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢م، ٥٩١).

من السُّنَّة، فلا تشغلهم أمور الأحقيّة في الخلافة، ولا السياسة، وصحة النسب، فأكثروا من الاحتفالات التي تلهي الأمة.[١]

وقد اعتاد خلفاء المسلمين على المكاتبة بالسلامة والركوب في عيدي الفطر والنحر، إلا أنَّ الخلفاء الفاطميين قاموا بهذا في مناسبات أخرى، فقد كتبوا بالسلامة وركبوا المواكب في غُرَّةِ السنة، وفي أولِ رمضان، وفي الجمعةِ الأولى، والجمعةِ الثانية، والجمعةِ الثالثة منه[٢]. واحتفلوا بهذه المناسبات الدينية بشيء كبير من الأبهة والعظمة[٣]. وكان الشعب المصري يستقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور إلا يوم عاشوراء، فقد كان يوم حزن عام.[٤]

ولهذه النوع من الرسائل أهمية كبيرة حيث إنها تصف وبدقة متناهية مواكب الخلفاء الفاطميين، وخروجهم إلى الاحتفالات، وركوبهم وسعيهم إلى الصلاة "مما جعلَها مصدراً مهماً لمعرفةِ عاداتِ الخلفاءِ وتقاليدِهم في خروجِهم، وركوبِهم، واحتفالاتِهم"[٥]، كما أنها كانت تحمل دائماً خطاباً لكل المعادين للدولة الفاطمية، وتحذرهم من خلال عرض القوى العسكرية في موكب الخليفة من أي محاولة للقيام بفتنة أو غير ذلك.

ومن المناسبات التي كانت تكتب فيها الرسائل البشارة **بركوب الخليفة أول العام، أو غرة السنة**، لما لها من أهمية في حياة الدولة الفاطمية[٦]، فهي إعلان عام جديد، يُعتمد عليه في تدبير شؤون الدولة في كل ما يرتبط بالعدد والحساب، وينتفعون في معاملاتهم فيعرفون ما لهم وما عليهم، وهذا الإعلان لا يصلح إلا بظهور إمام كل زمان.

ومما كتب في هذا المعنى نسخة كتاب أوردها صاحب صبح الأعشى[٧]. بدأه الكاتب[٨] بحمد الله والثناء عليه ثم الصلاة على نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، منوها في تقدمة رسالته إلى أمر مهم في اعتقاد الشيعة الإسماعيلية، وهو أن النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، أول من

---

[١] ينظر: سلطان، عبد المنعم. المجتمع المصري في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية، دار المعارف، ١٩٨٥م، ١٢٥.

[٢] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨ : ٣١٨.

[٣] ينظر: سرور، محمد جمال الدين. الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي،١٩٧٩م، ١٦٣.

[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٦٩.

[٥] بدوي، أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ٣٠٩.

[٦] وكان للخلفاءِ الفاطميين اعتناءٌ بليلةِ أولِ المحرَّم في كل عام لأنَّها أولُ ليالي السَّنة، وابتداءُ أوقاتِها. (ينظر: المقريزي، الخطط، م٢: ٥٩١).

[٧] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨ : ٣١٩، لم يأتِ القلقشندي بذكر من أنشأ الكتاب، وإنما اكتفى بقوله: "أورده أبو بكر الصولي في تذكرته".

[٨] يشير علي بهجت في مقدمة تحقيق كتاب "قانون ديوان الرسائل" إلى أنَّ هذا النص من إنشاء ابن الصيرفي، (ينظر: ابن الصيرفي، قانون ديوان الرسائل، الطبعة الأولى، (تحقيق: علي بهجت)، مطبعة الواعظ، مصر، ١٩٠٥م. مقدمة المحقق،٢٥).

بيَّن أمور السِّنِينَ في العدد والحساب، عندما نهى الناس عن التقديم والتأخير في الشهور العربية؛ أي ما يسمى النَّسِئ، وهم بذلك يقتدون بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم. ثم يتبع ذلك صلاة على أمير المؤمنين على بن أبي طالب، رضي الله عنه، ويرى أنَّه شفيع لكل من والاه، هو والأئمة من بعده الذين ورثوا الإمامة عنه.

ثم ينتقل الكاتب من المقدمة إلى مضمون الرسالة مُقِرًّا بالنعمة التي وجب ذكرها ونشرها بين الناس، وهي معرفة اليوم الذي هو مطلع السنة وأولها، ويعلن عن هذا اليوم من السنة بخروج الإمام[١]، فيجتمع العامة والخاصة لمشاهدة الموكب في الأول من محرم غرة السنة.

وبين الكاتب أهمية الاحتفال بمثل هذه المناسبات في محضر وصفه الموكب الذي يخرج الإمام فيه قائلا: "في عساكرَ لا يُحصَر عددُها، وقبائلَ لا ينقطعُ مددُها، وإذا اضطرمت نار الكُفْر والتَهبتْ، طَفِئَت بأنوارِهم وخَبَتْ"[٢]، فكأن ظهور الإمام بهذا العسكر وهذه الحشد من القبائل إظهارا للقوة، يحمل في طياته تهديدا لكلٌّ من تحدثه نفسه بفتنه.

ويعود الكاتب مرة أخرى لبيان أهمية تحديد هذا اليوم في تنظيم أمور الدين، فبه تعرف الناس وقت صومهم وفطرهم وحجهم. ثم يختم رسالته مؤكداً ضرورة التزام الأمراء بقراءة هذا الإعلان على كل أعمالهم للعمل والانتفاع به.

والمناسبة الثانية التي تكتب بها الرسائل البشارةُ هي سلامة **ركوب الخليفة في أول رمضان**، وينشئ ابن الصيرفي سجلاً بذلك[٣]، وقد التزم في هذا السجل الأسلوب ذاتَه في سجل أول العام، إلَّا إنَّ ظهور الخليفة للناس في موكبه هذه المرة، وكتابة السجل بذلك يأتي إعلانا للرعايا ببدء شهر رمضان[٤]، محدداً لهم الطريق التي سيسلكها موكبه في أثناء الظهور، فهو سيخرج للناس من القصر متوجها إلى القاهرة، ومن ثم يعود إلى حيث كان؛ حتى يشهدوا خروجه.[٥]

ويظهر أن الأئمة الفاطميين التزموا نمطاً معيناً في الظهور للناس في أول العام وأول رمضان، فلا بدَّ أن يكون موكب الإمام مصحوباً بعسكره الخاص، والجنود، والأولياء، والأنصار، والعبيد، ولا بدَّ أن يرى هذا من قبل الناس كافة، ليحققَ ظهورُ الإمام الغاية المرجوة منه وهي

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٢٠.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٢٠.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٢٠
[٤] يقوم هذا مقام الرؤية عند الشيعة. (ينظر: المقريزي، الخطط، ٢: ٥٩٥).
[٥] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٢١.

الإعلان عن مناسبة، وإلقاء الرعب في قلوب المعادين للفاطميين، وبيان المجد الذي وصلت إليه الدولة الفاطمية آنذاك.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أن مصر عرفت مظاهر الاحتفال بشهر رمضان قبل مجيء الفاطميين، خاصة العصرين الطولوني والإخشيدي(١)، إلا إن العناية بإحياء الموسم الديني في العصر الفاطمي فاقت غيره من العصور(٢)، فكانوا يتوجهون إلى المساجد يبسطون الحصير، ويضيئون القناديل، ويعمرون ما يحتاج إلى العمارة، ويبطلون المنكرات في سائر أعمال مصر، ويحْذرون بيع الخمر، وينعمون على سائر أهل الدولة الخاصة والعامة بالطعام والحلوى(٣)؛ ولعل السبب وراء ذلك سياسة الفاطميين، فهم يحاولون دائما أن يشعروا عامة الناس أنهم هم من يحترم ويقدس الشعائر الإسلامية، ومن ثم فهم أهل الخلافة والأحقية في زعامة المسلمين.

ومن المناسبات التي تكتب بها الرسائل بالبشرى، سلامة **ركوب الخليفة في الجمعة الأولى والثانية والثالثة من شهر رمضان**(٤)، ومما كتب بذلك رسائل ثلاث لابن الصيرفي، يمضى فيها جميعا على نهج واحد، فجميعها جاءت موجزة، يبدأها بحمد الله تعالى والثناء عليه، والصلاة على إمام زمانهم وآبائه الطاهرين، ثم ينتقل إلى ذكر الأعمال التي يقوم بها الخليفة في كل جمعة، حيث يركب موكبَه ويتوجه لصلاة الجمعة يخطب ويصلي في الناس، حتى إذا انتهى عاد إلى قصره في الموكب نفسه الذي تقدَّم به.

ويتبين للباحث في نهاية كل رسالة بشارة مما سبق حرص ديوان الإنشاء في مثل هذا النوع من المخاطبات الإعلامية على وصولها إلى كافة الرعية في مختلف الأعمال التابعة للدولة الفاطمية، فعلى كل وال من ولاة الأعمال أن يذيعوا هذا البيان ليدخلوا المسرة إلى قلوب الرعية، ويتسنى لهم كذلك العلم بمضمونه والعمل به.

ومن الملاحظ في هذه البشارات أن ابن الصيرفي لم يأتِ على ذكر الجامع الذي يصلي فيه الخليفة الجمعة الأولى، بينما يحدد في الجمعتين الثانية والثالثة الجامع، فالجمعة الثانية يتوجه الخليفة إلى جامع الأنور في القاهرة ، وفي الثالثة يتوجه إلى الجامع العتيق(٥) في مصر؛ ولعلَّ هذا

---

(١) ينظر: سلطان، عبد المنعم، المجتمع المصري في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية، ١٣٦.

(٢) ينظر: سرور، محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، ١٦٧.

(٣) ينظر: المقريزي، الخطط، ٢: ٥٩٤ .

(٤) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨ :٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣.

(٥) يقال له: تاج الجوامع وجامع عمرو بن العاص، وهو أول مسجد أسس بديار مصر بعد الفتح الإسلامي سنة ٢١هـ، وكان طوله خمسين ذراعا في ثلاثين. (ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ٢: ٢٠٩).

مردّه إلى أن الخليفة في الجمعة الأولى هو من يختار الجامع الذي يتوجه إليه، في حين يحدد ديوان الإنشاء المكان في الجمعتين الثانية والثالثة.

ومن المناسبات التي تكتب بها رسائل البشارات بسلامة ركوب الخليفة **ما عرف بسلامة ركوب الخليفة في عيدي الفطر والنَّحر**، فقد كان الخليفة يركب لصلاة عيدي الفطر والنحر صبيحة يوم العيد، فيخرج من قصره من باب العيد، ويستقل موكبه لينتقل إلى المصلى، فيصلي ويخطب ثم يعود إلى قصره، إلا إنه في عيد النحر قبل أن يعود إلى قصره يعطف على الأضاحي، وينحر ما عُدَّ له منها ثم يعود إلى القصر.

ومن الرسائل التي جاءت في البشارة بسلامة ركوب الخليفة في عيد الفطر ما أنشأه ابن الصيرفي في هذا المعنى(١)، ملتزما الأسلوب الذي جاء به في كل البشارات التي أوردناها له من تحميد لله تعالى وثناء عليه، وصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده. ووصف لمشهد انتقال الخليفة إلى المصلى لتأدية الصلاة بالناس حتى إذا فرغ عاد إلى قصره، ثم ينهى الخطاب بتوجيه أمر إلى كافة الأمراء على الأعمال بقراءته على الناس كافة، ليدخلوا المسرة في قلوب من لم يحضر هذا الاحتفال.

ويمضي ابن قادوس(٢) على نهج ابن الصيرفي في إنشاء رسالة بشارة **بسلامة ركوب الخليفة موكبه في عيد النحر**، من حيث الابتداء بالحمد والصلاة، والانتقال بعد ذلك لوصف مشهد ركوب الخليفة إلى المصلى حتى يفرغ من صلاته ويعود إلى القصر. وهذا الالتزام الذي يتبعه كتاب ديوان الإنشاء يدل على أن المكاتبات في ديوان الإنشاء كانت تسير وفق قالب واحد يضعه متولي الديوان، ويمضي على التأليف في طريقه كلٌّ من يكتب، فنجد أن المكاتبات بسلامة ركوب الخليفة الموكب في غرة السنة، وأول رمضان جاءت على نمط واحد. والمكاتبات بالبشارة بالسلامة في الجمعة الأولى والثانية والثالثة جاءت على نمط واحد. والمكاتبات بالبشارة بالسلامة في عيديْ الفطر والنحر هي ذاتها. والفرق فيما بينها يكمن هو تنوع المناسبة لا غير.

ويمكن أنْ نحدد من خلال البشارات التي مرت بنا ما إذا كانت الدولة تشتمل على وزير أو بغير وزير، ويلاحظ هذا من خلال نص البشارة، فإذا كانت الدولة مشتملة على وزير يرد ذكره

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٢٤.

(٢) كافي الكفاة محمود بن اسماعيل بن حميد الدمياطي، من كتاب المصريين وشعرائهم، توفي مات سنة ٥٥١هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١: ١٦٢، والأندلسي، ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة، ٣٣٧).

في نص البشارة، ويثني عليه الكاتب. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء به ابن قادوس[١]، إذ نجده يذكر أن الوزير يستقل الموكب مع أمير المؤمنين، ويثني عليه، مبينا السبب الذي أوصله إلى هذه الرتبة الجليلة. يقول ابن قادوس: "واستقلَّ ركابَ أميرِ المؤمنينَ ووزيرِه السيدُ الأجلُ الذي قامَ بنصْرِ اللهِ في إنْجَادِ أوليائه، وتكفَّل للإسلامِ برفعِ مَنَاره ونشرِ لوائِه، وناضَلَ عن حَوْزَةِ الدينِ وجاهَدَ، وناصَلَ أحزابَ الكفارِ وناهَد"[٢]، ويظهر من هذا أن الوزير من أرباب السيوف، وقد حظي بمكانة عالية في الدولة لما له دور في الحفاظ على استقرارها، وأمن رعاياها، و نشر مذهبها وعقيدتها. أما في نص البشارة التي أنشأها ابن الصيرفي[٣] فنجده لا يأتي على ذكر الوزير بشيء، ومردّه هذا إلى أن الدولة لم تكن مشتملة على وزير آنذاك.

ويبدو من سجل ابن قادوس أن الوزير امتلك صلاحيات كبيرة، وربما كان هو القائم بإدارة أمور الدولة العلوية، فهو من يدير سياسة البلد ويدبر شؤونها، وعليه أن يتوخى دقة الرأي والإصابة في كل كبيرة وصغيرة من أمور الدولة.[٤]

لقد اعتاد الخلفاء الفاطميون على مكاتبة الرعايا بالبشارة إذا عادوا سالمين من **سفر لحج** أو غير ذلك، لأنهم كانوا يرون في السفر خطرا لا يستهان به، وموقعا للاختلاف وحدوث الفتن. فإذا بلغ مقصده، وأدرك غايته، أمر ديوانه بكتابة البشارة بهذه المناسبة، ومن ذلك نسخة بشارة أوردها صاحب صبح الأعشى دون أن يذكر كاتبها.[٥]

والسياق الذي جاء به الكاتب في نص البشارة ملتزم بنص البشارات التي سبقتها، من حمد وصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده، منتقلا بعد ذلك ليزف البشارة إلى الرعية بأن الخليفة قد عاد من حجه سالماً، حتى إذا بلغ نهاية البشارة أكد ضرورة أن تعلم سائر الرعية مضمون البشارة، شاكرين الله على هذه النعمة.

ولا تقتصر رسائل البشارة على السلامة من الحج فقط، وإنما يكتب إلى الرعية **بسلامة عودة الخليفة من السفر بعامة،** ومن ذلك نسخة رسالة بشارة جاء بها القلقشندي كُتِبَتْ بسلامة عودة الخليفة من سفر لم يكن حجا، وقد أوردها دون أن يذكر كاتبها[٦]، والكاتب يجري فيها على نهج من سبقه في رسائل البشارات السابقة، إلا أنه في هذه البشارة يذكر نعمة الله على أمير

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨ :٣٣٠.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٨ :٣٣٠- ٣٣١.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٢٤.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٣١.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٣٨.
[٦] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٤١.

المؤمنين أن منحه في سفره بلوغ المآرب، وتسهيل الدروب والمقاصد، وشموله النعمة في الذهاب والإياب.

ومن المناسبات التي تكتب بها رسائل البشارات **الفتح**، حيث كان الخليفة يأمر بكتابة البشارة بالفتح أو إنجاز نصر على جهة ما، ويوجهها إلى عمَّاله ليعرفوا ذلك ويذيعوه على الرعايا، ومن الأمثلة على ذلك نسخة رسالة كتب بها الإمام العزيز بالله نزار الفاطمي إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القَرْمَطِي بالشام في سنة ٣٦٧هـ. (١)

والكاتب في هذه البشارة يبدأ خطابه بتحديد جهته، يقول: "من عبدِ الله ووَليِّه نزار أبي المنصور العزيزِ بالله أميرِ المؤمنين إلى حسينِ بنِ القاسم"(٢)، وهذا التحديد لم نعهده في رسائل البشارات(٣)؛ ويشير هذا التحديد إلى أهمية مضمون هذه البشارة واختلافها عن غيرها، فهي ليست من المناسبات الدينية التي يحتفل بها المصريون في كل موسم، وإنما هي بشرى انتصار العزيز بالله على تحالف القرامطة مع أفتكين التركي وغيره من الثوار، الذين كانوا يهددون الخلافة الفاطمية في مصر.

بعد ذلك ينتقل الكاتب بنا إلى حمد الله، وفي هذه البشارة نجده يكرر الحمد في غير موضع؛ ولعل مرد هذا إلى عظم النعمة التي تستوجب الاستغراق في الشكر والحمد، وهي النصر والفتح الذي حققه العزيز بالله على أفتكين ومن معه من الثوار، كما أنه في إطالة الحمد يؤكد الحق الإلهي في الخلافة الذي منح له، ويركز على أنَّ العزيز بالله هو أمير المؤمنين وخليفة رسول الله.(٤)

وبعد الحمد ينتقل الكاتب لرسم وصف المشهد الحربي بدقة منذ لحظاته الأولى، بدء تفاوض العزيز بالله مع أفتكين، محاولا إعطاءه الأمان على نفسه ومن معه، فيعفو عنه ويتجاوز عن هفوته، ويقلده ناحية إن أراد ذلك، وكيف رفض أفتكين هذا العهد والعقد، إلى أن خرج الخليفة بعساكره وجنوده لقتاله، ويصف الكاتب أجواء المعركة وصفا دقيقا حتى هروب أفتكين مع القليل من رجاله، واللحاق به وتقديمه أسيراً بين يدي أمير المؤمنين. معلنا بذلك النصر على أعدائه.

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٤٢١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٦: ٤٢١.
(٣) ينظر: ما سبق، ٣٨ وما بعدها.
(٤) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٤٢١.

وفي الختام يطلب من عامله على مصر أن يعلم بمضمون هذا الكتاب، ويقف على مضمونه، ويذيعه بين رعاياه ليعلموا ذلك ويحمدوا الله على ما منح أمير المؤمنين.

ويلاحظ الباحث أنّ البشارة بالفتح ليست هي البشارة بالمواسم والأعياد التي يركب بها الخليفة الموكب، فرسائل البشارة بالفتح يكثر فيها حمد الله؛ لبيان أهمية ما تحمله هذه البشارة ووجوب حمد الناس الله على ما أنعمه على أمير المؤمنين ، وبهذا فالفتح من أعظم المناسبات التى يحتفي بها الفاطميون، ولعلّ مرد هذا لاتساع دولتهم ، وبيان قوتهم ونشر عقيدتهم .

والبشارة بالفتح بيان إعلامي من الدرجة الأولى، يطيل الكاتب فيه ليقف عند أدق التفاصيل، التي ترسم المشهد كاملا من بدايته حتى التمكين والنصر، فيعلم الناس بذلك وتدخل المسرة إلى قلوبهم، ويعلم المعادون للدولة أمر النصر، فتدخل الرهبة في قلوبهم ويخشون الخروج عن أمر الخليفة.

ولا تخفى أهمية مثل هذه البشارة كونها وثيقة تاريخية، رصد فيها الكاتب الأسلوب الذي يعتمده القادة في فضِّ النزاعات آنذاك، فالعهد والأمان، كما يتضح لنا من نص البشارة، هما الخطوة الأولى التي يتخذها القادة قبل الخوض في القتال مع المنشقين عنهم(١)، كما قام الكاتب برصد أحداث الاقتتال بدقة متناهية، يستطيع من يرغب دراسة التاريخ الوقوف عليها لتسجيلها كما كانت.

ومن المكاتبات التي خُصت بها الديار المصرية عن غيرها، ولا يشاركها فيها غيرها من الممالك المكاتبة بالبشارة **بوفاء النيل**(٢)، فقد أولى الخلفاء الفاطميون الاحتفال بوفاء النيل كثير الاهتمام(٣)؛ فكانوا يكاتبون بذلك ولاة الأعمال يأمرونهم بالاحتفال بهذه المناسبة مظهرين السرور؛ لما يترتب على هذا الوفاء من الخِصْب المؤدي لعمارة المملكة، وانتظام أمور الرعية.(٤)

ومن الأمثلة على هذا النوع من المكاتبات، رسالة بالبشارة أنشأها ابن قادوس بوفاء النيل(٥)، يبدأها ببيان نعمة وفاء النيل في استقامة أحوال البلاد والعباد، وإنها من أكثر النعم التي تستحق الشكر والثناء، ثم يأتي بما جرت عليه الأحوال في مصر لإعلان وفاء النيل، فلا بدَّ أن يصدر الأمر لأمير المؤمنين بأنّ النيل وفَّى مقدار ستة عشر ذراعا وأصبع من أصل سبعة عشر

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٤٢٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٣٢.
(٣) ينظر: سرور، محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، ١٦٩.
(٤) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٣٢.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٣٢.

ذراعا، ويشرف على مراقبة النيل بإعلان وفائه قاض يعرف بابن أبي الرَّدَّاد[١]، حتى إذا وفَّى النيل المقياس المرجو منه، كان لا بدَّ من إعلام الخليفة بذلك يليه الوزير، لتخرج الأوامر بعد ذلك لديوان المكاتبات، بإنشاء البشارة بذلك والإعلان للعامة أينما كانوا ليستبشروا بالنعمة، ويشكروا الله تعالى، ويظهروا المسرة، ثم تختم البشارة بالطلب من الوالي على الأعمال أن يستقبل هذا الإعلان بإكرام حامله، والعمل على التنويه للعامة، والاحتفال بما جرت عليه العادة عندهم.

ومن المناسبات التي احتفى بها الفاطميون وكتبت رسائل البشارات بها **عيد النصر**، وهو السادس عشر من محرم، عمله الخليفة الحافظ لدين الله؛ لأنه اليوم الذي ظهر فيه من محبسه، ويعمل فيه ما يعمل في الأعياد من الخطبة، والصلاة، والزينة، والتوسعة في النفقة.[٢]

ومن المكاتبات التي صدرت بهذا اليوم رسالة بالبشارة أنشأه ابن الصيرفي موجهها إلى بعض الخطباء[٣]، محددا اليوم الذي وجب الاحتفال فيه بعيد النصر، مخاطبا خطباء المساجد لصعود المنابر يوم الأحد السادس عشر من محرم لسنة ٥٣٢هـ لبيان فضل هذا اليوم على غيره من الأيام، والقيام من مراسم الفرح والابتهاج بما جرت عليه العادة في الأعياد، مؤكدا ضرورة العلم بهذا والعمل به.

## ٣. رسائل المبايعات:

مفردها مبايعة. ويراد بها المعاهدة والمعاقدة[٤]، ويطلق لفظ المبايعات على المخاطبات الإعلامية التي توجهها الدولة إلى الرعية لتبايع الخليفة، أو يوجهها الخليفة إلى الرعية لمبايعة وليِّ عهده من بعده.

وقد ذكر القلقشندي في مصنَّفه الأسباب الموجبة لأخذ البيعة على الرعية، وذكر من هذه الأسباب ما عرف عن الفاطميين أنهم كتبوا البيعة بها، فقد أخذوا البيعة للخليفة المَعْهُود إليه بعد

---

[١] ابن أبي الرَّدَّاد متولي قياس النيل، كانت النصارى تتولى قياس ماء النيل حتى عزلهم المتوكل العباسي بإشارة القاضي بكار بن قتيبة، ثم رتب والي مصر يزيد بن عبدالله التركي فيه أبا الرَّدَّاد عبد الله بن عبد السلام المؤدب= في سنة ٢٤٧هـ، واستقر قياس النيل في بنيه إلى العصر العثماني، وصار كل من يتولى أمر المقياس يعرف بابن أبي الرّدّاد. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣: ١١٢، والمقريزي، الخطط، ٢: ٥٥١، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٣٣).

[٢] ينظر: المقريزي، الخطط، ٢: ٥٩٣.

[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٢: ٥٩٣.

[٤] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٨١.

وفاة العَاهِد فكتبوا بذلك، كما أخذ الخليفة المُنتصِب البيعة على الناس لوليِّ عهده بالخلافة بأن يكون خليفةً بعده فكتبوا البيعة أيضا بذلك.[1]

وعلى هذا، فالمبايعات التي بين أيدينا تعالج أمرين: أحدهما موضوع المبايعة للخليفة، والآخر موضوع المبايعة لوليِّ العهد، وفي كلتا الحالتين فالبيعة عامة؛ أي أنها موجهة إلى العامة، فتندرج ضمن المخاطبات الإعلامية التي كانت تكتب للناس، وتقرأ عليهم في أماكن تجمعهم كالمساجد والأماكن المأهولة، ليبلغ خبر البيعة كل العامة، ويتسنى لهم العلم بمضمونها، والعمل بها؛ أي إعطاء البيعة للخليفة أو ولي العهد.

ومن رسائل المبايعات التي كُتبت وتمثِّل موضوع أخذ البيعة للخليفة نسخة بيعة[2] كُتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله، قام بعقدها الوزير أبو الفتح يانس الحافظي[3]، وكتبها ابن الصيرفي.[4]

يبدأها ابن الصيرفي بتحديد جهة الخطاب، فهو موجه من الخليفة الحافظ لدين الله إلى أهل الدولة جميعا، ثم يحمد الله تعالى ويثني عليه، ويتبع الحمد صلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، مؤكدا صحة انتسابهم إليه عليه الصلاة والسلام من خلال قوله: "وصلَّى اللهُ على جدِّنا محمدٍ رسولِه"[5]، فكلمة "جدّنا" يوردها الكتّاب الفاطميون في جلِّ مكاتباتهم التي حبَّروها، وهي بمنزلة ردٍّ على العباسيين الذين طعنوا في صحة نسبهم إلى بيت النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.

ثم يمضي ابن الصيرفي بعد ذلك بالصلاة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مبينا علوَّ الرتبة وسمو المنزلة التي تبوأها لقربه وشدة اختصاصه بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، فيقول: "أوَّلُ من أتَّبَعَهُ من ذوي قرابةٍ وأجنبي، وابنُ عمِّه الذي اختصَّه بمُؤاخاته، وجعلَه خليفةً على كافةِ الناس بعدَ وفاته، وتحمَّلَ بأمْرِ اللهِ فيما ولَّاهُ وأوْلَاه، وخطبَ الناسَ في حَجَّةِ الوداعِ فقال: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه"[6]، وترى الشيعة في هذه الموضع إشارة صريحة إلى أن

---

(1) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٨٤-٢٨٥ .

(2) ينظر: المصدر نفسه، ٩: ٣٠٠ .

(3) مولى أرمني الجنس لباديس جدّ عباس الوزير، أهداه إلى الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، وترقى في خدمته إلى أن تأمر وتولى الباب، أعظم رتب الأمراء، وكني بـ"أبي الفتح" ولقب بـ"الأمير السعيد" ثم ثار في محرم سنة ٥٢٦هـ مع صبيان الخاص على أبي علي كتيفات وقتله، وأخرج الحافظ من سجنه، فكافأه الحافظ أن ولّاه الوزارة، وخلع عليه ونعته منذ ذلك الحين بناصر الجيوش سيف الإسلام، ثم اشتدَّ باسه واستبدَّ بأمور الحكم فعمل الحافظ على التخلص منه، ومات يانس في السادس عشر ذي الحجة سنة ٥٢٦هـ، بعد أن ولي الوزارة بتسعة أشهر وأيام (ينظر: المقريزي، الخطط، ٣: ٤٩).

(4) ينظر: الشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٢٤٩.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٠٢.

(6) المصدر نفسه، ٩: ٣٠٢.

الرسول، عليه الصلاة والسلام، قد وصَّى إلى ابن عمه علي رضي الله عنه يوم غدير خُم[١]، والغرض من هذه الإشارة في مثل هذه المناسبة هو أن تولية الحافظ لدين الله بعد ابن عمه الآمر كانت أمراً جديداً في حياة الدولة الفاطمية، لذا كان لا بدَّ من مسوغ تاريخي يعتمد عليه في ولاية ابن العم[٢]، فجاء ابن الصيرفي بهذه الحادثة ليسوغ خلافة الحافظ بعد ابن عمه.

ويلاحظ الباحث أنَّ ابن الصيرفي قد أطال في المقدمة بكثرة الحمد والصلاة على الأنبياء والأئمة، ولعل مرد هذا الأمر أهمية الموضوع الذي يكتب فيه، فالإمامة هي الركن الأساس التي تقوم عليه العقيدة الفاطمية، لذا لا بدَّ من التقدمة التي تناسب هذا الموضوع، فنجده يحمد الله على لسان أمير المؤمنين، ثم يستأنف الحمد لله والثناء أن دبَّر أمر الخليقة بخلقه الذين اصطفى، بعد ذلك يحمده أمير المؤمنين مرة أخرى أن جعله إماماً دون أهل عصره، ونقل إليه تراث آبائه الأئمة.

ثم ينتقل الكاتب بعد ذلك لتعزية الخليفة المنتقل الآمر بأحكام الله الذي مات، كما يقول، شهيداً، وكيف أنَّ انتقاله إلى جوار ربه كان كانتقال أمير المؤمنين على بن أبي طالب "بغياً من الكافرينَ واغتِيَالاً"[٣]. ثم يورد مجموعة من الأدلة التي تثبت صحة انتقال الخلافة إلى الحافظ لدين الله؛ ومن هذه الأدلة أن الآمر بأحكام الله ذكر هذا الأمر في حياته مرة جهرا ومرة أخرى سرًّا [٤]، كما أن الآمر هو ابن أبي القاسم محمد سليل الإمامة قليل المثل الذي أطلق عليه المستنصر بالله وليّ عهد المسلمين، وقد ثبت ذلك في التوقيعات التي خرجت إلى الدواوين، كما ثبت في طرز الأبنية، وكتب الابتياعات والأشرية، وعلم ذلك العامة[٥]. وفي هذا الموضع إشارة إلى أن وليّ العهد يثبت اسمه في كافة المعاملات والتوقيعات الصادرة عن الدولة؛ ليعلم العامة ذلك ويؤمنون به، فلم يعد أمر البيعة مقتصراً على سجل يخرج من ديوان المكاتبات إلى مختلف الولايات، وإنما توجد ممارسة إعلامية كبيرة من خلال كافة مكاتبات شؤون الدولة، والبيعة على هذا لا تتجاوز الإعلان الرسمي لعامة الناس بهذا الأمر.

---

[١] خُمّ: واد بين مكة والمدينة، به غدير وحوله شجر كثير، ويقال: إن الرسول، عليه الصلاة والسلام، لما عاد من مكة بعد حجة الوداع سنة ١٠هـ نزل بغدير "خم" وآخى علي بن أبي طالب، ويعلق الشيعة على هذه الحادثة؛ حيث يعدونها مبايعة علنية من الرسول، صلى الله عليه وسلم، قبيل وفاته، لعلي بن أبي طالب، كرم الله وجهه. (ينظر: الحموي، الإمام شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م، ٢: ٣٨٩).

[٢] ينظر: الشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٧٢.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٠٤.

[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٩: ٣٠٤.

[٥] ينظر: المصدر نفسه، ٩: ٣٠٤.

وفي نهاية البيعة يقف بنا الكاتب عند الإشارة إلى مكانة الوزير أبي الفتح يانس الحافظي، وبيان حقِّه من التبجيل والتعظيم، ويختم بدعوة الناس إلى الدخول في بيعة الخليفة الحافظ بنفوس طيبة، موضحا ما تكفل أمير المؤمنين به تجاه الرعية.

وتكمن أهمية هذه البيعة في أنها تؤرخ لمدة تعد من أحرج المدد في تاريخ الدولة الفاطمية، وهي مدة حدوث الانقسام السياسي والمذهبي الثاني في عهد الدولة الفاطمية، حين انقسمت الإسماعيلية إلى فرقتين: الطيبية[١]والحافظية، كما أنها تؤرخ لتجربة جديدة تعرض لها نظام الإمامة في الدولة، وذلك أن يموت الخليفة دون أن يترك له عقبا يتولون الإمامة من بعده.[٢]

وأما الجانب الثاني الذي يتناول موضوع البيعة لوليِّ العهد، فمثال ذلك بيعة بولاية العهد أنشأها علي بن خلف الكاتب[٣]، لم يذكر فيها اسم الخليفة الموصِي أو وليّ العهد الموصَى له.

يبدأها الكاتب بحمد الله تعالى والثناء عليه في أمر الخلافة، ثم يثني بحمد أمير المؤمنين لله تعالى أن اختصَّه بتراث الإمامة والرِّسالة، ثم يصلي على النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والأئمة من بعده، مؤكداً متانة العلاقة التي تربط علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بمحمد، صلى الله عليه وسلم، فهو أخوه وابن عمه ووصيه، فجاءت المقدمة في بيعة ولاية العهد هي ذاتها في بيعة الخليفة الحافظ لدين الله.

ثم ينتقل الكاتب في البيعة إلى مسار آخر، وهو بيان أهمية الخلافة في حياة المسلمين، يقول: "وإنَّ اللهَ تعَالى جعلَ الخلافةَ للكافَّةِ عصمةً، ولأهلِ الإيمانِ رحمةً، تجمعُ كلمتَهم، وتحفَظُ أُلفَتَهم، وتُصْلِحُ عامَّتَهم"[٤]، وللقيام بهذه المهمة أوجد الله الأئمة من أوليائه، وكلَّفهم هذا الأمر، وجعل الإمامة بهم متصلة وكلمة باقية في نسلهم إلى يوم القيامة.

وتتفق المبايعات في مقدماتها على أمر واحد، وهو أحقية الفاطميين من سلالة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بالخلافة، لذا نجدهم في المبايعات وغيرها يكثرون من استعمال العبارات الدالة على هذا المعنى، فيقولون: "جدنا محمد"، و"أخيه وابن عمّه علي بن أبي طالب"، محاولين

---

[١] الطيبية: نسبة إلى الطيب بن عبد المجيد أبي الميمون الآمر بأحكام الله، فقد قتل الآمر في الثاني من ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ، وقيل إنه لم يترك عقباً، لكنه ترك إحدى زوجاته حاملاً، فعُين الحافظ ابن عمه حاكماً مؤقتاً على أن يكون ولياً للعهد وكفيلاً للطفل إن جاء ذَكَرَاً، غير أن زوجته أنجبت طفلة، فاستقر الحافظ بالحكم، ولكن سرعان ما ظهرت بعض المصادر التي تشير إلى أن زوجة الآمر أنجبت طفلا اسمه "الطيّب"، وكان هذا قبل مقتل الآمر بشهور، فاحتفل بولده احتفالاً علنياً وأعلنه ولياً للعهد، فظهرت على هذا فرقة عرفت بـ"الطيبية" نسبة للطيب، ينادون بأحقيته بالحكم. (ينظر: الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٨٥ــ ٨٦).

[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٧٦.

[٣] ينظر: مواد البيان، ٦٦٤- ٦٦٧.

[٤] المصدر نفسه، ٦٦٥.

في كل ما يصدر عنهم إثبات صحة نسبهم إلى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وإقناع عامة الناس أنَّ الله تعالى جعل الخلافة لعلي من بعد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وهي باقية في عقبه إلى يوم القيامة، وأن الله بخلافتهم أنقذ البشر.

بعدها يدخل الكاتب في موضوع البيعة، فأمير المؤمنين رأى أن ما فُوِّض إليه من أمر الخلافة لا بدّ أن ينتقل لمن بعده، فلشدة حرصه على الأمة، وخوفه من حدوث الانشقاق، وإراقة الدماء، وانتشار الفتن، رأى أن يعهد لأحد أبنائه، ولم يذكر اسمه، ولاية العهد من بعده، ذاكرا الصفات التي اجتمعت في ولي العهد، ودفعت أمير المؤمنين لتوليته ولاية العهد من بعده من علم، وفضل، وعدل، مبينا المهام التي تجب عليه تجاه أمته وخدمتها، من العمل بكتاب الله وسنته، والدفاع عن الدين، ومسامحة المسلمين، وإقامة العدل، وانتقاء العاملين، وغير ذلك من المهام التي لا بدَّ له من العمل الأخذ بها لتستقيم الدولة تحت إمرته.

ويختم علي بن خلف البيعة بطلب المبايعة من الناس كافة لوليِّ العهد الموصَّى له، يقول: "فبايعُوا على بركةِ اللهِ طائعينَ غيرَ مُكرَهينَ"[1]، مؤكدا ضرورة انقياد الأمة لهذا الاختيار، وضرورة علم الأمراء بمضمون هذا البيعة والعمل به في مختلف أعمالهم.

## ٤. رسائل انتقال الخلافة:

جرت العادة في الدولة الفاطمية إذا انتقلت الخلافة إلى خليفة آخر أن تنشأ الكتب أو الرسائل بهذا في ديوان الإنشاء على مرحلتين: الأولى أن ينشأ السجل متضمنا المعنى ذاته ليقرأ على رؤوس كافة الأجناد والأمراء، فهو خطاب موجه إلى الخاصّة متضمناً خبر انتقال الخلافة إلى الخليفة المعني بالأمر. والمرحلة الثانية هي كتابة السجل متضمنا المعنى نفسه، ولكنَّ الخطاب هذه المرة موجه إلى ولاة الأقاليم ليعلموا بهذا الأمر ويُعلموا الرعية به ليعملوا بمضمونه، فالأول يمثل البيعة الخاصة، والثاني البيعة العامة.

ومن المكاتبات التي جاءت تمثل الحالة الأولى السجل الذي أنشأه ابن الصيرفي معلنا وفاة الخليفة المستعلي وولاية الآمر مكانه[2]، يبدأه الكاتب ابن الصيرفي بتحديد جهة الخطاب، فهو موجه من الآمر بأحكام الله إلى كافة الرعية على اختلاف طبقاتها، إلا إنه قُرِئ على رؤوس

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٠٨.

[2] ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ١: ٥٢٣- ٥٢٦.

الخاصة من الأمراء والأجناد[١]، ولم يعمم على ولاة الأقاليم بعد. يبدأه ابن الصيرفي بتحديد جهة الخطاب، فهو موجَّه من الآمر بأحكام الله إلى كافة شرائح المجتمع الفاطمي آنذاك؛ وتفسير هذا الأمر،رغم أنه موجه للأمراء والأجناد، إلا أن الخطاب لعامة الناس، أن الخلافة قد تمت للآمر، وهذا البيان لعلم المخاطبينَ به والعمل بمضمونه في حقيقة الأمر، وهذه ما يعكس في حقيقة الأمر ضعف أمراء البلاط وأجناده في حضرة وزارة الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان مسيطرا على كافة الأمور آنذاك.

وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى السلام وحمد الله تعالى والصلاة على محمد، صلى الله عليه وسلم، وآله والأئمة، ثم يستأنف الحديث بـ"أما بعد" ليأتي بعد ذلك بحمد ثان يضمنه حكمة الله في الموت أن جعله حكما يستوي فيه جميع الناس، وتفضيله الأمة بالأئمة الذين يرعون أمورها، ثم يحمد الله تعالى مرة أخرى أن أورثه الخلافة متأثرا بالمصيبة التي حلت بهم، وهي وفاة أبيه المستعلي.

ثم يأتي بصلاة ثانية على النبي، محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى أخيه وابن عمه علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، مشيدا بكليهما، مؤكدا حقَّ الدولة الفاطمية بخلافة المسلمين، مستدلا على حقهم، المزعوم، بالنسب الذي يربطهم بالنبي، عليه الصلاة والسلام، وحادثة المؤاخاة بين محمد، صلى الله عليه وسلم، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والعمومة التي تجمعهم، فهم أبناء عمومة النبي الكريم، وهم أحقُّ الناس بالخلافة.

ويذكر الكاتب بعد ذلك الخليفة المتوفَّى المستعلي بالله مؤكداً صحة خلافته وإمامته، مشيداً به، لينتهي من هذا بإعلان حزن الخليفة الجديد، الابن، الآمر بأحكام الله على وفاة والده.

وينتقل ابن الصيرفي في سجله إلى موضوع الإمامة، وهو موضوع يكسب السجل قيمة عَقَديَّة تضاف إلى قيمة السجل التاريخية، فالإمامة هي ركن العقيدة الأساس وقاعدة الإسلام عند الفاطميين، لذا نجد ابن الصيرفي يحرص على إبراز موضوع انتقال العلوم الإلهية التي استودعها النبي محمد، عليه الصلاة والسلام، إلى الوصي علي بن أبي طالب، في اعتقادهم، وأنَّ هذه العلوم بقيت في نسل كل إمام، إلى أن أورثها المستعلي ابنه الآمر، يقول: "وقدْ كانَ الإمامُ المستعلي بالله– قدَّسَ اللهُ روحَه- عندَ نُقْلَتِه جعلَ لي عَقْدَ الخلافةِ من بعدِه، وأودعني ما حازَه من أبيهِ عن جدِّهِ، وعَهِدَ إليَّ أنْ أخْلُفَه في العالم"[٢]، وبعد أن يشير الكاتب إلى الأسباب الموجبة لخلافة الآمر أبيه

(١) ينظر: المصدر نفسه، ١: ٥٢٣.
(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ١: ٥٢٤- ٥٢٥.

المستعلي، من خلال العلوم الإلهية، والوصايا التي لقنها المستعلي ابنه الآمر قبل نقلته، ويشير إلى المكانة التي احتلها الأفضل في عهد المستنصر والمستعلي الفاطميين، والتأكيد على الآمر بأحكام الله أن يحافظ على هذا التقدير للأفضل بإعلاء مكانته وتكريمه، وأن يجعله ظهيرا له في كل كبيرة وصغيرة، وأن لا يخفي عنه شيء، وأن ينظر في تدبير الأمور جميعا.

وتختم الوثيقة بإعلان العزاء في الخليفة المستعلي بالله والبشرى بتولية ابنه الآمر بأحكام الله، والطلب من كافة الشرائح بتقديم الولاء والطاعة والقيام بشروط البيعة .

وبعد أن يتم إعلان حدث الوفاة وانتقال الخلافة إلى خليفة جديد، ويخاطب بهذا أولي الأمر والأجناد في العاصمة[١]، يُكتَب سجلٌ في انتقال الخلافة من الخليفة المنتقل إلى الخليفة القائم أو الإمام الجديد ويوجه إلى ولاة الأعمال في الأقاليم التابعة للدولة الفاطمية، لكي يُعْلنوا الخبر للرعية، ومن الأمثلة على ذلك السجل الذي أنشأه ابن الصيرفي عن الآمر بأحكام الله بعد استقراره في الخلافة ووجهه إلى ولاة الأقاليم لإعلان خلافة الآمر بعد وفاة أبيه.[٢]

و قد جاء ابن الصيرفي في هذا السجل بما جاء به في السجل السابق الذي قرئ على رؤوس الأمراء والأشهاد في العاصمة، يبدأه بحمد لله والثناء عليه، ثم يثنِّي بحمد آخر على لسان أمير المؤمنين أن خصَّه بالإمامة دون خلقه، ليصلي بعد ذلك على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب و الأئمة من بعده، مؤكدا فضل الإمامة في حياة البشر، وأنَّها حقٌّ لهم، نسل علي بن أبي طالب، إلى يوم الدين.

بعد ذلك يعلن وفاة الإمام المستعلي، مظهراً حزن ابنه الآمر بأحكام الله الشديد على رحيل والده، ثم يشير إلى انقضاء أمر البيعة الخاصة، يقول: "وكتابُ أميرِ المؤمنينَ يومَ كذا من الشهرِ الفلانيِّ من سنةِ كذا، بعد أنْ جلسَ للحاضرينَ بحضرتِه من الأمراءِ؛ عمومتِه، وأوليائِه، وخدمِ دولتِه، وسائرِ أجنادِه، وعبيدِ مملكتِه، وعامةِ شيعتِه، وأصنافِ رعيتِه"[٣]، وهذا ما يراد به البيعة الخاصة، وهو أمر لا بدَّ منه للبيعة العامة، فلكي تبايع الأمة الخليفة لا بدَّ له من الحصول على البيعة الخاصة من المقربين له، وهذا ما أراد ابن الصيرفي إيصاله إلى ولاة الأقاليم، أن أمور البيعة الخاصة قد تمت للآمر بأحكام الله ولم يبق إلا مبايعة العامة، وهذا دور ولاة الأقاليم نيابة عن الآمر لأنه لا يستطيع أن يبايع الأمة كاملة، فلا بدَّ أن ينوب عنه غيره في هذا الأمر، وهم ولاة

---

[١] ينظر: الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٤١.
[٢] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٢٤٠.
[٣] المصدر نفسه، ٨: ٢٤١.

الأقاليم والدعاة الفاطميون الذين يأخذون عليهم الأيمان بالمبايعة للخليفة، والعمل بهذه البيعة بين الناس.

وبعد أن يعلن أمر البيعة الخاصة، يقرُّ مكانة الوزير الأفضل شاهنشاه، ويثني عليه في نصرته الدولة العلوية، وحفظ الإمامة الآمرية، ليعلن وصاية الوزير الأفضل بن بدر الجمالي على على الآمر بأحكام الله الذي لم يتجاوز من العمر خمس سنوات[١]، يقول: "يتولَّى الأمرَ بحضْرَتِه تولِّي الكافِلِ الزعيم، ويباشرُ النظرَ في بَيعتِه مُباشرةَ القَسيمِ الحَميم"[٢]، وهذا ما يدلُّ على أن الأفضل شاهنشاه هو صاحب النفوذ الفعلي آنذاك.

وفي ختام السجل يوجه الكاتب الأمر إلى ولاة الأقاليم ليعلموا مضمون السجل الآمري، ويعملوا، فيأخذ الوالي البيعة على نفسه لأمير المؤمنين، ومن ثمَّ يأخذها من الرعية في ولايته، ويؤكد ضرورة أن يعلم هذا كلُّ من ورد عليه أو استوطن ولايته.

وللسجلين السابقين في انتقال الخلافة إلى الخليفة أهمية بالغة، حيث يعدَّان وثيقتين تاريخيتين، تقدمان صورة حقيقية للسياسة الحاكمة وللوضع الذي وصلت إليه الدولة الفاطميّة، السجلان كتبا بعد وفاة المستعلي بالله واستلام ابنه الآمر مكانه إماما وخليفة للدولة في سنة ٤٩٥هـ[٣]، وكانت الدولة مشتملة على وزير وهو الأفضل بن بدر الجمالي. ويكشفان لنا مدى النفوذ الذي امتلكه الوزراء الفاطميون آنذاك إذ لم يتجاوز دور الخليفة الجانب العلني للناس، أما من يتصرف بحقيقة الأمر فهو الوزير.

## ٥. رسائل الأمانات:

واحدها أمان، وهي من المكاتبات الدارجة في أغلب العصور، لحاجة الأفراد والجماعات لها، فهي تبعث الأمن في القلوب، وتحفظ النفوس؛ إذا دارت الحروب أو انتشرت الفتن.

ورسائل الأمانات من المكاتبات التي يراعى في إنشائها قوة خطابها، لضرورة دلالتها على شدّة سلطان من كُتبت عنه، إذ كان يُؤمِّنُ الخائف أمْنا لا عوضَ عنه في عاجلٍ ولا آجل.[٤]

---

[١] ينظر: الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٥: ١٧١.
[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٢٤١.
[٣] ينظر: الخطط، المقريزي، ٢: ١٩٩.
[٤] ينظر: البقلي، التعريف بالمصطلح الشريف، ٢٣٤.

ورسائل الأمانات تأتي في ضربين: عامٍّ وخاصٍّ؛ فأما الأمان العامّ فهو ما يُعقد للعددِ الذي لا يُحصرُ كأهلِ ناحية؛ ولا يصحُّ عقدُ الأمانِ فيه إلا من الإمامِ أو من نائبِه. والأمان الخاص ّهو ما يعقد للواحدِ أو العددِ المحصورِ ويصحُّ عقده من كلِّ مسلمٍ مكلف. (١)

ومن الأمثلة على رسائل الأمان العام ما كتبه الحافظ لدين الله لأقارب وزيره بهرام الأرمني(٢) بعد أن صرفه عن الوزارة، وهرب الأرمني ومن معه إلى بلاد الأرمن(٣). ويبدأ الأمان بتحديد نوع الخطاب وجهته، يقول: "هذا أمانٌ تقدَّمَ بكَتْبِهِ عبدُالله ووليُّه، لبسيل وزرقا، وبهرامَ ابنِ اخْتِهما، ومن ينتَمي إليهم ويتعلَّقُ بهم، ويلتزمُونَ أمرَه ممن دُونَهم، ومن يتمسَّكُ بسبَبِهم"(٤)، وكاتب هذا الأمان كما يظهر من السياق هو الحافظ لدين الله الفاطمي، ويستدل على هذه من قوله: "هذا أمانٌ تقدَّمَ بكَتْبِهِ"، إذ كان الرسم في الدولة الفاطمية أن يكتب هذا السياق إذا خَطَّ الأمان الخليفة، أما إذا كان صادرا عن الوزير فالنهج في ذلك أن يقال: **"وأمانُ أميرِ المؤمنين فلان بن فلان"**.(٥)

ويظهر الأمان بعد ذلك مدى العناية والإحسان والرعاية الخاصة، والإقطاعات التي نالها هؤلاء القوم في الدولة، مظهرا رغبة الحافظ لدين الله بعودة أقرباء بهرام الأرمني إلى بلاده بعد أن خرجوا منها خائفين، فعلى الرغم أنهم ذكروا رغبتهم بالعودة إلى بلاهم أكثر من مرة إلا أن الحافظ لدين الله مايزال متمسكا بهم لا يريد منهم أن يقوموا بذلك، حتى إذا تركوا البلاد سرعان ما أرسل لهم هذا الأمان الذي يؤمنهم به على نفوسهم، وأهليهم، وأموالهم، وما تحويه أيديهم، وما يملكونه، ويحتاطونه، يقول: "فأنتم آمنونَ بأمانِ الله تعالى وأمانِ جدِّنا محمد رسولِه وأبينا أميرِ المؤمنين"(٦)، فهو يؤمِّنهم، إن أرادوا العودة للدولة، بأن لا يصيبهم لا خوف ولا مكروه، ويضمن لهم في أمانه أن يحافظ على رسومهم، وواجباتهم، التي كانت لهم، لا ينقص منها شيء، وإن أرادوا العودة إلى ديارهم فهو شاملهم بالرعاية؛ ولعل سبب تعلق الحافظ لدين الله بهذه الطائفة الأرمنية، هو تعلقه ببهرام الأرمني نفسه الذي عمل وزيرا لديه، فكأنه أراد أن يعيده إليه بأي ثمن لذا اضطر أن يبعث هذا الأمان إلى أقاربه وكل من تعلق به ليؤمنه على جماعته فيعود.

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ٣٢٢.
(٢) أبو المظفر بهرام الملقب بتاج الملوك، أرمني مسيحي، أحد وزراء الحافظ لدين الله الفاطمي، ترك الوزارة سنة ٥٣١هـ بعد أن بقي بها سنة، مات سنة ٥٣٥هـ. (ينظر: الأندلسي، ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ٨٧).
(٣) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ٣٢٥.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ١٣: ٣٢٥.
(٥) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٦٧.
(٦) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ٣٢٦.

ومن الأمثلة على الأمان الخاص ما كتبه الحافظ لدين الله بيده من أمان لبهرام الأرمني، يمنحه بموجبه الأمان على أن يعود مواليا للدولة العلوية. ويبدأه بما بدأ به الأمان السابق من تحديد جهة الأمان فهو صادر عن الحافظ لدين الله الفاطمي، كتبه بيده، إلى بهرام الأرمني، والملاحظ في هذا الابتداء أن الحافظ لدين الله أبقى على الألقاب الممنوحة لبهراه رغم أنه صُرف عن الوزارة، يقول: "للأميرِ المقَدَّمِ، المُؤيدِ، المَنصورِ، عزِّ الخلافةِ وشمسِها، وتاجِ المملكةِ ونظامِها، فخرِ الأمراءِ، شيخِ الدولةِ وعِمادِها، ذي المجدَيْنِ، مصطفى أميرِ المؤمنينَ بهرامَ الحافظي"[(١)]، ويبدو لنا من هذه التقدمة مدى حرص الحافظ على عودة وزيره السابق بهرام، فهو يخاطبه بهذه الألقاب ليمنِّي له العودة إلى ما كان، ويستمرَّ في خدمة الدولة العلوية، فتعود الأحوال لما كانت عليه في السابق، وبعد ذلك يعلن الحافظ لدين الله الأمانَ لبهرام على نفسه وماله بالصيغة نفسها التي وردت في الأمان السابق، بأمان الله، ورسوله، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ويشترط لذلك أن يعود مواليا للدولة العلوية، معاديا لأعدائها، مواليا لأمير المؤمنين، وفي ختام الأمان يكرر الحافظ طمأنة بهرام، وأن الله كفيل وشهيد على ما أمضى له.

ويلاحظ الباحث في هذين الأمانين حرص الفاطميين وتأكيدهم انتسابهم إلى نسل النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وأنهم هم والأحق بالخلافة من غيرهم لأنهم أبناء على بن أبي طالب، رضي الله عنه، وبالتالي فالخلافة باقية في نسلهم إلى يوم القيامة، فيكرر في النصين قوله: "جدِّنا محمد"، و"أبينا علي"، وفي هذا التكرار تأكيد أحقيتهم في الخلافة أو الزعامة.

## ثانيا: رسائل التنظيمات الإداريَّة والماليَّة:

اهتمَّ الفاطميون منذ أن دخلوا مصر بالتنظيم الإداري للبلاد المصرية، لذا برزت عنايتهم الفائقة بالموظفين الذين يتولون المناصب الإدارية، فيكثرون عطاءهم، ويُمنحون الملابس والهدايا في مختلف الأعياد والمواسم، وكانوا من ذوي الخبرة، يتلقون تدريباً لائقاً على جميع الأنواع الكتابية، التي تلزمهم في أثناء عملهم في الدواوين. وخير مثال على ذلك من يعمل في ديوان الإنشاء، فمن يعمل في ديوان الإنشاء يحظى باهتمام وعناية فائقتين، ليكون بذلك مؤهلاً للعمل بين يدي الفاطميين، وكان الإشراف على إدارة شئون البلاد يتم من خلال الدواوين، التي يطلق عليها "الوظائف الديوانية"، وكانت قائمة على أركان ثلاثة رئيسة: ديوان الإنشاء الذي كان يصدر الأوامر العليا في كلِّ ما يتعلق بإدارة البلاد، ويتم إرسالها إلى الدواوين والأعمال،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ٣٢٥.

ودواوين المالية التي كانت تقوم بجباية الأموال وإنفاقها، ودواوين الإدارة المحلية التي كانت تحكم الولايات.(١)

إلا إنَّ التنظيم الإداري في مصر في أيام الفاطميين لم يكن بعيداً عن النظام الإداري العباسي، فقد تأصل في هذا التنظيم الطابع السُّنِّي قبل مجيء الفاطميين في عهد الدولتين شبه المستقلتين: الطولونية، والإخشيدية اللتين أبقتا على النُّظم الإدارية العباسية(٢)، وعلى هذا فالدولة الفاطمية لم تأتِ بجديد فيما يخصُّ تنظيم الدولة، وإنما كانت العناية كما تقدمنا بالقائمين على أمر الإدارة، الذي لا بدَّ أن يكون مدرباً مؤهلاً للمنصب الذي سيعمل به، منتميا للعقيدة الفاطمية التي سيقوم بالدعوة لها، ونشر مبادئها بين أهالي مصر، وغالبيتهم سنّة، فقد كانت الدولة الفاطمية تصدر الكثير من السجلات وتوجهها إلى ولاة أعمالها في مختلف أنحاء الدولة، طالبة منهم العلم بمضمونها والعمل بها بين الرعايا، لذا كان من الضروري أن يكون القائم على إدارة شأن الدولة في مختلف البقاع فاطميَّ المذهب، ليوصل إلى الناس ما ترغب الدولة في إيصاله وتبيانه خاصة في الأمور التي تخصُّ العقيدة الفاطمية، وقد كانت العناية فائقة في هؤلاء الأشخاص؛ ليوقعوا هيبة الدولة والخليفة في قلوب الناس؛ فيقدِّسونهم.

وجلُّ الرسائل أو المكاتبات التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر تتناول الجانب الإداري والمالي، وهذا دليل على مدى عناية وحرص الدولة الفاطمية على ترتيب الدولة إداريا وماليا، وسيعرض الباحث رسائل التنظيمات الإدارية والمالية من خلال الوظائف التي عبَّرت عنها الرسائل التي بين يدي الباحث، ووصلت عن العصر الفاطمي، نحو رسائل الوزارة، ورسائل الولاية، ورسائل الوظائف الدينية: القضاء، وداعي الدعاة، والنظر في المظالم، والحسبة، ونقابة العلويين، والإمارة على الجهاد، وإمارة الحج. ورسائل الوظائف المالية: تصحيح السنة الخراجية، والإقطاعات، والاستيفاء، والمرتجع، والمواريث الحشرية، والرِّباع. ورسائل زمِّ الطوائف، ورسائل إقرار النعوت.

---

(١) ماجد، عبد المنعم، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٥٣م ، ٩٦.
(٢) المصدر نفسه، ٩٤.

### ١. رسائل الوزارة:

الوزارة أرفع الوظائف وأعلاها رتبة بين الوظائف الفاطمية، وقد كانت تراوح مكانها في الدولة الفاطمية بين أرباب الأقلام وأرباب السيوف، فأما أرباب الأقلام فأولهم يعقوب بن كلِّس وزير العزيز بالله، وأما أرباب السيوف فأولهم بدر الجمالي وزير المستنصر.[١]

وقد عاش الوزراء الفاطميون عصرين في عهد الخلفاء الفاطميين: عصر وزارة أرباب الأقلام، وهي المدة الأولى من حكم الفاطميين لمصر، وقد عرف بها الخلفاء الفاطميون بقوة شخصيتهم ونفوذهم الذي لم يسمحوا به للوزراء إلا أن يكونوا منفذين للأوامر فقط، وسمي هذا عصر وزارة التنفيذ. أما العصر الآخر فهي المدة الثانية من حكم الفاطميين لمصر، الذي كان الخلفاء فيه من ضعاف الشخصية أو صغار السن، فلم يكن للخليفة الشخصية والنفوذ القويان اللذان يكبح بهما جماح الوزير، فكانت الوزارة في هذا العهد وزارة تفويض، أي كان الوزير مفوضاً من الخليفة مباشرة بإدارة أمور الدولة، والوزراء على هذا هم أصحاب السلطة الفعلية.[٢]

و بناء على ما سبق، سيعرض الباحث سجلين وردَا بتعيين وزيرين يمثلان العصرين: عصر التنفيذ وعصر التفويض؛ لتتبين المفارقة بينهما.

أما العصر الأول، عصر التنفيذ، فمن الأمثلة على ذلك ما كتبه ولي الدين أبو علي ابن خيران، من سجل بتعيين أبي القاسم علي بن أحمد الجَرْجَرائي[٣] وزيراً للخليفة الظاهر.[٤]

يبدأ الكاتب ابن خيران السجل بحمد الله والثناء على نعمه، ويثني بحمد الله على لسان أمير المؤمنين، ثم يصلي على نبيِّه محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلى الأئمة من بعدهما. ويلاحظ أن الكاتب بدأ في هذا المقام بما سار عليه الكتاب الفاطميون من حيث التأكيد على عدة مضامين في مقدمة رسائلهم، فلا بدَّ للكاتب من تأكيد عدة أمور تمس مبادئ الفاطميين، فابن خيران يشير في ثنايا الحمد والصلاة ، "يحمدُهُ أميرُ المؤمنين حمدَ مخلصٍ في الحمدِ والشكر، متخصصٍ بشرف الأمانةِ ونفاذ النهي والأمرِ"[٥]، فالإمامة موجبة لحمد الله وشكره على الأمانة التي حُملها أمير المؤمنين، فأمره ونهيه نافذ بإمامته للبشر، كما يشير

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣ : ٥٥٣.
(٢) ينظر: الشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية،٢٧.
(٣) نجيب الدولة أبو القاسم علي بن أحمد الجَرْجَرائي، كان أقطع اليدين من المرفقين لخيانة لديه، تولّى بعض الدواوين منها ديوان النفقات، ثم وزر للظاهر سنة ٤١٨هـ، توفي سنة ٤٣٦هـ، وكانت مدة وزارته ١٧ سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣: ٤٠٧- ٤٠٨).
(٤) ينظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ٨٠ – ٨٣، الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٣١٣.
(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ٨٠، والشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٣١٥.

إلى العلاقة التي تربط علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهو أخوه بالتآخي ووزيره، اختاره الله تعالى أميرا للمؤمنين، إماما، لذا فهم يرون أنهم الأحق بالخلافة وزعامة المسلمين، لاختصاص العلاقة بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ويشيرون دائما إلى أمرين، أمر التآخي حينما آخى الرسول عليه السلام بينه وبين علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وأمر الوزارة، وهي وزارة هارون لموسى عليهما السلام، ويرون أن الإمامة حقٌّ في نسل على إلى يوم القيامة.

وبعد ذلك ينتقل الكاتب ليتحدث عن أهمية الوزارة في حفظ الأموال وتمييزها، وتدبير شؤون الدولة ورعايتها، مستشهدا بآيات قرآنية، تتضمن مواقف للأنبياء في سياسة أمورهم، وتؤكد أهمية الوزارة في حياة الأمم. ثم ينتقل السجل معددا الصفات التي أهَّلت علي بن أحمد الجَرْجَرائي ليكون وزيرا وموضع ثقة الخليفة، من أمانة، وعلم، وحسن سياسة، ودربة على الكتابة، وعلو المنزلة، وغير ذلك.

ويبدو أن هنالك علاقة قوية ربطت الوزير الجَرْجَرائي بأمير المؤمنين الظاهر، حيث خصَّ أمير المؤمنين الجرجرائي بألقاب لم تكن لأحد قبله من أهل الدولة، يقول: "ويُنوِّهُ باسمِك تنويهاً لمْ يكُنْ لأحدٍ قبلَكَ من الظُّهَرَاءِ في دولتِه ... فأنتَ الوزيرُ الأجَّلُ صفيُّ أميرِ المؤمنينَ وخالصتُهُ المحبوُّ بالمنِّ الجسيم"[١]، ومنح مثل هذه الألقاب من المهام التي لا يمنحها بها إلا أمير المؤمنين، ويبِّين ابن خيران الكاتب أنَّ كل لقب من الألقاب بيان لمدى المكانة التي يحتلها الجرجرائي في الدولة، ومدى العلاقة التي تربطه بالخليفة، يقول: "فسمَّاكَ بالوزيرِ؛ لموازرتِك له على حملِ الأعباء، ووكَّدَ هذا الاسمَ بالأجَّلِّ؛ لأنَّك أجلُّ الوزراءِ، وعزَّز ذلك بصفيٍّ أميرِ المؤمنينَ وخالصتِهِ؛ إذْ كنتَ أعزَّ الخلصاءِ والأصفياءِ، وشرَّفَك بالتكنيةِ تسميقاً لك في العلياء"[٢]. ويبيِّن لنا السجل بعد ذلك أنَّ هذه الألقاب حقٌّ من حقوق الوزير التي يجب أن تثبت في كل ضروب المكاتبات، وأشكال المحاورات.

ويشير السجل إلى أمر في غاية الأهمية فيما يخصُّ الوزارة، وهو الوساطة، فيبيِّن لنا ابن خيران فيما كتب أن الخليفة يرى في وزيره بعد إعلان تكليفه وسيطا بينه وبين الرعية، يقول: "وجعلَكَ الوسيطَ بينَه وبينَ أوليائِه وأنصارِ دعوتِه، وولاةِ أعمالِ مملكتِه، وكتَّابِ دواوينِه وسائرِ

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ٨١، والشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٣١٧.
(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ٨١، والشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٣١٧- ٣١٨.

عبيدِه ورعيتِه"[١]، والوساطة تعبير يطلق على الوزارة محدودة الصلاحيات في الدولة الفاطمية. ويراد بمحدودية الصلاحيات هنا عدم تجاوز الخليفة في أيٍّ أمر من أمور الدولة وأحوال الرعية.

وينتقل السجل بعد هذا لبيان المهام التي وكِّل للقيام بها، فهو يدعوه لرعاية أوليائه من الجند وإصلاح أحوالهم؛ ويبرز في مثل هذا الموضع مدى حرص الفاطميين على صلاح أمور الجند والعناية بالجانب العسكري، فهو المكون الأول الذي يستحق العناية الكبرى؛ لاعتماد الدولة عليه في نشر هيبتها في قلوب من يكنون لها العداء، وقد برزت في "رسائل البشارات" التي سبق الحديث عنها مدى عناية الفاطميين بهذا الجانب.

كما يوجه السجل الوزير للعناية في أمر انتقاء الولاة على الأعمال، وأن يراعي أحوال الرعية، فمن ألفاه من الرعية مظلوما وجب إنصافه، ومن ظلم من الولاة وجب صرفه، ودرء مضرته.

ويجب على الوزير النظر في مَنْ يتولى الأموال من ولاة الدواوين والأعمال، ويشير إلى شكل من أشكال الفساد التي قد تحدث عند مَنْ يتولى أمور الأموال، حيث يضعف بعضهم ويقبل الرشاوى، ويجعلهم الكاتب في صنفين: صنف يقع في الرشوى لفاقته، ولا بدَّ للوزير من تحسين ظروفه، والآخر يقدم على هذا لجهله ولا بدَّ للوزير من إرشاده.

ويتضح من هذه المهام أن الوزير لا يتجاوز أمر الأمير في إدارة شؤون البلاد، فقد كلَّفه بالوزارة وضمَّن تكليفه ما يجب عليه من عمل، حتى إذا وقع الخلل فإن الحلَّ مدرج من قبل الأمير لا غير، فرغم العلاقة الطيبة التي تجمع الوزير بالأمير إلا أن الوزير لا يمكن الخروج عن الحدود التي يرسمها الأمير له، والأمير لا يترك الأمور تحت تصرف الوزير كيفما شاء، هذه هي وزارة التنفيذ التي سادت العصر الفاطمي الأول وهو عصر قوة الخلفاء.

ويختم الكاتب ابن خيران السجل بالتنويه بفضل الوزير الجرجرائي، وأنه استحقَّ هذا المنصب والتكريم عن جدارة، ثم يدعو له بالتوفيق.

ومن السجلات التي تمثل العهد الثاني من الوزارة الفاطمية، وزارة التفويض، العهد الذي كتبه القاضي الفاضل بتعيين أسد الدين شِيركوه[٢] وزيرا للخليفة العاضد[١]. ويبدأ القاضي الفاضل

---

[١] ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ٨١، والشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٣١٨.

[٢] أبو الحارث شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين، تولى الوزارة سنة ٥٦٤هـ، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، وتوفي فجأة في القاهرة سنة ٥٦٤هـ، ودفن بها ثم نقل إلى المدينة المنورة بوصية منه، وشيركوه لفظ أعجمي، تفسيره بالعربي أسد الجبل. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢: ٤٧٩- ٤٨١).

العهد بتحديد جهة الخطاب، فهو صادر عن الإمام العاضد لدين الله إلى السيد أسد الدين شِيركوه، والملاحظ على تقدمة العهد أنَّ فيها من الإجلال وبيان المهام العليا ما لا نراه في السجل السابق بتعيين الجرجرائي وزيرا، ففي هذا العهد يقول القاضي الفاضل مخاطبا الوزير أسد الدين شِيركوه: "إلى السيِّدِ الأجلِّ الملكِ، المنصورِ، سلطانِ الجيوشِ، وليِّ الأمةِ، فخرِ الدولةِ، أسدِ الدينِ، كافلِ قضاةِ المسلمينَ، وهادي دعاةِ المؤمنين"[٢]. ومثل هذه الأوصاف تبيّن لنا المكانة التي نالها الوزير في ظل وزارة التفويض، وزارة العهد الثاني من حياة الدولة الفاطمية، فالكاتب يكتفي بالإشارة إلى أمير المؤمنين وذكر اسمه، في حين نجده يأتي بتمجيد الوزير المكلف وبيان المهام التي نزعت من الأمير لينهض بها الوزير، فالخطاب يحتفل بالأقوى وهو الوزير.

وبعد ذلك ينتقل الكاتب ليحمد الله في غير موضع، ويثني عليه مبينا نعمة الإمامة وفضلها على الأمة، ويصلى على النبي محمد، عليه الصلاة والسلام، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والأئمة من بعده محتفيا بالعلاقة التي تربطهم بالنبي محمد، صلوات الله عليه، فهم من نسل علي بن أبي طالب، والنبي الكريم آخى بينه وبين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مؤكدا بذلك صحة النسب، والاشتراك في السبب وهو الإمامة؛ لتأكيد الأحقيّة فيها دون غيرهم، وهذه المقدمة يأتي بها الكتّاب الفاطميون في كل مكاتباتهم، لأنهم حريصون على ترسيخ مثل هذه الأفكار والقيم في ذهن المتلقين وإقناعهم بهذا الأمر، رادين على العباسيين الذين لطالما طعنوا في صحة نسبهم إلى محمد، صلى الله عليه وسلم.

ويأتي الكاتب القاضي الفاضل بحديث عن أمير المؤمنين العاضد الفاطمي، مبينا النعم التي خصَّه الله تعالى بها، وأن من أكثر هذه النعم وأعظمها قدرا نعمة الله على الأمة أن رزقها هذا السيد أسد الدين شِيركوه، ويأتي الكاتب بحديث مطوّل يثني به على الوزير شِيركوه على ما قدمه للدولة العلوية، مؤكدا أن ما ناله من فضل أمير المؤمنين حقٌّ له دون غيره.

وبعد حديث طويل يسوغ فيه الكاتب اختيار أحد السنة ليكون وزيرا لدولة فاطمية المذهب، يأتي الكاتب بنص تقليد أمير المؤمنين أسد الدين شِيركوه الوزارة قائلا، "وقلَّدكَ أمير المؤمنين وزارتَه، وتدبيرَ مملكتِهِ، وحياطةَ ما وراءَ سريرِ خلافتِهِ، وصيانةَ ما اشتملت عليه دعوةُ إمامتِهِ، وكفالةَ قضاةِ المسلمين، وهدايةَ دعاةِ المؤمنين"[٣]، والعاضد بهذا يفوِّض وزيره أسد الدين أمور

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠ : ٨٠ - ٩٢.
[٢] المصدر نفسه، ١٠: ٨١.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٨٨- ٨٩.

الدولة جميعا، فهو المتصرف بكافة الصلاحيات التي أنيطت بالإمام، والإمام على هذا لا يتجاوز حدود الشكليات، فالآمر والناهي الذي يتصرف في كل كبيرة وصغيرة هو وزير الدولة.

ومثل هذا النص يشير إلى مدى الضعف الذي وصل بالدولة الفاطمية وخلفائها، إذ لم يعد لديهم من ملتهم الفاطمية من يثقون به ليجعلوه وزيرا لهم، فاستعانوا بأهل السنَّة، كما لم يعد لديهم خلفاء أقوياء، يحسنون قيادة الدولة، فجلُّ من حكم بعد المستنصر بالله من صغار السنِّ وضعاف الشخصية.

ويختم القاضي الفاضل السجل بمجموعة من الوصايا التي يوجهها أمير المؤمنين لوزيره الجديد، فيأمره بالعناية بأمور العساكر، والقضاء، والأموال، والرعايا، والجهاد، ولعلَّها الأمور التي لم تلق العناية الكافية في العهد المتأخر من الدولة الفاطمية، وطالتها يدُ الفساد في الدولة، فأحلَّت الدولة عصر الضعف والصَغَار، فيأمل العاضد الفاطمي من وزيره أسد الدين شيركوه أن يعيد الأمور إلى ما كانت عليه. ويختم بعد هذه الوصايا بالدعاء بالتوفيق، وتجديد ثقة أمير المؤمنين به، طالبا منه العمل بمضمون العهد.

ومن يتأمل السجلين الأول والثاني يدرك المفارقة بين الوزير في العهد الفاطمي الأول "عهد وزارة التنفيذ" والوزير في العهد الفاطمي الثاني "عهد وزارة التفويض"، والفرق يكمن في المهام الموكلة إليه، فهو في العهد الأول الموسوم بعهد وزارة التنفيذ لا يتجاوز كونه موظفا كبيرا في الدولة ينفذ أوامر الخليفة ويخضع لسلطانه، لذا فالخليفة الظاهر لدين الله جعل الوزير الجرجرائي بمنزلة الوسيط بينه وبين رعيته على اختلاف طوائفها، فالوزير والرعية تحت إمرة الخليفة، لا يخرجون عنه في كبيرة ولا صغيرة، أما في العصر الفاطمي الثاني عصر وزارة التفويض فالأوضاع تبدَّلت ولم تعد كما هي عليه في السابق، فمنذ وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي فقد أصبح الوزير مسيطرا على شؤون الحكم ويتمتع بنفوذ وسلطان يفوق سلطان الخلفاء، وهذا ما يؤكده السجل الثاني، فالخليفة العاضد لدين الله لم يعد له شيء في الدولة سوى الاسم أمير المؤمنين، أما ما تبقى من أمور إدارة البلاد فلم يعد له منها شيء، وتولى وزيره أسد الدين شِيركوه زمام الحكم كاملة، حتى أنه لقب بـ"الأجل الملك"[١] ضمن ألقاب الوزير، دليلا على المكانة التي احتلها والنفوذ الذي امتلكه.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٨١.

ومن الترتيبات الإدارية التي كانت متبعة خاصة في العهد الثاني من عمر الدولة الفاطمية، وزارة التفويض، أن يوقِّع[١] الخليفة بخطِّه على التقليد الصادر عنه بتعيين الوزير[٢]، ومن التوقيعات التي وصلتنا عن العصر الفاطمي ما كُتِبَ بخط الخليفة الفائز على طرَّة تقليد الصالح طلائع بن رزيك الوزارة.[٣]

وجاء التوقيع متضمنا معنى التأييد والإشادة بالوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك، ويشير فيه الخليفة الفاطمي الفائز إلى علو المكانة التي حلَّ بها الوزير، بالإضافة إلى تأكيده سعة الصلاحيات التي منحت له بناء على التقليد، يقول: "ولذلك شرَّفْناهُ بجميعِ التدبيرِ والإِنَالَة، ورفعناهُ إلى أعلى رتَبِ الأَصفياءِ بما جعلناهُ لهُ من الكفالة"[٤]. أما النمط الذي جاء عليه التوقيع فهو يخلو من الحمد والصلاة وبيان فضل الإمام والإمامة على الخلق، فالاختصار والخفة وتأدية المعنى من دون مقدمات من أبرز سمات التوقيعات، فهو لا يحتمل إطنابا ولا مقدمات، لذا يبدأ الفائز بمخاطبة الوزير مباشرة بكافة الألقاب التي استحقها بناء على التقليد، وتترتب عليها المهام الموكلة إليه، فهو أمير الجيوش، سيف الإسلام، وكافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين[٥]، ثم يمضي ببيان الفضل والمكانة التي حظي بها إثر هذه الوزارة، وتأييده تقوية له في الدولة، ليختم بالدعاء له بالتوفيق.

ومن التوقيعات التي وصلت من العصر الفاطمي توقيع الخليفة الفاطمي العاضد في طرة عهد أسد الدين شيركوه بعد أن ولاه الوزارة[٦]، ويخلو التوقيع من الألقاب والتأييد والإشادة، ويتضمن معنى الدعوة إلى الوفاء بالعهد، وتحمل مسؤوليته في ترتيب أمور الدولة.

---

[١] من التوقيعات: واحدها توقيع، وهي ضرب من المخاطبات الإعلامية، ويراد بها ما يكتب في الرِّقاع والقِصَص بما يعتمده الكاتب من الأمور المتعلقة بالدولة. والتوقيعات نوعان: الأول يختص بالتوقيعات المرتبطة بالتنظيمات الإدارية من منع وإطلاق، وولاية وعزل، ووصل وقطع. والثاني يختص بالتوقيع في رقاع المظالم خاصة، وقد كان التوقيع من المهام الموكلة إلى الخليفة في ابتداء الأمر، إذ كان يوقع على الأمور السلطانية، وفصل المظالم، إلا إن ابن الصيرفي يشير إلى أن التوقيع في الديار المصرية صار نيابة عن الخليفة؛ أي يوجد كاتب مختص بالتوقيع عنه، أما الغرض من التوقيع فقد يكون من أجل التزكية، أو المناقشة، أو إبداء الرأي والاقتراح، وربما كان للاعتراض. (ينظر: ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ٣٨- ٣٩، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٤٥، والشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ١٥٤).

[٢] ينظر: الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ١٥٤.

[٣] ينظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٣ : ٢١٨ .

[٤] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٣: ٢١٨.

[٥] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٢١٨ .

[٦] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٢٧.

## ٢. رسائل الولاية:

شكلت الديار المصرية قاعدة ملك الفاطميين ومحطَّ رحالهم على مدار ما يزيد عن قرنين، وكانت الدولة تنتظم في أربع ولايات رئيسة وهي: ولاية "قُوص"، وكانت أعظم ولايات الديار المصرية، وواليها يحكم جميع بلاد الصعيد، وربما ولي بالأُشْمُونينِ. والثانية ولاية "الشَّرْقيَّة"، وكانت دون ولاية قُوص في الرتبة، وواليها يحكم على عمل بُلْبَيْس وعمل قَلْيُوب وعمل أشْمُوْم. والثالثة ولاية "الغربية"، وكانت دون ولاية الشرقية في المرتبة، وكان متوليها يحكم على عمل المَحَلَّة وعمل مَنُوف وعمل أبيار. والرابعة ولاية "الإِسْكَنْدَريَّة"، وهي دون الغربية في الرتبة، وكان متوليها يحكم على أعمال البحيرة بأجمعها.[١]

وهذه الولايات الأربعة السابقة الرئيسة تشكل الوحدات الإدارية الكبرى في البلاد المصرية، ويندرج تحتها ما يسمى بالأعمال وهي وحدات إدارية أقل درجة من الولاية وتتبع لها. وقد كان حكام الولايات الرئيسة يخضعون للسلطة التنفيذية؛ حيث يعيَّنُون بسجل[٢]، وهذا السجل إما أن يكون صادرا عن الخليفة، ونتحدث عن الفترة الأولى من نفوذ الحكام الفاطميين، أو أن يكون صادرا عن الوزير يحمل اسم الخليفة وهي مدة ضعف الخلفاء ونفوذ الوزراء. وكانت اختصاصات الولاة تتمثل قبل كل شيء في النيابة عن السلطة التنفيذية في كل ولاية.[٣]

وجلُّ الرسائل الفاطمية التي وصلت إلينا، فيما يخصّ تعيين حكام الولايات، التزمت بناءً واحدا، جاء في ثلاثة أجزاء: الجزء الأول يتضمن التقدمة والثناء، والجزء الثاني يحمل التكليف وبيان المهام، والجزء الثالث يشمل الوصايا والدعاء.

وعلى الرغم من التزام سجلات الولاية نمطا واحدا من حيث الشكل العام، إلا أنها جاءت في أكثر من مذهب كتابي، خاصة ما يتعلق بالافتتاح، فلم تأت كلُّها على نمط واحد في ابتداء السجلات، فمنها ما جاء بالبعدية دون حمد وصلاة[٤]، ومنها ما افتتح بحمد وصلاة[٥]، ومنها ما افتتح بلفظ "إنَّ أوْلَى"[٦]. ولكي نتبين المفارقة بين هذه المذاهب كان لا بدَّ من دراسة سجلات متنوعة تمثل المذاهب التي سلكها الكتَّاب الفاطميون.

---

[١] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٥٧٠ - ٥٧١.
[٢] ينظر: ماجد، عبد المنعم، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١، ١٣٢.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١: ١٣٣.
[٤] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٨٢.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٢٧.
[٦] المصدر نفسه، ١٠: ٤٤٩.

ومن الرسائل التي تمثل النمط الكتابي الأول المشتمل على البعدية دون حمدٍ وصلاة ما أنشأه القاضي الفاضل في توليَةِ ابن مَصال[١] ثغرَ الإسكندرية[٢]، يقول القاضي الفاضل في مستهل سجله: "أما بعد، فإنَّ أميرَ المؤمنينَ- لِمَا أكرَمَهُ اللهُ من شَرَفِ المَنْصِبِ والنِّصَابِ، وأجارَ العبادَ بآبائِه الطاهرينَ من عبادةِ الأوثانِ والأنصابِ"[٣]. ويتضح لنا من هذا تجاوز الكتَّاب الفاطميين نمط الكتابة التي اعتادوها في كثير من سجلاتهم، فهو يخلو من حمد الله، والصلاة على النبي محمد،عليه الصلاة والسلام، والأئمة من بعده، مكتفيا بالحديث عن الإمامة، وفضلها على العباد، وتَمثُّلِها في شخص الإمام.

ويثني الكاتب القاضي الفاضل بعد ذلك على ابن مَصَّال ثناء يطيل فيه وهو يعدد الصفات التي اختص بها ابن مصَّال ليكون واليا على الإسكندرية. فهو المتوحد، المستبد، الثَّبْت، الجامع، المتجلِّي، المشكور، المتَّقى، السامي، المستقل، وغيرها من الصفات[٤] وغيرها من الصفات التي تصل حدَّ التأليه، وتكشف حقيقة مبالغة الكتَّاب الفاطميين في وصف رجال الدولة الفاطمية.

وجرت العادة لدى الكتاب الفاطميين في المدة الثانية من العصر الفاطمي وهي مدة وزراء التفويض، أن يتناولوا الوزراء في سجلاتهم بكثير من الثناء، فيعلون من شأنهم أمام أمير المؤمنين أولا والعامة ثانيا ببيان فضلهم على الدولة الفاطمية، فهم القائمون على حمايتها وصونها من الأعداء، وهم المتصرفون في مقاليد الحكم، ويتضح لنا من حديث القاضي الفاضل عن الوزير أنه هو من ولَّى ابن مَصال الوزارة، يقول القاضي الفاضل في محضر حديثه عن الوزير بعد أن رأى في ابن مَصَّال من المناقب والأفعال ما تجعله واليا على الإسكندرية: "فأَنْهى ما لِسلَفِك عندَ الأئمَّةِ الخلفاءِ من مزِيَّةِ الاصطفاءِ، وما لكَ في نفسِكَ من الحسناتِ التي ما بَرِحت بارحةَ الخَفَاء، وما اطَّلَعَ عليه من خِلَالك التي ما أخلَّتْ بمَنْقَبَةٍ، وأفعالك التي ما تغايَرَت في يومٍ ذي نِعمة، ولا يومٍ ذي مَسْغَبَة، وما لكَ من وثائق العُقُود، وما فيكَ من الأوصَافِ المؤكِّدة لعَلَائق السُّعود، وقرَّرَ لك الخدمةَ في كذا وكذا– خرجَ أمرُ أميرِ المؤمنين إليه بأن يوعزَ إلى ديوانِ الإنشاءِ بكَتْبِ هذا السجلِ لكَ بالخدمِ المذكورة"[٥]، فهذا الاستشهاد على الرغم من طوله إلا أنه تصريح واضح من الكاتب القاضي الفاضل يشير من خلاله إلى المكانة الحقيقية التي حققها الوزير في الدولة الفاطمية، فهو

---

[١] نجم الدين أبو الفتح سليم بن محمد بن مصال، وزر للظافر الفاطمي، وهو من أكابر أمراء الدولة، وهو من أهل لُكَّ، وهي بليدة من أعمال برقة، استمرت وزارته للظافر نحو خمسين يوما. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣: ٤١٦- ٤١٧).

[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٨٢- ٣٨٨.

[٣] المصدر نفسه، ١٠: ٣٨٢.

[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٨٤.

[٥] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٨٦.

من يختار متولي الإسكندرية، وهي إحدى أهم الولايات في الديار المصرية، فقد تعدى الوزير على المهام التي كانت في أوقات سابقة من مهام الخليفة لا يشاركه فيها أحد.

والأمر الآخر الذي يتضح لنا مما سبق أن الوزراء على الرغم من سيطرتهم على المملكة المصرية، وزيادة نفوذهم في إدارة شؤون البلاد كاملة إلا أنهم لم يسيطروا على النظم الإدارية؛ فالوزير هو من اختار ابن مصال، إلَّا إن الأمر كان لا بدَّ أن يخرج من ديوان الإنشاء متضمنا أمر أمير المؤمنين، وهذا ما يدلّ على التنظيم الإداري الذي احتفت به الدولة الفاطمية في مصر.

وبعد أن يخرج الأمر بتعيين الوالي يُقدِّم الكاتب القاضي الفاضل لمتولي ثغر الإسكندرية ابن مَصال مجموعة من الوصايا التي تعينه في عمله إدارة شؤون الولاية؛ فيوصيه بالعدل مبينا أهمية إقامته في ثغر الإسكندرية، ففيه الكثير من المدارس، والتّجار، وتستقر فيه الجيوش، كما أنه يحوي الكثير من الملل المختلفة. وهذا التنوع يقلق الفاطميين آنذاك؛ فيبدو من النصّ عناية أمير المؤمنين بثغر الإسكندرية. يقول القاضي الفاضل بعد أن يأمر ابن مَصال بإقامة العدل في هذا الثغر: "ففيهِ من صُدُورِ المحافلِ، وقلوبِ الجحافلِ، وعيونِ المدارس، وأعيانِ الفوارس، وتجَّارِ الدنيا والآخرة، وأخبارِ الأمةِ المُقيمةِ والمسافرة"(١)، من أجل هذا كان لابدَّ من عناية خاصة بثغر الإسكندرية لحساسية موقعه الجغرافي وتركيبته السكانية.

ووالي الإسكندرية المعين ابن مَصال هو القائم بالأعمال التنفيذية في هذا الثغر نيابة عن أمير المؤمنين، يمثله في كل كبيرة وصغيرة، لذا لابدَّ له من أن يكون عادلا، مظهراً الرخاء الذي تتمتع به الدولة الفاطمية من خلال شخص أمير المؤمنين سحابه الإنعام.

ومن المهام التي وُكِّل ابن مَصال بها حماية المدينة من خطر العدو الذي كان مجاوراً لها، يقول القاضي الفاضل: "وأذكِ العيونَ على من يُلِمُّ بسواحلِ الثغرِ من أُسْطول العدوّ اللعينِ ومراكبِه، واحجزْ باليقظةِ بينَه وبينَ تلصيصِ مَطَالبِه، وأْمُرْ أهلَه باتخاذِ الأسلحةِ التي يُعِزُّ اللهُ بها جانبَه"(٢)، فيوصيه أن يكون حذرا من خطر العدو المجانب للإسكندرية، حماية لها فهي من أهم مكونات المملكة المصرية، فكان لا بدَّ من وفرة السلاح بين يدي الأجناد لتوفير ما يلزم من الحماية لها.

ومن الأمور المهمة التي يشير لها النص الذي بين أيدينا عناية الفاطميين بمختلف طبقات المجتمع المصري، فنجد الكاتب يوصي الوالي بالوقوف على أحوال العلماء الذين يشرفون على

(١) المصدر نفسه، ١٠: ٣٨٦.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٨٧.

التعليم، وتحسين أوضاعهم بما يعينهم على ذلك، وأن ينزل أعيان الناس من أصحاب المراتب العليا في مجتمعاتهم مراتب تحفظ لهم كرامتهم وتقدمتهم على الناس. ولا بدَّ من النظر في أحوال المزارعين وتخفيف ما عليهم من التزامات للدولة لتعينهم على زراعتهم، ويوصي ابن مصال برعاية طائفة الإيمان والإحسان لها، وحفظ مراتبها، والعناية بالعاملين على جمع الأموال الخاصة بالدولة.

ويختم الكاتب السجل بالثناء مرة أخرى على الوالي، وتأكيد ثقة أمير المؤمنين به.

ومن السجلات التي تمثل النمط الكتابي الثاني من سجلات الولاية السجل الذي كُتب لابن السلار[١]بولاية مصر[٢]. وقد جاء مشتملا على الأركان الثلاث التي حفلت بها سجلات الولاية لدى الفاطميين، المقدمة، وتعيين الوالي وبيان المهام، ثم تأكيد ثقة الأمير والدعاء بالتوفيق. إلا أن تقدمة هذا السجل تختلف عن السجل السابق فنجد الكاتب يلتزم الأسلوب الذي اعتمده كتَّاب الفاطميين في جلِّ سجلاتهم، من حمد وصلاة، وحرص على بيان شرف الإمامة، واثبات صحتها وأحقيتها في نسلهم.

ويستأنف الكاتب السجل بحديث مطول عن أمير المؤمنين، وفضل الإمامة على العباد، واختصاص الإمامة بشخصه معتمدا على الاصطلاحات الفاطمية التي تشير إلى العَناية الربانية في اختياره إماما دون غيره، وكيف أن الله أستودعه الأسرار الإلهية، يقول: "وإنَّ أميرَ المؤمنينَ لِمَا أَوْدَعَهُ اللهُ إياهُ من أسرارِ الحكمةِ، واجتبَاه له من إمامةِ الأمَّةِ "[٣]، وهذا من المعاني التي يشير لها الكتَّاب الفاطميون كثيرا في مكاتباتهم، فالإمامة لا تتأتى إلا من خلال الأسرار الإلهية التي أودعها الله النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ثم جعلها في علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، وانتقلت بعده في عقبه، وستبقى، كما يعتقدون، خالدة حتى قيام الساعة.

وينتقل الكاتب بعد ذلك لموضوع السجل وهو تعيين أمير المؤمنين ابنَ السلار واليا على مصر. وقبل أن يأتي ببيان التعيين، يذكر الأسباب التي أوجبت منح ابن السلار الولاية تكرمة له؛ إذ كان عونا لأمير المؤمنين الظافر بالله للتخلص من واليه على الإسكندرية، ابن مصال، الذي خلع الطاعة وبالغ في العقوق، كما يأتي على ذكر الصفات التي أهلته لمثل هذه الولاية ومن أهمها طاعة واتباع أبي الفضائل عباس وزير الظافر بالله. يقول: "ما جعلَكَ أعلى الأعيانِ مفخرا، وأكرمَ

---

[١] أبو الحسن علي بن السلار، المنعوت بالملك العادل سيف الدين، كردي الاصل، وزير الظافر الفاطمي، تولى الوزارة للظافر سنة ٥٤٣هـ، وكان ظاهر التسنن، شافعي المذهب، قتل في القاهرة بدار الوزارة سنة ٥٤٨هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣: ٤١٦- ٤١٩).
[٢] لم يَذكُر القلقشندي كاتب النص، ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٢٧- ٤٣٢.
[٣] المصدر نفسه، ١٠: ٤٢٧.

الجـواهرِ عنصـرا، وأولاهـم بـآلاءِ أميـرِ المـؤمنينَ وعطائِـه، واسـبقَهم فـي مضـمارِ اختيـارِه واجتبائِه"[١]، ولا تخفى علينا القيمة الإدارية والتاريخية لمثل هذا النص، فهو يؤكد المكانة العالية التي نالها الوزير في الدولة الفاطمية، فالكاتب في هذا السجل ينسب الصفات المعنوية لأمير المؤمنين إلى الوزير فطاعته واتباعه هي من الأشياء الواجبة لأمير المؤمنين، الإمام، بينما يجعل الكاتب منها واجبة للوزير لمن أراد الرفعة والتقدير في الدولة.

و يبدو من النص أن ابن مصال لم يخرج على أمير المؤمنين الظافر بالله، بل خرج على وزيره أبي الفضائل عباس، وهذا ما يشير إلى أحد أهم الأسباب التي أطاحت بالدولة الفاطمية أخريات أيامها، وهي الاضطرابات التي كانت تدور بين الوزراء في العهد الأخير من عمر الدولة الفاطمية.

ويشير الكاتب إلى جانب إداري لا بدَّ من النظر فيه وتأمله، وهو أن هنالك مشاورات تعقد بين أمير المؤمنين ووزيره لاتخاذ قرار ما، فبعد أن أشار الكاتب إلى ثقة أمير المؤمنين بـ"ابن السلار" وتحدث عن ولائه للدولة العلوية، وحسن طاعته وسيرته طاعته، وقد حاز على اختياره، يقول: "وفاوض السيِّدُ الأجلُّ العادلُ- أدام اللهُ قدرتَه - في تشريفِك بولايةٍ يكشفُ بها شفوفَ جوهرِك"[٢]، فالوزير يتفاوض مع أمير المؤمنين لتعيين من تم اختياره من قبل الوزير، ويلاحظ أن التفاوض جاء من طرف الوزير لا الأمير، وهذا ما يضعنا في الصورة الحقيقية التي وصل بها حال الخلفاء الفاطميين من ضعف وهوان. من جانب آخر يعرض صورة واضحة عن مدى التخبط الإداري في تعيين الولاة القائم على الأغراض الشخصية والعلاقات مع الوزراء لا على الكفاية الإدارية. ولعل هذا ما دفع الدولة الفاطمية إلى الاستعانة بأهل السُّنَّة قبل أن تصير إلى زوال.

ويمضي الكاتب بعد أن أقرَّ تعيين ابن السلار والياً على مصر، في تقديم مجموعة من الوصايا التي تعينه في عمله، من التزام بتقوى الله، وإقامة للعدل، والمساواة بين كافة أطياف المجتمع في مصر، وإحلال العناية بالجامع العتيق، ومن به من الفقهاء والقرَّاء. ثم يختم بالدعاء له بالتوفيق.

أما النمط الكتابي الثالث من السجلات الفاطمية التي جاءت بالولاية، فهي السجلات التي تخلو من الحمد والبعدية، ويكتفي كاتب السجل بابتدائه بقوله: "إنَّ أولَى". ومن الأمثلة على ذلك نسخة السجل التي أوردها القلقشندي في مصنفة بولاية أحد الثغور[٣].فنجد الكاتب يبدأ سجله بقوله:

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٢٩- ٤٣٠.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٠.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٤٩ - ٤٥٣.

"إنَّ أولى من رقَّاهُ إنعامُ أميرِ المؤمنينَ إلى المحلِّ اليَفَاع"[١]، فلا حمد ولا صلاة ولا استئناف ببعدية، فهو يدخل مباشرة ببيان تفرد أمير المؤمنين باختيار ولاته على الأعمال، وتفرُّد المولَّى عليه بالنفع الذي حلَّ به.

ويشير النص إلى ترتيب إداري في الدولة، وهو أن الولاية أول الرتب الإدارية المؤدية إلى الرتب العليا في الدولة الفاطمية، يقول كاتب السجل: "واستقرَّ في الرُّتَب التي لا تُنْقَلُ إلَّا إلى الزِّيَادةِ ولا تُغيَّر إلا إلى الارتِفاع"[٢]، ولعلَّه أراد بهذا أن الولاية هي بداية الطريق المؤدي إلى الوزارة. ويبيّن السجل بعد ذلك الأمر الذي يؤهل لمثل هذه الرتبة، من ذلك الإخلاص إلى أمير المؤمنين وهو الأهم على الإطلاق، فالرتب العليا في الدولة الفاطمية تقوم على مبدأ الإخلاص، ويتأتى الإخلاص في الدولة في نوعين: إخلاص للمذهب الفاطمي، وإخلاص للدولة الفاطمية من خلال الدفاع عنها وحمايتها، لذا نجد السجلات الفاطمية تشير إلى هذين الجانبين لأهميتهما في بقاء الدولة وديمومتها، يقول كاتب السجل في هذا المعنى: "وجرَّدتْهُ يدُ الاختيارِ سيفاً من سيوفِ الذبِّ عن الملَّةِ والدِّفاعِ"[٣]، وفي موضع آخر يقول: "واستوجَبَ امتطاءَ كاهِلِ الرياسةِ بالفتكِ الذي شبَّ والرأيِ الذي تكهَّل"[٤]، فهذه إشارات بيِّنه إلى أن من يتقلد الولاية لا بدّ له من بأس يعينه على إدارة الرعايا، ونشر الدعوة.

وهذا الأمر ينبئ عن سياسة الدولة الفاطمية التي اعتمدتها في الحكم في المدة الثانية من حياتها وهي فترة وزراء التفويض، فيظهر لنا من هذا السجل أن الدولة تركز كثيرا على أمر الكفاية العسكرية التي يجب أن يتحلى بها الوالي، ففي السجل السابق في ولاية الإسكندرية توجد بعض العبارات التي تؤكد هذا الأمر، يقول القاضي الفاضل في سجل ولاية الإسكندرية موصيا الوالي: "واقْمَع من اعتزَّ بغيرِ اللهِ واغتر، وتوَخَّهم بإقامةِ المهابةِ وبسْطِها، وكفِّ الشَّوكةِ وقطعِها"[٥]، فالسياق يشير إلى أن الفاطميين عمدوا إلى سياسة القمع وبثِّ هيبة الدولة أثناء حكمهم، خاصة الحكم الذي سيطر فيه أرباب السيوف على الدولة وخلفائها. إضافة إلى أمر آخر وهو أن العدو كان يتربص بالدولة الفاطمية ويتحين اللحظة التي يغزوها بها، فكانت الدولة بحاجة إلى من يحسن الدفاع عنها ويوفرّ لها الحماية اللازمة، فكانت بحاجة لقادة عسكريين، يقول كاتب السجل في ذكر مناقب الوالي التي أهَّلته: "ومَنَعتْ مهابتُه العدوَّ أن يجهلَ عليه"[٦]، ويقول في

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٩.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٤٩.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٤٩.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٠.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٨٧.
[٦] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٠.

موضع آخر: "الآخِذَ بالأرصادِ على العِدا بسيوفٍ ترقُبُ الرِّقابِ وتهيمُ في الهَامَات"[١]، فلا بدَّ أن يكون من القادة المشهود لهم بالمهابة، الذين يعنون بحماية الدولة من خطر الصليبيين الذين باتوا على مقربة منها.

ويمضي كاتب السجل على غرار السجلات السابقة من الوقوف على ذكر الوزير، وذكر مناقبه، وفضله على الدولة العلوية، ليخرج من ذلك للحديث عن نهج الفاطميين في التعيين والتقليد للولاية، فالوزير من يختار الوالي، وهو من يعرضه على الخليفة، وهو من يقرر له الخدم، بعد ذلك يخرج أمرا يحمل اسم الخليفة إلى ديوان الإنشاء بإنشاء السجل بهذا التقليد.[٢]

ويختم السجل بمجموعة من الوصايا يضمنها الكتَّاب الفاطميون جلَّ سجلاتهم؛ من تقوى الله، وعدل، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ورعاية القائمين على الدعوة الهادية.

وما يستدعي النظر في هذه الوصايا أنها تشير إلى أمرين معنيين بحماية الولاية المولَّى عليها: الأول أنها محاطة بسور لحمايتها، إذ يوصي الكاتب الوالي الجديد العناية بأمر هذا السور، وتشديد حراسته، وتلافي ما فيه من خلل، يقول: "وأقم للسُّورِ شطرا من اهتمامِك تعْمُر أبراجَه وأبدانَه، وتستخدمُ حرَّاسَه وأعوانَه، وترتِّبُ عليه الوَقُودَ في الليالي المُظْلِمة"[٣]. كما يوصيه بمراكب الأسطول، فلا يولّي عليها إلا من ينهض بشروط الجهاد، ويشير إلى أهمية هذا الأسطول بالنسبة للدولة، يقول مبينا أهمية مراكب الأسطول البحري: "فبها قوَّةُ الإسلامِ على عدوِّهِ، ومَدَدُ استظهارِه وعلوِّه"[٤]، وهذا ما يظهر لنا مدى حرص الدولة الفاطمية على مظهرها الخارجي، فهي معنية دائما برسم صورة مهيبة للدولة في أذهان رعاياها من خلال المواكب والاحتفالات التي كانت تقيمها في المناسبات، وتضمنها عرضا عسكريا لعساكر الخليفة وجنوده، كما أنها مهتمة بإيقاع الهيبة في قلوب معاديها، من عنايتها بالقوة العسكرية التي توفرها لحمايتها من العدو الذي بجانبها.

### ٣. رسائل الوظائف الدينيّة:

تعد الوظائف الدينية إحدى الترتيبات الإدارية المهمة في الدولة الفاطمية، وهي من ضمن الوظائف المقرونة بأرباب الأقلام[٥]. ولم تعد الوظيفة الدينية في الدولة الفاطمية مقصورة على

---

[١] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٠.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٠- ٤٥١.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٢.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٣.
[٥] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٥٧.

الجانب الديني فقط، بل تجاوزت ذلك لتشمل معظم نظم الدولة الفاطمية، فالقضاء، والدعوة للدولة والمشايعة لها، والنظر في المظالم، وظائف دينية بحتة إلا إنها قد تجمع إلى جانبها وظائف ديوانية أخرى، كالإشراف على دار الضرب، أو ولاية أحد الثغور، أو الإشراف على العساكر؛ ولعلَّ تفسير مثل هذا الأمر مرده إلى تشعب صلاحيات رجال الدين في الدولة الفاطمية، وطبيعة الدولة الفاطمية، فلم يكن هنالك حدٌّ فاصل بين الدولة والدين، وهذا ما يقودنا إلى أمر تولية الفاطميين الوظائفَ الحساسةَ في الدولة من يثقون بهم، فكان علماء الدين الذين يعتقدون مذهبهم ويروجون له هم الشريحة المثلى للحفاظ على الدولة الفاطمية، ونشر دعوتها ومعتقداتها وأفكارها التي جاء بها أئمتهم. وأمَّا الوظائف الدينية التي اقترنت بأرباب الأقلام، وعبَّرت عنها الرسائل الفاطمية التي بين يدي الباحث فهي: القضاء، وداعي الدعاة، والنظر في المظالم، والحسبة، ونقابة العلويين، والإمارة على الجهاد، وإمارة الحج.

**-١-**

## متولّي القضاء

وهي من أكثر الوظائف الدينية التي عني بها الفاطميون؛ فهي مشتملة على القضاء والدعوة معا، وهما الدعامتان للدولة الفاطمية في مصر، حيث تعتمد عليهما في الشعائر الفاطمية القانونية، والعقيدة الرسمية.[١]

والقضاء في مصر الفاطمية من أجلِّ الوظائف الدينية والإدارية وأعلاها شأنا؛ فكان القضاة لا يتقدَّمُهم أحد، وهم من ينظرون في الأحكام الشرعية، ويشرفون على دور ضرب النقود ويضبطون أمرها[٢]، وقد يجمعون في بعض الديار المصرية الحكم مع القضاء، فيقرُّ الخليفة له الحكمَ إلى جانب القضاء[٣]، أو أن ينوب عن الوزير في الحكم.[٤]

والقضاء الفاطمي من الوظائف التي تأثرت بنوع الوزراة في الدولة الفاطمية؛ فإذا كان الوزير من أرباب الأقلام، فإن القاضي يولَّى القضاء مباشرة عن الخليفة دون نيابة، ويعرف بقاضي القضاة. وإن كان الوزير من أرباب السيوف فإنَّ القاضي يولَّى القضاء نيابة عن

---

[١] ينظر: ماجد، عبد المنعم، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١، ١٣٥.
[٢] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٥٧.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٦٠.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٨ .

الوزير[١]، ولا يطلق عليه لقب قاضي القضاة؛ لأنه من الألقاب التي خصَّ بها الوزير في العهد الفاطمي الثاني. [٢]

ولا يقتصر عمل القاضي في ولاية من ولايات الديار المصرية، بل إنه قد يتجاوزها ليكون قاضياً في الديار المصرية، وأجناد الشام التابعة لها، وبلاد المغرب، إضافة إلى النظر في دور الضرب، والإشراف على الجوامع والمساجد، ومن السجلات التي تمثل هذا ما كُتِبَ عن الحاكم بأمر الله الفاطمي للحسين علي بن النعمان[٣]. [٤]

ولم تأتِ سجلات القضاء في العصر الفاطمي في مصر على نمط واحد، فمنها ما أطال الكتَّاب به، ومنها ما جاء مختصراً؛ ولعلَّ العلة في التباين أهمية التكليف الذي يُقَرُّ بموجب السجل للمكلف، وفي حضرة من كُتِبَ؟ فإذا كان السجل مكتوبا في حضرة الخليفة، بولاية أحد القضاة، بوجود وزير تفويض، كان لا بدَّ للكاتب من الإطالة به؛ ليوفي السجل حقَّه بين الحمد والصلاة والثناء، وبيان فضل الإمامة والإمام، وتناول صفات القاضي والثناء عليه، والتعرض للوزير وبيان فضله على الدولة العلوية وأهمية اختياره القاضي، وبعد ذلك إقرار تكليفه، ليختم السجل بمجموعة من الوصايا، التي يحسن بها العمل، ومن الأمثلة على هذا السجل الذي كتبه القاضي الفاضل عن العاضد لدين الله بولاية بعض القضاة[٥]. ومنها ما جاء مختصراً؛ باختصار الموقف الذي يعرض له، كنيابة أحد القضاء الحكم عن قاضٍ متوفى، ومثل هذا السجل لا يحتمل الإطالة؛ فالتكليف جاء بالنيابة عن الوزير في الحكم لا بالإقرار، ومثال ذلك السجل المكتتب عن أحد الوزراء الفاطميين لأحد القضاة بالنيابة عنه بالحكم بولاية قُوص والإشراف على أعمال الصعيد، أورده القلقشندي في مصنفه ولم يذكر كاتبه. [٦]

وعلى هذا كان لا بدَّ أن تتنوع الافتتاحيات التي تحفل بها السجلات، فمنها ما بدئ بالحمد والصلاة. ومنها ما بدئ بتحديد جهة الخطاب بقولهم: "من عبد الله ووليه". ومنها ما جاء على صورة العهد بقولهم: "هذا ما عهد عبد الله ووليه". ومنها ما جاء الدخول مباشرة، لم يلجأ الكتَّاب إلى الافتتاحيات التي عهدها الكتاب الفاطميون في مستهل سجلاتهم، فدخولهم في المضمون

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٥٧- ٥٥٨.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٥٥٨.
[٣] أحد قضاة مصر، ولَّاه الحاكم بأمر الله الفاطمي على جميع بلاده منذ ٣٨٩هـ وحتى ٣٩٤هـ، وفي سنة ٣٩٦هـ قتله وأحرق جثته بعد أن علم الحاكم أكل قاضيه أموال الناس. (ينظر: الأندلسي، ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة، ٣٦٦، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥: ٤٢١- ٤٢٢).
[٤] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٢.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٢- ٤٤٢.
[٦] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٨- ٤٥٩.

مباشرة دون تقدمة مستخدمين ألفاظا كقولهم: "من تقدمت لأسلافهم". ولتبيُّن سعة تخصص القضاة في الديار المصرية الفاطمية، وكثرة المهام الموكلة إليهم؛ كان لا بدَّ من عرض مجموعة من النماذج الكتابية التي تبين أهمية القضاء والقضاة في تكوين الدولة الفاطمية إدارياً وعقدياً.

ومن النماذج الكتابية التي يتبين من خلالها التنوع في النمط الكتابي في القضاء سجل عهد كُتِبَ به عن الحاكم بأمر الله للحسين بن علي بن النُّعمان بتوليته القضاء(١)، يبدأه الكاتب بتحديد جهة الخطاب في السجل، فهو عهد موجه من الحاكم بأمر الله الفاطمي أمير المؤمنين للقاضي الحسين بن علي بن النُّعمان، وبموجبه يتولى الحسين الحُكم في القاهرة ومصر والإسكندرية وأعمالها، والحرمين، وأجناد الشام، وأعمال المغرب، وتعيين الخطباء، وأئمة المساجد، والمؤذنين، والمتصرفين بها، والنظر في مصالحها، والإشراف على دار الضرب، وعيار الذهب والفضة.(٢)

والكاتب في هذا السجل لم يبدأ بحمد ولا صلاة، وإنما أتى مباشرة بمضمون الخطاب دون تقدمة، وهو تولِّي القاضي القضاء والحكم، مبينا المهام التي تترتب عليه. وهذا السجل يمثل عهد الوزارة الأول للدولة الفاطمية عهد وزارة التنفيذ، فالوزير هو أحد الموظفين الذين يشغلون مناصب عليا، وعليه أن ينفذ الأوامر الصادرة عن الخليفة.

والمتأمل السجل يجد أن القاضي في هذا لم يكن نائباً عن الوزير، وإنما أقرَّ الحكم مباشرة من غير مرجعية، يقول: "وما التوفيقُ إلَّا بالله وليِّ أميرِ المؤمنينَ عليه توكُّلُه في الخِيرةِ له ولسائرِ المسلمينَ فيما قلَّده إيَّاه، من أمورِهم وولَّاه"(٣)، فتولية القاضي في هذا السجل من قبل الخليفة الحاكم بأمر الله، وهذا ما لا نجده في السجلات الصادرة بالقضاء في العهد الثاني من الدولة الفاطمية، عهد وزارة التفويض، إذ كان القاضي نائبا عن الوزير.(٤)

وبعد إعلان التقليد نجد الكاتب يلتزم أسلوباً واحداً حتى نهاية السجل، يخلو من الوصايا، والنصائح، والتقرب من المكلَّف، موجها للقاضي عدَّة أوامر تبين ما يجب عليه تنفيذه والالتزام به، فيقول: "أمرَهُ أن يتقيَ الله"(٥).و"أمرَه أن لا يُنْزِل ما ولَّاه أميرُ المؤمنينَ إيَّاه من الأحكام"(٦)، ويستمر على هذا النحو في تعداد الأوامر التي وجهها الخليفة الحاكم بأمر الله لقاضيه الحسين بن

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٢ - ٣٩٧.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٩٢.
(٣) المصدر نفسه، ١٠: ٣٩٤.
(٤) ينظر فيما بعد صفحة، ٧٣.
(٥) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٣.
(٦) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٩٣.

علي بن النعمان، وهذا دليل على قوة شخصية الحاكم بأمر الله وتمكّنه من الخلافة، وأنْ لا حضور لا لوزير ولا لقاضي في إرادة الخليفة.

وتتضمن هذه الأوامر بياناً للمرجعية التي يستمد منها الفاطميون أحكامهم الشرعية، والمنهج الذي يعمل بموجبه القاضي إن أشكل عليه الأمر، يقول: "وأنْ يجعلَ كتابَ اللهِ، عزَّ وجلَّ، وسنَّةَ جدِّنا محمدٍ خاتمِ الأنبياء، والمأثورَ عن أبينا علي سيدِ الأوصياء، وآبائِنا الأئمةِ النجباء- صلى الله على رسوله وعليهم- قبلةً لوَجْهه يتوجَّه"(١)، فلا قياس ولا اجتهاد. والمرجعية هي كتاب الله وسنة نبيه، عليه الصلاة والسلام، إلا أنهم يتبعون ذلك ما أثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وما جاء به الأئمة من بعده، فالإمام هو مرجعيتهم في فهم النص وبيان الأحكام، لأنه هو وارث العلوم الإلهية، وهذا ما يؤكدونه في جُلِّ سجلاتهم التي جاءت بالقضاء.

وتستمر الأوامر التي يوردها كاتب السجل في بيان نهج القضاء الفاطمي، وما على القاضي أن يلتزم به في القضاء، من تقوى الله، والالتزام بأحكام أمير المؤمنين التي أقرها، والالتزام بما رسمه لوزيره برجوان(٢)، إلى أن يصل ضمن الأوامر السلطانية إلى العناية بأمر الشهود، يقول: "وأمَرَهُ أن يُنعمَ النظرَ في الشُّهود، الذين إليهم يَرجِع وبهم يَقطع"(٣)، وهي إحدى طبقات الموظفين التي تُعِينُ القاضي في حكمه، والقطع بأمره من خلال ما يدلون به من آراء فيما يخص الحكم، كما أنهم جزء لا يتجزأ من مجلس الحكم(٤)، وهم في أيامنا هذه يمثلون المستشارين.

وتستمر الأوامر السلطانية التي يوجهها إلى القاضي لتشمل النظر في أموال الأيتام والوصايا، والإشراف على المساجد والخطباء والمؤذنين، وأن يولّي دار الضرب وعيار الذهب والفضة الثقات الذين لا يختلط عليهم أمر. ولا يقف دور القاضي عند هذا الحد بل عليه أن يكون مطلعا بما يجري في الأمصار التي لا يشاهدها لبعدها، فكان لا بدَّ له من أن يستعين على أعمال هذه الأمصار من يجد فيهم القدرة والكفاءة.(٥)

ومما سبق يجد الباحث أن حضور الوزير لا يكاد يذكر في السجل، في ظل سطوة الخليفة، وأن القاضي هو من يقف على حال الوزير بناء على أمر من الخليفة، يقول: "وأمَرَه أن

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٣.

(٢) الأستاذ أبو الفتوح برجوان الذي تنسب إليه حارة بَرْجَوان بالقاهرة، كان من خدام العزيز صاحب مصر ومدبري دولته، وكان نافذ الأمر مطاعا، وقد نظر في أيام الحاكم بأمر الله في ديار مصر والحجاز والمغرب وذلك في سنة ٣٨٨هـ، قتل بأمر من الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٠هـ. ( ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١: ٢٧٠-٢٧١).

(٣) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٥.

(٤) ينظر: ماجد عبد المنعم، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر١، ١٥٠- ١٥٢.

(٥) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٥- ٣٩٦.

يقابِلَ ما رسَمَه أميرُ المؤمنينَ وحدَّه لفتاهُ بَرْجَوان من إعزازِه والشدِّ على يدِهِ وتنفيذِ أحكامِه وأقضيتِه"[١]، وهذا ما يؤكد أن القاضي تمتع بسلطة أكثر من الوزير في هذا العهد، عهد التنفيذ، فالقاضي هو من يضمن استحقاق الوزير الرسوم التي أقرَّها الخليفة إليه، كما أن الوزير يستعين بالقاضي على النهوض بمهمته وتنفيذ أحكامه، وهذا ما يختلف تماما مع ما جاء في سجلات العهد الثاني عهد وزارة الفويض، إذ كان لا بدَّ للكاتب من العناية بأمر الوزير، وبيان فضله على الدولة العلوية، وهو من ينظر في أمر القضاة وغيرهم من أصحاب الوظائف الكبرى في الدولة.

ويختم السجل بضرورة التزام القاضي بما ورد فيه من أوامر، موفيا بعهد أمير المؤمنين، ويذكر اليوم والتاريخ الذي كتب به السجل.

ومن السجلات التي تمثل المدة الثانية من عهد الدولة الفاطمية، وزراء التفويض، السجل الذي أنشأه القاضي الفاضل عن العاضد الفاطمي بولاية بعض القضاة[٢]. يبدأه الكاتب بالحمد والصلاة والثناء، وهو الافتتاح الذي جاءت به معظم السجلات الفاطمية التي بين يدي الباحث، ويضمِّن الكاتب الافتتاح هذا مضامين يقدم بها حديثه، فالسجل بولاية بعض القضاة، لذا لا بدّ للكاتب من الإتيان بمعانٍ مناسبة لهذا الغرض، ففي الحمد والثناء يأتي بذكر صفات الله تعالى الدَّالَّة على العدل، والحقّ، والفصل، يقول: "الحمدُ للهِ الواسعةِ عطاياه، الوازعةِ قضاياه، المشتملةِ على أقسامِ الخَلْقِ قِسَمُه، المبرُورِ في سؤالِهم يومَ فَصْلِ القضاءِ قَسَمُه، المسطورِ في كتابِه الذي ما فَرَّطَ فيه من شيء مُحَلَّلُ الشَّرعِ ومُحرَّمُه"[٣]. وبعد ذلك يؤكد الكاتب أنّ المرجعية الأولى في القضاء هو القرآن الكريم، وإذا أشكل عليه شيء من النص القرآني يتوجه إلى إمام عصره، فالأئمة هم المصدر الثاني في التشريع بعد القرآن الكريم، يقول: "والآمرَ فيما أشكلَ منه بالتعريجِ إلى مُسْتَنْبِطه من أهلِه، وجاعلَ الأئمةِ الهادينَ الحُجَجَ على مَنْ رجَعَ إلى قياسِ عقلِه أو تقليدِ جهلِه"[٤]. ويشير إلى أنهم في هذا يسيرون على نهج النبي محمد، صلى الله عليه وسلم؛ فالفاطميون يعتقدون أن كل ما تمثل في شخص النبي، يحلُّ في شخص الإمام بالوراثة، فالإمام ورث العلوم الإلهية كما حاز شرف الدنيا عن النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.[٥]

بعد ذلك يأتي الكاتب بوصف مطوّل، يعتمد فيه المحسنات اللغوية، يعرض من خلاله الصفات التي يجب أن تتوافر في من يصلح للعمل بالقضاء، ويعرض الصفات التي أوجبت اختيار

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٤.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٢- ٤٤٢.
[٣] المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٢.
[٤] المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٣.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٣.

القاضي، ليخلص من هذا إلى تقليد أعتمد لدى الدولة الفاطمية في عهد وزارة التفويض، وهو أن الوزير، لما له من دراية ومهابة وفضل على الدولة الفاطمية، هو من يختار القاضي المؤهل للعمل، يقول: "والسيِّدُ الأجلُّ الذي أعَادَ على الدولةِ رَوْنَقَ نضارتِها ... يراك أَوْلَى من أقَامَ الحقَّ لازِماً جوادّه"[١]. ويتضح للباحث من هذا الاختيار، مدى حرص الوزير على حماية سلطانه، وضمان بقائه في بلاط القصر مسيطرا مهيمنا، من خلال اختياراته، فكانت المناصب العليا في الدولة كالقضاء والولاية وغيرهما لا بدّ أن يكون ولاتُها المُعينون على مذهب الوزير ونهجه، ليضمن الاستمرارية والبقاء.

ويبين السجل بعد ذلك المهام التي كُلِّفَ القاضي بها بناء على تكليف الوزير، يقول القاضي الفاضل: "ولمَّا قررَ لكَ النيابَةَ عنه في الصلاةِ، والخَطابةِ، والقضاءِ، والمظالمِ، والإشرافَ على الجوامعِ والمساجدِ، ودارِ ضربِ العينِ والورقِ والسِّكَّة بالحضرةِ وسائرِ أعمالِ المملكة"[٢]. ويشير النص إلى أمر في غاية الأهمية، وهو أن القاضي في العهد الثاني من الدولة الفاطمية، عهد تفويض الوزراء، لم يعرف بـ"قاضي القضاة"، وإنما يُكتفى بكونه نائبا عن الوزير ويلقب فقط بـ"القاضي"[٣].

والأمر الآخر أن القاضي لم يعد يجلس للنظر فيما ترده من قضايا لأبناء الأمة، بل تجاوز هذا الحد ليقوم مقام الوزير في الديار المصرية، فهو كما يظهر من النص معني بكل ما يتعلق بالشؤون الدينية من صلاة، وخطابة، وقضاء، ونظر في المظالم، والإشراف على الجوامع والمساجد في الديار الفاطمية، بالإضافة إلى هذه المهام فهو معني بالإشراف على الدار التي تصدر العملة الورقية التي يتعامل بها الناس، وهذه المهام ليست محدودة بمكان، وإنما صلاحياتها تطول المملكة المصرية بأسرها، وهذا ما يبين لنا أهمية القضاء في إدارة شؤون الدولة الفاطمية.

ويمضي السجل بعد ذلك بذكر مجموعة من الوصايا التي تعين القاضي في حكمه بين الناس، فمنها ما يتعلق بالقاضي نفسه، نحو العدل، والمساواة، والاستماع للطرفين، يقول: "ولا تجعلْ بينَ المتحاكمَيْنِ إليكَ من فرق، وساوِ في الحكمِ بينَ كافَّةِ الخلق، ولا تحكمْ بحُجَّة أحدِ الخصمَيْنِ وإنْ كان لها السَّبق"[٤]، وبعد أن يأتي السجل بمجموعة من الوصايا العامة التي لا بدَّ للقاضي من العمل بها، يذكر له مصدر التشريع الذي يعتمد عليه في الحكم بين الناس وهو كتاب الله الكريم وسنة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وفي حال أشكل عليه أمرٌ ما والتبس كان لا بدَّ

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٣٦- ٤٣٧.
[٢] المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٧.
[٣] المصدر نفسه، ٣: ٥٥٧.
[٤] المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٨.

من الاسترشاد بأمير المؤمنين، يقول: "فأميرُ المؤمنينَ الذي أمرَ اللهُ عندَ التَّنَازعِ بأنْ نَردَّ إليه ما أعضلَ، وأثَّمَ أخذَكَ مِنَ الذين حكَمَ اللهُ أن يُردَّ عليهم ما أشْكَلَ"[١]، فالمرجعية عند الفاطميين بعد الكتاب والسنة هو أمير المؤمنين، ولا يجوز الاحتكام إلى غيره.

ومن الأمور الإدارية التي يشير لها السجل أنَّ للقاضي النائب عن الوزير موظفينِ يقدمان العون للقاضي في مجلس الحكم وهما الكاتب والحاجب[٢]، ويؤكد ضرورة العناية بأمرهما وحسن اختيارهما؛ فالكاتب هو من يوقع عنه في جلِّ الأمور. والحاجب هو عينه التي ينظر بها إن حضر، وتحرسه إن غاب.

بعد ذلك يوصي السجل القاضي بضرورة العناية بانتقاء كلِّ من كُلِّف بالإشراف عليه، والحرص في ذلك لما فيه صلاح أمور الدولة وتدبير أمورها. ويختم القاضي الفاضل السجل بالتأكيد على ضرورة الالتزام بكل ما ورد به، والعلم و العمل به.

ومن الأمور الإدارية التي نطالعها من بين سجلات القضاء التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، أن القاضي إذا انتقل إلى رحمة الله، كان لابدَّ من إحلال آخر مكانه، وفي هذه الحالة يخرج السجل مختصرا من ديوان الإنشاء بهذا الأمر، مبينا في طيِّه الأمور الأساسية التي لا بدَّ له من الالتزام بها. ومن الأمثلة على ذلك السجل الذي خرج بتعيين أحد القضاة الحكمَ بقُوص والإشراف على أعمال الصعيد خلفا للقاضي الذي انتقل إلى رحمة الله.[٣]

ويستهل الكاتب السجل بالمضمون مباشرة دون حمد وصلاة أو تحديد جهة خطاب، يقول: "من تقدَّمَتْ لأسلافِهِ خدمٌ ومناصحاتٌ"[٤]، ليذكر بعد ذلك الصفات الخاصة التي كانت سببا لاختيار القاضي، يقول: "من تقدَّمَتْ لأسلافِهِ خدمٌ ومناصَحاتٌ، وكانوا مشهورينَ بأن طرائقَهم في السَّدادِ مستقيماتٌ واضحاتٌ، وعُرِفَ جميعُهم بالصِّيانةِ والدِّيانةِ والثقةِ والأمانةِ، والمحافظةِ على ما يُحظِيْهم عند وليِّ نعمتِهم، والعملِ بما يقضي بطيبِ ذكرِهم وحسنِ سمعتِهم، كان ذلك ذريعةً له ووسيلةً، وماتَّةً يَنَالُ بها المواهبَ الجزيلة"[٥]، فأول الصفات التي يجب أن تتحقق بالقاضي ليصلح أن يكون قاضياً، أن يكون القضاء قد مُورس من قبل أسلافه، فيكون من أسرة عُرِفت بالعلم

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٣٩.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٤٠.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٨- ٤٥٩.
[٤] المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٨.
[٥] المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٨.

بالأحكام الشرعية[١]، مثل أسرة النعمان بن حيون[٢]. وإلى جانب الأحكام الشرعية لا بدَّ لهذه الأسرة أن تكون معروفة بالعفة، والثقة، والأمانة، وحسن الطاعة.

وبعد ذلك ينتقل السجل ليقف على أمر القاضي الراحل، مبينا إخلاصه وحرصه، يقول: "وقد تقدَّمَت لأخيكَ القاضي الرَّشيد[٣]، رحِمَه الله، خدمةٌ أبانَتْ عن حِرْصِه ومُناصحتِهِ، وأعرَبَتْ عن وفورِ نصيبِهِ من النُّهي ورَجَاحته، فأدَّى ذلك إلى بلوغِهِ من رُتَبِ أمثالِه أقصاها"[٤]، فالأمر، كما يبدو من النص، لا يترك للقاضي على شاكلته ليحكم على هواه، بل هنالك نظر في الخدم التي يقوم بها، ورقابة للتأكد من نزاهته في القضاء، حتى إن أثبت هذا كان له من النصيب أعلاه وأوفره.

بعد هذا يأتي السجل بإعلان استخدام القاضي نائباً عن الوزير في حكم مدينة قُوص والإشراف على أعمال الصعيد الأعلى، مبينا أهمية الرتبة التي حلَّ بها، مقدما في ختام السجل مجموعة من الوصايا التي تعينه على أمر النيابة، آمرا إياه العلم والعمل بما تضمنه التقليد.

مما سبق يمكننا أن ندرك أهمية القضاء والقاضي في تنظيم الدولة الفاطمية، وسعة صلاحيات القضاء ليشمل إلى جانب الحكم بين الناس أموراً أخرى من متعلقات الوظائف الدينية والشؤون المالية.

---

[١] ينظر: ماجد ،عبد المنعم، نظم الفاطميين ورسومهم،١: ١٥٣.

[٢] أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيّون القاضي، يعرف في تاريخ الدعوة الفاطمية باسم القاضي النعمان تمييزا له عن سميه أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب السني، والقاضي النعمان هو فقيه الشيعة، وهو من دوَّن الفقه الشيعي الإسماعيليّ في كتب كثيرة منها كتاب "دعائم الإسلام"، وقد نبغ من أسرته عدد كبير من العلماء والفقهاء تولوا جميعا القضاء، وتوفي القاضي النعمان سنة ٣٦٣هـ بالقاهرة، وقيل إنه ولد في العشر الأخير نهاية القرن الثالث. (ينظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ١: ٢١٥).

[٣] أبو الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدي، أحد الفضلاء والرؤساء المصريين، توفي منتصف شهر رمضان سنة ٥٨٠هـ، ومولده كان منتصف شوال سنة ٥٢٥هـ.( ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٦: ٦١، ٦٦).

[٤] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٥٨.

-٢-

## متولّي داعي الدعاة[١]

نشأت الدولة الفاطمية في مصر على أساس المذهب الفاطمي أو العقيدة الشيعية. وقد بذل الفاطميون، منذ أن استقرَّ أمرهم وتشكلت دولتهم، جهدَهم بنشر مبادئ دولتهم المتمثلة بعقائدهم الدينية من خلال ترتيب ديني محكم أطلقوا عليه "الدعوة" أو"الدعوة الهادية"، أساسه أنَّ العقيدة الفاطمية هي وحدها صحيحة، وأنَّ غيرها مزيف[٢]، والدعوة الهادية من المهام المتعلقة بالإمام؛ لأنهم يرون في فكرهم الشيعي أنَّ الله خصَّ الإمام الله دون غيره من علم بالعلوم الإلهية والأسرار الكونية[٣]؛ فهو الأقدر على إفهام الناس أمر دينهم.

ومن الأمثلة على السجلات التي تناولت موضوع الدعوة العهد الذي أنشأه علي بن خلف الكاتب في الدعوة للدولة والمشايعة لها[٤]. يستهله بحمد وصلاة على نهج الكتّاب الفاطميين، مضمنا البداية حديثا عن الإسلام والإيمان، ودور الأئمة وفضلهم على الناس، يقول بعد الحمد: "الذي اختارَ الإسلامَ فأظهَرَهُ وعظَّمَهُ، واستخلصَ الإيمانَ فأعزَّهُ وأكرمَهُ، وأوجبَ بهما الحجَّةَ على الخلائِق، وهداهُم بأنوارِهما إلى أقصى الطرائق، وحاطَهُما بأوليائِه الراشدينَ شُموسِ الحقائقِ، الذين نَصَبَهم في أرضِهِ أعلامًا، وجعلَهُم بينَ عبادِهِ حكَّامًا، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِين﴾[٥]"[٦]، فالكاتب حريص في بداية سجله أن يبين أنَّ المعنيينَ بأمر الدعوة هم الأئمة الذين يصفهم بالشموس التي

---

[١] قامت الإسماعيلية على تنظيمات سرّيّة للغاية، تعتمد على دعاة جعلتهم وسيلة رئيسة لنجاح حركتها في دور الستر والتّخفيّ، وفي دور الظهور والإعلان، وحتى يتمكن هؤلاء الدعاة من نشر مذهب الإسماعيلية وتوجيه أتباعهم دون أية معارضة أسبغت عليهم العقيدة الإسماعيلية فضائل دينية وجعلت منهم (حدود الدين)، فكانت مخالفتهم ومعارضتهم تعدّ عند الإسماعيلية مروقا على الدين، وخروجا عن طاعة الإمام نفسه، وقسّموا على هذا الأساس دعاتهم، فزعموا أن الدعوة لا يمكن استقامتها إلا باثني عشر داعيا يتولون إدارتها، يقابلهم في عالم الفلك اثنا عشر برجا، وباعتبار أن الشهر ثلاثون يوما فلكلّ داعية ثلاثون نقيبا لمساعدته في نشر الدعوة، وهم قوته، وعيونه التي يعرف بها أسرار الخاصّة والعامّة، ولما قُسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، اثنتي عشرة ساعة في النهار ومثلها في الليل، فلكل داع من النقباء أربعة وعشرون داعيا، اثنا عشر داعيا منهم ظاهر كظهور الشمس بالنهار، ومثلهم محجوب مستتر استتار الشمس بالليل. (ينظر: الخطيب، د محمد أحمد، الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها، الطبعة الثانية، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٦م، ١١٨-١١٩).

[٢] ينظر: عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١، ١٧٨.

[٣] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٣.

[٤] ينظر: مواد البيان، ٥٨٤- ٥٨٩.

[٥] سورة الأنبياء: ٧٣.

[٦] علي بن خلف، مواد البيان: ٥٨٤.

تبين لهم كلّ ما يتعلق بأمر دينهم، مستشهدا على ما جاء به بالنص القرآني، الذي يكشف لنا عقيدة الفاطميين في أمر الدعوة من جانب، وأمر التفسير من جانب آخر؛ أما الأمر الأول المتعلق بالدعوة فهم يرون أنَّ الأئمة هم دعاة الله على أرضه بما أوحى إليهم من العلم، وهم المعنيون بتوضيح أمر الدين للناس، والأمر الآخر أن الفاطميين يعمدون إلى تفسير القرآن الكريم بما يتناسب مع رغباتهم، فهم يخضعون النص القرآني لفكرهم وتأييد القضايا التي يأتون بها دائما، معتمدين عليه في إقناع الناس بعقيدتهم، وأنها هي صاحبة الحق بحُكم المسلمين.

ويمضي الكاتب بعد ذلك بذكر أوصاف لأمير المؤمنين، فهو الدليل على منهاج الهداية، والداعي إلى سبيل الرحمة[١]، لينتقل بعد الصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى جانب مهم في العقيدة الفاطمية، وهو أن الله بعث النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وأمره بحكم الناس بما أودعه الله من العلوم الخفية، وأنه عليه الصلاة والسلام أورث علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، هذه العلوم الإلهية التي ورثها من بعده الأئمة من نسله ليكونوا هم الأحقُّ بخلافة المسلمين ورعاية أمورهم، وعلى هذا يسير أمر الإمامة فعلي، رضي الله عنه، هو الأحقُّ بالإمامة وخلافة المسلمين من بعد النبي، محمد صلى الله عليه وسلم.

والدعوة، كما أسلفنا عند الفاطميين، مهمة رئيسة للإمام أو أمير المؤمنين، إلا إنَّ كثرة المسؤوليات المترتبة على الإمام، وانشغاله عن أمرها في إدارة شؤون الدولة، وجب عليه أن يختار من خلصائه وشيعته الذين يثق بهم لينهضوا بأعباء الدعوة، يقول: "وإنَّ أميرَ المؤمنينَ بما منحَهُ اللهُ تعالى من شرفِ الحكمةِ وأورثَهُ من منصبِ الإمامةَ والأئمة... يُعلِنُ بإقامةِ الدعوةِ الهاديةِ بين أوليائه"[٢]، والإعلان بإقامة الدعوة يكون باختيار داعٍ من أهل الدين والعلم، ممن صحَّ يقينه، وحسنت سيرته، وعرف بإخلاصه، وتبيَّنت خبرته في ترتيب أمور الدعوة.

وأما مصدر علم الدعاة الذين ينهلون منه العلم، فهو أمير المؤمنين أو الإمام الذي يقوم على تغذية عقول من يختار من الدعاة بالعلوم الدينية التي ورثها عن الأئمة السابقين لتكون عونا لهم على أمر الدعوة.[٣]

ويمضي السجل بعد الإعلان عن تقليد أمر الدعوة لمن تمَّ اختياره لأمر الوصايا التي يجب على داعي الدعاة أن يأخذ بها في أمر الدعوة، ومن أهم الوصايا التي يركز عليها السجل أن يأخذ العهد على كل من رغب بالاستجابة، يقول: "وخذِ العهدَ على كلِّ مستجيبٍ راغبٍ، وشدَّ العقْدَ على

---

[١] علي بن خلف، موادّ البيان، ٥٨٤.
[٢] المصدر نفسه، ٥٨٥.
[٣] المصدر نفسه، ٥٨٥.

كلِّ منقادٍ ظاهر، ممنْ يَظْهَرُ لكَ إخلاصُه وديِنُه، ويَصِحُّ عندَك عفافُهُ وديِنُهُ، وحضَّهم على الوفاءِ بما تُعَاهِدُهم عليه"[١]، فأمر الدعوة بين عامة الناس قائم على الاختيار لا الإجبار، ولعلّ مرد هذا التخيير ليس الترغيب بالمذهب الفاطمي والعقيدة الإسماعيلية، فقد لجأ الفاطميون إلى إقناع عامة الناس بأحقيتهم في خلافة المسلمين وصحة مذهبهم من خلال الاحتفالات في المواسم والأعياد التي عكست تمكن الدولة اقتصاديا وعسكريا، فأمر الرغبة بالاستجابة للمذهب الفاطمي عائد إلى رغبة الفاطميين أن لا ينتمي لمذهبهم إلا من رغب بصدق، واقتنع بمبادئهم، وانقاد لهم، خاصة أن جُلَّ المصريين كانوا من أتباع المذهب السُّني، وكان الولاة والقائمون على أمور الدولة هم من أصحاب المذهب الفاطمي المنقادين للدولة الفاطمية والإمام، ويؤكد هذا الرأي قول الكاتب في سجله ضمن الوصايا التي تلي التقليد: "ولا تُكرِهُ أحدا على متابَعتِك والدخولِ في بَيْعتِك، وإن حملتك على ذلكَ الشفقةُ والرأفةُ والحنانُ والعاطفة"[٢]، فالإكراه على الدخول في البيعة مرفوض تماما في الدعوة الفاطمية، حتى لو كان شفقة منه على الناس، وهنا نلمح مدى القناعة التي وصلت بالدعاة والكتَّاب الفاطميين بالعقيدة التي ينتمون لها، فهم يرون أن اعتقادهم هو الصواب وغير ذلك خطأ، خارج عن الملة، وهذا ما يظهر في حالة الشفقة على كلِّ من اعتنق مذهبا غير المذهب الشيعي.

وأمر الدعوة للدولة والمشايعة لها لا يقوم به الداعي وحده، فلا بدَّ له من خلصاء يعينونه على أمر الدعوة، يقول: "ولا تُلْقِ الوديعَةَ إلا لحفَّاظِ الودائِع، ولا تُلْقِ الحبَّ إلا في مزرعةٍ لا تُكْدِي على الزَّارِع، وتوخَّ لغرسِك أجلَّ المغارِس"[٣]، وانتقاء هؤلاء المعاونين من اختصاص الداعي، فلا بدَّ له من مراعاة أمر الإخلاص في تقبل الدعوة، وخروجهم من كل شكٍّ وشبهة؛ لأنَّهم هم من يواصل طريق الدعوة.

والداعي لا يقتصر في دعوته على عامة الناس، بل هي واجب يجمع في تأديته الأشراف والعامة معا، يقول: "واتلُ مجالِسَ الحِكَم التي تخرُجُ إليكَ في الحضرةِ على المؤمنين والمؤمناتِ، والمُستجيبينَ والمُستجيباتِ في قصورِ الخلافةِ الزاهرةِ، والمسجدِ الجامعِ بالمعزِّيَّةِ القاهرةِ"[٤]، فهنالك مجالس تسمى مجالس الحكمة[٥]، ويجب على الداعي أن يتلوها في مكانين: الأول قصور الخلافة، والثاني المسجد الجامع في القاهرة. ومَنْ يشهد هذه المجالس فهم على نوعين: الأول هم المؤمنون والمؤمنات من الأشراف الذين وُلِدوا على العقيدة الفاطمية وعاشوا عليها. والثاني

---

[١] علي بن خلف، موادّ البيان، ٥٨٦.
[٢] المصدر نفسه، ٥٨٦.
[٣] المصدر نفسه، ٥٨٧.
[٤] المصدر نفسه، ٥٨٧.
[٥] ينظر: عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١، ١٨٦.

المستجيبون والمستجيبات الذين دخلوا البيعة مستجيبين للدعوة طائعين. وتتضمن المجالس بيانا وتوضيحا يقدمه الداعي إلى كل مؤمن ومستجيب بما يثبِّت الإيمان في قلوبهم، ويجنبهم الفتنة والآثام.

و أما أسرار الدعوة الفاطمية، فهي ليست حديثا يُتناول في مجالس الحكمة، وعلى الداعي أن يخصَّ بها أهل الدعوة دون غيرهم، يقول: "وصُنْ أسرارَ الحِكَمِ إلا عن أهلِهَا، ولا تبذُلُها إلا لمستحِقِّها"[١]. وبالتالي تنحصر مجالس الحكمة بتقديم دروس في القرآن الكريم وتأويله.

وعلى الداعي في هذا المجالس أن يحثَّ المؤمنين والمستجيبين على طاعة أمير المؤمنين، وأن يرعاهم ويوفر لهم الحماية، ويميِّز بينهم وبين العامة من أهل السنة، وإن أشكل عليه أمرٌ فعليه أن يعود إلى أمير المؤمنين.[٢]

ويضاف إلى المهام والواجبات المكلف بها الداعي جمع مال الدعوة، يقول: "واقبضْ ما يحمِلُهُ المؤمنونَ إليكَ من الزكاةِ، والجزيةِ، والأخماسِ، والقُرُباتِ، وما يجري هذا المجرى"[٣]، ويشرف على جمع مال الدعوة مجموعة من المساعدين، كما يقوم كاتب الدعوة بتثبيته في سجلات، وينقل بعدها إلى بيت المال.[٤]

وعلى داعي الدعاة أن يختار من ينوب عنه في الأعمال التابعة للدولة، ليعرِّفوا الناس بالعقائد الشيعية، وأن يكتب لهم العهد بذلك، ويأخذه عليهم. وهم على مراتب؛ لذا كان لا بدّ للداعي أن يعين كاتبا، ينزلهم حسب مراتبهم، يقول: "واستخدمْ كاتباً دَيِّناً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً، حقيقاً بالاطلاعِ على أسرارِ الحِكْمةِ التي أمرَ اللهُ بصيانتِها وكِتْمانِها عن غيرِ أهلِها، نقيَّاً حصيفاً لطيفاً، ينزلُهم في مجلسكَ بحسبِ مراتبهم من العلمِ والدينِ والفضل"[٥]، فكاتب الدعوة على درجة كبيرة من الأهمية؛ فهو المعني ببيان رتب وأحوال الدعاة المعاونين للداعي بحسب مرتبتهم من العلم بأمور الدين، فكان لا بدَّ من اطلاعه على أسرار الدعوة الفاطمية، التي لا يعرفها إلا أهل الدعوة وخاصتها، إلى جانب الدين والأمانة؛ فيتمكن بهذا من وضع الدعاة في مراتبهم. ويُختم السجل بالطلب من الداعي بالتبصر في هذا العهد، والالتزام بالوصايا التي اشتملها، والدعاء له بالتوفيق.

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٧.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٥٨٨.
[٣] المصدر نفسه، ٥٨٨.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٥٨٨.
[٥] المصدر نفسه، ٥٨٨.

**-٣-**

## متولّي النظر في المظالم

وهـي وظيفـة قضـائية، لا يتولاهـا إلَّا الشخصـيات الهامـة فـي الدولـة، والغـرض منهـا الإنصاف بين المتظالمينِ بالرهّبة[١]، بهدف منع وقوع الظلم. والمظالم تعبير في العالم الإسلامي يدل على الظلم الذي يأتي من التعدي أو الفساد الذي عجز القضاة العاديون لسبب ما عن النظر فيه، فيرفع أمره رأسا إلى الخليفة للنظر فيه[٢]، فهو أشبه بقضاء الاستئناف في عصرنا الحديث، ولذا فحكم المظالم ليس بالشرع كما في القضاء العادي، وإنما إجراءات تُتَّبع لإصلاح أمرٍ حتى ولو لم تكن على حكم الشرع. [٣]

وقد كان النظر في المظالم يعهد به لرجل عرف بهيبته، وبأسه؛ لأنه منصب ترتكز عليه هيبة الدولة[٤]، ويرى ابن الصيرفي أن الغرض من النظر في المظالم هو القضاء على الفساد، والمحافظة على جمال الدولة الفاطمية وهيبتها بين الدول، بما يحفظ لها وجودها وأحقِّيتها في الحكم[٥]، ومن السجلات التي تمثل النظر في المظالم السجل الذي كتب عن الفائز لرُزِّيك بن الصالح طلائع بن رُزِّيك[٦]بولاية المظالم.[٧]

والسجل يبدأ بمقدمة يطيل بها الكاتب في الحمد والثناء على الأنبياء والأئمة، ويضمنها حديثا عن الصلاح، وضرورة إعلاء منار الشرع، وإضفاء العدل بين الناس، من خلال إغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم. متناولا بعض المعاني العقدية الفاطمية التي يحرصون على ترويجها وبثِّها بين الناس، فالشفاعة يوم القيامة طريقها الولاء للإمام والإخلاص له في إمامته التي ورث خصائصها عن آبائه الأئمة السابقين.

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٢٩٧، صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥م، ٣٢٤.

[٢] ينظر: ماجد، عبد المنعم ، نظم الفاطميين ورسومهم١، ١٥٥- ١٥٦.

[٣] ينظر: البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ٣٥٠.

[٤] ينظر: ماجد، عبد المنعم ، نظم الفاطميين ورسومهم١، ١٥٧.

[٥] ينظر: القانون في ديوان الرسائل، ٤١.

[٦] محيي الدين أبو شجاع، الملقب بالعادل، أستوزره العاضد الفاطمي بعد مقتل أبيه طلائع بن رزيك، وكانت وزارته للعاضد من ١٩ رمضان ٥٥٦هـ وحتى ٢٢ محرم ٥٥٨هـ، إلا إن شاور بن مجير المصري حاربه وأخرجه من القاهرة، وقتله سنة ٥٥٨هـ. (ينظر: الأندلسي، ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، ٩٣، وابن خلكان ، وفيات الأعيان، ٢: ٤٤٣- ٤٤٤).

[٧] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٣٤- ٣٤٦.

كما يضمن المقدمة حديثاً عن الوزير طلائع بن رُزِّيك فيشيد به ويذكر دوره في حفظ الدولة، وإقامة حكمها، ونصرة أميرها العاضد، ليخرج من ذلك إلى ذكر ابن الوزير رُزِّيك بن الصالح الذي كُتِب له السجل بولاية المظالم.(١)

ويأتي السجل بحديث طويل عن أمير المؤمنين؛ أي الإمام، ووزيره طلائع بن رُزِّيك، وابنه رُزِّيك بن الصالح، ويشيد بدور كلٍّ منهم خاصة الوزير وابنه، وهما من أرباب السيوف، مبينا دورهما في رعاية أحوال الأمراء والرجال ومصالح المسلمين في الدولة العلوية، وحمايتها من خطر الصليبيين المجاور لها، وكيف أحلّهما الإخلاص لأمير المؤمنين المكانة العالية في الدولة.(٢)

وبعد بيان السطوة والهيبة التي يحظى بها رُزِّيك بن الوزير الصالح، التي تتناسب واختياره للنظر في المظالم، يأتي الكاتب بإعلان القرار الصادر عن الحضرة الفاطمية بتعيينه للنظر في المظالم، وتقدمته على العساكر، يقول: "وقَرَرَ لك أميرُ المؤمنينَ استِشْفافَ أُمُورِ المظالمِ، وإنصافَ المظلومِ من الظالم، والنظرَ في اسفَهْسِلَارية(٣) العساكرِ المؤيدةِ المنصورة"(٤)، فقد جمع رُزِّيك بن الصالح بين أمرين: الأول النظر في المظالم، والثاني قيادة الجيش، وهذا حال من يتولى النظر في المظالم فلا بدَّ أن يكون صاحب سطوة وبأس؛ تعينه على الفصل في المظالم التي لا تخضع لتشريع بعينه كالقضاء، إلا القوة التي تفرضها هيبة المقام الذي يتمثل فيه الشخص.

ويشير السجل بعد ذلك إلى أهمية ولاية المظالم في التوصُّل إلى مصلحة الدولة، من خلال إنصاف المتظلمين من الرجال والنساء الذين لا يجدون من يسمع شكواهم، ولا يلبي أحدٌ دعواهم، مبينا العناصر التي يجب على صاحب المظالم أن يُجلسها في مجلسه لتعينَه في عمله، يقول: "وتتقدّمُ بأن تُحضِرَ بينَ يديكَ النائبَ في الحُكْم العزيز الذي على فُتْياه مدارُ أحكامِ الدين، ومَنْ تحتاجُهُ من الموقعينَ، والدواوين"(٥)، فلا بدَّ أن يضمَّ مجلس صاحب المظالم إلى جانب من المكلف بالنظر في المظالم، القاضي الذي يُعينُه في إقامةِ العدلِ بين المتخاصمين، والكتَّاب الذين يسجلون ما يتخذه المجلس من القرارات، والموقِّعين الذين يكتبون نيابة عنه، على الرِقاع والقِصص، ما يخرج به أمره.

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٣٤ - ٣٤٦.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٤١ - ٣٤٣.
(٣) من ألقاب أرباب السيوف، وكان في الدولة الفاطمية لقبا على صاحب وظيفة تلي صاحب الباب، ومعناه "مقدَّم العساكر"، وهو مُركَّب من لفظين: فارسي وتركي، **فأَسْفَه** بالفارسية بمعنى المقدّم، **وسِلَار** بالتركية بمعنى العسكر. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٦).
(٤) المصدر نفسه، ١٠: ٣٤٣.
(٥) المصدر نفسه، ١٠: ٣٤٣- ٣٤٤.

أما ما يجب على صاحب المظالم القيام به في المجلس، فيكمن في طلب إحضار القِصص وعرضها، وتأمل دعاوى المتظلمين، والتوقيع عليها بما يملي عليه الشرع، ويوجبه العدل والنظام.[١]

ولا يقتصر دور متولي صاحب النظر في المظالم بإنصاف المستضعفين والنساء، وردِّ الحقوق إلى أصحابها، بل نجده يتجاوز ذلك للنظر في تدبير أمور الأمراء، ورعاية مصالحهم، يقول: "واعْمُم بسعيدِ نظرِك، وتَامّ تفقدِكَ جميعَ صدورِ أولياءِ الدولةِ وكبرائِها ومُقَدَّميها المُطَوَّقين[٢]وأُمَرَائِها"[٣]، كما يجب عليه حفظ نظام رجال الدولة وتدبير شؤونهم، وتفقد أمرهم، يقول: "وكافَّةُ الرِّجالِ فاحفظْ نِظامَهم بحسنِ التدبير"[٤]، وأن ينزلهم في المجلس الأميري المكانة التي تتناسب و كفايتهم في الدولة، وإخلاصهم لأمير المؤمنين.

ويختم الكاتب السجل مؤكداً ضرورة العمل به بما يرضي إمام العصر، والدعاء له بالتوفيق.

**-٤-**

## متولّي الحسبة

وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يكون أهلا له، فيبحث عن المنكرات، ويعزز ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة.[٥]

والحسبة، عند الشيعة، من الواجبات الموكلة للإمام؛ لأنها وظيفة دينية، ولكن لانشغاله في أمور الخلافة، أو لصغر سنه، وربما لضعف شخصيته، كان يستخلف فيها من يراه أهلا لها[٦]، وكان المحتسب من أرباب الدولة وأعيانها، يعين بسجل يخرج من ديوان الإنشاء ويقرأ على المنبر

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٤٤.
[٢] الأمراء المطوَّقون، هم من يُخلع عليهم بأطواق من الذهب في أعناقهم. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٥١).
[٣] المصدر نفسه، ١٠ : ٣٤٤.
[٤] المصدر نفسه، ١٠: ٣٤٥.
[٥] ينظر: الصالح صبحي، النظم الإسلامية، ٣٢٨.
[٦] ينظر: ماجد عبد المنعم ، نظم الفاطميين ورسومهم، ١: ١٦٢.

في القاهرة ومصر[١]، ومن السجلات التي يتمثل بها هذا المعنى، ما كتبه القاضي الفاضل بولاية الحسبة.[٢]

يبدأ القاضي الفاضل السجل بذكر الصفات العامة التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى الحسبة، فالأخلاق الحميدة، والسيرة الحسنة، والأمانة، والحكمة، وسداد الرأي، والتجربة، أهم الشروط التي يجب أن يتصف بها المحتسب.[٣]

وبعد ذلك يثني الكاتب القاضي الفاضل على الشيخ الذي وُلِّيَ الحسبة نيابة عن أمير المؤمنين، ليخرج بعد ذلك أمرُ تعيينه على ولاية الحسبة بناء على اختيار الوزير، ويبدوا للباحث، من السياق، أنَّ السجل كتب في العهد الثاني من عمر الدولة الفاطمية، عهد وزارة التفويض، فالوزير هو من أمر باستخدامه على ولاية الحسبة في إحدى المدن التي لم يذكرها النص[٤]، على الرغم من أن الكتب تشير إلى أن أمير المؤمنين هو من ينسِّب بمن ينوب عنه في ولاية الحسبة؛ لأنها من المهام الدينية الموكلة إليه.

ويؤكد السجل مذهبية ولاية الحسبة، وأنها من الوظائف الدينية، ويظهر هذا في السجل من خلال الأعمال التي يجب على متولي الحسبة القيام بها، يقول الفاضل: "واسلُكْ فيما تَسْتَعملُهُ من أمْرِهَا المَذْهبَ القَصْد، والمَنْهَجَ الأقوَم، واجتهِدْ فيها اجتهادَ مُعْتَصِمٍ بحبلِ التقوى المتينِ وسببِها المبرم"[٥]، فعلى متولي الحسبة أن يجعل المذهب الفاطمي عماده في ترتيب أمورها. ويرى الباحث أن اشتراط المذهب الفاطمي في أمر من أمور العامة، وهو الحسبة، مردُّه حرص الفاطميين على جعل السلوك الاجتماعي اليومي لعامة الناس من السنة، وهم الغالبية، خاضع للمذهب الفاطمي، وبالتالي فهم يحققون أهدافهم بطبع المجتمع المصري بالطابع الفاطمي بطريقة غير مباشرة.

ويظهر من النص السابق أن متولي الحسبة يملك صلاحيات مباشرة بالقيام بكل ما يراه مناسبا للمصلحة العامة، ولا يلجأ في ذلك لأي شخص سوى الخبرة التي ينعم بها، وهذا ما يؤكده القلقشندي عندما يتحدث عن المحتسب قائلا: "ويدُهُ مطلقةٌ في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٥٨.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٦- ٤٦٨.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٦.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٧.
[٥] المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٧.

علـى قاعـدةِ الحسبةِ، ولا يُحَـالُ بينَـه وبـينَ مصـلحةٍ أرادَهـا"(١)، فهـو يمتلـك صـلاحيات مطلقـة لا يشاركه فيها أحد؛ ولعل السبب في ذلك نيابته عن أمير المؤمنين في الحسبة.

ويذكر السجل بعد ذلك الواجبات التي وكّل متولي الحسبة القيام بها، يقول: "وامنعْ أنْ يخلو رجلٌ بامرأةٍ ليستْ بذاتِ محرم، واستوضحْ أحوالَ المطاعمِ والمشاربِ، وعَيِّر المكاييلَ والموازينَ فهي آلاتُ معاملاتِ النّاسِ، وحَذِّرْ أنْ تُحَمَّلَ دابةٌ مالا تطيقُ حَمْلَه، وأوعزْ بتنظيفِ الجوامعِ والمساجدِ، وأحظُرْ أنْ يَحْظُرَ الطُّرُقات ما يمنعُ السلوكَ أو يُوعِرُ، وخذْ النصارى واليهودَ والمخالفين بلُبْسِ الغِيار(٢)، وأدِّبْ من يكيلُ مطفِّفاً "(٣)، فالمحتسب معني بالإشراف على التجارة والصناعة، ومنع التلاعب بكل ما يتصل بالمعاملات العامة للناس، فهو أشبه بالمراقب العام الذي يمثل الحكومة، فعليه أن يراقب حركة الناس في الأسواق؛ ليمنع الاختلاط الذي يفضي إلى المفسدة، ويمنع الازدحام وإغلاق الطرقات، وأن يلزم أصحاب المراكب أن لا يحمّلوها فوق طاقتها، وعليه أن يراقب أهل الذمة، ويأمرهم بلبس " الغِيار" للتفرقة بينهم وبين المؤمنين، وأن يوجه عنايته للجوامع المساجد، فيحافظ على نظافتها وينير الدرب المؤدي لها، ويمنع الحديث فيها لغير ذكر الله، فالمحتسب معنيٌ بترتيب كلِّ ما يمسُّ حياة العامة في المجتمع من الأمور الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، ويرى الباحث أنَّ عناية الفاطميين بكل ما يتعلق بالمجتمع المصري تعينهم على التقرّب من المصريين، ونشر مذهبهم من خلال بسط يدهم على كلِّ ما يتعلق بالحياة المدنية العامة.

-٥-

## متولّي نقابة العَلَوِيِّين

وهي من الوظائف الدينية(٤)، المختصة بأرباب السيوف(٥). وتعنى بالإشراف على الأشراف من نسل أولاد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، من فاطمة بنت الرسول، صلى الله عليه وسلم(٦). ومتولي هذه النقابة لا يكون إلا من شيوخ هذه الطائفة وأجلّهم قدرا، ومهمته الرئيسة

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٥٨.
(٢) علامة أهل الذمّة، كالزنار للمجوسي ونحوه يشدُّ على وسطه. (ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٨، هـ٢).
(٣) المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٧- ٤٦٨.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ٤: ٣٨.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ٤: ٣٨، وينظر: نفسه١٠: ٣١٧.
(٦) ينظر: المصدر نفسه، ١١: ١٦١.

المحافظة على صحة نسب هذه الطائفة من الأدعياء الذين يدَّعون انتسابهم إلى طائفة العلويين وهم بعيدون عنها.(١)

وكانت العادة إذا قُلِّد أحد الأشراف نقابة العلويين، خرج من ديوان الإنشاء سجل متضمنا المعنى. ومن الأمثلة على ذلك السجل الذي أنشأه علي بن خلف الكاتب(٢). ويسلك فيه الكاتب مسلك السابقين، حيث يستهله بالحمد والصلاة وبيان فضل الإمامة، ثم يشير إلى خصوصية العلويين، وضرورة العناية بهم، والنظر في أحوالهم، يقول: "وإنَّ أميرَ المؤمنينَ... يرى أنَّ من نِعمِ اللهِ التي يجبُ التحدُّثُ بشكرِها، وتحقُّ الإفاضةُ في نشرِها، توفيقَهُ للنظرِ في أحوالِ ذوي لُحْمَتِهِ، وأولي مُنَاسبتِهِ، المُواشجينَ له في أَرُومتِهِ، المعتزينَ إلى كرمِ ولادتِهِ"(٣)، فالنص يؤكد عناية الفاطميين بصحة نسبهم إلى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وبكل من انتسب إليه، وتمييزهم من بين الناس؛ ولعلَّ هذا التمييز مرده إلى "الولاية" إحدى أهم مبادئ العقيدة الفاطمية، وحرصهم على بقائها في نسل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، هذا من جانب، ومن جانب آخر يؤكدون حقَّهم بخلافة المسلمين من خلال صحة نسبهم إلى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ولذا كان لا بدَّ لهم من العناية بكل من انتسب إلى أولاد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، من فاطمة بنت محمد، صلى الله عليه وسلم، من خلال نقابة تقف عند حدِّ الحفاظ على صحة النسب العلوي الذي ينتسب إليه الإمام، يقول: "ويُرتِّبُهُم في الرُّتبِ التي يَستوجبُونَها، ويراها أولى بمغارسِهم وأنسابِهم، وماسَّاً بأنفسِهم وآدابهم؛ ولذلك يصْرِفُ اهتمامَه إلى ما يجمعُ لهم بينَ شَرَفِ الأعراقِ، وكرمِ الأخلاقِ، وطهارةِ العناصرِ والأوَاصرِ، وحيازةِ المناقبِ والمآثر"(٤)؛ ولذا جاءت الوظائف الكبرى في الدولة الفاطمية من نصيب العلويين الذين يلتقون والإمام، أمير المؤمنين، بالنسب.(٥)

ويختار أمير المؤمنين من طائفة العلويين أجلَّهم قدرا وأعلاهم شأنا ليتولى الإشرافَ على نقابة العلويين، ويحفظ لهم نسبهم من الاختلاط، ويجنبه الأدعياء، يقول: "ولما كنتَ بحضرةِ أميرِ المؤمنينَ من جِلَّتِهم العلماءِ، وطَهَرتِهم الأزكياء، وأبرارِهم الصُّلَحاء، وخيارِهم الفُضَلاء"(٦)، فالعلم، والنسب، والصلاح، والتقدمة على الناس من أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها من

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٥٧.
(٢) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٤٢– ٦٤٦، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٠٥- ٤٠٩.
(٣) علي بن خلف، مواد البيان، ٦٤٢.
(٤) المصدر نفسه، ٦٤٣.
(٥) يشير السجل فيما بعد إلى إحدى المهام الموكلة إلى متولي نقابة العلويين وهي أن يولي منهم السديد للنظر في أمور العامة، ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٥.
(٦) ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٣.

يتولى الإشراف على نقابة العلويين، وأهمها العلم كما يظهر لنا من النص، وقد جعله الكاتب مقدما على النسب؛ لأن من يريد أن يقف عند العلويين ونسبهم لا بدَّ له من علم يعينه على معرفة جذوره وكل ما يتصل به من خبر، ليكون قادرا على حمايته من كل مدَّع.

ويضاف إلى ما سبق صفات أخرى يجب أن تتوافر فيمن يلي هذا المنصب، كالإخلاص في خدمة أمير المؤمنين، وطاعته، والدعوة له، والقيام بالمهام الموكلة له خير قيام[١]، إلا إنها ليست ضرورية التحقق كغيرها.

أما صلاحيات متولي نقابة العلويين فهي لا تنحصر في مدينة دون أخرى، وإنما يتولى الإشراف على أمور العلويين في سائر أعمال المملكة، يقول علي بن خلف الكاتب مصدرا تقليد تعيين متولي نقابة العلويين الذي أقرَّ به أمير المؤمنين: "رأى أميرُ المؤمنينَ- واللهُ تعالى يقضي له في آرائِهِ بحسنِ الاختيارِ، ويُمِدُّه بالعونِ والتأييدِ في مجاري الأقدار- أنْ قلَّدَكَ النقابةَ على الأشْرَافِ الطالبيِّين أجمعين، المُقيمينَ بالحضرةِ وسائرِ أعمالِ المملكةِ، شرقاً وغرباً، وبُعْداً وقُرْباً"[٢]. ويلاحظ الباحث، من النص، أن الكاتب يقرن أمر التعيين الصادر عن أمير المؤمنين، بالتأييد من الله، فالإمام، أمير المؤمنين، موفق في كل ما يختار، لأن الله تعالى، كما يرى الفاطميون، قضى له هذا دون غيره من العباد، فأصبح عالما ملما بكل ما يتصل بالأقدار.

وبعد أن يخرج الحكم بالتقليد على نقابة العلويين يأتي السجل بالمهام التي يجب على متوليها القيام بها، فعليه أن يعرف صلة كل واحد منهم بالآخر، ويعود بهذه المعرفة إلى شجرة الأنساب التي يتشاركون بها، وتجمعهم بهذا النسب، وأن يتفقدَّهم، ويرعى شؤونهم، وأن يطالع سيرهم، ويراقب أفعالهم.[٣]

والسجل يشير إلى أن سلوك طائفة العلويين أهم ما يجب رعايته والاهتمام به؛ فهم كما يزعمون، أطهر عرق، ولا بدَّ له من التحلي بأطهر الأخلاق التي تميزهم عن غيرهم، لذا وجب على متولي نقابة العلويين أن يعين في خدمته من يروي له أخبارهم، ويبين له أعمالهم؛ لاتساع مسؤولية النقابة في سائر أعمال المملكة، وليعلموا أنهم مراقبون ولا يخرجون عن علمه وإشرافه[٤]. ولا يغيب عن الباحث اتصالهم بنسب أمير المؤمنين، فكان لابدَّ لهم من التحلي بأخلاقه

---

[١] ينظر: علي بن خلف، موادّ البيان، ٦٤٣.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٣.
[٣] ينظر: المصدر نفسه ، ٦٤٤.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٤.

بين الناس، ليكونوا ممثلين له في الأعمال التي لا يصلها وتبعد عن الحضرة الفاطمية، فهم كما يرون، أهل الخلافة وورثة الإمامة.

ومن أهم الأعمال الموكلة لمتولي نقابة العلويين الحفاظ على نسب العلويين من الاختلاط، يقول: "وَوفِّرْ اهتمامَكَ على صيانةِ النَسَبِ من الوَكْس، وحياطتِهِ من اللَّبْس، فإنه نَسَبُ الرسول، صلى الله عليه وسلم، الذي يتصلُ يومَ انقطاعِ الأنسابِ، وسبَبُهُ الذي يتَّشِجُ يومَ انفراطِ الأسباب"(١)، ولكي يحمي النسب من الاختلاط كان على متولي نقابة العلويين أن يثبت أسماء كل من ينتمي في نسبه إلى العلويين، منسوبة إلى أصولها؛ ليمنع كل دخيل أو مختلق من الانضمام إليهم، وعليه أن ينظر في أمر النكاح، وأن يمنعه بين العلويين وعامة الناس، خشية اختلاط عرقهم بغيره.(٢)

ومن المهام التي يوكل بها متولي نقابة العلويين النظر في أمر الحقوق التي تجمع طائفة العلويين بغيرهم، وأن يجنبهم ظلم أحد من الرعية؛ حفاظا على مكانتهم بين الناس، وليحببوا الناس بعقيدتهم التي يدعون الناس لاعتقادها.(٣)

ويشير النص إلى جانب مهم من الترتيبات الإدارية والسياسية في العصر الفاطمي، حيث عمد الفاطميون إلى ملء المناصب الإدارية في مختلف أعمال المملكة من الفاطميين النسب والمذهب، يقول: "ولِّ على من في البلادِ أهلَ السَّدادِ منهم والرَّشاد، ومُرْهم بتقيُّلِ مذهبِكَ، ونقلِ أدبك"(٤)، ولعل ما دفعهم إلى هذا أنهم لم يثقوا بغيرهم من أهل المذهب السني، فالرسائل التي وصلت من مصر في العصر الفاطمي تشير إلى أن الفاطميين حرصوا شديد الحرص على أن يشغل مناصب الدولة، على أهميتها وتنوعها وتوزعها، من كان شيعي المذهب؛ ليحققوا بهذه السياسة تبعية عامة الناس لهم.

ومن مهام متولي نقابة العلويين الإشراف على الإقطاعات والأموال المخصصة لأبناء الطائفة العلوية، وأن يهتم بترتيبها وحمايتها في سائر أعمال المملكة، وأن يولي لهذا الأمر من يثق به، ويعرف حسن خدمته، حتى إذا حصِّلت الأموال منها، يوزعها عليهم بحسب رتبهم، التي ثبتت في ديوانهم(٥)، وهذا يشير إلى أنَّ العلويين لم يكونوا على مرتبة واحدة في الدولة الفاطمية، بل لهم مراتب ودراجات، تثبت لهم في ديوان خاص، و لكل مرتبة مخصص مالي يتفق والدرجة التي تحتلها.

(١) علي بن خلف، مواد البيان، ٦٤٥.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٥.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٥.
(٤) المصدر نفسه، ٦٤٥.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٥.

-٦-

## متولّي الإمارة على الجهاد

وهي من الوظائف الدينية الخارجة عن الخلافة لأرباب السيوف[١]، وتختصُّ بقتال المشركين، وتأتي على ضربين: إمارة خاصة وتنحصر في سياسة الجيش وتدبير الحرب، وإمارة عامة تشمل جميع الأحكام من سياسة الجيش، وتدبير الحرب حتى الغنائم وعقد الصلح.[٢]

ومن بين الرسائل الفاطمية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر لم يجد الباحث سوى سجل واحد في تقليد الإمارة على الجهاد، ويمثل السجل النوع الثاني من الإمارة، وهي الإمارة العامة، والسجل من إنشاء علي بن خلف الكاتب[٣]. ورغم قلة السجلات التي تحدث عن الإمارة على الجهاد، إلا إن الباحث يرى من الضروري دراسة مثل هذا السجل لتبيُّنِ المضامين التي يتضمنها تقليد متولي إمارة الجهاد.

يبدأ علي بن خلف الكاتب السجل بالحمد والصلاة، ويضمنهما حديثا عن الجهاد وفضله في نشر الإسلام وعزّته، وضرورة مواجهة المشركين الخارجين عن الملَّة، ودوره في إخراج الناس من الظلمات إلى النور على يد نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم.[٤]

ويشير بعد هذه التقدمة إلى أنَّ الجهاد وتحضير الجيوش هي من المهام الأساسية التي ينهض بها أمير المؤمنين، يقول: "لا جرمَ أنَّ أميرَ المؤمنينَ مصرُوفُ العَزْمة، موقُوفُ الهِمَّة، على تنفيذ البُعُوث والسَّرايا، والمواصلةِ بالجُيُوشِ والعَرَايا[٥]، وتجهيزِ المُرتَزِقة من أولياءِ الدولةِ والمُطَّوعةِ من أهلِ الملَّةِ على ما أمرَ اللهُ به من غزوِ المشركينَ، وجهادَ المُلحدينَ، نافذا في ذلك بنفسه"[٦]، والنص هنا يشير إلى طائفتين يتكون منها الجيش آنذاك، وهما: طائفة ملزمة بأمر الجهاد في ديوان الجيش وهي المرتزقة، وطائفة مخيَّرة بقوة إيمانها وهي المطُّوعة من أهل الملَّة.

ولما كان أمير المؤمنين دائم الانشغال بأمور الدولة ورعايتها، كان لا بدَّ له من أن يُنيب عنه للإشراف على أمر الجهاد من يثق به من أهل الإسلام، يقول: "ومعوِّلاً فيه عندَ التَّعذرِ على

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٣٩٨ - ٣٩٩.
[٢] ينظر: الماوَرْدِيّ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (٤٥٠هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، ط١ ، الكويت، دار ابن قتيبة، ١٩٨٩م، ٤٧.
[٣] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٥١– ٦٦١، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٤– ٤٢٤.
[٤] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٥١ -٦٥٢.
[٥] العرايا: كل ما أفرد ليؤكل، (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٩: ١٨٠).
[٦] ينظر: علي بن خلف، موادّ البيان، ٦٥٣.

أهلِ الشجاعةِ والرَّجاحةِ من أعيانِ أهلِ الإسلامِ الذين أيقنَتْ ضمائرُهم، وخَلَصت بصائرُهم"[١]. وأمَّا من ينوب عن أمير المؤمنين في مثل هذا الأمر الجليل فلا بدَّ أن يكون من أكثر الأعيان دراية وخبرة بأمر الجهاد، وأن يكون شجاعا قويا، يستعان به في سدِّ الخلل، ويعتمد عليه في نصرة الدولة وحمايتها، وتشريفا لمن ينوب عن أمير المؤمنين فقد كان الأمير يخلع عليه من الملابس ما يليق بمكانته، ويخصَّه بطوق من الذهب المرصع بالدر تمييزا له وإعلاء لمكانته.[٢]

وبعد أن يخرج الحكم بتقليد أمير المؤمنين فيمن ينوب عنه في أمر الجهاد، يأتي السجل ببيان بعض الترتيبات التي تجب على من يتولى ولاية الجهاد، فعليه أن يطالع القوائم التي تحمل أسماء العسكر من ديوان الجيش، وأن يتخير منها مَن وجد فيه الشجاعة والإخلاص، وينحِّي عنها المرجف الجبان، وأن ينفقَ على العساكر من بيت المال ما يلبي حاجتها ويحلُّ مشاكلها، وأن يصحب من العُدد والسلاح والخيم والأموال ما يرهب به العدو، ويشجع الأولياء على القتال[٣]. ويمضي السجل متناولا أدقَّ التفاصيل، فيذكر الطريق الذي يجب أن تسلكها العساكر، وترتيبها ووقت مسيرها، وكيفية مداهمة العدو، والخطط العسكرية التي يلجأ إليها لقتال العدوّ وحماية العساكر من فتكه، والوقوع تحت سطوته.[٤]

ولأهمية أمر الجهاد نجد السجل الذي بين يدي الباحث يعرض لمتولي إمارة الجهاد ترتيب العساكر، التي يتألف منها الجيش الفاطمي، يقول: "فإذا أتوكَ بالخبرِ اليقين...، بدأتَ الحربَ...، مرتِّباً للكتائب، مُعبياً للصفوفِ والمَقَانب[٥]، زاحفا بالرَّاجلِ، مُحصَّنا بالفارسِ والرَّامي، مُجْتثَّاً بالتَّارس، واشحنِ القلب والجناحينِ بالشجعانِ المستبقين...، واجعلْ وراءَهم ردْءا، وأعدَّ لهم مددا يوازرونهم إنْ يجِنُهم مالا يطيقونَه ويَحين"[٦]، فالكاتب يبين لمتولي إمارة الجهاد خطة القتال التي يجب أن يقاتل بها، ويذكره بترتيب كل ركن من أركان الجيش الفاطمي: القلب، والجناحين، والمقدمة، والمؤخرة، والكتائب من الفرسان، والرماة، وحملة الدروع.

ويعمل إلى جانب الجيش الفاطمي فرقة معنية بالاستطلاع، مهمتها كشف آثار العدو، وهي فرقة متخصصة بقراءة الحرب قبل أن تبدأ، وتقدم لقيادة الجيش التصور الأولي عن العدو ومدى استعداده، وترسم له الطريق التي يجب أن يسلكها، ويرافق الجيش الفاطمي الأساطيل والمراكب الحربية ورجال البحر، الذين يقدمون الزَّاد، والأسلحة، والحبال، وغيرها من آلات الحرب

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٥٣.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٦٥٤.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٦٥٥.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٦٥٥.
[٥] جمع مِقْنب، وهي جماعة الخيل والفرسان. (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ١١: ٣١٢).
[٦] علي بن خلف، موادّ البيان، ٦٥٦.

للمقاتلين على البر؛ لذا كان لا بدَّ من ملازمة المراكب حربية السواحل لضمان قربها، وسرعة نجدتها.[١]

ويأمر الكاتب متولّي إمارة الجهاد بمراعاة أمر الشورى في إدارة الحرب، وضرورة تطبيقها لكشف الإبهام، يقول: "واستخلِصْ لمجالستِك مِنْ أهلِ الأصالةِ والحزم، والرَّجاحةِ والفهم، والدِّرايةِ والعلم، والتجارِبِ في ممارسةِ الحروب، وملابسةِ الخُطُوب، من تَرجِعُ إلى رأيهِ فيما أشكلَ، وتعتمدُ على تجربتِهِ فيما أعْضَل، ولا تَستبِدَّ برأيك، فإن الاستبدادَ يُعمِي المَراشِد، ويُبهِم المقاصد"[٢]، فلا بدَّ لمتولي الجهاد أن يستخلص لمجالسته من أهل العلم والخبرة من يعينه على أمر الحرب إن أشكل عليه أمر ما، وينهاه أن لا يعطل أمر الشورى باستبداده بالرأي.

ويبين السجل السياسة التي يجب على متولي الجهاد اتخاذها أثناء قيام الحرب، وهي سياسة عمادها القتل والتنكيل، حتى إذا طلب العدو السَّلم، سارع متولي الجهاد إلى ذلك، ليقدِّم الأمان لمن أراد، ويعرضه على من يطلبه، حتى إذا بسط سيطرته على العدو وتمكن منه، عرض عليهم الدخول في بيعة أمير المؤمنين ومشايعته، فإذا استجاب الناس للدعوة نشر بينهم من صَحِبَه من علماء الدين، وفرض الجزية على من لا يرغب بالتديُّن.[٣]

ومن المهام التي يكلف متولي إمارة الجهاد بالقيام بها الإشرافُ على أموال الجولي؛ أي ما يؤخذ من مالٍ من أهل الذمَّة من الجزية المقررة على رقابهم كلَّ عام، والأموال التي حصلت من الفداء، وأموال الغنائم، وأن يحملها إلى بيت المال، لينظر بها أمير المؤمنين.[٤]

ويؤكد الكاتب ضرورة العناية بالجيش، وتفقد أمره، وأن يجري النفقات بما تلبي حاجتهم وتعالج عللهم، حتى إذا قضى الأمر الذي سار بالعساكر من أجله عاد بها إلى حضرة أمير المؤمنين.

ويختتم السجل بالطلب من متولي إمارة الجهاد بالعمل بمضمون الكتاب.[٥]

---

[١] ينظر: علي بن خلف، موادّ البيان، ٦٥٦.
[٢] المصدر نفسه، ٦٥٨.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٦٥٩.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٦٦٠.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ٦٦١.

-٧-

## متولّي إمارة الحج

وهي من الوظائف الدينية الخارجة عن حضرة الخلافة لأرباب السيوف[١]، وهي على ضربين: الأول الولاية على تسيير الحجيج، وهي ولاية سياسة وتدبير، والثاني الولاية على إقامة الحج، وهي ولاية إمامة[٢]، ومن السجلات التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي، وتمثل النوع الأول إمارة تسيير الحجيج، تقليد أنشأه علي بن خلف الكاتب.[٣]

والكاتب يبدأ السجل بمقدمة تتضمن الحمد والصلاة، يتخللهما حديث عن الحجّ، وفضل الله تعالى أنَّ خصَّ أمير المؤمنين ببيته المحرم دون غيره، خصوصية تتأتى له من ميراث النبوة، وتراث الخلافة الذي أورثه الله تعالى أمير المؤمنين، جاعلا الكاتب الحجَّ وما يتبعه من متعلقات النبوة والإمامة التي تختص بالإمام، ويرثها عن الإمام الذي سبقه، يقول: "يحمدُهُ أميرُ المؤمنين أنْ خصَّهُ بحيازةِ البيتِ الأعظم، والحِجْر المكَرَّم، والحَطِيم وزَمْزَم، وأفضى إليهِ ميراثَ النبوةِ والإمامةِ، وتراثِ الخلافةِ والزَّعامة، وجعلَهُ لفرضِهِ موفيًا، ولحقوقِه مؤديًا، ولحدودِهِ حافظا"[٤]، وكلمة "**الزعامة**" التي استخدمها الكاتب في هذا الموضع تشير إلى أن ميراث النبوة وتراث الخلافة الذي يورده الكتَّاب في العصر في كثير من سجلاتهم لا يتجاوز الطموح السياسي، والأحقيّة في خلافة وزعامة المسلمين، فهم كثيرا ما يكررون فكرة وراثة الإمامة، والخلافة بالتالي، عن النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، معتمدين على بعض المواقف النبوية التي يوردونها في تأكيد هذا الحقِّ المنتزع منهم، كما يزعمون. يقول الكاتب وهو يصلي على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: "سيِّدنا محمدٍ رسولِه، صلى الله عليه وسلم، وعلى وصيِّه وخليفتِهِ، وبابِ مدينةِ علمِهِ وحكمتِهِ، علي بنِ أبي طالبٍ سيِّد الوصِيِّين"[٥]، فهم يروّجون في كل رسائلهم الصادرة عن ديوان الإنشاء فكرة أن علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه، هو وصي سيّدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وأنه أحق الناس بخلافته، وأن الخلافة واجبة لعِقْبِه من بعده.

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٣٩٨- ٣٩٩.
[٢] ينظر: الماوَرْدي، الأحكام السلطانية، ١٣٩.
[٣] ينظر: علي بن خلف، موادّ البيان، ٦٤٩-٦٥١.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٩-٦٥١.
[٥] المصدر نفسه، ٦٤٩-٦٥٠.

وينتقل السجل بعد ذلك إلى موضوعه وهو الإمارة على تسيير الحجيج، ويشير إلى أنها من مهام أمير المؤمنين، الإمام، إلا إنه يردها إلى من ينوب عنه، ومن يولَّى أمر تسيير الحجيج نيابة عن الإمام لا بدَّ له من صفات يعرف بها دون غيره، من علم، ورجاحة حِلم، ونفاذ بصيرة، وحسن سيرة وسريرة.[١]

ويشير السجل إلى أن إحدى المهام التي يكلف بها متولي إمارة الحج نيابة عن أمير المؤمنين، الإمام، وهي تولِّي قيادة فرقة الشرطة التي ترافق الحجيج والإشراف عليها، وهي ما كانت تعرف بولاية "الحرب والأحداث"، يقول: "ولذلك رأى أميرُ المؤمنينُ أنْ قلَّدكَ أمرَ رُفَق الحجيجِ المتوجهةِ من موضعِ كذا إلى الحرمينِ المحروسينِ، وولَّاكَ الحَرْبَ والأحْدَاثَ بها"[٢]، وهذا دليل على أن طريق الحج لم يكن آمنا على الحجيج، فكان لا بدَّ من توفير الحماية له، لضمان وصوله.

أما المهام التي يكلف بها أمير الحجيج بناء على التقليد فهي تتضمن العمل على سلامة الحجيج في أنفسهم وأموالهم، وتوفير الطريق الآمن لهم أثناء مسيرهم إلى أن يصلوا بيت الله الحرام، ولا ينتهي دور متولي أمر الحجيج عند هذا الحد، بل عليه أن يتولى أمرهم أثناء تأدية المناسك، فإذا وصلوا بيت الله، ترتب عليه أن يجنبهم الزحام، ويجعلهم يسيرون بانتظام، وعليه أن يراقب سلوكهم ويضبط تحركهم أثناء المناسك بما يكفل لهم تأديتها دون نقص أو إخلال.[٣]

ويلاحظ في أمر الحجيج لدى الفاطميين من خلال النص، أنه من الواجب على متولي أمارة الحج أن يبقي الحجيج في عزلة عن غيرهم، يقول: "ورتِّبْ ساقَتَهم، ولا تُخِلَّ بحفظِهم من جميعِ جهاتِهم"[٤]، فقد كان لهم ساقة، يتقدمونهم، لا يتجاوزهم أحد من الحجيج، ويحيط بهم الحرس من كل الجهات؛ لكي يضمن عدم اختلاطهم بغيرهم من أصحاب المذهب السنّي؛ فيتأثروا بفكرهم، ويتراجعوا عن طاعتهم لأمير المؤمنين، الإمام.

ويختم السجل بالطلب من متولي أمر الحجيج أن يتأمل كل ما ورد فيه، ويعمل به.

---

(١) ينظر: علي بن خلف، موادّ البيان، ٦٥٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٦٥٠.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ٦٥٠- ٦٥١.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ٦٥١.

## ٤. رسائل الشؤون الماليّة:

ومع دخول الفاطميين مصر، واستقلالها عن الدولة العباسية، بعد أن كانت ولاية تابعة لها، عمد الفاطميون إلى تنظيم البلاد تنظيما يضاهون به تنظيم العباسيين، محاولين بناء مجدٍ لدولة إسلامية جديدة في مصر، يقنعون من خلالها الناس جميعا بأنهم هم أهل الخلافة والأحقُّ بها، وهم أصحاب الدعوة الحقيقية التي جاء بها محمد، صلى الله عليه وسلم، وهذا ما ضمَّنه الفاطميون كافة مخاطباتهم.

وتنظيم البلاد لقيام نظام إسلامي جديد كان المحور الأهم الذي اتّكأ عليه الفاطميون. والشؤون المالية، وهي إحدى الترتيبات الإدارية الأهمّ، كان لا بدَّ لها من التنظيم والعناية، بما يلبي حاجة الدولة الفاطمية من النفقات التي كانت تتصرف بها من أجل إظهار مجدها الذي حرص عليه أمراؤها عبر ما يزيد عن قرنين من الزمن، فكان لا بدَّ من تنوعِ الموارد المالية، ومتابعةِ كافة مستحقات الدولة الواجبة على أفرادها، الذين استغلوا أراضيها وضمنوا حمايتها، وتدوينِ وتثبيتِ مستحقات الأفراد على الدولة خاصة الأمراء والأجناد. فجاءت الدولة الفاطمية بنظام مالي يحمي أموال الدولة، وينميها بما يلبي حاجتها، وهذا ما دفع الدول التي تلت الفاطميين لاعتماد الترتيب المالي الفاطمي في تنظيمها المالي، خاصة دولة المماليك.[(١)]

وقد كانت النُّظم المالية في الدولة الفاطمية تُدار من قبل الدواوين، وكانت السجلات تخرج منها في كل ترتيب مالي تقرره الدولة، ورغم قلَّتها بين يدي الباحث، فإنها تحظى بأهمية كبيرة؛ إذ حفلت في جزء منها بالعديد من الموضوعات التي تكشف لنا مدى عناية الفاطميين بتنظيم الأمور المالية، فكان لا بدَّ من تناولها حسب موضوعها الذي وقفت عند تنظيمه.

-١-

أول الموضوعات التي نعرضها في هذا السياق، ما جاء به السجل الذي أنشأه ابن الصيرفي في **تصحيح السّنة الخراجية**[(٢)].وهو ما يعرف بالتوفقة بين السنين الهلالية والشمسية[(٣)]، وسبب هذه التوفيق بين السنين هو الفجوة الزمنية التي تنتج عن تفاوتٍ بين مقدار السنة الشمسية ومقدار السنة الهلالية؛ فأيام السنة الشمسية هي المدة التي تقطع الشمس الفلك فيها دفعة واحدة وهي ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع اليوم بالتقريب، وأيام السنة الهلالية هي المدة التي يقطع

---

(١) ينظر: ماجد عبد المنعم ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١: ١١٢.
(٢) ينظر: المقريزي، الخطط، ٢: ٧٥٧– ٧٦٢.
(٣) مواد البيان، ٥٥٨-٥٦٠، وصبح الأعشى، ١٣: ٥٨– ٥٩ ، والخطط المقريزية، ١: ٧٤٠.

القمرُ الفلكَ فيها اثنتي عشرة دفعة، وهي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وسدس اليوم بالتقريب، فيكون التفاوت بين السنة الشمسية والسنة الهلالية أحد عشر يوما وسدس اليوم، ونتيجة لهذا التفاوت تكون زيادة السنين الشمسية على الهلالية في كل ثلاث سنين شهرا واحدا وثلاثة أيام ونصف اليوم بالتقريب، ومع مرور الزمان كان لا بدَّ من نقل السنة الشمسية إلى الهلالية بالاسم دون الحقيقة توفيقا بينهما لإزالة الشبهة في أمرهما، وكانت الشريحة المخصوصة بهذا الخطاب هم الخاصة لا العامة، لذا كان لا بدَّ من إخراج سجل بهذا المعنى لتطمئن به قلوب أصحاب الخراج ومستحقي الإقطاع، يوضح لهم أمرهم في هذا، فلا ظلم في خراج، ولا انتقاص من إقطاع [١]

يبدأ ابن الصيرفي سجله بعد البسملة بالحمد والصلاة، مضمنهما حديثا عن الإمامة وفضلها، وتمثلها في شخص أمير المؤمنين المعني على الدوام برعاية مصالح الأمة، وتدبير أمور الرعية، مؤكدا ابن الصيرفي مبدأ وراثة الإمامة الذي يُعنى الفاطميون به في جلِّ سجلاتهم، وأحقيتهم في الخلافة وزعامة المسلمين. ليأتي بعد ذلك بثناء على الوزير وبيان فضله على الدولة العلوية.[٢]

وينتقل الكاتب بعد ذلك في سجله مبيناً أهمية ترتيب الأموال في استقرار الدولة، يقول: "التي يُسْتَعَانُ بها على سَدِّ الخَلَل، وبرجائِها يُسْتَدفَعُ مَا يَطرقُ من الحادثِ الجَلَل، وبوفورِها تَسْتَتِبُ شؤونُ المملكةِ، وتستقيمُ أحوالُ الدُّوَل، وباستخراجِها على حُكمِ العَدلِ الشاملِ وقَضِيَّةِ إنصافِ المعُامَل تكونُ العِمارَةُ التي هي أصلُ زيادتِها، ومادةُ كثرتِها وغزارتِها"[٣]، ومن هذا يتضح للباحث أن الفاطميين أدركوا أهمية ترتيب الأموال واستخراجها، في ترتيب الدولة وعمارتها، وحاجتهم لها، خاصة أنهم عرفوا ببذخهم، وكثرة عطائهم.

ويبين الكاتب بعد ذلك أمر جباية الأموال، وأنها كانت تسير في ترتيبين: الأول معلوم للعامة وهو الهلالي الذي لا يخفى على الناس أمره، فالعامة على تباين فئاتها واختلاف طبقاتها، تعلم ترتيب الأشهر الهلالية؛ لأنها التوقيت الذي تنتظم فيه أمور العبادات. وأما الترتيب الثاني فمقرون بالخاصة وهو الخراجيّ، وهذا الترتيب لا يعلمه إلا من عَمِلَ في استخراجه وبيان موارده ومصادره، وهم العاملون من قبل الدولة على ضبط أمور خراجها من الزراعة، وهذا ما لم يكن متاحا لكلّ الناس؛ لذا كانت الحاجة إلى بيان ترتيبه وإعلانه؛ ليستوي في معرفة أمره عامة الناس.

---

[١] ينظر: علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، ٥٥٨- ٥٦٠.
[٢] ينظر: المقريزي، الخطط، ٢: ٧٥٧- ٧٥٨.
[٣] المصدر نفسه، ٢: ٧٥٨.

فجاء السجل مبينا أمر التداخل والتشابك الذي حدث بين السنين، وضرورة استدراك الضرر الذي قد يلحق الدولة نتيجة التداخل.(١)

بعد ذلك يأتي الكاتب ابن الصيرفي بحديث يبيِّن فيه الخلاف والتباين الذي حدث بين السنين عبر ثلاث وثلاثين سنة، فالأصل أن تتفق السنتان الهلالية والخراجية في الابتداء، فأول السنة الهلالية يوافق مدخل الخراجية، وهذا ما يحفظ أمر التداخل، فالسنة الخراجية تبدأ وتنقضي في السنة الهلالية عبر ثلاث وثلاثين سنة، فإذا انقضت هذه المدة بطل التداخل بين السنتين، فكان لا بدَّ من نقل السنة بالتسمية للسنة الهلالية التي بعدها، مبينا السبب من هذا النقل في الحفاظ على أموال العسكر، والمرتزقة، التي جرت أموالها على ترتيب السنة الهلالية.(٢)

أما موضع الخلل بين السنين، فيأتي من أن سنة خمسمائة وواحد الهلالية أهلَّت، ودخلت فيها سنة أربعمائة وتسع وتسعين الخراجية، وهذا الأمر يعني أن السنة الهلالية ستبدأ وتنقضي من غير أن يستوفى خراجها، فكان لا بدَّ من خروج أمر أمير المؤمنين إلى وزيره الأفضل للإيعاز بكتابة السجل في ديوان الإنشاء متضمنا نقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة الخراجية إلى سنة خمسمائة وإحدى الهلالية لتكون موافقة لها، ويجري عليها مالها.(٣)

ويمضى السجل مؤكداً ضرورة العمل بهذا التوفيق بين السنين حتى سنة خمسمائة وأربع وثلاثين، واعتماد هذا الأمر في كافة دواوين الدولة وسائر أعمالها، محذراً تجاوز العمل به.

ويختم الكاتب السجل بتأريخ كتابة السجل وهو محرم ٥٠١ هـ.(٤)

-٢-

وإلى جانب أراضي الخراج توجد أراض تُعرف **بالإقطاعات**(٥)، وتُعطى للأجناد(٦) أو الأمراء قطعٌ مختلفة المساحة منها؛ لقاء خدمة يقدمونها. فإذا أقطع أمير المؤمنين ناحية ما لأحدهم، خرج الأمر إلى ديوان الإنشاء بكتابة السجل متضمنا الاقطاع.

(١) ينظر: المقريزي، الخطط، ٢: ٧٥٩.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٢: ٧٥٩.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ٢: ٧٦٠- ٧٦١.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ٢: ٧٦١- ٧٦٢.
(٥) جمع إقطاع، يقال أقطعه أرض كذا؛ أي أعطاه، (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ١١١).
(٦) يوجد في ترتيب الدولة الفاطمية ديوان الإقطاع، وهو مختص عندهم بما هو مقطع للأجناد،(ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٥٦٥).

ومن السجلات التي وصلت إلينا عن العصر الفاطمي في الإقطاعات ما كتبه القاضي الفاضل عن العاضد لدين الله آخر خلفاء الفاطميين بإقطاع لبعض أمراء الدولة[١]. ويستهله القاضي الفاضل بمقدمة تخلو من الحمد والصلاة، فيأتي مباشرة بالثناء على أمير المؤمنين بالصفات التي تليق بهذا المقام، مقام الكرم والجود، وهذا ما نلمحه في جلِّ الرسائل الفاطمية التي بين يدي الباحث، حيث عمد الكتَّاب إلى أن يضمِّنوا مقدماتهم العبارات والمعاني التي تتناسب وموضوع الخطاب، فهو جواد، كثير الإحسان والبِرِّ. ولا يقتصر ثناء الكاتب على أمير المؤمنين ، بل نجده يتوسع في دائرة الثناء، حيث يثني على الأشراف من أقرباء أمير المؤمنين، مبينا فضلهم وميزتهم بين الناس، ولا غرابة في هذا، فالسجل لبعض أمراء الدولة، وهم كما يبدو من النص من المتصلين بأمير المؤمنين بحكم القرابة، لذا كان لا بدَّ من الثناء عليهم، تبريرا لاستحقاقهم الإقطاع.[٢]

بعد هذه التقدمة يقف الكاتب عند سبب الإقطاع، يقول: "ولما عُرِضت بحضرتِهِ ورقةٌ من ولدِهِ الأميرِ فلان الذي أقَرَّ اللهُ به عينَ الإسلامِ، وأنجز به دَيْنَ الأيَّام، وأطْلَعَه بَدْرا في سَماءِ الحَسَب، وجَلا بأنوارِه ظلامَ النُّوَب، وامتَاحَ[٣]من مَنْبَع النُّبوةِ وارتوى"[٤]، فأمير المؤمنين بهذا الإقطاع يستجيب للمكاتبة التي عرضت بحضرته من قبل ابنه ولي عهد المسلمين"الوصي" من بعده يطلبه إقطاع ناحية. فسبب الإقطاع هو ولاية العهد أو الوصاية. ويلاحظ الباحث أن موضع الإقطاع قد جاء نتيجة لمكاتبة تحمل في طيها الطلب، وهذا ما عهد في الدولة الفاطمية أن هنالك كاتبا مختصا بطائفة الأقارب أو الأشراف، معني بكتابة المخاطبات التي تتضمن طلب رسومهم أو ما يقطع لهم من الدولة عنهم، وترفع إلى حضرة أمير المؤمنين.[٥]

ويظهر لنا من السجل أنَّ الإقطاع من مسؤوليات أمير المؤمنين التي يُنْعِمُ بها على من يريد، وهذا ما تؤكده السجلات التي وردت بهذا الموضوع[٦]، فكلها جاءت بنمط كتابي واحد، تخلو من المقدمات وتبدأ مباشرة بالثناء على أمير المؤمنين.

وبعد أن يقف أمير المؤمنين على الطلب يعلن الموافقة على الإقطاع بخروج أمره إلى وزيره، الذي ينقل الأوامر إلى ديوان الإنشاء، فيتم إنشاء السجل ويرسله إلى الديوان المختص متضمنا حكم الإقطاع وكيفية خروجه، يقول: "ونَفَذت أوامرُهُ بأنْ يُوعَزَ إلى ديوانِ الإنشاءِ بكتبِ

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ١٤٢– ١٤٣.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٣: ١٤٢.
[٣] بمعنى استقى. (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ١٣: ١٣).
[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ١٤٢.
[٥] ينظر: ما سيأتي حول سجل زمِّ الأقارب صفحة، ١٠٦.
[٦] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣.

هذا السجلِ إلى الديوانِ الفلاني بإقطاعِهِ الناحيةَ وما معها منسوباً إليها وداخلاً فيها لاستقبالِ سنةِ كذا... يتحكَّمُ فيه على قضايا الاختيارِ، وتنفَذُ فيه أوامرُهُ الميمونةُ الإيرادِ والإصدار"[١]، فقد تم إقطاع ناحية لابن أمير المؤمنين، وحكم هذا الإقطاع مؤقت، محدد بسنة ينتهي بحضورها، أما الأمير فيحكم بهذ الإقطاع بما يختار، وتصدر أوامره فيها بترتيب كلّ ما يردها ويصدر عنها من أموال.

ومثل هذا الإقطاع لأحد الأمراء من أبناء أمير المؤمنين، ينبئ عن أمر مهم في ترتيب الدولة الفاطمية، وهو أن أمير المؤمنين يقوم بتهيئة أحد أبنائه ليكون أميراً للمؤمنين من بعده من خلال ما يتم إقطاعه له، فكان لا بدَّ من تدريبه وتهيئته من خلال تكليفه بالحكم والتصرف بأحد الإقطاعات، التي يتمرس من خلالها على إدارة البلاد فيما بعد، الأمر الآخر أن هذا الأمير يحظى بمعرفة بين الناس، يهابونه، ويتقبلون كونه سيولّى عليهم فيما بعد. وإلا ما حاجة هذا الأمير لأموال ناحية وهو من طبقة الأشراف التي تحظى بجلّ رعاية الدولة. والسجل فيه إشارات كثيرة أن الابن هو الوصي أو ما يعرف بـ"ولي عهد" ومن هذه الإشارت قوله في وصف الابن: "أقرَّ الله به عين الإسلام، بدرا في سماء الحَسَب، وامْتَاح من مَنبَع النبوة، وأعدَّ اللهُ لسعدِ الأمة ذا مرَّةٍ شديد القوى"[٢]، فهذه العبارات وغيرها تنبئ أنه الوصي من بعد أبيه، وأن سبب هذا الإقطاع التهيئة، ولو كان لفائدة مادية لكان الإقطاع مستمراً غير محدد بسنة.

أما النوع الثاني من الإقطاع فهو الإقطاع الدائم، الذي يبقى في نسل المُقطع له وراثةً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومن السجلات التي تمثل هذا النوع من الإقطاعات، ما كتبه القاضي الفاضل بإقطاع لبعض الوزراء[٣]، والإقطاع بهذا لا يقتصر على الأمراء، بل يتجاوزهم إلى الوزراء من أرباب السيوف، الذين تبيَّن فضلهم على الدولة الفاطمية، وثبت انتماؤهم وموالاتهم لأمير المؤمنين.

والكاتب القاضي الفاضل يمضي في هذا السجل على نحو ما جاء به في سجله السابق من ابتداء بذكر أمير المؤمنين والثناء عليه، بعد ذلك ينتقل إلى حديث يطيل به عن الوزير الذي استحقَّ الشكر بإقطاع أمير المؤمنين، مبينا صفاته التي تحلى بها، وفضله على الدولة في حمايتها، ودفع المخاطر عنها بما أوتي من قوة السيف.[٤]

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ١٤٣.
[٢] المصدر نفسه، ١٣: ١٤٢.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٣: ١٤٣- ١٤٦.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٣: ١٤٣- ١٤٥.

ويشير السجل إلى أن الإقطاع جاء بناء على طلب من الوزير، يقول: "وعُرِضَت بحضرةِ أميرِ المؤمنينَ مطالعةٌ منه عَنْ خبرٍ باسمِهِ الكريمِ مَقصُورٍ على الرَّغبةِ في خروجِ الأمرِ بتمليكِ جهتِه"[١]، وهذا الأمر يتفق مع السجل السابق بأمر ويختلف بآخر، أما الاتفاق فهو في أن الطرف الآخر هو من يبدأ بالطلب سواء خطيا أو شفويا، وأمير المؤمنين بناء على الطلب يقرر في الأمر.أما وجه الاختلاف فهو في الأهمية التي تستشف من الطريقة التي يحصل بها على الإقطاع، فالأمير كان لا بدَّ له من كاتب ينوب عنه في الطلب، فيخرج السجل متضمنا معنى الإقطاع، بينما الوزير تكفي منه الرغبة، وهذا الأمر يشير إلى المكانة التي حظى بها الوزراء في بلاط الدولة الفاطمية، فلا واسطة بينه وبين أمير المؤمنين، لأنه هو من يدير أمر الدولة، فكان لا بدَّ من مخاطبته بما يليق بمقامه الذي ناله في الدولة خاصة العهد الفاطمي الثاني، عهد وزارة التفويض، فرغباته في مقام الحضرة هي أشبه بأوامر يمليها على أمير المؤمنين الذي لا حول له ولا قوة.

وبعد أن يستجيب أمير المؤمنين لرغبة الوزير في تمليكه الإقطاع، يخرج الأمر لديوان الإنشاء بكتابة السجل متضمنا حكم الإقطاع وكيفية خروجه، يقول: "خرَجَ أمرُهُ إليهِ بأنْ يوعَزَ إلى ديوانِ الإنشاءِ بكتبِ هذا السجلِ بتمليكِ الجهةِ المُقدَّمِ ذكرُها بجميعِ حدودِها وحقوقِها، وظاهرِها وباطنِها، وأعاليها وأسافِلِها، وكلِّ حقٍّ لها، داخلٍ فيها وخارجٍ عنها، وما هو معروفٌ بها ومنسوبٌ إليها، تمليكاً مؤبدا"[٢]، فالإقطاع مؤبد، وهوإقطاع تمليك، يبقى في عقب الوزير مخلدا.

ولعل هذا النوع من الإقطاعات لم تعرفه الدولة الفاطمية في مصر إلا في أوقات ضعفها، عندما عجز الخلفاء، إما لصغر سنهم أو لقلَّة حيلتهم، عن توفير الحماية للدولة، فلجئوا إلى الوزراء من أرباب السيوف الذين استبدوا بالحكم، ودخلوا مضمار النزاع على الوزارة، فكانت نتيجة ذلك ضعف الدولة.

ويختم الكاتب الإقطاع بتوجيه الأمر إلى كافة ولاة الدواوين بالعلم والعمل بمضمونه، وتحذيرهم من التعدي عليه، أو تعقبه، وأن يكتب بهذا الإقطاع حجة، تحفظ بالحضرة بعد نسخه في الدواوين.

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ١٤٥.
[٢] المصدر نفسه، ١٠: ١٤٥ .

**-٣-**

ومن التنظيمات المالية المهمة في ترتيب الدولة الفاطمية الولاية على **ديوان الاستيفاء**(١). أرفع دواوين الأموال، وفيه تثبت جميع التواقيع والمراسيم السلطانية، وتتبع له كلُّ دواوين الأموال في حساباتها وترتيباتها(٢). ومن السجلات التي كتبت في تولي ديوان الاستيفاء ما أورده القلقشندي في مصنّفه.(٣)

والسجل لا يتضمن أية تقدمة مما أورده الكتَّاب الفاطميون في جلِّ مكاتباتهم، فلا حمد ولا صلاة، كما أنه لم يأت بحديث عن الإمامة والإمام وفضلهما على الأمة. فهو يأتي مباشرة بذكر الصفات العامة التي تُقدم صاحبها وتُعلي من قدره في الحضرة الفاطمية ليصبح محل اهتمام الخلفاء، فحسن الولاء، والإخلاص، والمناصحة، والخبرة في الخدم، وحسن السياسة، أمور ترفع مكانة صاحبها وتعلي من شأنه. (٤)

بعد ذلك السجل ينتقل لبيان الصفات الخاصة التي اتصف بها شخص متولي الديوان وأهلته دون غيره، من النسب، والخبرة في تولي المهام الديوانية، والنزاهة، والأمانة، والديانة(٥)، فهذه صفات اجتمعت في شخص متولي الديوان، ولا بدَّ أن تتحقق في مَن يشغل هذا المنصب الحساس في الدولة، فديوان الاستيفاء أكثر الدواوين المالية أهمية في الدولة الفاطمية، وهو معني بترتيبها في كلِّ أعمال الدولة.

الأمر الآخر الذي ينبئ به السجل هو حرص الفاطميين على تولية الوظائف الحساسة في البلاد من هم من أهل الملَّة، فهو يرى في صفة النسب إلى أبي طالب أكثر المؤهلات التي قدمته لتولي ديوان الاستيفاء، يقول: "ولما كنتَ أيُّها الشريفُ، تاجُ الخلافةِ، عضدُ الملكِ، صنيعةُ أميرِ المؤمنين، من جِلَّةِ آلِ أبي طالب... تقدَّم فتى مولانا بالتعويلِ عليكَ في تولِّي ديوانِ الاستيفاء"(٦)، فمتولي ديوان الاستيفاء من فئة الأشراف(٧)الطالبيين، الذين احتضنتهم الدولة الفاطمية، وخصتهم

(١) للاستيفاء نوعان: استيفاء الصحبة، واستيفاء الدولة. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٤: ٣٥).
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٤: ٢٩.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٩- ٤٧١.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٦٩.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٧٠.
(٦) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٧٠.
(٧) كان الأشراف في العصر الفاطمي ينقسمون إلى قسمين: الأشراف الأقارب، وهم الذين ينتسبون إلى الفرع الفاطمي، يشرف على مصالحهم وشؤون حياتهم العامة والخاصة ويحافظ على أنسابهم من يعرف بنقيب الأشراف "زمّ الأقارب"، أما القسم الثاني فهم الأشراف الطالبيون نسبة إلى أبي طالب عم الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكانت لهم نقابة خاصة تعرف بـ"نقابة الطالبيين"، (ينظر: عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية، دار المعارف، ١٩٨٥، ٣٦-٣٧).

دون غيرهم من العناية، وهذا ما يشير إلى مدى حرص الفاطميين على أن تكون مقاليد الدولة بأيديهم أو بأيدي من يثقون بهم، فيضمنون إخلاصا، وولاءً، وطاعة، تحفظ لهم ملكهم.

وبعد أن يتم الإعلان عن تقليد أحد الأشراف الطالبيين ولاية ديوان الاستيفاء، يُختم السجل ببيان المهام التي تترتب على متولي ديوان الاستيفاء بناء على هذا التقليد؛ فعليه أن يباشر النظر في كل ما يساهم في عمارة الأعمال المصرية، وأن يستخرج الأموال، ويضبطها، ويحدد مواعيدها، ويسعى في الحفاظ عليها، وأن يتابع أمر الكتَّاب الذين يشرفون على استيفاء الأموال، فينظر في أمرهم، فلا يتأخرون في استيفاء الأعمال أو يقصرون في عمارتها.

**-٤-**

ومن مهام الدواوين التي تأتي ضمن الترتيبات المالية ولاية **ديوان المرتجع**. الذي يعنى بالنظر في الإقطاعات المرتجعة ممن يموت من الأمراء أو نحو ذلك[١]. ومن السجلات التي تضمنت هذا المعنى وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر ما كُتِبَ عن بعض كتَّاب الفاطميين وأورده القلقشندي في مصنفه.[٢]

والسجل يبدأ بتوجيه الخطاب إلى المكلف بولاية الديوان دون حمد وصلاة، يقول: "السَنِيّ الدولةِ وجَلَالِها، ذي الرِّياسَتين، أبي المنجَّى سليمانَ بنِ سهلِ بنِ عمران"[٣]، ويكتفي بهذا ليستأنف حديثه بعد ذلك ذاكرا الصفات العامة التي يحرص الفاطميون على تحقيقها في من أرد أن يكون مقدما بالحضرة الفاطمية، فالإخلاص، والطاعة، وحسن تدبير، صفات توجب دائما تكريم صاحبها وتفخيمه، وتقديمه في المهمات جليلة الشأن.[٤]

وينتقل السجل بعد ذلك لتعداد الصفات الشخصية التي أهَّلت سليمان بن سهل لتولي ديوان المرتجع، فالصفات العامة مثل الإخلاص، والطاعة، وحسن التدبير، لا تكفي وحدها لتولي أية مهمة، فهناك صفات خاصة تؤهل أصحابها للعمل في مجالات محددة، ومن تلك الصفات يذكر السجل أن سليمان من الذين عملوا في الدواوين وعرفوا بكفايتهم، وحلُّوا مراتب متقدمة بين غيرهم، كما عرف بأمانته، وسياسته، وحسن رياسته، وتمكّنه من أنواع الكتابة وضروبها.[٥]

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٤: ٣٤.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٦٥- ٣٦٨.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١٣: ٣٦٥.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٦٥- ٣٦٦.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٦٦.

ويمضي السجل في بيان الطريقة المعمول بها آنذاك في الدولة الفاطمية لتعيين الولاة، فالوزير هو من يختار الوالي، ويقدمه في الحضرة الفاطمية، ويثني عليه، ويتفاوض وأمير المؤمنين بأمره، ليخرج أمرُ أمير المؤمنين لديوان الإنشاء بكتابة السجل بتقليد سليمان بن سهل متوليا لديوان المرتجع.

وما يهمنا في مثل هذا الموضع بيان الجوانب الإدارية المتعلقة بديوان المرتجع. والسجل يشير إلى أن متوليَّ الديوان مستقل في عمله عن غيره من الدواوين، ولا سلطة عليه، وهو المتفرد بترتيب أمور الديوان، يقول: "فلم يجعلْ فيه يداً مع يدِك، ولا نظرا إلا لك بمفردِك، فلا يرفَعُ أحدٌ شيئاً إلى غيرِ ديوانِك من حسابِ ما يجري في أعماله، ولا مُعامَلة لبيتِ المالِ إلا معكَ فيما يَحِلُّ من أموالِه، فأمضى أميرُ المؤمنين ذلك وأمرَ به"[١]، ومهمة ديوان المرتجع، كما ورد في النص، النظر في حساب كل ما يرفع من أعمال الإقطاعات من أموال وغير ذلك إلى بيت المال، بعد أن يتوفى صاحبه ويحلّ ماله لبيت مال المسلمين.

أما مهمة متولي ديوان المرتجع، فتكمن في ترتيب شؤون الديوان بما يضمن له دوامه وحفظ أوضاعه، والأهم هو النظر في الأموال المستخرجة والمستحقة للديوان، وإيصالها بعد أن يتأكد منها ويتحرى دقتها إلى بيت المال، ويوصي السجل متولي الديوان باختيار من استحسن من الكتَّاب للعمل معه في الديوان بما يراه مناسبا.[٢]

أما صلاحيات متولي ديوان المرتجع، فهي النظر في أموال الإقطاعات المرتجعة لبيت المال الصادر والوارد منها والمعفاة من الضريبة في جميع أعمال المملكة، دون النظر في أموال المكوس[٣]، يقول: "وقد أمرَ أميرُ المؤمنينَ أن تُجْرِيَ الحالَ على ما كانت عليهِ من دُخُولِ ذلكَ وبَيْعِه بغيرِ مَكْس في جميعِ الأعمال".[٤]

ويُختم السجل بتأكيد مرة أخرى تفرده في النظر بأحوال الديوان، والدعاء بالتوفيق.

-٥-

ومن الموارد المالية غير المنتظمة التي تستوفى إلى بيت المال، مال من يموت وليس له وارث، بقرابة أو نكاح أو ولاء، أو المال الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٦٧.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٦٧.
[٣] من أهم الضرائب التي تميز بها العصر الفاطمي، وهي الضريبة التي تؤخذ على السلع الواردة والصادرة. (ينظر: ماجد عبد المنعم ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١: ١١٧).
[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٣: ١٤٥.

فرض لا يستغرق جميع المال. وقد أنشأ الفاطميون لهذا المال ديوانا خاصا به أطلقوا عليه **"ديوان المواريث الحَشْرية"**[١]، وكان يُضَمُّ أحيانا إلى ديوان الجَوَالي[٢]، فيقال: ديوان الجَوَالي والمواريث الحشرية[٣]، ومن السجلات التي وردت متضمنة هذا المعنى السجل الذي أصدره المأمون البطائحي، بتنظيم المواريث الحشرية وإعادتها حسب فقه الشيعة ومفهومهم.[٤]

والسجل يبدأ بالحديث عن الوزير المأمون البطائحي، أمير الجيوش، والثناء عليه، بداية تخلو من المضامين الفاطمية العقدية، وهذا ما نلمحه في السجلات التي جاءت في التنظيمات المالية في الدولة العلوية، فالسجل قد يحفل ببعض المضامين الفاطمية إن كان المكلف يرتبط بالخليفة أو البيت العلوي، وهذا ما يشير إليه السجل الصادر في ولاية ديوان الاستيفاء[٥]، في حين نجد مقدمات بعضها تخلو من الاصطلاحات الفاطمية.

والسجل يشير إلى أن هناك تبايناً في أمر المواريث، فالحكَّام على تنوعهم تغايرت وجهات نظرهم، واختلفوا في ترتيب هذا النوع من المال، يقول: "واللهُ سبحانه يجعلُ آراءَه للتوفيقِ مقارَنةً، وأنحاءَ الميامينِ كافلةً ضامِنَة، منْ أمرِ المواريثِ وما أجرَاها عليه الحكَّامُ الدارجونَ بتَغَايُرِ نظرِهم، وقرَّرُوه من تغييرٍ عمَّا كان يعهدُ بتغلُّبِ آرائِهم، وما دَخَلَ عليها منهم من الفسادِ، والخروجِ بها عن المعهودِ المعتاد"[٦]، فالوزير المأمون البطائحي يرى أن تغليب الآراء الشخصية للحكَّام الذين سبقوه في ترتيب أموال المواريث، دفعهم للخروج عن فقه الشيعة، وهذا شكل من أشكال الفساد الذي أصاب مثل هذا الترتيب المالي.

أما الحُكم الذي تمَّ تعطيله في أموال المواريث وخالفوا به فقه الشيعة، ودفع المأمون للأمر بكتابة السجل فهو أن أمناء الحكم كانوا يأخذون رُبْع العُشر من أموال المواريث، ويورِّثون البنت نصف المال[٧]، وهذا الأمر لم يجد طريقه عند المأمون البطائحي؛ لأنه يخالف مبادئ العقيدة الشيعية، يقول: "وهو أنَّ لكلِّ دارِجٍ من النَّاسِ على اختلافِ طبقاتِهم وتباينِ مذاهبِهم واعتقاداتِهم تحمُّل ما يُتْرَك من مَوْجُودِه على حُكمِ مذهبِه في حياتِه والمشهورِ من اعتقادِهِ على حينِ وفاتِه؛

---

(١) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى ، ٣: ٥٣٢.
(٢) الجوالي: ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة،.(ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٥٣٠).
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٥٦٨.
(٤) ينظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٣: ٨٩– ٩٢.
(٥) ينظر: ما سبق، ١٠٠.
(٦) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٣: ٨٩- ٩٠.
(٧) ينظر: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ٥٤٢.

فيخلُص لحرمِ ذوي التشيُّع الوارثاتِ جميعُ مَوْرُوثهم، وهو المنهجُ القويم"[١]، فالبطائحي يرى أن الناس تتباين في مذاهبها، ولا بدَّ من ترتيب أموال المواريث لكل إنسان حسب المذهب الذي اعتقده، وبالتالي فإن كُنَّ الوارثات من أهل التشيُّع فإن جميع المال الموروث يردُّ إليهن دون نقص؛ لأن هذا ما تفرضه العقيدة الشيعية في ترتيب المواريث. أما إن كنَّ من غير هذا المذهب، فإن الأموال في ترتيبها تعود إلى مذاهب مخلفيهن.[٢]

ويستمر المأمون البطائحي[٣] في السجل مبيناً للقاضي النائب في الحكم جوانبَ مهمة يتصرفُ بها في تنظيم أموال المواريث الحشرية، دون أن يخالف الشرع، فالأموال التي تمَّ حجزها في بيت المال، وتخالف التشريع الذي اعتمدته الدولة الفاطمية، لا بدَّ أن تعود إلى مستحقيها على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم، كما لا يجوز التعدي على مال أحدهم إن كان حشرياً وله وارث بالغ راشد، إلا ما وجب بالشرع كدَيْن أو غير ذلك، وإذا توفي أحدهم ولا وارث له حاضرا أو غائبا، فإن المال يعود بأكمله لبيت المال، إلا ما استحق للحكومة كضريبة أو نحوها، وإن توفي أحدهم وله وارث غائب فيتم التحفظ على ماله الحشري احتياطاً، فإن حضر وأثبت ذلك قانوناً وشرعاً بما لا شبهة فيه أُمِرَ بتسليمه المال.[٤]

ويورد السجل الأمر بتعويض أمناء الحكم عما يتقاضونه من ربع العشر من ثمن ما يبيعونه من تركات الأيتام، مما يؤدي إلى نقص أموالهم، وتعرض الأمناء إلى الممنوع الحرام، فجاء التعويض تخصيصَ راتبٍ لهم في كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية.[٥]

ويختم السجل بالأمر بقراءة السجل على رؤوس الأشهاد في المسجدين في المعزية القاهرة ومصر، وتعميمه على كافة نواب الأعمال المصرية، لتعمّ المعرفة ويُعمل به.

ويؤرخ الكاتب تاريخ إنشاء السجل وهو الثامن والعشرون من ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة.[٦]

---

[١] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٣: ٩٠.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٩٠.
[٣] كان الوزير المأمون البطائحي من أكثر الوزراء حرصاً على كيان الدولة الفاطمية في العهد الثاني، عهد وزارة التفويض، فقد كان يلجأ في سياسته إلى الحفاظ على جميل سيرة الدولة الفاطمية، ويحبب الناس بها، ويقربهم منها، موالين عاكفين على خدمتها، ويجنبها الفساد الذي لحق بها، لذا كان يلجأ لإجراءات مالية تأتي على شكل مسامحات، وكانت تلبي حاجة المجتمع المصري آنذاك، وتخفف عن كاهلهم، فيذكر المقريزي أن سجل الإعفاء عندما قرئ على العامة ضجّوا بالدعاء ونظموا فيه الأشعار. ( ينظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٣: ١٠٤).
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٩٠- ٩١.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٩١.
[٦] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٩١- ٩٢.

-٦-

ومن التنظيمات المالية التي تختص بالسلطان **الرِّباع**(١)؛ وهي ما يملك من بيوت وعقارات يؤجرها ويحصِّل أجرتها كلَّ شهر(٢)، وقد اهتمَّ الفاطميون في مصر بالإشراف على الرِّباع وحمايتها. ومن السجلات التي وردت بهذا المعنى سجل بحماية الرِّباع السلطانية بالقاهرة المعزِّيّة.(٣)

والسجل يخلو من الحمد والصلاة، ويمضي به الكاتب على النهج الذي جاءت عليه جلُّ سجلات التنظيمات المالية، فيستهل السجل بذكر الصفات والمؤهلات العامة، لينتقل بعدها في ذكر الصفات الخاصة التي امتاز بها المُكلَّف عن غيره وأهَّلته لهذا المنصب، حتى إذا اكتمل الوصف نفذ أمر الوزير باستخدامه على حماية الرِّباع السطانية بالمعزية القاهرة المحروسة.

ويختص السجل بذكر المهام التي تترتب على المكلف بهذه المهمة، يقول: "واكشِفْ أحوالَ هذه الرِّباع كشفاً يُعرَف بها حالُها، ويُعلَمُ منه استقامتُها واختلالُها، وانتصبْ لاستخراجِ مالِها من السّكانِ...، وملاكُ الأمرِ فيها أن تتعهدَ بالطَّوافِ فيها، وأن تحافظَ على حِراسةِ غَيْرها، وتناولِ أجرِها، ورَمِّ ما لعلَّه يستَرِمُّ منها ويتشعَّث، وحملِ مال ارتفاعِها إلى بيتِ المال المعمور"(٤)، فدور ديوان الرِّباع ليس مقصورا على استيفاء ما استحق من أموال على قاطنيها، وإنما هو معني بحراستها، وتفقد أحوالها، وترميمها إن تطلب الأمر ذلك، ونقل الأموال المرفوعة منها إلى بيت المال.

ويختم الكاتب السجل بإعلان تعيين من يعينُ متولي الرِّباع في الإشراف وترتيب الرِّباع السلطانية، ويسترشد به.(٥)

وقد تعفى الدولة مستأجري الرِّباع من إيجار شهر ما، ومن ذلك ما جاء به السجل الذي أصدره المأمون البطائحي، وزير الآمر، بإعفاء مُستأجري الرِّباع السلطانية من إيجار شهر

(١) واحدها الرَّبع، وهي المساكن المشتركة التي يقطنها أكثر من أسرة في وقت واحد، بعكس الدور وهي المساكن التي تسكنها أسرة واحدة. (ينظر: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، ٥٢٩).
(٢) ينظر: خسرو، ناصر، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ١٠٤.
(٣) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٥٧- ٤٥٨.
(٤) المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٧.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٨.

رمضان، كل سنة بدءا من سنة ٥١٧هـ.[١] ويشمل الإعفاء كلَّ ما كان من أملاك الدولة ما لم يكن من الأحباس، أو المواريث الحشرية.[٢]

### ٥. رسائل زمّ الطوائف:

وزمُّ الطوائف من الوظائف التي يشغلها خواصُّ الخليفة من أرباب السيوف[٣]، ويراد بها الإشراف على حكم طائفة ما[٤].ومن الطوائف التي ورد ذكرها أن عُيِّن لها من يشرف على أمورها ويحكمها، الطائفة الآمرية، والطائفة الحافظية، وطائفة الأقارب، وطائفة الرجال. وقد وصلنا عن العصر الفاطمي نصان يتناولان تعيين مشرفين على نوعين من هذه الطوائف، السجل الأول جاء بتعيين من يحكم طائفة أقارب الخليفة[٥]، وتسمى زمَّ الأقارب. والسجل الثاني جاء بتعيين من يحكم طائفة رجال القصر[٦]، وهم القائمون على خدمة طعام الخليفة، وتسمى زمَّ الرجال[٧]. وكان لا بدَّ للباحث من تناول السجلين بالدراسة والعرض للوقوف عند أهم ما ورد فيهما.

السجل الأول جاء في تقليد زمِّ الأقارب، ويبدأه الكاتب بالحمد والصلاة، ثم يضمنهما ما يمهد به حديثه عن الأقارب وخصوصيتهم، وضرورة الحفاظ عليهم ورعايتهم، يقول في حديثه عن سلالة الأئمة الذين أختارهم الله للأمة: "واستخرَجَهُم من أطيبِ البَّريَّةِ أعراقاً، وأطهرِها شيماً وأخلاقاً، وأقدمِها سُؤدَداً ومجدَاً، وأكرمِها أباً وجدا"[٨]، فهو يشير إلى ما أكرم الله به الأئمة أن جعلهم من نسل بيت النبوة، ويظهر من هذا مدى حرص الفاطميين على الانتساب إلى بيت آل النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وتأكيد تميزِهم بهذا دون غيرهم من خلال المصطلحات التي يستخدمونها في مكاتباتهم، ليثبتوا أحقيتهم بالخلافة، وبقائها في نسلهم، ويؤكدون انتسابهم إلى علي ابن أبي طالب، كرم الله وجهه، بجعله أبا لهم، وأن الخلافة في نسل أبنائه من بعده، كما يؤكدون انتساب أبناء علي، رضي الله عنهم الذين هم من نسلهم إلى محمد، صلى الله عليه وسلم، جدِّهم، ليردوا بهذا على كل من يطعن في نسبهم إلى بيت النبوة.

---

[١] ينظر: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٣: ١٠٤- ١٠٥.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ١٠٤.
[٣] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٥٣.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٥٥٣.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ٣: ٥٥٦- ٥٥٧.
[٦] ينظر: الكاتب، مواد البيان، ٦٣٩.
[٧] ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٦.
[٨] المصدر نفسه، ٦٣٩.

هذا الأمر، اختصاص الأئمة ببيت النبوة، يدفع أمير المؤمنين إلى اتخاذ إجراء للحفاظ على الطائفة التي ينتمي إليها ويدانيها في النسب، يقول: "وإنَّ أميرَ المؤمنينَ يرَى أنَّ من أشرفِ نعمِ اللهِ عليه مَوْقِعا، وألطفِ مواهبِهِ لدَيْه مَوْضِعا، تَوْفِيْقَه للمحافظةِ على من يُواشِجُه في كريمِ نسبِهِ، ويمازِجُهُ في صميمِ حَسَبِه"[1]، فكان لا بدَّ له من الوقوف على أحوالهم، والعناية بهم، وإحلالهم المنازل التي تليق بهم، بتعيين من يحافظ عليهم ويدبر أمرهم.

و من يتولى مهمة الإشراف على هذه الطائفة، طائفة الأشراف، لا بدَّ أن يكون من رجال الدولة المعروفين في بلاطها، ومن أهل الثقة الذين عرفوا بإخلاصهم وولائهم لأمير المؤمنين[2].وربما يكون الخطاب في هذا موجها إلى من يخدم هذه الطائفة، ممن عُرف بالنباهة، وحمل المسؤولية، وحسن السياسة والتدبير، و تربَّى في حضرة أمير المؤمنين، فيخرج الأمر بتقلد الإشراف على طائفة الأقارب، يقول: "رأى- واللهُ تعالى يعزِمُ على الخيرِ في آرائِهِ، ويوفقُهُ لصالحِ القولِ والعملِ في أنحائِه- أن قلَّدَك نقابةَ بني عمِّه الأشرافِ الإسماعيليين"[3]، وقد تكون المهمة من نصيب أحد الأشراف، من الأقارب أنفسهم، ولا يختلف النصُّ في هذا، من ذكر صفات المكلف، والوقوف على التكليف، والمفارقة تكمن في تذكيره بالعلاقة التي تجمعه بالأشراف الذين ينتمي إليهم؛ ليزداد حرصا عليهم، ويحسن السيرة فيهم.[4]

ويبين السجل المهام التي تترتب على المكلف بالإشراف على طائفة أقارب أمير المؤمنين، وهي تتمثل في جانبين: جانب روحي عقدي، وآخر مادي، يقول: "واعرِفْ لهم حَقَّ مراتِبِهِم الدانيةِ من أميرِ المؤمنينَ، ونَزِّلهم بحيثُ نزَّلهم اللهُ من الدُّنيا والدِّين"[5]، فصلتهم بأمير المؤمنين أوجبت لهم حقَّين، الأول في الدنيا والثاني في الدِّين، أما حقُّ الدنيا؛ فلا بدَّ له من الإشراف على تنشئة أجيالهم وتربيتهم، والحرص على أن لا يختلط نسبهم بمن هو ليس منهم، والإشراف على الإقطاعات، والرسوم، والأملاك التي جُعلت لهم، وأن ينتدب لهذا العمل من يثق به من الكتَّاب ليتابع أمرهم هذا في الدواوين، ويكتب الرِّقاع عنهم إلى الحضرة في طلب الرسوم. أما حقُّ الدِّين؛ فلا بدَّ للمكلف من تعظيم أمرهم، وتوقيرهم، وتثقيفهم، ويلزمهم على سلوك الطرائق الحميدة التي

---

(1) علي بن خلف، مواد البيان، ٦٣٩.
(2) ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٠.
(3) ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٠.
(4) ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٠.
(5) المصدر نفسه، ٦٤١.

تليق بالأئمة الذي اختارهم الله أن يكونوا منهم.[1]، فالمكلف بالإشراف على طائفة الأقارب لا بدّ أن ينوب عنهم في كلِّ شيء، وبهذا فأمره نافذ عليهم.

والسجل الآخر الذي بين يدي الباحث ووصل إلينا عن العصر الفاطمي في مصر جاء بزمِّ طائفة الرجال. ويلتزم الكاتب فيه نهج السجل السابق من حمد وصلاة، وتأكيد صحة النسب و وحقِّ الإمامة. وتتضمن المقدمة حديثا مُمهِّدا لما سيأتي بعد في المتن، فهي مشتملة على إحدى المهام المختصة في شخص الإمام والتي فوضها الله لإمامه في الأرض، يقول: "وفوَّضَ إليه تنزيلَ الرُّتَبِ، وتخويلَها، وإقرارَ المنازِلِ وتحويلَها، وناطَ به البرمَ والنقضَ، والرفعَ والخفضَ"[2]، فإقرار الرتب، ومنحها وحجبها، حقٌّ للإمام أو الخليفة لا يشاطره فيه أحد؛ بما منَّ الله عليه من قوة الدين.

ويمضي السجل بعد ذلك مبيناً مدى حرص الخليفة على مصالح الأمة، وإدراكه ضرورة العناية بأمور رجال دولته وجنده، مشيرا إلى أنه من الأعمال التي يقوم بها أمير المؤمنين لتحقيق هذا الأمر أن يرد الإشراف على رجال دولته، وجنده إلى الخواصّ والأعيان من رجال بلاط الدولة المعروفين بخبرتهم وسداد أمرهم وانتمائهم إلى الدين والدولة، يقول: "وصَدَقَتْ نيَّاتُهم في المُراماةِ عن الملَّةِ، والمُحامَاةِ عن الدَّعوةِ والدولة"[3]، فرجال الدولة الذين يكلفهم أمير المؤمنين بشغل المناصب الحساسة في الدولة لابدَّ لهم من إخلاص النية في تمثل مبادئ العقيدة الفاطمية والإيمان بها، وأن يكون على نفس مذهب الإمام؛ ليتمكن من القيام بالمهام الموكلة إليه بإخلاص لأمير المؤمنين، ومنها القيام بنشر الدعوة الفاطمية، وحماية الدولة من أعدائها، والإشراف على من هم في حكمه بناءً على المبادئ التي تفرضها عليه العقيدة الفاطمية.

بعد ذلك يأتي السجل بإقرار تقليد أحدهم زمَّ طائفة من الرجال بناء على الصفات التي تحققت فيه، ليمضي بعدها بذكر مجموعة من الوصايا التي لا بدَّ للمكلف من الأخذ بها لتعينه على القيام بالمهمة الموكلة إليه.

ويتضح من الوصايا التي يقدمها أمير المؤمنين لمن يتولَّى زمَّ طائفة الرجال أنَّ الطائفة هي من أمراء الحروب، أي من الرجال الذين يعنون بأمر توفير الحماية للدولة، وهم على هذا من كبراء رجالها الذين يجب أن يحظوا بإكرام واهتمام عاليين، يليق بمكانتهم التي هم فيها.

---

[1] ينظر: الكاتب، موادّ البيان ، ٦٤١.
[2] المصدر نفسه، ٦٤٦.
[3] المصدر نفسه، ٦٤٧.

ومن خلال السجل يرى الباحث أن الدولة الفاطمية تعنى كثيرا بفرض هيبتها وإعلاء شأنها من خلال العناية برجال دولتها، فأمراء الحرب، الذين سبق ذكرهم، ينالون من إكرام الدولة ورعايتها ما يفرض عليهم قيودا لا بدَّ من الالتزام بها، يقول: "ولا تُفْسِحُ لأحدٍ من هذه المذاهبِ في مُخالطةِ العوَّامِ ولا مُشاركةِ التجَّارِ والاحتراف"(١)، فهم ممنوعون من الاختلاط بعامة الناس، كما أنهم لا يملكون الحقَّ بالعمل بالتجارة أو أن يحترفوا مهنة ما؛ فهؤلاء من رجال الدولة الذين علت مكانتهم، ويجب عليهم أن يترفعوا عن الأمور التي تفرض عليهم التعامل مع عامة الناس، والأمر الأهم أن الدولة الفاطمية لا ترغب باختلاط رجالها، الذين وُجِدوا من أجل حمايتها ونشر مذهبها، بعامة الناس وهم من السُنَّة لكي يحافظوا على المبادئ والقيم الفاطمية التي تربَّوا عليها، ويبقوا في حالة دفاع مستمرة عن العقيدة والدولة، دون أن يتأثروا بالمذهب السُنِّي.

ومن الأمور التي يشير إليها النص ضمن الترتيبات الإدارية التي تعنى بشؤون الدولة وتنظيمها وجود طائفة معنية بمتابعة رجال الدولة ومراقبتهم والوقوف على حالهم، يقول ضمن الوصايا: "ووكِّل بهم من النُقباءِ من يَبْتَلِيَ سيرَهم، ويُنْهي إليكَ أخبارَهم، فمن عَلِمْتَه قدْ اجترأَ إلى نسخِ المذهبِ، فتناوله بأليم الأدب"(٢)، فالفاطميون في مصر بذلوا جهدهم في متابعة أمور رجالهم لضمان التزامهم واعتقادهم، فهم في المقام الأول معنيون بنشر المذهب الفاطمي، والقضاء على المذهب السُنِّي، وتمثلت هذه العناية في تولية كبار رجالها ممن يعتنقون المذهب الفاطمي الوظائف الكبار في الدولة، ومن لم يلتزم المذهبَ من رجالها نزلت به العقوبة، وهذا ما يقودنا إلى أن الفاطميين لجئوا للقوة في نشر مذهبهم في الديار المصرية.

ولا تقف العناية عند حد الآباء بل تجاوزتهم للأبناء، فمن مات وترك عقبا، فإن الدولة معنية بالنظر في أحوالهم، تنفق عليهم، وتعلمهم أمور دينهم، وتدربهم للعمل في الخدمة التي كان عليها آباؤهم(٣)، ويُختتم السجل بالتأكيد العمل بكل ما ورد فيه، والدعاء بالتوفيق.

---

(١) علي بن خلف، مواد البيان ، ٦٤٨.
(٢) المصدر نفسه، ٦٤٨.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ٦٤٨.

### ٦. رسائل إقرار النعوت:

يعد اللقب موهبة من مواهب الإمام، يمنحه كغيرها من نعمه إلى عبيده، وكان الناس يتفاضلون بما يقرُّ لهم من ألقاب؛ لأن اللقب عادة يراد به سلطان، فكلما زاد سلطان أحدهم زادت الألقاب الممنوحة له. (١)

وجرت العادة أنه إذا قرر الخليفة نعوتاً لشخص ما، أُمِر بالكتابة إليه في ذلك، ومن السجلات التي وصلتنا تتناول هذا الموضوع، ما كتبه ابن الصيرفي(٢) في إقرار نعوت رضوان ابن وَلْخشي(٣)، حين قرر الحافظ لدين الله الفاطمي نعوته: السيد الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين.

والسجل بعد الحمد والصلاة وتأكيد أحقيّة الفاطميين في الخلافة، يأخذ بمدح الوزير الحافظي رضوان بن وَلْخشي، مظهرا أنه من أكبر النعم التي منَّ الله بها على الخليفة والإسلام، أما سبب هذا المدح والثناء، فهي المساعي التي بذلها الوزير رضوان في تخليص الدولة من الوزير السابق بهرام الأرمني، يقول: "فأمَّا الشِّركَ(٤) فلو أبقيتَهُ حيًّا لتصدَّى وتعرَّض، لكنَّك أنحيتَ عليه، وأدلتَ التوحيدَ منه فانهدَّ بناؤه بحمدِ الله وتقوَّض"(٥)، ويشير السجل إلى أنَّ الوزير رضوان قد حظي بمكانة ورواج لدى عامة الناس، وهذا ما أعانه في تسهيل المهمة عليه في الخلاص من الوزير الأرمني ومن معه من أبناء ملته، يقول: "ولا عدلتَ عن منهجِ صوابٍ لمَا انتهجتَه، وذلك مما اشتركَ الكافةُ في معرفتِه، وتساووا في علمِ حقيقته"(٦)، ويشير النص بعد ذلك إلى الجيوش التي سيَّرها رضوان بن ولخشي بقيادة أخيه الأوحد لطرد بَهرام ومن معه من الأرمن من البلاد، وكيف تحقق هذا من دون أن يلحق أذى بأيِّ أحد من الرجال، مما زاد ثقة الناس والحافظ لدين الله بحسن سياسته وسيادته، وهذا ما أوجب على أمير المؤمنين أن يقرَّ له النعوت، يقول: "ولم يرَ أحضَرَ أن قرَّرَ نعوتَك: السيِّدُ، الأجَلُ، الأفضلُ، أميرُ الجيوش، سيفُ الإسلام، ناصرُ الأنام، كافلُ قضاةِ المسلمين، وهادي دعاةِ المؤمنين، أبو الفتوح رضوان الحافظي"(٧)، وما يهمنا في مثل هذا

---

(١) ينظر: الشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ١٤٨.
(٢) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٤٥- ٣٤٨.
(٣) هو السيد الأجل الافضل رضوان بن ولخشي، ولد سنة ٤٧٨هـ، التحق بخدمة الدولة وترقَّى في الخدم حتى صار أحد الأمراء المميزين في خلافة الآمر الفاطمي، بعد ذلك أصبح وزيرا للحافظ لدين الله سنة٥٣١هـ، وقتله الحافظ سنة٥٤٢هـ. (ينظر: المناوي، د محمد، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، ٢٧٩- ٢٨٠).
(٤) يقصد الكاتب بالشرك في هذا الموضع وزير الحافظ لدين الله بهرام الأرمني.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٤٦.
(٦) المصدر نفسه، ٨: ٣٤٧.
(٧) المصدر نفسه، ٨: ٣٤٧.

الموضع هو التنبيه إلى أنَّ إقرار النعوت من المهام التي يوكَّل بها أمير المؤمنين دون غيره، وهذه النعوت هي بمثابة مهام إدارية وصلاحيات تمنح للمنعوت بيانا لمكانته وتتويجا لفضله على الدولة.

ويبين السجل بعد ذلك المهام والصلاحيات التي حظي بها الوزير بناء على هذه الألقاب، يقول: "فأمورُ الملَّةِ والدولةِ مَعدُوقةٌ بتدبيرِكَ، وأحوالُ الأداني والأقاصي موكولةٌ إلى تقريرِك، وقد جمعَ لكَ أميرُ المؤمنينَ من استخدامِ الأقلامِ، وجعَلَ السيادةَ لكَ على سائرِ القضاةِ والدعاةِ والحكَّام"[1]، فصلاحيات الوزير التي حظي بها بناء على الألقاب شملت السيادة على الكتَّاب، والقضاة، والدعاة، والحكَّام، وهي الطبقات العليا التي تحكم المجتمع الفاطمي في مصر آنذاك والتي لا تخضع إلا لسيادة الخليفة، ولعلنا ندرك من هذا مدى شمول التفويض، الذي يحصل عليه الوزير، للمهام المختصة بالخليفة، وهذا هو حال الخلفاء الفاطميين مع وزراء التفويض الذين سادوا الفترة الثانية من عمر الدولة الفاطمية، عهد وزارة التفويض، فالوزير هو السلطان الحقيقي، وصاحب الحل والعقد في الدولة، يحكم في كافة الأمور المتعلقة بالملّة والدولة.

وقبل أن يختم الكاتب السجل يظهر مدى تعلق الخليفة الحافظ لدين الله بالوزير رضوان بن ولخشي، تعلقا يكشف لنا مدى الضيق الذي عاناه من وجود وزيره السابق بهرام الأرمني، يقول: "ولو عَلِمَ أميرُ المؤمنينَ تعظيماً يخرجُ عمَّا تظمَّنَه هذا السجلُ لما اقتصرَ عليه، إلّا أنَّه عاجَلَهُ ما يَسرُّهُ فجَاهَرَ لكَ بما هو مستقِرٌّ لديه"[2]، فردة فعل الخليفة بإقرار النعوت لوزيره تظهر لنا رغبة الخليفة الشديدة بالخلاص من وزيره الأرمني ومن معه من ملَّته، ومن جانب آخر تكشف ضعف الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله أمام الوزير الأرمني، فهو لم يملك صلاحية طرده وإحلال غيره مكانه، إلا أنَّ رضوان بن ولْحشي استطاع أن ينحيه بالقوة عن الوزارة، ويحلَّ مكانه وزيراً للحافظ.

ويختم الكاتب السجل بالدعاء للوزير رضوان بن وَلْخشي بالتوفيق في كل أموره.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٤٨.
(2) المصدر نفسه، ٨: ٣٤٨.

# الفصل الثاني:

# الرسائل الإخوانيَّة في مصر في العصر الفاطميّ

**الرسائل الإخوانيَّة[١]:**

تعد الرسائل الإخوانيَّة أحد أهم الأشكال الأدبية، فهي لا تنحصر في شريحة اجتماعية بعينها، كالرسائل الديوانية، بل تجتمع عامة الناس في الحاجة إليها[٢]، فكل مكونات المجتمع تريد أن تعبر عن مشاعرها، وما يدور في خلدها؛ لذا فالرسائل الإخوانية تقدم صورة حيَّة لحياة الأفراد وعلاقاتهم ومشاعرهم في مجتمع ما، ومن جانب آخر فإن الرسائل الإخوانية تحمل فضاء إبداعيا أدبيا، وصدقا شعوريا أكثر من الرسائل الديوانية؛ ومردُّ ذلك أن الكاتب في الرسائل الإخوانية غير ملزم بقالب أو نسق كتابي يفرض عليه، فهو يملك الحرية في التوسع والتحرر ليعبر عما يريد بالطريقة التي يشاء، يقول علي بن خلف الكاتب: "والكاتبُ إذا كان ماهراً أعزب[٣]معانِيَها، ولطَّفَ مبانِيَها، وتسهَّلَ له فيها ما لا يَكادُ أن يَتَسَهَّلُ في الكُتُب التي لها أمثلةٌ ورسومٌ لا تتغيَّرُ ولا تُتجاوَزُ"[٤]، إلا أن هذا التوسع يقلل من منزلة الرسائل الإخوانية، فالتعبير عن المشاعر والأحاسيس وكل ما يختلج في النفس يضع الكاتب أمام مسؤولية كبيرة، فلا بد له أن يكون ملما بأحوال مجتمعه، وعلى مرتبة عالية من البلاغة والفصاحة؛ ليدرك الغرض الذي يكتب من أجله، ويكشف عن منزلته من الكتابة.[٥]

والرسائل الإخوانية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، إذا ما قيست بحجم الرسائل الديوانية التي بين يدي الباحث، فإنها قليلة، كما أنها جاءت متناثرة في غير كتاب، وهذا ما يجعلها عزيزة في معانيها[٦]، فبعض الموضوعات لا يجد الباحث لها سوى رسالة أو اثنتين. وهي في جلها لكاتبين هما: علي بن خلف الكاتب، نجدها في كتابه مواد البيان، جزء منها بمنزلة نماذج للرسائل الإخوانية، يوردها الكاتب بعد أن يأتي بحديث له عن أحد الأنماط الكتابية المتبعة في العصر الفاطمي في مصر. والثاني المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء، وكثير رسائله موجودة في كتابين هما: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، وجمهرة الإسلام ذات النَّثر والنِّظام لأبي الغنائم الشَّيرزي، ورغم أن هذه الرسائل لا تحمل في مستهلها أو خلال ذكرها لمن هي موجهة، على العكس تماما من الرسائل الديوانية، إلا أنها تظهر الأسلوب الذي خطَّ به الكتَّاب الفاطميون رسائلهم الإخوانية.

---

[١] وهي جمع إخوانيّة نسبة إلى الإخوان جمع أخ: والمراد بها المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ١٣٠).
[٢] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٩، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣.
[٣] أغرَبَ، ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩ : ٣.
[٤] مواد البيان، ٥٨٩، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩ : ٣.
[٥] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٩.
[٦] ينظر: ضيف، د شوقي. عصر الدول والإمارات مصر، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م، ٤٢٤.

وتشير الكتب التي تناولت الرسائل الإخوانية في العصر الفاطمي وما بعده إلى تعدد المناسبات والدواعي إليها، فيذكر علي بن خلف الكاتب في مصنفه خمسة عشر نوعا للرسائل الإخوانية يضمِّنها مجموعة من الرسائل الإخوانية من إنشائه[١]، في حين يأتي القلقشندي بسبعة عشر نوعا[٢]، منها: التهاني، والتعازي، والتهادي والملاطفة، والشفاعات والعنايات، والتشوق، والاستزارة، والعتاب، وغيرها.

ولا تنحصر الأنواع السابقة بالرسائل الإخوانية، وإنما قد تأتي الرسائل الديوانية بالغرض ذاته، فرسائل التهنئة، على سبيل المثال، قد تكون من الخليفة موجهة إلى أحد الولاة في بولاية جديدة، كما مر بنا في الفصل الأول من الأطروحة[٣]، وقد تكون التهنئة صادرة عن كاتب يوجهها إلى صديق له شغل وزارة جديدة[٤]؛ لذا فالغرض وحده لا يكون معيارا للتفرقة بين الرسائل الديوانية والإخوانية، فلا بدَّ من مراعاة أن الرسائل الديوانية تصدر عن ديوان الإنشاء، وتحمل في طيها مجموعة من الأوامر والترتيبات السياسية، والإدارية، والعقدية التي تتصل مباشرة بشؤون الخلافة وإدارة الدولة، كما أنها لا تخلو من المدح السياسي، وتفخيم الغرض الذي جاءت به، في حين نجد أن الرسائل الإخوانية تحمل لنا بعدا اجتماعيا، وتكشف عن اهتمامات الكاتب الخاصة، وسلوكه الحياتي، كما يعتمد الكاتب فيها على المجاملة، وكثيرا ما يحاول أن يضمِّنَها المشاعر والأحاسيس التي يريد إيصالها للطرف الآخر.[٥]

ومن الموضوعات التي تناولتها الرسائل الإخوانية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر:

**-١-**

## رسائل التهنئة

تتسع المعاني والأغراض التي تعبِّر عنها وتتناولها رسائل التهنئة، فهي لا تقف عند حدٍّ ما، ولا تلتزم نوعا بعينه[٦]، وإنما تتنوع باختلاف المناسبات والأغراض الاجتماعية التي تعبِّر عنها، حتى أنك تجدها تتناول كلَّ أمر من أمور الحياة الاجتماعية، ويذكر علي بن خلف الكاتب المناسبات التي تناولتها رسائل التهنئة وحملت عليها، ويجعلها في ثلاثة عشر نوعاً، وهي: التهنئة بولاية الوزارة، والتهنئة بولاية القضاء، والتهنئة بولاية الدعوة على مذهب الشيعة، التهنئة بالقدوم

---

[١] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٩ وما بعدها.
[٢] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣.
[٣] ينظر: ما سبق الفصل الأول: الرسائل الديوانية، ٦٢ وما بعدها.
[٤] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٠-٢٩٢.
[٥] ينظر: درويش، د كفاح. اتجاهات الرسائل الفنيِّة في العصر الأيوبي (٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، إشراف: الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، ٢٠٠٧م، ١١٠.
[٦] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤.

من السفر، التهنئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه، التهنئة بالمواسم والأعياد، التهنئة بالزواج والتسرّي، التهنئة بالبنين، التهنئة بالبنات، التهنئة بالإبلال من المرض والعافية، التهنئة بنزول المنازل المستجدة، التهنئة بإسلام ذميّ، التهنئة بالصرف من الولاية والخدمة[١]، في حين ياتي إليها القلقشندي بأنواع أخرى لرسائل التهنئة لم يذكرها علي بن خلف الكاتب، وهي: التهنئة بالعودة من الحج[٢]، والتهنئة بزواج الأم[٣]، والتهنئة بالختان وخروج اللحية.[٤]

وتعد التهنئة من أشكال الكتابة الجليلة النفيسة التي تحتاج من الكاتب أن يكون على بلاغة وفصاحة تامتين؛ فالتهنئة البليغة تفصح عن قدر النعمة، وتضاعف السرور، وتظهر موهبة الكاتب التي يتحلى بها، والمنزلة التي يشغلها بين غيره من الكتَّاب.[٥]

ولأن المناسبات الاجتماعية تختلف مراتبها وتتباين كما تختلف وتتباين مراتب أصحابها بها، ولا تنحصر في فئة بعينها وإنما تشترك فيها عامة الفئات الاجتماعية من الولاة والوزراء والقضاة والقادة وعامة الناس؛ فإن من الواجب على الكاتب أن يراعي في التهنئة منزلة المكتوب إليه والمكتوب عنه.[٦]

وقد تنوعت رسائل التهنئة التي وصلت من العصر الفاطمي في مصر، فمنها ما كان تهنئة بولاية عمل من أعمال الدولة كالوزارة، والقضاء، والدعوة على مذهب الشيعة، والحجابة، ومنها ما كان في مناسبات خاصة كالتهنئة بالبنين والبنات. ويلاحظ الباحث أن أساليب الكتاب تباينت في كل نوع من هذه الرسائل، فهم يقتربون من أسلوب الرسائل الديوانية إذا كانت التهنئة بولاية منصب ما في الدولة الفاطمية، في حين نجدها مختصره تؤدي غرضا واحدا إن كانت شخصية. كما إنها جاءت متباينة بين الطول والقصر فالرسائل التي تقترب من الديوانية تكون أكثر طولا من المرتبطة بمناسبات خاصة؛ لأنها تتضمن تفاصيل أكثر من الرسائل الشخصية، ويحتاج الكاتب فيها أن يظهر خبرته في ترتيبات الدولة، وقدرته على الكتابة.

ومن رسائل التهنئة التي تمثل النوع الأول ما كتبه علي بن خلف الكاتب بالتهنئة **بولاية الوزارة**[٧]، والكاتب في مثل هذا النوع من رسائل التهنئة لا يبتعد عن أسلوب الكتَّاب في الرسائل الديوانية، فهو في مستهل رسالته يصور عظم منزلة الوزارة وأهميتها في الدولة الفاطمية، يقول:

---

[١] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٩ وما بعدها.
[٢] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٢.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٩: ٨٠.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٩: ٧٦.
[٥] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٩، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤.
[٦] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٠، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤.
[٧] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٠- ٥٩٢، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٨- ٩.

"فهي من أعظمِ النّعمِ خطرا، وأحسنِها على الكافَّةِ أثرا"[١]، ثم يأتي بالمهام التي يجب أن ينهض بها من يُولَّى أمر الوزارة، من إصلاح أمور الدولة، والدفاع عنها، وتدبير أمور رعيتها، ليأتي بعد ذلك بذكر الصفات التي يجب أن يتحلى بها الوزير لتعينه على القيام بواجباته؛ فعليه أن يتحلى بمخافة الله، وأن يتقيه، وأن لا يكون متسلطا، ولا يتبع الهوى، ويضع الأشياء في نصابها، وأن يكون ليِّنا في غير ضعف، وخشنا من غير عنف، عادلا، منيعا، وغيرها من الصفات يقدمها الكاتب للوزير على شكل نصائح.[٢]

بعد ذلك يذكر الكاتب ما للوزير من فضائل أهَّلته ليختاره أمير المؤمنين، يقول: "وسلَّمَ أمورَ مملكتِهِ إلى النَّصيحِ المأمُونِ، والنَّجيعِ المَيمُون، الذي وفَّقَه اللهُ تعالى لاختيارِه، ويسَّرَه لاصطفائِهِ وإيثارِه، وأنَّه قد نَاطَ أمورَه بمَنْ لم يستخِفَّ ثَقِيلَ حملِها، وينُوءُ بباهظِ ثِقْلها"[٣]. وعلى الرغم من تحرر الكاتب في الرسائل الإخوانية من النماذج الكتابية التي تفرض عليه في الرسائل الديوانية إلا إنه في مثل هذا النوع من الرسائل الإخوانية يقترب من الديوانية في غير جانب؛ الأول لا تخلو رسالة التهنئة من بعض التراكيب الديوانية والألفاظ التي يلجأ إليها الكاتب الديواني، يقول: "وهذه نعمةٌ تعُمُّ الخاصَّةَ والعامَّة عُمومَ الغيثِ إذا هَمَع وتدفَّق"[٤]، فهو يرى أن تعيين الوزير نعمة من نعم الإمام التي تشمل الرعية كافة الخاصة والعامة، كما أن الكاتب يعمد في مستهل الرسالة إلى استعراض الخبرة التي يتحلى بها في معرفة أمور الدولة من خلال عمله في ديوان الإنشاء؛ لذا نجده يضمِّنُ الرسالة مجموعة من الصفات والمهام على شكل نصائح يوجهها للوزير، وكأنه يرسم له الطريق التي يسير عليها مبينا المهام التي كلِّف بها والصفات التي يجب أن يتحلى بها، ليقوم بمهام الوزارة التي كلف بها، خاصة أنها من أهم الوظائف الإدارية في الدولة التي تأتي بعد الإمامة. ويختم الكاتب الرسالة بالدعاء للوزير، و هذا سمتهم في الرسائل الديوانية.

ومثل هذا النوع من الرسائل يتضمن جانباً وجدانياً اجتماعياً يبيِّنُ العلاقة التي ربطت الكتَّاب الفاطميين بغيرهم من الولاة والأمراء، فكانوا يحتاجون مساحة أكثر في مثل هذا النوع من الرسائل؛ فهي لا تخلو من بعض التفاصيل التي تنبع من أهمية المناسبة وقيمة المنصب الذي يشغله الوزير.

ومن المناسبات الرسمية التي كانت أقلام الكتَّاب تفيض بالتهاني بها، وتبيِّن العلاقات التي تربط الكتَّاب بغيرهم من ولاة الدولة وكبار رجالاتها ولاية **القضاء**[٥]، ومن الرسائل التي

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٠، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٨.
[٢] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٠- ٥٩١، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٨- ٩.
[٣] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩١، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٩.
[٤] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩١، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٩.
[٥] ولاية القضاء، قاضي القضاة. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧).

وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر في التهنئة بولاية القضاء ما أنشأه علي بن خلف الكاتب(١)، ويستهلها الكاتب بحديث عن القضاء، فيعظّم أمره، ويأتي على أهميته في إثبات العدل والإنصاف في الدولة، ثم يثنى على القاضي بذكر الصفات التي تحلَّى بها دون غيره، وأهلته ليحلَّ هذا المكان. ويختم الرسالة بالدعاء له بالتوفيق وسداد الرأي.

ومنها ما جاء بالتهنئة بولاية **الدعوة على مذهب الشيعة**، ومثال ذلك الرسالة التي أوردها على بن خلف الكاتب في مصنفه وهي من إنشائه(٢)، يبين في مستهلها بأسلوب أدبي يعتمد على الصور الفنية الصفات التي يجب أن يراعيها داعي الدعاة، والمسؤولية التي تناط به في الدولة الفاطمية، فلا بدَّ أن يتصف بالرحمة بين الناس، والحكمة، والبيان، وتترتب عليه مسؤولية تجديد الإيمان، والقضاء على مذهب السنة، ويرشد الناس إلى ما جاء به من مذهب الشيعة، ويرسخه في أذهانهم، ويمحو ببيانه وحكمته المذاهب الأخرى ويريد بها السّنة.(٣)

وبعد هذه المقدمة التي يحدد فيها الكاتب مهام ومسؤوليات داعي الدعاة الجديد ينتقل إلى تهنئته، يقول:"أنا أعْدِلُ عن هَناءِ داعِي الدُّعاةِ – أطالَ اللهُ بقاءَه- بما عُدِقَ به من أمرِ الدَّعوةِ الهادِيَّةِ العَلَوِيَّةِ، ونُصِبَ له مِن فرِّ مَضَاحكِ المُشْكلاتِ عن أسرارِ الحقائقِ الإلهيِّةِ، والترجمةِ عن غوامضِ الحِكَمِ الشَّرْعيَّة، والتوقيفِ على مَوَاردِ الهُدى ومَشَارعه، والإرشادِ إلى مشَارقِ الحق ومَطالِعه، إلى هَنَاءِ الدَّعوةِ وأهلِها بما قيَّضه اللهُ تعالى لهم من مَحلِّه الرفيع"(٤)، فالكاتب يهنئ الدعوة وأهلها في الدولة الفاطمية بداعي الدعاة ، فهو يملك من العلوم والحقائق الإلهية، والتبصرة، والحكمة، والأحكام الشرعية ما يرشد إلى الحقِّ، ويعلي من قدر الدعوة وأهلها. ويختم الكاتب الرسالة بالدعاء لداعي الدعاة بالتوفيق.

والكاتب في هذه الرسالة لا يختلف عما سبقها، فهو ما يزال متأثرا بالرسائل الديوانية، يورد بعض التفاصيل التي تتصل بولاية الداعي، ويقدم مجموعة من النصائح التي تشكل منهج عمل الداعي، ويذكره ببعض الأمور المهمة التي يجب عليه القيام بها، ويختم بالدعاء، إلا أن رسائل التهنئة بولاية داعي الدعاة تختلف عن غيرها من جهة آخرى، فالكاتب ضمنها الكثير من الألفاظ الدينية المشتقة من الدعوة الفاطمية، فـ"الدعوة الهادية العلوية، وأسرار الحقائق الإلهية، والعقل، وعالم الملكوت، ..." وغيرها من ألفاظ الدعوة التي اعتمد عليها الكاتب، ولا غرابة في هذا الأمر، فلا بدَّ أن تكون ألفاظ الداعي مشتقة من الدعوة مناسبة للمذهب الفاطمي، كما أن عدم

---

(١) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٢- ٥٩٣، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٦- ١٨.
(٢) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٣- ٥٩٤، صبح الأعشى، ٩: ١٩- ٢١.
(٣) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٣، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٩- ٢٠.
(٤) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٣- ٥٩٤، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٠.

استخدام مثل هذه الألفاظ والتراكيب يمنع التفريق بين نوعين متقاربين من التهنئة وهما التهنئة بولاية القاضي، والتهنئة بولاية الداعي.[١]

ومن رسائل التهنئة التي وردت إلينا من مصر في العصر الفاطمي، ما أنشأه علي بن خلف الكاتب في التهنئة **بولاية الحجابة**[٢]، وهي لا تختلف عن سابقاتها من تهنئة الوزارة، والقضاء، وداعي الدعاة من حيث الأسلوب، حيث يضمنُها الكاتب مقدمة يعظِّم فيها شأن ولاية الحجابة وأهميتها، ثم يلحق ذلك النصح والتذكير ببعض الأمور التي يجب أن يتحلى بها من يتولى هذه الولاية. ليختم بالصفات التي أوجب اختيار أمير المؤمنين لهذا الحاجب والدعاء له.

ويلاحظ مما سبق أن الكتَّاب الفاطميين في مصر مثل هذا النوع من رسائل التهنئة ما زالوا يمارسون تعظيم شأن الدولة الفاطمية والخليفة الفاطمي في مكاتباتهم، ساعين بذلك إلى تهويل وإعلاء شأن الفاطميين في أذهان الرعية، خاصة أن جلَّهم من المذهب السُّني، وبيان المكانة التي حلَّت فيها الدولة الفاطمية وتناهض بها الدولة العباسية. هذا من جانب، من جانب آخر سعى الكتَّاب الفاطميون في الرسائل الإخوانية لإقناع الناس بحسن تنظيم الدولة الفاطمية وإدارتها؛ لتثبيتها وترسيخها في أذهان الناس محاكين بذلك الدولة العباسية. ومن جانب ثالث فإنَّ الكتَّاب الفاطميين الذين عملوا في ديوان الإنشاء لم يتمكنوا من التحلل من الثقافة الديوانية التي تربَّوا عليها في ديوان الإنشاء، فعلي بن خلف الكاتب في الرسائل التي سبق أن تناولها الباحث لم يستطع أن يكتب بعيدا عن الثقافة الديوانية وكأنه يؤلف كتابا في القانون الإداري.

ومن رسائل التهاني التي كانت تحبَّر في موضوعات أُسرية خاصة للولاة رسائل التهنئة بالبنين[٣]والبنات[٤]. وقد كان الكتَّاب يضمنون رسائل التهنئة بالبنين والبنات الفرح والسرور والشكر والدعاء للمولود، مظهرين الولاء والطاعة، إذ يصفون أنفسهم كثيرا بـ"المملوك"، إلا إن النصوص التي بين أيدي الباحث تشير إلى مسألة في غاية الأهمية وهي التفرقة عند الفاطميين بين المولود الذكر والمولود الأنثى، فقد كان الفاطميون في مصر يرون من علامات النبل وشرف العقل والعلم أن الإمام لا يرزق إلا ذكورا، يقول علي بن خلف الكاتب في رسالة تهنئة بالبنات: "ويُنْهي أنَّ المملوكَ اتَّصل به ارْتماضٌ[٥] مولانا بمَقْدَم الكريمةِ الوافدة، بطالع السَّعادةِ المتجدِّدةِ، فعجِبَ المملوكُ من وُقُوعِ ذلك من مثل مَولانا مع كمالِ نُبْله، وشرفِ عقلِه، وعلمِه"[٦]، فالإمام

---

[١]علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٤، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢١.
[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٥ - ١٦.
[٣]علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٨- ٥٩٩، و القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٥٨-٥٩.
[٤]علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٩- ٦٠٠، و القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٦١- ٦٢.
[٥] الارتماض: القلق؛ يقال: ارتمض الرجل من كذا أي اشتدَّ عليه وأقلقه. (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٥: ٣١٥).
[٦]علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٩- ٦٠٠، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٦١ ٦٢.

يقلق لولادة أنثى له؛ لأنه، كما يظهر من النص، من علامات النقص لديه، ومن جانب آخر الذكر بالنسبة له أكثر نفعا وعزًّا من الأنثى و يحيي ذكره من بعده. إلا إن الكاتب لا بدَّ له من إدخال السرور على نفس الإمام وتسليته ليبعد عنه القلق والخوف، ويبحث عن أمر يُدخل الفرح والسرور إلى نفس الإمام، فيرى أن ولادة الأنثى مرتبط بمجيء رزق، وعليه أن يستقبل الرزق بالشكر لأنها إرادة الله.

ومن رسائل التهاني في العصر الفاطمي في مصر ما كتب في تهنئة الولاة **بالقدوم من السفر**، وقد أنشأ علي بن خلف الكاتب الرسائل في هذا المعنى[١]، ويحاول الكاتب من خلالها أن يدخل البهجة إلى قلوب الناس من جانبين: الأول بيان أثر الزيارات التي يقوم بها الإمام إلى النواحي التابعة للدولة الفاطمية في مصر لتفقد أحوال الناس، ولذا نجده يأتي بذكر إحدى النواحي ويشيد بكرمه ويدعو له بالبقاء. والثاني لعودته من سفره إلى محله بسلامة، ويواصل الكاتب الدعاء له.

وكأن الكاتب في مثل هذه الرسائل يشير إلى تلك الزيارات التي يقوم بها الإمام خلال مدة حكمة وإمامته، ويحاول أن يرسخ في قلوب الناس الإمامة وأحقية الإمام في حكمهم، وأن يتوجهوا إليه بكل ولائهم وطاعتهم، وهذا جهد الكتّاب الفاطميين، إذ كانوا يرصدون حركة الإمام في كل صغيرة وكبيرة.

ومن المناسبات التي تعبر عن العلاقة التي ربطت الكتاب الفاطميين بأئمتهم وكُتبت بها الرسائل **اتخاذ منزل جديد**، فإذا اتخذ الإمام منزلاً جديداً سرعان ما توجه الكتّاب بالتهنئة ليدخلوا البهجة والسرور إلى قلوب الناس، ويباركوا المنزل الجديد، ثم يُختم بالدعاء بأن يكون المنزل عامرا بالسعادة. ومن هذه الرسائل ما جاء به علي بن خلف الكاتب في مصنفه.[٢]

ومن أغراض رسائل التهنئة التي تتضمنها الرسائل الفاطمية في مصر التهنئة **بالإبلال من المرض**، ويمثل هذا النوع من رسائل التهنئة رسالة لابن أبي الشخباء، كتبها إلى الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش يهنئه بالإبلال من المرض[٣]، ويستهلها الكاتب بالدعاء للأفضل وذكر خبر شفائه من المرض الذي حلّ به، ويعظِّم خبر الشفاء حتى يراه أكبر النعم التي تستحق الشكر وحمد الله.

ويجد الكاتب ابن أبي الشخباء في رسالته التي يهنِّئ بها الأفضل بن بدر الجمالي فرصة ليبث له ما يعانيه من بؤس، وضيق المصادر والموارد، وكثرة الشدائد التي حلَّت به، ويركز

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٥- ٥٩٧، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٤-٣٥.

[٢] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٨- ٥٩٩، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٥٨- ٥٩.

[٣] ابن بسام، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ٦٤٠- ٦٤٣.

الكاتب على هذا الجانب في الرسالة لعله يجد عند الأفضل كرما ورحمة تخلصُه مما هو فيه؛ لذا يلجأ الكاتب إلى المراوحة بين النثر والشعر في طلبه، مستخدما أسلوبا أدبيا يكشف المرتبة الأدبية التي وصلها في صناعة النثر والشعر، يقول: "فأمَّا حالُ العبدِ فعلى الحالةِ التي يُؤَمِّلُ من الحضرةِ العليةِ كشفَ ضبابها، وانتكاثَ أسبابِها، وكأنَّه من العبوديةِ يقتضي ألَّا يُغِبَّهُ مُزنُ مكارمِها، ولا تتجاوز عنه جفونُ مراحمها"[1]، ويأتي بعد ذلك بأبيات من نظمه يضمنها حالة البؤس التي لحقت به، ويخاطب فيها الأفضل طالبا منه أن يخلصه مما فيه، يقول:

أتتركني يا دهرُ في البؤس مفرداً ... ومالِكُ رِقِّي مُفْرَدٌ فيكَ واحدُ

إذا هِمَمُ الأقوامِ شابَتْ وأظلمتْ ... فهمَّاتُهُ بيضُ الوجوهِ خرائدُ

ويرى الباحث أن ابن أبي الشخباء يدرك تماما مدى حاجة الأفضل للكاتب البليغ الفصيح، لذا فقد لجأ إلى أن يستجدي عطف الأفضل بإقناعه بقدرته على الكتابة الأدبية، فهو يستعرض بهذا الأسلوب بلاغته وفصاحته لعلَّه يجد بها طريقا عند الأفضل؛ فيخلصه مما هو فيه. وقد كان الفاطميون في مصر يدركون قيمة الكاتب البليغ الفصيح بالنسبة لهم، حيث قرَّبوهم وأجزلوا لهم العطاء.

و يختم ابن أبي الشخباء الرسالة بتكرار التضرع والطلب من الأفضل أن يخرجه من سوء الحالة التي وقع بها.

وثمة لون من رسائل التهنئة تختص بالنصر، ومن ذلك رسالة ابن أبي الشخباء التي أرسلها إلى أمير الجيوش بدر الجمالي يهنئه بكسر[2] أتسز بن أوق الغُزّي[3] سنة ٤٦٩هـ، عندما اقترب أذاه من القاهرة، ويستهلها الكاتب بآيات من القرآن الكريم لتكون مدخلا لبيان فضل أمير الجيوش على الدولة الفاطمية في تثبيت أركانها عندما خلصها من أذى (أتسز بن أوق) صاحب دمشق، الذي حاول امتلاك الديار المصرية وإزالة الدولة الفاطمية[4]، بعد ذلك يرسم الكاتب مشهد النصر الذي حققه أمير الجيوش على أتسز وعساكره وكيف كان قتلهم وشتاتهم. ويبيّن بعد ذلك أهمية القائد بدر الجمالي والنصر الذي حققه في حياة الدولة الفاطمية في مصر، فقد أعاد شمل الأمة، وثبت أركانها، بعد أن أوشكت على الانتهاء.

ويختم ابن أبي الشخباء الرسالة بالتضرع لأمير الجيوش بدر الجمالي بأن يرحمه مما حل به، ويعفو عنه، ويعيد إليه مكانته التي كان عليها، يقول: "وهو يعِدُ نفسَه ويُوفيها، ويسوِّفُها

---

[1] ابن بسام، علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٤٢.

[2] المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، (تحقيق: د محمد حلمي)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٨م، ٢: ٣١٧- ٣١٨.

[3] ينظر: الحموي، معجم الأدباء، ٣: ١٠٠٤- ١٠٠٦.

[4] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ٢: ٣١٧.

ويمنِّيها، أنَّ مراجِمَ الحضرةِ، نصرَ اللهُ أعلامَهَا، تعيد كسادَ بضاعتِهِ نَفَاقا، واضطرابَ حالِه انتظامًا واتساقًا".[١]

وكانت رسائل التهاني في الولايات إذا وردت إلى أصحابها كان لا بدّ من تحبير أجوبة عليها من قبل المهنَّأ، تسمى الأجوبة على التهاني[٢]، يضمنها المجيب المعنى الذي يستنبطه من التهنئة، ويؤكد فيه أن النعمة أو السلامة التي حلت به هي بفضل دعاء وإخلاص المهنِّئ، وأنه سيعمل بشروط مودته التي ضمنها التهنئة، وهي النصائح التي يتقرب بها الكاتب من الإمام ليعبِّر بها عن إخلاصه.

ويذكر علي بن خلف الكاتب مجموعة من أجوبة على رسائل التهنئة إلا إنه لم يذكر نصا لإحدى الرسائل، حيث ذكر وجود أجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه[٣]، وأجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد[٤]، وأجوبة التهنئة بالزواج والتسرِّي[٥] [٦]، وأجوبة التهنئة بإسلام ذميّ[٧]، وأجوبة التهنئة بالصرف عن الولاية والخدمة.[٨]

-٢-

## رسائل التعزية

تشترك رسائل التعازي ورسائل التهنئة من حيث المناسبة ورسم الكتابة، فكلا النوعين يأتي في مناسبة بعينها، وعلى الكاتب أن ينزل صاحب المناسبة منزلته من الخطاب في كل نوع منهما، يقول صاحب مواد البيان: "وحكمُها حكمُ التَّهاني مِنَ الرَّئيسِ إلى المرؤوس، ومن المرؤوسِ إلى الرَّئيس، ومن النَّظيرِ إلى النَّظير".[٩]

وباب المعاني في رسائل العزاء واسع المجال، فالكاتب إذا بدأ معزيًا شخصا ما فلا بدّ أن يراعيَ فيما يكتب إرشاد المخاطب إلى طريق الصبر، ويقنعَه بتسليم الأمر لله، ويسليَه عما سُلب منه، ويفتحَ له فيما يكتب باب الأمل والتفاؤل بحسن العوض، وغيرها من المعاني التي تتضمنها رسائل التعزية.

---

[١] الحموي، معجم الأدباء، ٣: ١٠٠٦.
[٢] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٥.
[٣] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣١.
[٤] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٧، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٥٤.
[٥] من سرا. يقال: سري عنه أي تجلى همه، وانسرى عنه الهم أي انكشف. (ابن منظور، لسان العرب، ٦: ٢٥١).
[٦] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٩٧ - ٥٩٨، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٥٧.
[٧] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٢، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٧٥- ٧٦.
[٨] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٢، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٨٠.
[٩] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٣، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٨٢.

ومثل هذه المعاني تحتاج إلى كاتب بليغ، يحسن التعبير عن مشاعره بصدق وإخلاص، فلا بدَّ لصاحب المناسبة أن يشعر بالتسلية، وتهوِّن عليه مصيبته، يقول علي بن خلف الكاتب: "والكاتبُ إذا كانَ جيِّدَ الغَريزةِ حسنَ التأتِّي فيها بلَغَ المراد".(١)وهذا ما تمتاز به التعزية عن التهنئة، فكلاهما يأتي لغرض اجتماعي إلا إن صدق المشاعر ومهارة الكاتب في التعزية يجب أن تظهر أكثر من التهنئة؛ فالتعزية لا تقف عند حدود المجاملة أو التواصل الاجتماعي، بل يجب أن يكون لها الأثر السريع والواضح في نفس صاحب المناسبة.

ورسائل التعزية التي وصلتنا عن العصر الفاطمي في مصر قليلة، حيث لم يقف الباحث إلا عند أربع رسائل: الأولى من إنشاء ابن الصيرفي(٢)، والرسائل الثلاث المتبقية من إنشاء علي بن خلف الكاتب، أوردها القلشندي في مصنفه ونقلها عنه محقق كتاب موادّ البيان(٣)، وهي من الرسائل المطلقة التي تصلح للتعزية على اختلاف قرابة الفقيد من المعزَّى، الأب، الأم، الابن، الابنة، الأخ، أو الزوجة.(٤)

الرسالة الأولى من إنشاء ابن الصيرفي، كتبها معزِّيا الأفضل بن بدر الجمالي بعد أن فقد أحد أقربائه ممن كفله وتربَّى في كنفه.

والرسالة جاءت في ثلاثة أقسام، الأول منها يظهر الكاتب من خلاله كبر الجزع والهلع وشدة النازلة التي حلَّت بهم، يقول: "إن كان الدهرُ قد فُجِئَ بفادِحِ المُصِيْبةِ، ورمى بسهامِهِ المُصْميةِ المُصيبةِ، وبالَغَ في الفَجيعةِ الفضيعةِ، وسعى بينَ الأرواحِ والأجسامِ بالفراقِ والقطيعةِ، وطرَقَ من المُصابِ بالأجلِّ المظفَّرِ- كرَّمَ اللهُ مَثْوَاه- بما مَنَعَ الطَّرفَ وسَنَه، وفتَّحَ من الصَّبرِ مُسْتَحْسَنَه"(٥)، فالمصيبة لم تكن، والحزن لم يقع، والشدة لم تزدد لولا الأفضل بن بدر الجمالي، فالكاتب ابن الصيرفي يربط هول المصيبة بشدة الحزن الذي بذله الأفضل بن بدر الجمالي على المتوفّى.

وبعد أن يعلن الكاتب ابن الصيرفي الحزن العام وشدة المصيبة التي وقعت، يتعجب ممن كتب خبر الوفاة، وقد فقدت الناس عقولها من شدة حزنها، ثم يندب المتوفى، مظهرا الحسرة التي ألمت بهم بعد فقده، يقول: "وأعجَبُ من ذلك انطلاقُ الأيدي بعدَهُ- شرَّفَ اللهُ ضريحَهُ- بتحقيقِ خبرِ فقدِهِ، والإقدامِ على التعزيةِ عنه، وقَدْ عُدِمَتِ العقولُ من بعدِهِ، فوا لهفَاه على مضيه وذهابه! ووا

---

(١) علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٣، صبح الأعشى، ٩: ٨٢
(٢) ينظر: الأفضليات، ٢٩٦- ٢٩٨.
(٣) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٣- ٦٠٤، صبح الأعشى، ٩: ٩٥– ٩٧.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩ : ٩٤.
(٥) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٩٦.

أسفاه على ما فعله الدهر، ودهى به!"[١]، ويشير ابن الصيرفي في هذا النص إلى أن الفاطميين لم يكتفوا بالإعلان عن الوفاة شفاهيا، بل كان خبر الوفاة يوثق بالكتابة، و يرسل ليعم الخبر ويتحقق بين الناس، ومن ثم تتقبل التعازي في المتوفى.

بعد ذلك يتحول ابن الصيرفي في رسالة التعزية إلى مواساة وتسلية الأفضل بن بدر الجمالي، ووجوب تقبل حكم الله، يقول: "ومع هذا الحال فليس إلا التسليم والرِّضى، والتقبل لما حكم الله وقضى، والتصبر وإن كان عمن لا تجد النفوس منه عوضا"[٢]، ويرى الكاتب أن التسلية العظمى للناس هي النعمة ببقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزيرا للدولة الفاطمية، وراعيا لمصالحهم. [٣]

ويختم ابن الصيرفي رسالة التعزية بحمد الله تعالى على تجدد النعمة ببقاء الأفضل بن بدر الجمالي واستقراره في الدولة الفاطمية، ودعوته، سبحانه وتعالى، أن يخلِّد ملكه.[٤]

أمَّا علي بن خلف الكاتب في رسائله الثلاث في التعزية فلم يأتِ على نحو واحد، ففي رسالته الأولى يفتتحها بالدعاء للمعزَّى بطول البقاء، ويدعوه إلى أن يسلم أمره إلى الله تعالى ويرضى بقضائه، يقول: "ليس عند المصيبة – أطال الله بقاء سيدي- خير من التسليم إلى الله والرضا بقضائه، والصبر على بلائه"[٥]، ثم يأتي بعد ذلك بآيات من القرآن الكريم تحثُّ على الصبر، وتبين أجر الصابرين وثوابهم؛ محاولا أن يقنع المعزَّى بالصبر، ويختم الرسالة بالحقيقة التي لا تخفى على أحد، فالإنسان عليه أن يوسع صدره لكل ما يحل به من المصائب، فالأيام متداولة، والأحوال لا تبقى على حالها، وعلى الإنسان أن لا يغترَّ بطول السلامة.

وفي الرسالة الثانية في التعزية فالكاتب علي بن خلف لم يستهلها بالدعاء، وإنما يأتي بذكر نبأ وفاة أحدهم، ويرسم لنا مشهدا يبين مدى الألم والحزن الذي حلّ به بعد أن علم خبر الوفاة، يقول: "وقد اتصلَ بالمملوكِ خبرُ الفَجِيعةِ بفلان، فأُفِيضتِ المَدَامع، وتضَعْضَعتِ الأضالع، وزَفَرتِ الأنفاس، وهَمَدت الحَوَّاس، وأذابَ الطرفُ سَوادَهُ على الوَجَنَاتِ بدلاً من الأنقاس"[٦]، وبعد أن يبين الكاتب أثر نبأ الوفاة عليه ينتقل ليدعو المعزَّى للتحلي بالصبر والسلوان، ويختم الرسالة بالدعاء.

ولم يستهل علي بن خلف الكاتب رسالة التعزية الثالثة لا بدعاء ولا بذكر نبأ الوفاة وأثره على المتلقي، وإنما يقدِّمها بالدعوة إلى تسليم الأمر لله تعالى في السّرّاء والضّرّاء، يقول: "مَن عَلِمَ أنَّ الأقضيَةَ لا تُخطِئ سهامُها، والأقدارَ لا تُرَدُّ أحكامُها، سلَّمَ الأمْرَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، ورضِيَ

---

[١] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٩٧.
[٢] المصدر نفسه، ٢٩٧.
[٣] المصدر نفسه، ٢٩٨.
[٤] المصدر نفسه، ٢٩٨.
[٥] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٣، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٩٥.
[٦] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٣- ٦٠٤، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٩٦.

بما مَنَاهُ في البَلَاءِ والابتلاء، ولا سيَّما في مصيبةِ الموت"[١]، ثم يذكر بعد ذلك نبأ الوفاة والأثر الذي تركه عليه، محاولا بهذا أن يبين مدى الحزن والألم اللذين حلّا به.

ويلاحظ الباحث في الرسائل الثلاث التي أنشأها علي بن خلف الكاتب أن خطاب التعزية يختلف بحسب صلة المتوفَّى بالمعزَّى، والمكانة الاجتماعية التي يحظى بها، ففي الرسالة الأولى يلاحظ أن خطاب الكاتب لا يتجاوز حدود إقناع المعزَّى بالصبر والتسليم إلى الله، في حين يسعى الكاتب في الرسالتين الثانية والثالثة إلى إظهار مدى الحزن والألم الذي حلَّ به وبغيره نتيجة سماعهم نبأ الوفاة، حيث يشير الكاتب في الرسالة الثانية إلى أن المتوفّى ابن المعزَّى، وفي الرسالة الثالثة نجد الكاتب يستخدم كلمة **"المملوك"**، وهذا دليل على أن المتوفَّى له صلة بأحد الأمراء أو الولاة؛ من أولي الأمر في الدولة.

ورسائل التعزية لا تختلف عن رسائل التهنئة من حيث الأجوبة، فصاحب المناسبة، المعزَّى، إذا وصلته رسائل التعزية وجب عليه أن يحبِّر الأجوبة لتأكيد وصولها، وتبيان فضلَ مرسليها عليه، وعلى من يكتب الأجوبة أن يستنبط معانيها من رسائل التعزية التي وردت، كما عليه أن يشير في الأجوبة إلى الأثر الكبير لهذه الرسائل في التخفيف عنه، وتصبيره، وإخراجه مما حلَّ به.[٢]

**-٣-**

## رسائل التَّهادي والمُلاطفة

وهذا اللون من الرسائل يدلُّ على دوام المحبة والتواصل بين المتهادين، ولا بدَّ لمن يكتب في هذا اللون من الرسائل أن يراعي أموراً عدَّة تعينه على بلوغ المودة من الهدية، فعليه أن يطلق الألفاظ المستحسَنَة التي تمهِّد لقبول الملاطفة أو الهدية فيما يكتب، ويودع رسالته أوصاف الشيء المُهْدَى بما يحسِّنه في نفس المُهدى إليه، دون أن يفخم الهدية أو أن يشير إلى خطرها وعظيم شأنها.[٣]

ومن الرسائل التي جاءت تحمل معنى الإهداء ما كتبه علي بن خلف الكاتب في إهداء جواد أغرّ محجّل[٤]، وهي من الرقع القصيرة التي يضمِّنُها الكاتب أوصاف الجواد المُهدى، يقول: "وقد خدَمَ المملوكُ رِكَابَهُ الأكْرَم بجوادٍ أدْهَمَ مُطَهَّم[٥]، قد سلَبَ اللّيلَ غَيَاهِبَه وكَواكِبَه، فاشتَملَ

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٤، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٩٦- ٩٧.
[٢] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٩٩.
[٣] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٠١.
[٤] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٥- ٦٠٦، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٠٥.
[٥] الجواد الأدهم: الأسود. (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٤: ٤٣٠) والمُطهَّم: الحسن التام. (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٨: ٢١٣).

بأديمِه، وتحلَّى بنجومِهِ"[١]، ويمضي الكاتب على هذا المنوال في ذكر الأوصاف المحبَّبَة بالجواد من الأصالة والطاعة والصبر وغيرها التي تحبب المُهدى إليه بهديته، ويختم الكاتب رسالته بالدعاء.

ولم يحدد الكاتب المُهدى إليه، ولكن يظهر من النص أنه أحد الولاة، إذ يصف الكاتب نفسه بـ"**المملوك**" وهذا الوصف لا قيمة له إلا إذا كان المخاطب من الولاة أو الأمراء.

وتكتب الرسائل في الاسْتهداء على نحو ما تُكتَب في الإهداء؛ فما يُكتب مع ما يُهدى قد يكتب مع ما يُسْتَهدى، إلا أن العادة جرت لدى الكتَّاب في الاستهداء طلب الأشياء المستظرفة الخفيفة المنَّة دون ما يعظُّم، إلا إذا كان الاستهداء من الملوك فيطلب دائما منهم ما كان جليل القدر[٢]. ومن رسائل الاستهداء التي بين أيدينا ما أنشأه على بن خلف الكاتب في استهداء مداد، يقول: "أولى ما أنْبسطُ في استهدائِهِ، وتسمحُ نفسي في استماحتِهِ واستجدائِهِ، ما كان فاقعا[٣] لغُلَّةِ الأقلامِ، مُقيِّدا لشَواردِ الأفْهام، مُحبِّرا لبُرود البيان، حاليا في معارضِ الحُسنِ والإحسان"[٤]، فالكاتب في هذه الرسالة يطلب ما يحتاجه من المِداد، مبيناً أهميته بالنسبة له وللكتابة، من غير أن يمدح المكاتَب أو أن يثير جوده.

وقد يلجأ الكتَّاب للترويح عن النفس والتخلص من الهموم إلى عقد مجالس الشرب، ويظهر ذلك من خلال رسائل الاستهداء التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي مما أنشأه على بن خلف الكاتب في استهداء مشروب[٥]. يبدؤها الكاتب بالدعاء إلى المكاتب بطول البقاء، ثم يشرح له حال المجلس الذي هو فيه مبينا مدى الحاجة إلى ترويح أنفسهم، ليستجدي سيده، الذي هو بمثابة أحد الولاة أو الأمراء، الشرابَ، ولعل هذه إحدى الصور التي تبين لنا مدى الفسق الذي شهدته مجالس الأمراء والولاة الفاطميين آنذاك.

**- ٤ -**

## الاستزارة

ويتمثل هذا اللون من الرسائل الإخوانيَّة في الرقع التي تشتمل على وصف مجالس الأُنْس واللَّذَّات ومشاهد المَسَرَّات، ولا بدّ للكاتب من أن يحسن اختيار الحلو من الألفاظ، وأن يكون بارعا في التشبيهات، مبالغا في تشويق المستَزَار إلى الحضور.[٦]

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٥- ٦٠٦، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٠٥.
[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٢٤.
[٣] "ناقعا"، المصدر السابق، ٩: ١٢٥.
[٤] علي بن خلف مواد البيان، ٦٠٦، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٢٥.
[٥] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٦، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٢٦.
[٦] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٠٩، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٥٢.

ومن رسائل الاستزارة ما كتبه علي بن خلف الكاتب يدعو أحد الولاة إلى زيارة بُسْتان له [1]، يقول في الابتداء: "كتبتُ، أطال الله بقاءَ سيِّدي، وقد غدوتُ في هذا اليومِ إلى بستاني والطَّيْرُ في الأوْكَار، والأنداءُ تهبطُ كالتَّيارِ، واللَّيلُ مشْتَمِلٌ على الصَّبَاح اشتمالَ الأَدْهَمِ على الأوْضَاح"[2]، وبأسلوب أدبي أنيق يمضي الكاتب في النص معتمدا على جانبين مهمين في تشويق المستزار إلى الزيارة: الأول رسم تلك المشاهد العينية التي يتكون منها البستان من جداول، وميادين واسعة، ومناظر تتعلق بها القلوب، وما يحتويه من أشجار الفاكهة ومما تطيب بها النفس. والثاني بيان حاجة الإنسان لمشاهدة مثل هذا البستان، فالكاتب لم يكتفِ برسم صورة جميلة للبستان بل يبين للمستزَار أثر مشاهدة مثل هذه المناظر على تعديل مزاجه، وتنشيطه، وإدخال الفرح والسرور إلى نفسه.

ولا بدَّ للكاتب من بيان أهمية الزيارة المرتقبة بالنسبة له، وبيان المرتبة التي يحتلها المدعو في قلبه، يقول: "فإنْ رأى أراهُ اللهُ ما يُقِّرُ العينَ أن يكمِّلَ مسرَّتِي بنَقْلِ قَدَمِه إليَّ، وإطْلاعِ سعدِ طَلْعتِهِ عليّ، ليُتَمِّمَ محاسِنَ ما وصَفْتُهُ، ويكمِّلَ الالتِذاذَ بما شرحتُه، فَعَلَ، إن شاءَ الله"[3]، فالزيارة هي تمام المجلس وهو معقود بها.

ومثل هذه الرسالة الإخوانية في الاستزارة تكشف مدى الثراء الذي وصل بكتَّاب الدولة الفاطمية، فالكاتب، علي بن خلف الكاتب، وإن عمد إلى الأسلوب الأدبي الراقي في وصف البستان إلا أن المضمون ينبئ عن ثراء كبير تنعم به، ولا يخفى على الباحث، من خلال الرسالة، المكانة الاجتماعية التي يحظى بها الكاتب، وهي مكانة تسمح له أن يدعو أحد الأمراء إلى زيارته إلى بستانه لعقد مجالس الأنس واللذات.

وجرت العادة أن تكتب أجوبة الردّ على رسائل الاستزارة في حالتين: الأولى إذا تثاقل المُستزَار من الحضور في الموعد لشغل ما، فلا بدَّ أن يكتب الجواب مبنيا على سروره بما دُعي إليه، وأن حضوره يشفع له، والأخرى في حال أن ييأس من الحضور فعليه أن يكتب الجواب مبنيا على ما يمهد عذره، ويبين الأسباب التي طرأت لديه وتمنعه من الحضور فيما يكتب؛ ليحافظ على الود بينهما.[4]

---

[1] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦١١- ٦١٣، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٥٤– ١٥٥.
[2] علي بن خلف، مواد البيان، ٦١١، القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٥٤.
[3] علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٢ - ٦١٣، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٥٦.
[4] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٣، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٥٦.

## -٥-

## رسائل العتاب

تعتري علاقات الأفراد الاجتماعية بعض الإساءات، سواء أكانت هذه الإساءات مقصودة أو غير ذلك، ومن النادر أن تخلو الصداقات من كدر القطيعة أو أسباب التجاهل والضغينة؛ لذا كان لا بدَّ من وجود مثل هذا اللون من الرسائل التي يتدارك بها كل ما يضرُّ بحقوق الأخوَّة وموجبات الصداقة، وأحيانا قد تكون رسائلُ العتاب ردة فعل لسلوك ما ظهر من أحدهم، فيأتي الخطاب كبيان صادر عن المخاطِب يتضمن بعض الأمور التي لا بدَّ من فهمها عند التعامل مع الآخرين، ورسائل العتاب التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر قليلة، وهي من إنشاء ابن أبي الشخباء.[١]

ولا بدَّ لمثل هذا النوع من الرسائل أن يستوفي شروطه الكتابية ويعبِّر عن معانيه بتمام القول؛ لتحقق الرسالة الغاية المرجوة منها، حيث تتخلص من ضعف الاعتقاد بين الأصدقاء، وتعيد الودّ إلى ما كان عليه قبل الخصام[٢]؛ لذا فرسائل العتاب لا تحتمل التأويل، ولا يتوقع من الكاتب أن يبدأ العتاب بالدعاء أو غير ذلك من المقدمات التي اعتادها الكتَّاب الفاطميون، ومن ذلك ما نجده في رسالة العتاب التي كتبها ابن أبي الشخباء معاتبا قائدا نظر إليه نظرة فيها استعلاء وتكبّر، يقول مستهلا رسالة العتاب: "رأيتُ فلاناً عندَ نظرتِهِ لي بالأمسِ قَدْ قطَّبَ حاجبَهُ، وزعزعَ مناكِبَه وأوسَعَ الغلامَ من... ذيل كمِّه"[٣]، فالكاتب يكشف في مستهل رسالته السبب الذي يدفعه لعتاب هذا القائد بمرارة؛ ونجده بعد ذلك ينتقل للسخرية منه معتمدا على أسلوب الاستفهام الذي يبحث ساخرا من خلاله عن السبب الذي دفعة للتكبر والاستعلاء على ابن أبي الشخباء، يقول: "فقلتُ: ماله؟ أَأُنْزِلَ إليه وحيٌ؟ أم عُصِبَ به أمرٌ ونهي؟ أم حصلَ من الخلافةِ على وعد؟ أم قلَّ عقلُه فعقَّ نفسَهُ وظلَمَها، وجَهِلَ مقاديرَ الأشياءِ وقيمَها...، أم رأى الملائكةَ المقربينَ تتشفَّعُ به، والحورَ العينَ تشكو لاعِجَ حبِّه، وثمارَ الجنَّةِ تدلَّت إلى يده"[٤]. وعلى هذا النحو يمضي الكاتب يسخر من هذا القائد بسخريات متعاقبة، فهو ليس نبيا مرسلا، ولا من أصحاب الأمر والنهي، والذي يبدو أنه فقد عقله فلم يعد يقدِّر قيمة الأشياء، حتى ظن أنه نبي تتشفع به الملائكة، وتشكو الحورُ العينُ شدَّة َحبه.

---

[١] ينظر: الشنتريني، أبو الحسن علي بن بسام (٥٤٢هـ). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، الصفحات:٦٣٨،٦٣١،٦٣٠، وينظر: الشَّيرزي، أبو الغنائم مسلم بن محمود (٦٢٢هـ). جمهرة الإسلام ذات النَّثر والنِّظام، الجزء الأول، تحقيق: الدكتور محمد إبراهيم حوَّر، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الصفحات: ٤٣٧، ٤٣٨.

[٢] ينظر: مواد البيان، ٦٢٤، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٩.

[٣] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣٠.

[٤] المصدر نفسه، ٢: ٦٣٠.

ويختم الكاتب الرسالة بتوجيه الحديث مرة أخرى إلى ذلك القائد طالبا منه أن يتوقف عن ذلك التكبر والاستعلاء، ليجد من يُثني عليه ويحمده ويشكره على كل ما ينهض به.

وقد يخلو العتاب من السخرية، ويكون الخطاب أقل حدة وأكثر تأدبا، ويكتفي الكاتب بذكر السبب الذي دفعه إلى العتاب، ومن الأمثلة على ذلك رسالة في العتاب التي أنشأها ابن أبي الشخباء[١]، يقول في مستهلها: "أرى سلامَ سيِّدي قد تقاصَرَ طويلُهُ، وروضَ جوِّهِ قد زادَ ذبولُهُ، وماءَ بشرِهِ قدْ غاضتْ بحورُهُ، ونشاطَ لقائِهِ قدْ استمرَّ فتورُه"[٢]، فيبدو خطاب الكاتب أكثر حرصا على المعاتَب، ولعل هذا مرده إلى أن المعاتَب هو أحد الوزراء، إذ يصفه بالحضرة السامية، ممن تغيرت علاقتهم مع الكاتب وأصبحت أكثر فتورا بفعل أقوال الوشاة.

ومما يميز هذه الرسالة عن سابقتها أن الكاتب يدعو إلى المعاتب بالعزَّة، ويذكر المناقب الحميدة التي تحلَّى بها دون غيره، ويبدي استغرابه مما يلاقيه من المعاتَب، ويحاول أن يذكر الصفات التي تعيدُ الودَّ إلى ما كان قبل الفتور، يقول: "بل هو يَرْحُبُ إذا حَرِجَ المضيق، ويرطبُ وقد عَصَبَ الرِّيقُ، وتمرُّ به المُحْفِظَاتُ وهو راضٍ، وتوقظه المغايظُ وهو متغاضٍ"[٣]، وهذا اللين في الخطاب لا نجده في كل رسائل العتاب، فالخطاب في العتاب يتباين بتغير المخاطَب، ففي رسالة العتاب الأولى[٤] التي وجهت إلى أحد القادة، نجد العتاب يصل حدَّ الطعن في الصميم وتظهر المبالغة في السخرية، في حين نجد رسالة العتاب هذه لا تتجاوز حدَّ الوقوف عند السبب وتذكير المعاتب، وهو كما يبدو أحد الوزراء، بالصفات الحسنة التي يتحلى بها، والتي يبحث بها الكاتب مكانا أفضل مما حلَّ فيه، ويبدو فيها حرص ابن أبي الشخباء على إعادة العلاقات إلى ما كانت عليه.

وقد يخلو العتاب من السخرية، وذكر أسباب العتاب، ويكون مصحوبا بالاستعطاف، ومن الأمثلة على ذلك ما أنشأه ابن أبي الشخباء معاتبا مستعطفا أحد الخلفاء الفاطميين[٥]، حيث بدأ العتاب مستشهدا بآية قرآنية ثم تبعها بقول لعلي بن أبي طالب في معنى العفو والصفح، يقول: "قال الله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٦]. وقال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام: ما ضُمَّ شيءٌ إلى شيءٍ أحسن من شكرٍ إلى نعمة، وصفحٍ إلى قدرة. وقد أنكرتُ وحلفتُ عما به قُرِفتُ مما لم

(١) ينظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣١- ٦٣٢، وينظر: الشَّيرزي، جمهرة الإسلام ذات النَّثر والنِّظام، ١: ٤٣٨– ٤٣٩.
(٢) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣١- ٦٣٢.
(٣) المصدر نفسه، ٢: ٦٣١- ٦٣٢.
(٤) ينظر: ما سبق،١٢٧.
(٥) ينظر: الشَّيرزي، جمهرة الإسلام ذات النَّثر والنِّظام، ١: ٤٣٨.
(٦) سورة النور: ٢٢.

أجْنِهِ، وسألتُ المغفرةَ فما أسْعِفْتُ"[١]، فابن أبي الشخباء يلجأ إلى القرآن الكريم والأقوال المأثورة محاولا التأثير بأمير المؤمنين ليصفح عنه، فهو يرى أنه سلك كل الطرق إلا إنها لم تسعفه في الحصول على صفح وعفو أمير المؤمنين.

وينتقل بعد ذلك من العتاب إلى الاستعطاف، محاولا التعبير عن حاجته إلى عفو المخاطب وعطفه، يقول: "يا مولاي الأجلّ، حرسَ اللهُ أيامَكَ، وضاعفَ إكرامَكَ، متى خشيتَ على من يخدمُك، وقسوتَ على من يستعطِفُكَ، أين المراجعةُ المُضَريَّة، والأخلاقُ الشفافَة الدُّرِّيَّة، والشمائلُ الكريمةُ العنبريَّة"[٢]. ويمضي ابن أبي الشخباء بعد ذلك مستعطفا أمير المؤمنين، محاولا أن يبيِّن سوء حاله نتيجة الجفوة التي حلت بينه وبين أمير المؤمنين.

وقد تبدأ رسالة العتاب ببيت من الشعر وتنتهي ببيت من الشعر، وتتداخل بينهما الأبيات الشعرية بالعبارات النثرية المسجوعة، ومن ذلك ما أنشأة ابن أبي الشخباء إلى صديق يعاتبه وقد جفاه[٣]، يقول:[٤]

فـــــوالله لــــو خيـــــرت بــــين فــــراقكم وبـــين حمـــامي قلـــت يـــدركني نحبـــي

ولكن الملَ، أطالَ اللهُ بقاءَ مولاي الأجل، داعي الفساد، ومطيةُ البعاد، وقائدُ العناد:

وجـــادع أنـــفَ الوصـــل بعـــد ســـموِّه وقـــاطع مـــا بـــين الأخـــلّاء والصـــحب

ولما بدا من حضرته ما يظن، وذاع ما أعلن وعَلَن:

وصــــدَّ مــــلالاً لا صــــدودَ تعتُّــــبٍ وأعــرض فيهــا عــن ودادي وعــن قُرْبــي

ويمضي الكاتب على هذا النحو مراوحا بين النثر والنظم في العتاب، منكرا الجفوة التي حلَّت بينه وبين أحد أصدقائه، محاولا البحث عن الأسباب التي أحدثت هذه الجفوة، مؤكدا استمرار المحبة رغم ما يجد منه.

**-٦-**

## رسائل الاعتذار

تعد رسائل الاعتذار أبرز الرسائل الإخوانية التي تعنى بالعلاقات الشخصية بين الأصدقاء، فكثير ما يلجأ أحد الصديقين إلى الاعتذار على ما بدر منه تجاه الآخر لإدامة الودِّ والحفاظ على

[١] الشَّيرزي، جمهرة الإسلام ذات النَّثر والنِّظام، ١: ٤٣٨.
[٢] المصدر نفسه، ١: ٤٣٨.
[٣] المصدر نفسه، ١: ٤٣٧.
[٤] المصدر نفسه، ١: ٤٣٧.

الأخوَّة بينهما، وفي الأغلب يكون الاعتذار نتيجة للعتاب الذي دار بين الطرفين، وفي المحصلة فإن الاعتذار لا يصدر إلا عن الرغبة الحقيقية في إعادة ترتيب العلاقات الشخصية بين الطرفين، وهنا يكمن الفرق بين خطابي النوعين، فخطاب الاعتذار يعمد الكاتب فيه إلى الملاطفة واللِّين، ويتطرق إلى الإشادة بالمخاطب، وبيان خصاله الحميدة التي تفرد بها، لعلَّه يستميله فيتجاوزَ عن خطيئته ويغفرَ له ذنبه، وتعود الأمور إلى سابق عهدها، في حين نجد أن خطاب العتاب لا يخلو من السخرية والإساءة إلى المخاطَب؛ حيث أن المخاطِب لا يرغب بإدامة العلاقة مع المخاطَب، ومثل هذا ما مرَّ بنا سابقا في رسالة العتاب التي أنشأها ابن أبي الشخباء معاتبا أحد القادة.[١]

ورسائل الاعتذار التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر قليلة، إلا إنها تعبِّرُ عن نهج الكتَّاب الفاطميين في تحبير مثل هذا النوع من الرسائل الإخوانية، كما تبيِّنُ لنا جانبا مهمًّا من حياة الدولة الفاطمية في مصر؛ حيث تكشف التخاصم والتنافس بين المقربين من الأمراء والوزراء، وهذا ما يدفع كل واحد منهم إلى الإطاحة بالأقرب منه إلى الأمير أو الوزير.

ومن الرسائل التي اختصت بالاعتذار ما كتبه علي بن خلف الكاتب[٢]، يستهلها الكاتب بالدعاء بالبقاء الذي يتوسط الجملة الاستهلالية، يقول: "الأعذارُ، أطالَ اللهُ بقاءَ سيِّدي، تَنْأى عن الامتِنَاع، وتضيْقُ عن الاتِّساع، وذلك بحسب ما تصادفُهُ من قَبُولٍ ورد، ومسامَحةٍ ونقْد"[٣]، فالكاتب يوضح مضمون الخطاب من الاستهلال بأنه خطاب في الاعتذار، ويؤكد وجوب الاعتذار من التأدب في خدمة الرؤساء، وكشكل من أشكال لزوم الطاعة، يقول: "فقدَّمْتُ من الاعتذارِ ما يقدمُهُ المذنبُ نزولا على طاعتِهِ، وتأدبا في خدمتِهِ".[٤]

ويلجأ الكاتب بعد ذلك إلى الحمد واستخدام الألفاظ الجامعة للعذر، محاولا إيقاع الصفح والعفو في قلب المخاطب، من خلال الإشادة به والتنويه بخصاله، تمهيدا لطرق باب العفو، يقول: "وأنا أحمدُ الله على أنْ جعلَ عذري إلى من يتحمَّلُ العذرَ للمُعتذِر، ويصفحُ صفحَ المالكِ المُقتدر، كأنما أئتمَّ بقول الشاعر:

إذا ما أتت مِن صاحبٍ لك زلّةٌ ... فكن أنت محتالاً لزلّتِهِ عُذرا

[١] ينظر: ما سبق، ١٢٨.
[٢] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٥ – ٦١٦، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧٠– ١٧١.
[٣] علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧٠.
[٤] علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٦، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧١.

ولم يجعله إلى من يُغلِّب هاجسَ الظّنونِ على واضحِ الحُجَّة، ومعتلَّ الشكّ على صحيحِ اليقين"[١]، والكاتب هنا لم يبث شكواه، ولم يقدم الحجج التي تثبت براءته مما نسب إليه من قول الوشاة، وإنما اكتفى بصرف انتباه المخاطب إلى ضرورة عدم تغليب الظن على الحقيقة، والشكّ على اليقين، ولعل السبب كما يرى الباحث أن الكاتب لم يقع في فخّ الوشاة ولم يعاني ما عاناه غيره من الكتَّاب، وإنما استطاع أن يحافظ على الودِّ بينه وبين المخاطب، وهذا ما جعل لغة خطابة لينة، خالية من الحدة.

ويختم الكاتب رسالته بتجديد الاعتذار وبيان وجوبه، وتأكيد أن الاعتذار في مثل هذا الموضع هو من باب التأدب، والطاعة، محاولا أن يلقي باللوم على نفسه بالإقرار الصريح.

ومن رسائل الاعتذار ما أنشأه ابن أبي الشخباء معتذرا إلى أحد الوزراء بلغه أنه هجاه[٢]، التزم بها في الاستهلال بالأسلوب الذي جاء عند علي بن خلف الكاتب، الابتداء بالدعاء الذي يتوسط الجملة الاستهلالية، يقول: "لو لم تقضِ الشريعةُ، أطالَ اللهُ بقاءَ سيِّدنا، برفضِ المقالةِ العاريةِ من البرهانِ والدلالة، لكان ذلك في الغريزةِ راتبا وفي حكمِ القول واجبا"[٣]. ويبدو خطاب الاعتذار في مقدمة هذه الرسالة أكثر حدَّة من سابقتها؛ ولعل السبب يعود إلى الضرر وسوء الحال الذي لحق بالكاتب، ابن أبي الشخباء، ويأسه من عفو الوزير وصفحه، وكأنه يقول له: إن الأمور لا تحتاج إلى توضيح أو بيان.

وبعد ذلك يأتي الكاتب ببيان أثر كلام الزور والكذب على من يقع عليه ظلما، يقول: "وكثير ما خرقت الكلمة حجابا مصونا، وأراقت دما حراما وسفكته"[٤]، وكأنه يشير في مثل هذا الموضع لتخوفه مما قد يحلُّ به نتيجة ما نُسب إليه من هجاء الوزير، ولا يكتفي ابن أبي الشخباء بهذا بل نجده في ختام رسالته يؤكد سوء الحال التي وصل إليها، وتأثره مما نسب إليه باطلا، يقول: "ويصبح العبد حرا مستقيلا، ويجد له من حَرِّ ما رمُي به في ظلال كرمه مقيلا"[٥]، ولعل هذا ما دفع ابن أبي الشخباء ليكون أكثر حدَّة وجرأة في اعتذاره، فهو يعاني الأَسْر والاضطهاد بما فعل الوشاة.

---

[١] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٥ – ٦١٦، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧٠- ١٧١.
[٢] ينظر: الشيرزي، جمهرة الإسلام،١: ١١٣٣- ١١٣٤.
[٣] المصدر نفسه،١: ١١٣٣.
[٤] المصدر نفسه، ١: ١١٣٣.
[٥] المصدر نفسه،١: ١١٣٤.

ويستنكر ابن أبي الشخباء الحال التي وصلت بالمخاطب، حيث لم يعد يميِّز بين الناس ولا ما يقال في حضرته، ويبين ذلك في بيتين من نظمه، يقول:[١]

أخلاقُك الغُرُّ النمير ما لها ... حملت قذا الواشينَ وهي سلاف

والإفكُ في مرآةِ رأيكَ ما له ... يَخفى وأنت الجوهرُ الشفاف

ويختم ابن أبي الشخباء رسالته وهو يتأمل أن تتكشف الحقيقة للوزير، فيزول عنه كيد أعدائه من الوشاة، وأن تعود الأمور إلى ما كانت عليه.

ويتضح لنا مما سبق أن فئة الكتَّاب هي الأقرب إلى الأمراء والوزراء، ولكنَّ ثمن هذا الود والقرب كان غاليا، فمنهم من تعرض له الوشاة وحاولوا إصابة الودِّ الذي بينه وبين غيره من الوزراء إلا إنهم لم ينجحوا بذلك، مثلما حدث مع علي بن خلف الكاتب وهذا ما تشير إليه الرسالة، فهو يشتكي من الوشاة إلا إنهم لم ينالوا منه فهو ما زال في خدمة الوزير، ومنهم من نال منه الوشاة، فدفع ثمن هذا الود غاليا، مثلما حدث مع ابن أبي الشخباء الذي سجن وتعرض للإهانة وساءت الأمور بينه وبين الوزير، ومن جانب آخر تشير هاتان الرسالتان إلى الضعف الذي يعانيه الولاة والوزراء، فمجالسهم لم تعد مهتمة بإدارة شؤون البلاد، وإنما هي معقودة للقال والقيل، والشرب، وغيرها من الأمور التي نالت من الدولة الفاطمية في مصر.

ومن رسائل الاعتذار ما كتب في الاعتذار عن عدم حضور وداع مسافر، ومن ذلك ما أنشأه ابن أبي الشخباء معتذرا عن عدم وداع بعض إخوانه[٢]، والرسالة ليست على نمط الرسالتين السابقتين، فالكاتب لا يأتي في استهلالها بالدعاء للمخاطب، بل يشير مباشرة إلى الأسباب التي كانت وراء تأخره عن الوداع، يقول: "ما أَخَّرني عن خِدْمَةِ مولاي بالوداعِ أنِّي مُتَأَخْرٌ في حَلَبَةِ ولائِهِ، ولا عارٍ عن ملابسِ إخائِهِ وآلائِه، وَلَوَددْتُ لو صحبتُ ركابَهُ السعيدَ إلى الصعيد، وإنما حجزني أمرانِ كلٌّ منهما يمهِّدُ العذرَ ويبسُطُهُ ويمحو الذنبَ ويحبِطُهُ"[٣]. ثم بعدها يبيّن ابن أبي الشخباء الأسباب التي أخرته عن وداع صديقه، ليقنع صديقه أنها لم تكن قطيعة منه ولا قلَّة في الولاء، وينهي رسالة الاعتذار متحدثا عن مدى الشوق والحنين الذي سيحل به إلى أن يأتي البشير بخبر عودته من السفر.

---

[١] الشيرزيّ، جمهرة الإسلام،١: ١١٣٣.

[٢] ينظر: ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٢٩- ٦٣٠.

[٣] المصدر نفسه، ٢: ٦٢٩.

ومضمون الرسالة السابقة لا يخرج عن معنيين هما: الاعتذار عن التأخر للوداع مع بيان الأسباب، ومدى الشوق الذي سيلاقيه ابن أبي الشخباء نتيجة سفر صديقه، والكاتب هنا لم يبالغ في الاعتذار، كما أنه يأتي بالحجج والبراهين التي تثبت براءته، وأنه ما يزال مواليا لصديقه، وهذا مالا نجده في رسالتي الاعتذار السابقتين، ولعل الأمر كما يرى الباحث مرده إلى أمرين: الأول أن الاعتذار في مثل هذا الموضع، التأخر عن الوداع، لا يوجب المبالغة في الاعتذار. والثاني أن ابن أبي الشخباء لا يربطه بصديقه إلا الودُّ المتبادل بينهما، والمخاطَب لا يشغل أي منصب في الدولة كأن يكون وزيرا أو ما شابه، وبهذا فهو لا يخشى الوشاة أو أن يتم تأويل الكلام الظاهر بآخر باطن.

ومن رسائل الاعتذار ما كتب بالاعتذار عن عدم زيارة صديق في مرضه، من ذلك ما أنشأه ابن أبي الشخباء[١]. والرسالة تخلو من الدعاء والجملة الاستهلالية التي تتناسب والاعتذار، ويكتفي الكاتب ببيان السبب الذي أخَّره عن الزيارة، والاعتراف بذنبه، يقول: "وقد كان منِّي ما يعلمُهُ من السَّهوِ، وأسألُهُ مقابلتَهُ بالتجاوزِ والعفو"[٢]، وحتى تقرَّ عين المخاطب ويطمئن إلى أن هذا التأخر ليس تقصيرا منه، نجد الكاتب يقبل على المخاطَب بالمدح، والثناء، والدعاء له بطول العمر، حتى أنه يفتديه بنفسه، يقول: "واللهُ تعالى يجعلُ عمري وقايةً لعمرِه، ويلهجُ لساني ما حييتُ بذكرِه، ويغمرُ قلبي بمحبتِه، ويحجبُ طرفي عن نواهُ برؤيتِه، ويقدمُنى أمامَه إلى الحِمام، ويحرسُني فيه من حوادثِ الانتقام"[٣]، فالكاتب لا يتحرَّج من ذكر السبب الذي أخَّره عن زيارته، وهو السهو، ولكنه يحاول أن يحصِّل العفو بأي ثمن، فنجده يقدم روحه ثمنا لذلك، لعل صديقه يطمئن له، ويتجاوز عن ذنبه.

-٧-

## استماحة الحوائج

يختصّ هذا النوع من الرسائل بطلب الحوائج الخاصة من ذوي الشأن وأهل الاقتدار؛ فإذا طمح الكاتب إلى تحقيق رتبة بعينها، أو احتاج ما لا يكفيه سؤال الناس ويحفظ ماء وجهه، فسرعان ما يلجأ إلى مثل هذا النوع من الرسائل ليترجم بها نوع الحاجة التي يطالب بمنحه إياها.

---

[١] ينظر: الشيرزي، جمهرة الإسلام،١: ١١٣٤- ١١٣٥.
[٢] المصدر نفسه،١: ١١٣٤.
[٣] المصدر نفسه،١، ١١٣٤.

ورسائل الاستمناح تعادل في يومنا هذا ما يسمى"الاستدعاء" أو الطلب الذي يتقدم به صاحبه لنفسه أو لغيره لتحقيق منفعة ما.

ولأن بذل المعروف متباين من شخص لآخر، بتباين الأمزجة والأفكار، كان لا بدَّ للكاتب من التحلي بالقدرة على استمالة المخاطب و إصابة الحاجة، لذا نجد علي بن خلف الكاتب يأتي ببعض الآداب التي لا بدَّ من تحققها في مثل هذا النوع من الرسائل، لاستمالة جانب المُستمَاح، يقول: "وينبغي للكاتبِ أنْ يتلطَّفَ فيها التلطُّفَ الذي يعودُ بنجاحِ المَرام، ويُؤمِّنَ مِنَ الحصُولِ على إراقةِ ماء الوجْهِ، والخيبةِ بالردِّ عن البُغْية، ويعدلَ عن التثقيلِ والإلْحافِ المُضجريْن، ولا يضيّقُ العذرَ على السماحِ إلا أنْ يتمكَّنَ للثقةِ به، ويعلمَ المشاركةَ في الحال"[1]، فعلى الكاتب أن يحفزَ همة المستمَاح بالألفاظ اللينة التي تحرك العطاء، و يراعيَ التلطف في الطلب بعيدا عن الضجر، وأن يظهر حاجته لما يطلب، من خلال بيان شدَّة ما حلَّ به أو بغيره.

ورسائل الاستمناح التي بين يدي الباحث عن العصر الفاطمي في مصر قليلة، وجاءت في قطع قصيرة، لا تتجاوز بضعة أسطر، إلا إننا نستدل منها على الأسلوب الذي خطَّ به الكتَّاب الفاطميون مثل هذا النوع من الرسائل، ومنها ما كتبه ابن أبي الشخباء يطلب من أحدهم معونة ماديَّة، يقول: "وحضرَ فلان، وعليه من نعمتِهِ آثارٌ قد حَلَّتْ عَطَلَهُ، وسدَّتْ خَلَلَهُ، وظهَرَ في زيٍّ يكبتُ كلَّ عذولٍ وشامِت، وينطقُ بالمنَّةِ عنه وهو صامِت"[2]، فالكاتب يلجأ في رسالته هذه إلى إظهار قوة المستمَاح وقدرته على تلبية حاجته، والإشادة بكرمه وبيان فضله على الناس، حتى إذا وثق أن خطابه سيحرك قوى السَّماح لدى المستمَاح، ختم رسالته بالطلب، يقول: "ولما اعتزمَ العودةَ إلى ذلك الظلِّ المديد، والعيشِ الرغيدِ، زوَّدْتُهُ هذه الرقعةَ مُستدعيًا له الزيادةَ من كرمِ العادةِ، والحظوظَ السَّنِيْةَ المستفادَة"[3]. وعلى هذا النحو يأتي علي بن خلف الكاتب برسالة استماحة أخرى يطلب فيها معونة مادية نتيجة عارض حلَّ به، ويعمد فيها إلى بيان قدرة المستمَاح، والإشادة به، والانتهاء بالطلب.[4]

وقد يعمد الكاتب في رسائل الاستماحة إلى الوقوف عند حالة الفاقة التي يعانيها إثارةً للمستمَاح، وتحريكا لعواطفه، حتى يقدم العون، ومن ذلك رسالة من إنشاء على بن خلف الكاتب، يقول فيها: **"**ولا يحمِلُني مولاَيَ على ظاهرِ تجمُّلي، وجميلِ توَكُّلي، على حالٍ قد أحالَتْها العُطْلة،

---

[1] علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٨، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧٦.
[2] ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٤٨.
[3] المصدر نفسه ، ٢: ٦٤٨.
[4] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٩- ٦٢٠، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧٨.

وتخلَّلتْها الخَلَّة، وإنما أُبْقِي بالتَّجمُّلِ على ديباجةِ همَّتي، وأَصُونُ بالتخفيفِ عن الصَّديقِ مُروَّتي"[١]، فالكاتب يشير إلى أنه يظهر شيئا ويخفي آخر، يظهر عدم حاجته، ولكنه في الواقع فقير لا يملك شيئا، فهو لم يعد يعمل، وقد نال منه الفقر والحاجة، وقد حاول أن لا يظهر هذا ليحافظ على مروءته وهمته، إلا أنه وصل من الفقر والحاجة ما لا يطيقه، وما أن ينتهي من وصف حاله حتى ينتقل إلى الثناء على المستمَاح، وبيان مدى كرمه وجوده، ليختم الرسالة بالطلب، والتعجيل بالعطاء إن رأى ذلك.

وقد يلجأ الكاتب في رسالة الاستماحة إلى الابتداء بالجملة الاستهلالية التي تتناسب وغرض الرسالة يتوسطها الدعاء، ومن ذلك ما أنشأه علي بن خلف الكاتب في طلب معونة تأخرت عن موعدها، يقول: "المواعيدُ، أطال الله بقاء مولاي، غُرُوس، حُلْو ثمرِهَا الانْجَازُ والتَّعجيل"[٢]، وبعد الدعاء يلجأ الكاتب إلى الثناء على المستمَاح وبيان قدرته على فعل الخير حتى نجده يختم صراحة بطلب المعونة.

وقد يسعف المخاطب طلب المستمِيح فيجيب طلبه ويقضي حاجته، وهو في هذه الحالة غنيٌّ عن الجواب، فربما يكتب جوابا يظهر فيه انبساطه، ويعتذر عن التقصير في حقِّه، وإن منع المستمَاح ولم يستجب لطلب المعونة من المستمِيح، فقد يكتب جوابا يعتذر فيه في الوقت الحاضر، وربما لم يكتب الجواب تغافلا.[٣]

**-٨-**

## الاستعطاف والاسترضاء

يعبِّر هذا اللون من الرسائل عن حاجة الكاتب إلى عفو المخاطَب وعطفه؛ فقد يمرُّ الكاتب في حالة نفسية صعبة نتيجة نكبة حلّت به، اقترفتها يداه أو دبرها الواشون له، فيفقد مكانتة، أو يُسلب ماله، وربما ينتهي به الأمر في السجن، لذا كان الكتَّاب يلجئون لمثل هذا النوع من الرسائل للتخلص مما حلَّ بهم، فيحبرون الرسائل يستعطفون ويسترضون بها الأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم.

ومن رسائل الاستعطاف والاسترضاء ما كتبه ابن أبي الشخباء مستعطفاً مسترضياً أحدهم نتيجة وشاية وقع بها.[٤]

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٩، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧٧- ١٧٨.
[٢] علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٩، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٧٧.
[٣] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢٠، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٢.
[٤] ينظر: ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٢٧- ٦٢٩.

ويبدأ الكاتب رسالته بإعمال فكره، فهو يشير إلى أن المودة الصادقة الوثيقة لا تتأثر بالشبه والأباطيل مهما كثرت بين الناس، يقول: "الموَدَّاتُ إذا كانت متينةَ العقودِ، صادقةَ المشهودِ، موضوعةً على أصلٍ عريق، وأساسٍ وثيق، لم تُجْزِعْها الشُّبْهةُ المُرْمِضَةُ، ولم تُزَلْزِلْها الأباطيلُ المعترضَة، وإن تناقلتْها ألسنٌ مختلفة"[١]، فالكاتب من جانب يشير إلى متانة ودِّه وصدقه، ومن جانب آخر يبعث رسالة عتاب إلى المخاطَب لتفريطه بالودّ الذي بينهما.

وينتقل الكاتب بعد ذلك لبيان الموقف الذي استدعى منه كتابة هذا الاستعطاف، فقد أدرك تماما تبدل الودّ بينه وبين المخاطب. ويراوح في بناء معناه بين النثر والشعر، حيث يروي الحالة الجديدة نثرا، يقول: "ولما رأيتُ زيارةَ مولاي قد صارت مرقعةً، وجنوبَ مودَّتِه قد عادت مُرَوَّعَة، وصرتُ أرى قولَه متناقضاً، وماءَ البِشْرِ من وجهِهِ غائِضا"[٢]، وينتقل بعد ذلك لبيان ما كان عليه المخاطب قبل ضياع الود نظما، فيقول:[٣]

تنبي طلاقةُ وجهِهِ عن وجهِهِ فتكادُ تَلقى النُّجحَ قبل لقائَه

وضياءُ وجهٍ لو تأملَهُ امرؤٌ صادي الجوانحَ لارتوى من مائِهِ

ولا يقف عند هذا الحدّ بل نجد الكاتب يتجاسر عن سؤال المخاطب عن هذا التغير فيلجأ لغيره خوفا من التشكيك بوده، ليكشف سبب ذلك التحول في العلاقة، يقول: "فأخبرني أنَّ بعضَ الناسِ، ولم يُسَمِّه، نقلَ إليهِ عنِّي، فشنَّ الغارةَ على وفائِهِ، وزلزلَ أواخي ودِّهِ وإخائِه"[٤]، ويلاحظ أن الكاتب لم يتوجه مباشرة إلى المخاطب لسؤاله عن التغير في العلاقة وإنما يلجأ لآخرين يكونون عونا له في مثل هذا الأمر، وهذا ما يدلنا على أن الأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم من رجال الدولة يكرهون سؤالهم مباشرة من جانب، ولا يحبون أن تقام عليهم الحجة والبراهين على براءة الآخرين من جانب آخر، فهم يحبون دائما أن يلبسوا زيَّ المحسنين، ويرغبون بوجوب شكر الآخرين لهم على إحسانهم، ولعل هذا ما دفع كاتبنا إلى تجنب الحجج والبراهين التي تثبت صحة ودِّه وصدقه تجاه المخاطب وأن التقصير لم يكن من جانبه.[٥]

ويختم الكاتب رسالته مشيرا صراحة إلى أنها استعطاف تقدم به إلى المخاطب، ويتمنى أن يعود الودّ إلى ما كان عليه قبل تدخل الوشاة، يقول: "والآن فقد أوْضَعْتُ وأوْجَفْتُ، وتألَّفْتُ مولاي واستَعْطَفْتُ، فإن عادتْ ظلالُ ودِّهِ مديدة، وحبالُ كَرَمِهِ مَحْصُوْفَةً جديدة، فَحَسَنٌ بتلكَ الشَّمائِل، أن

---

[١] ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٢٧- ٦٢٨.
[٢] المصدر نفسه، ٢: ٦٢٨.
[٣] المصدر نفسه، ٢: ٦٢٨.
[٤] المصدر نفسه: ٢: ٦٢٨.
[٥] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦١٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩ : ١٦٦.

تجمَعَ شمْلَ الفضائِلِ"[١]، ويؤكد أن هجر المخاطب له غير مبرر، ولا يوجد سبب للتمادي به إن أصرّ على ذلك، وهو لا يتجاوز حدود الملل الذي يقع بين الخلان.

ويضمِّن ابن أبي الشخباء رسالته الدعاء لله تعالى أن يحفظ المودة، ويجنبها كل ما ينقضها.

ومن رسائل الاستعطاف التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطمي الرسالة التي أوردها صاحب الذخيرة، ومما كتبه القاضي أبو محمد بن نعمة بن خليل[٢]، ويبدأ الكاتب رسالته بالدعاء للمخاطب بطول البقاء والعز والنعماء، ثم ينتقل إلى الثناء عليه والوقوف عند الشمائل التي عرف بها، من نزاهة، وعطاء، ومروءة، وسعة صدر، وصبر وغير ذلك من الصفات التي تتناسب والغرض من الرسالة وهو الاستعطاف الذي يبحث الكاتب عنه في رسالته.

ويختم الكاتب رسالته بطلب الاستعطاف من المخاطب، راجيا منه أن لا يخذله، مكررا مرة أخرى الثناء على المخاطب بعبارات تتضمن معنى العدل والجود.

ويتباين خطاب الاستعطاف بين الرسالتين الأولى والثانية، فالخطاب في الرسالة الأولى، التي أنشأها ابن أبي الشخباء، يستعطف ويسترضي فيها أحد الأمراء، وموجه للعقل، ويتضمن العتاب، ويحاول فيها الكاتب أن يبرئ نفسه من أمرٍ ما ألصق به دون أن يسوق الدليل أو الحجة على صحة ذلك، في حين نجد الخطاب في الرسالة الثانية موجها للعاطفة، يحاول الكاتب الحصول على عطف المخاطب من خلال الثناء عليه؛ ولعل هذه المفارقة مردها لأمرين: الأول من هو المخاطب؟ فهو في الرسالة الأولى أحد الأمراء من أولي الأمر الذي قد يلحق الضرر بالكاتب وهو ابن أبي الشخباء، في حين يبدو المخاطب في الرسالة الثانية صديقا مقربا ولكن لا يخشى منه. والأمر الثاني أن الكاتب في الرسالة الأولى يستعطف من أمر لا علاقة له به، تسبب الواشون به عند الأمير. في حين الكاتب في الرسالة الثانية يبدو قد ارتكب بيده أمرا دفعه إلى كتابة الاستعطاف، ولم يحاول أن يبرئ نفسه؛ لأنه كما يظهر من النص قد أساء لأحدهم، ولا يملك إلا أن يستعطف.

**-٩-**

## رسائل الشكر

قد ترتبط رسائل الشكر بغيرها من المناسبات الاجتماعية كالتهنئة، والتعزية، والإبلال من المرض، والاعتذار، وغيرها، وتكون أيضا ردًّا على إحسان أو برّ؛ لذا فهي نتيجة وليست ابتداء،

---

[١] ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٢٩.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٢: ٦١٨، هـ ١.

ويجب على الكاتب أن يضمن شكره الاعتراف بالنعمة التي حلّت به وأثرها عليه، بما يجدد النعمة ويرغِّب المخاطَب بالزيادة منها.[١]

وعلى الكاتب في رسالة الشكر أن ينتهج أسلوبا ينسجم والغرض من هذا النوع من الرسائل، يقول علي بن خلف الكاتب: "وينبغي للكاتبِ أن يتفنَّنَ فيها، ويقرِّبَ معانيها، وينتحِلَ لها من ألفاظِ الشُّكرِ أنْوطَها بالقلوب؛ لتستيقنَ نفسُ المتفضِّلِ أنَّه قد اجتنى ثمرةَ تفضُّلِه، وحصل من الشُّكرِ على أضعافِ ما بذَلَه من مالِه أو جاهِه"[٢]، ولا ينبغي للكاتب أن يبالغ بالشكر، وإنما يذهب مذهب الاختصار والإيجاز، ويتعمد الألفاظ الجامعة لمعاني الشكر بعيدا عن الإفراط أو الغلو، خاصة إذا كانت الرسالة موجهة من الأتباع إلى الرؤساء، لأن ذلك يحملهم على التملُّق الذي لا يليق في مثل مواضع الشكر.[٣]

ومن رسائل الشكر ما كتبه ابن أبي الشخباء في شكر إحسان أحدهم[٤]، والرسالة من القطع القصيرة الموجزة يضمنها الكاتب ثناءه على المتفضِل والدعاء له، يقول:"ولستُ أدري لأيِّ إحسانِكَ أشكر، وأيِّ أياديكَ الغرّ أنشر، إذا كانت قد زادتْ بكثرتِها عن الإحصاء، وأستغرقَتْ بأسرِها الإغراقَ في الشُّكرِ والثَّناء"[٥]، ثم يتبع ذلك أبياتا من الشعر يعترف فيها بتقصيره، فهو يرى أن شكره يقصِّر عن غاية ما قدَّم من إحسان.

وثمة رسالة شكر أنشأها علي بن خلف الكاتب[٦]، يعتمد فيها مبدأ الإيجاز في الشكر، ويثني فيها على المتفضِل ويبين أثر نعمته عليه من خلال مقابلة يعقدها بين مُتفضِل وسائل، يقول: "وينهي أنَّ اللهَ لمَّا ألهَمَ مولانا البرَّ، ألهَمَ المَملوكَ الشُّكر، فهو لا يزالُ يوسِّعُ في البرِّ ويزيد، والمملوكُ لا يزالُ يبدي في الشُّكرِ ويعيد، ولكن شتَّانَ بين فاعلٍ وقائل، ومعطٍ وقابل، وواهبٍ وسائل، ورافدٍ وحامد".[٧]

وقد يلجأ الكاتب إلى أن يبدأ الكاتب رسالة الشكر ببيان الأثر الذي تركه برّ المتفضِل عليه؛ لعظيم ذلك عليه، من ذلك رسالة أنشأها علي بن خلف الكاتب[٨]، يقول: "وصلَ برُّ مولانا وقد أحالَتْ الخَلَّةُ من المملوكِ حالَه، وأمالَتْ آمالَه، فلأمَتْ ما صدَعَه الدهرُ من مَرْوتِه، ووجدَت ما أخلَقَه من فَرْوَته، فكفَّ المملوكُ يديه عن امتحانِ الخلَّان، وقبضَ لسانَه عن شكايةِ الزمان، وأقرَّ

---

[١] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢٠، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٣.
[٢] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢٠، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٣.
[٣] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢١، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٣- ١٨٤.
[٤] ينظر: جمهرة الإسلام ذات النَّثر والنظام، ١: ٢١٦.
[٥] المصدر نفسه، ١: ٢١٦.
[٦] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢١ــ ٦٢٣، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٥.
[٧] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢١ــ ٦٢٣، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٥.
[٨] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢١، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٥- ١٨٦.

ماءَ وجهِهِ في قرارته" (1)، ثم يمضي الكاتب في بيان تقصير شكره عن عطاء مولاه، فمهما بلغ الشكر فهو قاصر عن الكرم. ويختم الكاتب الرسالة بالدعاء.

ومن رسائل الشكر ما تبدأ ببيان أثر الشكر في تخليد الذكر، ووجوبه جزاءً للبرِّ، وكيف أن الله أقرَّه بين الناس ليكون لسان صدق لهم على مرِّ الأزمان، وكذلك الاعتذار عن التقصير في الشكر، وبيان عظمته عند الكاتب، وأنه مهما قدم لن يؤدي فضل المتفضِّل عليه، ومن ذلك ما أنشأه علي بن خلف الكاتب، يقول معتذرا: "ويُكْفى المملوكُ بالإشارةِ، مَؤونةَ العِبارة، والمملوكُ وإن رامَ تأديةَ ما يلزمُهُ من شُكره، قاصرٌ عن غايةِ بِرِّه، ولو استَخْدَم ألسنةَ الأقلامِ، وأستغرقَ أمدَي النِّثارِ والنِّظام"(2)، ومثل هذا المعنى وهو الإشارة إلى تقصير الكاتب في بلوغ شكر المُتفضِّل عليه لا يخلو من رسائل الشكر، ويحرص الكتَّاب عليه ؛ رغبة في بيان الفضل، وتعظيم البِرّ، والزيادة من العطاء.

---

(1) علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢١، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٥- ١٨٦.
(2) علي بن خلف، مواد البيان، ٦٢٢، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٨٦.

# الفصل الثالث:

# الرسائل الأدبيَّة في مصر في العصر الفاطميّ

تمثل الرسائل الأدبيَّة في العصر الفاطمي لونا مهماً من ألوان الكتابة، حيث تجرَّأ الكتَّاب الفاطميون، كغيرهم من الكتَّاب، على التأليف في بعض الموضوعات التي كانت خاصة بالشعر، كالغزل، والمديح، والهجاء، والفخر. ويعدُّ التعبير عن هذه الأغراض نثرا من ملامح تطور النثر العربي في القرن الرابع الهجري[١]. وهذا ما يؤكد أن الحدود الفاصلة بين النثر والشعر طُمست، نتيجة نضج العقل العربي خاصة بعد الانفتاح على الحضارات الأخرى بعد القرن الثاني الهجري، حيث أصبح النثر يرتادُ كلَّ الميادين التي اقتصرت على الشعر، ولعل عدم تقيد النثر بالوزن والقافية مكَّنه من استيعاب الأغراض الأدبية التي عبر عنها الشعر.

والرسائل الأدبية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر جاءت في نوعين: النوع الأول الرسائل الأدبية المضمون، وهي الرسائل التي تتضمن العديد من المضامين الأدبية، كما أنها جمعت العديد من الموضوعات والأخبار والطرف الأدبية، وتحتوي مجموعة من النصوص الشعرية والنثرية التي يستشهد بها الكاتب في موضوع ما، وقد يضمنها الكاتب تراجم بعض الكتاب والشعراء، أو يوجه نقدا لأشعارهم أو لصنعتهم الكتابية.

والغرض من هذه الرسائل بيان القدرة الكتابية واستعراض المخزون التراثي الأدبي الذي حظي به الكاتب لبلوغ أمر ما، ويمثل هذا النوع من الرسائل الأدبية الرسائل المسماة بـ "الأفضليات"[٢] وهي سبع رسائل أنشأها ابن الصيرفي، وخصَّ بها الأفضل بن بدر الجمالي، لجَسْر الهوة التي حدثت بينهما، وهذه الرسائل هي: رسالة العَفْو، ورسالة رَدِّ المظالم، ورسالة لُمَح المُلَح، ورسالة منائِحِ القرائح، ورسالة مناجاة شهر رمضان، ورسالة عقائِلِ الفضائِل، ورسالة التَّدلِّي على التَّسلِّي. ومثل هذا النوع من الرسائل قد تتناول موضوعات أدبية خاصة بالشعر نحو "رسالة التَّدلِّي على التَّسلِّي" التي جاءت في رثاء الأفضل بن بدر الجمالي، وقد تتناول موضوعات عرف بها النثر الأدبي نحو"رسالة العفو" التي يطلب بها العفو من الأفضل بن بدر الجمالي، وقد اتسمت جميعها بالطول.

وأما النوع الثاني من الرسائل الأدبية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر فهي رسائل أدبية الغرض، وهي قصيرة الحجم، ويظل الكاتب فيها في فلك موضوع أدبي واحد،

---

[١] ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة العصرية، بيروت، ١: ١٢٩-١٣٠.

[٢] الأفضليات مجموعة من الرسائل، صنَّفها ابن الصيرفي للملك الأفضل أحمد بن بدر الجمالي، الوزير الفاطمي، في الأيام (٤٨٧- ٥١٥هـ) وهي مدة وزارته، وقد خَطَّ ابن الصيرفي هذه الرسائل طالباً بها من الأفضل العفو والصفح، ومحاولاً استصلاح المودَّة بعد جفوة حدثت بينهما، ولا يعلم سبب هذه الجفوة، ولكن ربّما تدخل الوشاة، فأفسدوا ما بينهما من ودٍّ، فنقم الأفضل على كاتبه ابن الصيرفي، فطرده من ديوان الإنشاء، ولم تدم هذه الجفوة، فسرعان ما وُصِلَ حبل المودة بينهما، فقد اعتذر ابن الصيرفي من وزيره الأفضل، وألحَّ في الاعتذار، وطلب الصفح حتى استطاع أن يكسب عطف الأمير مرّة أخرى، ويستميله إليه، فأعاده إلى مكانه في ديوان الإنشاء. (ينظر: ابن الصيرفي، مقدمة كتاب الأفضليات، تحقيق: د. وليد قصّاب، و د.عبد العزيز المانع، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق،١٩٨٢م).

ويتمثل ذلك في رسائل الوصف، والرثاء، والهجاء، التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطمي.

وقد يداخل الكاتب في الرسالة الأدبية بين نثره ونظمه أو نظم غيره، إلا إنه بهذا يخدم معنى واحدا لا يخرج عنه، والرسائل الأدبية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر قليلة، وهي لا تتجاوز بضعة رسائل؛ ولعلَّ مردُّ ذلك ما ذكره السيوطي في مقدمة مصنفه "تاريخ الخلفا" من تجاوز المؤرخين عن أخبار الفاطميين وتاريخهم، ومن جانب آخر انصرف الكتَّاب الفاطميون في مصر عن الكتابة الأدبية، وكان همهم الأول هو إثبات وجودهم في مجال الرسائل الديوانية لمكانة الكاتب في الديوان الفاطمي، لذا فالرسائل الأدبية التي بين أيدي الباحث عن العصر الفاطمي في مصر لا تقاس من حيث الكمّ بالرسائل الديوانية والإخوانية، إلا إن الباحث سيسعى من خلالها إلى بيان معالم الكتابة في الرسائل الأدبية في العصر الفاطمي في مصر.

**أولا: الرسائل الأفضليَّات:**

تعد الرسائل الأفضليات أهم الرسائل الأدبية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، وتتأتى أهمية هذه الرسائل من أكثر من جانب: الأول أن الرسائل الأدبية التي بين أيدينا في مجملها قليلة، فإذا استثنينا الرسائل الأفضليات فلا يوجد من موروث العصر الفاطمي في مصر من الرسائل الأدبية سوى بضع رسائل جاءت في الوصف والرثاء والهجاء، فالندرة أضفت أهمية كبرى للرسائل الأفضليات. الأمر الثاني أن لهذه الرسائل الأفضليات أهمية نقدية وبلاغية، فقد ضمَّنها ابن الصيرفي العديد من الآراء النقدية، والبلاغية، وجال جولات أدبية واسعة، تعبِّر عن ثقافة الكاتب الديوانية في العصر الفاطمي. ويضاف إلى ما سبق أن كاتبها أحد الكتَّاب الفاطميين المشهورين الذين تولَّوا رئاسة ديوان الإنشاء، وقد ضمنها رسائل أخرى من إنشائه، وهذه الرسائل لم ترد إلا في الأفضليات، ومن ذلك نصٌ أنشأه في وصف سيف مرصع(١)، وآخر يماثل به ابن شرف القيرواني(٢)، يشرح فيها حالة حاجٍ(٣)، وأنشأ رسالة في وصف حال الجدب يتحدى بها ابن شرف القيرواني(٤)، وله رسالة كتبها للأفضل بن بدر الجمالي يخفف بها عليه فقد أحد أعزائه(٥). وله منشور كتبه لوالدة المستعلي بالله، ولم يرد منه إلا جزء صغير في الأفضليات(٦)، وله نصٌّ في

---

(١) ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ٦٦.
(٢) أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد المعروف بابن شرف القيرواني، أديب شاعر مغربي مشهور، وله مصنف أبكار الأفكار. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢: ٨٦ ، و٤: ٣٨٤).
(٣) ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٢٦.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ٢٦٧.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ٢٩٦.
(٦) ينظر: المصدر نفسه، ١٧٢.

عيد الغطاس[١]طلب منه أحد أصدقائه أن ينشئه له ليدعو أخاه للشرب[٢]. ونصٌّ آخر أتمَّه في رسالة لمح المُلح، ولم يتعرَّض أحد من الكتَّاب لإتمامه قبله، ونسب شرف إتمام هذا النص إلى الأيام الأفضلية[٣]، ويضاف إلى نتاج ابن الصيرفي أبيات شعر لم يذكرها المترجمون له، ولم ترد إلا في الأفضليات[٤]، فالرسائل تتضمن مادة أدبية مهمة، تضاف إلى نتاج ابن الصيرفي الأدبي، ويضاف إلى ذلك ما استشهد به من التراث الأدبي لمن سبقه من الكتَّاب والشعراء والحكماء ومن أخبار العرب خلال رسائله وكتابتهم وأشعارهم.

والرسائل الأفضليات لا يمكن عدّها كتابا أدبيا بحتا[٥]، وإنما هي رسائل أساسها إخواني ومادتها أدبية أراد ابن الصيرفي بها أن يبلغ حاجته من خلال أدبه، فهو يبحث عن عفو الأفضل ابن بدر الجمالي من خلال إشعاره بمدى قدرته على الكتابة وبلاغته وسعة أدبه، الذي تسلح به في ديوان الإنشاء، فالكاتب يدرك تماما حاجة الحكام الفاطميين في مصر للكتَّاب البلغاء الأدباء، الذين يعينونهم على تثبيت أركان دولتهم الفاطمية في مصر، فالغرض من الرسائل يصبُّ في الرسائل الإخوانية؛ فمنها ما جاء في طلب الاستعطاف نحو رسالة "العفو"، ومنها ما جاء في الشكر نحو رسالة "منائح القرائح"، ومنها ما جاء في العزاء نحو رسالة "التَّدلي على التَّسلِّي"، وهذه الموضوعات وغيرها من الموضوعات التي تعالجها الرسائل الإخوانية، إلا إن الكاتب ضمنها قالبا أدبيا، يعرض فيه مهارته الكتابية. وهذه الرسائل هي:

-١-

## رسالة العفو

رسالة العفو أو رسالة **"استنزال الرحمة"**[٦]، أول الرسائل الأفضليات، وقد ضمنها ابن الصيرفي حديثا عن العفو، والكاتب في هذه الرسالة يحافظ على نهج الرسائل الديوانية أو السمة العامة للكتَّاب الفاطميين في الابتداء بالحمد والصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وابن عمه علي ابن أبي طالب، كرم الله وجهه، مشيداً بهما، مضمنا هذا الابتداء معنى العفو والرحمة والكرم، فهو يبدأ رسالته بلفت انتباه الأفضل بن بدر الجمالي إلى هذه المعاني، وهي مطلبه في هذه الرسالة.

---

[١] من مواسم النصارى بمصر عمل الغطاس في اليوم الحادي عشر من طوبه، وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً، ويغطس أكثرهم في النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض. (ينظر: المقريزي، الخطط، ٢: ٣٦٠، ٣٤٩، ٣٥٠).

[٢] أضاف صاحب مطبوعة رسالة العفو كلمة "رحمة" ليستقيم المعنى. (ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، هـ١، ٣).

[٣] ينظر: المصدر نفسه، ١١٩.

[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٢٣، ١٩٦.

[٥] ينظر: سلام محمد زغلول، الأدب في العصر الفاطمي الكتابة والكتاب، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٣٠١.

[٦] ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٤١.

ولا يكتفي ابن الصيرفي بتضمين مقدمة رسالته صفة العفو، بل ينتقل بعد ذلك إلى حديث عن الأخلاق وكيف أنها تخلد ذكرَ الإنسان مستشهدا بذلك من الموروث الأدبي، ومعتمدا على الأسلوب المنطقي، والتَّدرج العقلي، فابن الصيرفي يجعل العفو عن الناس أفضلَ المناقب التي تخّلد حسن الذكر بعد الممات، وهو أكرم الخصال، وأعلى منازل الكمال، يقول: "ومِنْ لطائفِ اللهِ بأهلِ هذا العصرِ، ومواهبِهِ التي تَتَعدَّى مدى الإحصاءِ والحصْرِ، أن جعلَ هذه الفضيلةِ التي قام بها البرهانُ على أنَّها الأولى في العدد، وارتفعَ الخلافُ في كونِها الأَوْلى بتعظيمِ كلِّ أحد" [١]. وبعد أن قدَّم ابن الصيرفي العفو على سائر الأخلاق، جعلها أكثرَ الصفات غلبة على أخلاق الملك الأفضل، وخاطبه بها.[٢]

ولا يقف ابن الصيرفي عند تقديم العفو على سائر الأخلاق، بل يستمر في إقناع المخاطب الملك الأفضل بأهمية هذا الخلق بين الأخلاق عامة، والمكانة التي يحتلها؛ فبعد أن تحدَّث عن الأخلاق التي تخلِّد الذكر، يتَدرَّج بحديثه وبرهانه إلى أن أعظم الأخلاق ما تتجاوز به المنفعة العامة، ثم جاء بالنافلة، وكيف يفضَّل المتنفِّل بالصدقة على المتنفِّل بالصلاة، ثم يجعل الصدقة في نوعين: صدقة مادية وأخرى معنوية وهي العفو، ويفضِّل المُتصدِّق بالعفو على المُتصدِّق بالمال والمادة؛ ويرى الباحث أن السبب وراء هذا الخطاب العقلي هو صعوبة إقناع الأفضل؛ لذا لا بدَّ للكاتب من الاعتماد على تقديم الأدلة والبراهين في إثبات صحة رأيه، ومن جانب آخر سلك ابن الصيرفي كلَّ الطرق والأساليب الوصول إلى غرضه، وهو العفو.

وبعد ذلك يبين ابن الصيرفي فَضْل صفة العفو التي تحلَّى بها الأفضل بن بدر الجمالي، وكيف أنها كانت السبب في ملكه واقتداره وطول عزِّه، فقد أحسن إلى كلِّ من أنكر نعمته، وعفا عن المجرمين في كبير جرمهم، حتى أصبح الشعراء ينشدون الأشعار في مجلسه، كقول أحدهم:[٣]

وَسِعَتْ مراحِمُكَ الجُنَاةَ بأسْرِهم وَأَقَلْتَ كلاًّ منهُمُ عثراتِهِ
وَجزَيْتَ مُرتَكِبَ الكبيرةِ مِنْهُمُ الـ حُسْنَى فأصبحَ شاكراً زلاّتِهِ

ويقدِّم ابن الصيرفي الأفضل على سائر الملوك في عفوه، ويرى أنَّ العفو في غيره من الملوك زورٌ وبهتان، فهو ملازم للأفضل دون غيره، ولا يرى في حكمه هذا ظلماً وبعداً عن

(١) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٦.
(٢) المصدر نفسه، ٦.
(٣) المصدر نفسه، ٧.

إنصاف الملوك الآخرين، وإنما الأفضل في هذا شابه غيره من الملوك ممن عرفوا بعفوهم وعدلهم، وسماحتهم، وغيرها من الفضائل التي تشهد لهم بحسن الأثر.[١]

ويجعل ابن الصيرفي حديثه في فصلين: فصلٍ في العفو، وحاول أن يكشف به قيمة هذا الخلق، وفضله، وعظمة ما خُصَّ به الأفضل، مستشهدا بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، كما استشهد في إثبات شرف العفو وقيمته بأقوال الزُّهَّاد وأشعار من طالتهم يَدُ العفو.

والفصل الثاني في الرسالة جاء في الشفاعة والاستعطاف، وكأنَّه يطلب من الأفضل أن يشفَع له ويصفح عنه، فهو يرى أن الشفاعة والاستعطاف من أسباب العفو، ويلجأ ابن الصيرفي في هذا الفصل إلى العديد من الحكايات، والأشعار، التي تبيِّن أهميّة الشفاعة، محاولا بها إثارة عاطفة الملك الأفضل ليعفو عنه.

ويختم رسالته بشكوى حاله، وبيان الضرر الذي لحق به، ويتقدم للأفضل بتذلل ومهانة ليطلب الرحمة الشاملة، يقول: "والمملوكُ يُقبِّلُ الأرضَ بالمقامِ الكريم، ويُنهي ما هو عليه من ضُرٍّ قد قصَّرَ عنهُ جَلَدُهُ، وضاقَ فيه بروحِهِ جَسَدُهُ، وأَصَارَ راحِمهُ من كان يحسُدُهُ، وقد نهَكتهُ العُطْلةُ والبطَالةُ"[٢]، ويشير ابن الصيرفي إلى تلك الأيام التي أمضاها وهو يخدم الدولة الفاطمية، فلطالما تربى في دواوينها وعمل بها، وكان يحظى بمسيرة عطرة، وهو لم يخرج طوال تلك الخدمة عن إخلاصه للملك الأفضل، ولا عن مذهبه الذي تشيع له.

وبعد أن جدد شكوى حاله وطلب الرحمة والعفو، حمد الله تعالى وصلّى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

**-٢-**

## رسالة ردِّ المظالم

والغرض من رسالة ردِّ المظالم مدح الأفضل بن بدر الجمالي، ويستهلها الكاتب ابن الصيرفي بحمد الله، والصلاة على سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، يتبعها صلاة على الأئمة، ويضمِّن هذا البدء حديثاً عن أهمية الخلافة، وأن الله تعالى فضّل الناس بعضهم على بعض، وجعل بعضهم مسخراً لبعض، ليتشاركوا جميعاً في تدبير الخلق، على اختلاف رتبهم.

ويأتي ابن الصيرفي بعد هذه المقدمة بحديث يكشف به شرف الأيام الأفضلية، وحسن سيرة ملكها، ولم يأتِ بهذه الفكرة مباشرة في حديثه، وإنَّما يجعلها نتيجة لمقدمة جاء بها، وبراهين ساقها لإثبات هذا الرأي، فنجده يمهّد حديثه عن شرف الأيام الأفضلية بحديثه عن سير الملوك، وأن هذه

---

[١] ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ٨- ٩.

[٢] المصدر نفسه، ٢٨- ٢٩.

السير متفاضلة لا تأتي في منزلة واحدة، فأصحاب العقول المستنيرة يدركون أن الأيام متفاضلة، "قد ثَبَتَ بالعيانِ والسَّماعِ، وعُرِفَ بالوفاقِ والإجماع، شَرَفُ هذا الزمن الذي عمَّت فيه السَّعَةُ، وعَظُمتْ به المنفعةُ، وأُمِنَ فيه ما يُخْشَى ويتوقَّى، وأَخذت مطالبُ أهليه تسمو وتترقَّى"(١)، فجاءت أيام هذا الملك متفاضلة على غيرها من أحوال الأزمنة، وهذا دليلٌ على حسن سيرة الملك الأفضل ابن بدر الجمالي.

ويسوق ابن الصيرفي دليلا آخر على حسن سيرة هذا الملك الأفضل، وعناية الله تعالى به، وهو أنّ من يمدحه لا يخشى من يناقضه، ولا يخاف من يعارضه، ولا تُحملُ عليه المبالغة في المدح والغلو، ولا ينسبه أحدٌ إلى الظلم والعلو، ومع كلُّ هذا يرى ابن الصيرفي أن الملك الأفضل قد لا يُوفىَّ حقَّه في الامتداح.(٢)

وبعد هذه المقدمة يأتي بحديث يصف به الملك الأفضل ويمدحه ويرى أنه من نعم الله تعالى الموجبة للشكر، ويُعَنْوِنَ هذا الفصل بـ"في شرف السيّد، الأجلِّ الأفضلِ، في أنَّه أفضلُ من تقدَّمَه من الملوك وأشرفهم"(٣)، وفي هذا الفصل يجعل الكاتب ابن الصيرفي الملك الأفضل أشرف الملوك، وأكملهم، وأكثرهم رحمة، وكعادته لم يأتِ بهذا الحكم مباشرةً، وإنَّما يتدرَّج في حديثه ويتقدم بالأدلة والبراهين التي أوصلته لهذا الحكم.(٤)

وهذا المدحُ والتقديم دليلٌ واضح على المكانة التي نالها الملك الأفضل في بلاط الخلفاء الفاطميين، فقد جعل منه ابن الصيرفي إماماً وسيِّداً للخلق، ويبالغ ابن الصيرفي في مدح الأفضل، حيث جعل من يشكّ في مُلك الأفضل كمن شكّ في أنَّ الله تعالى هو الخالق، وهذا ما بالغ فيه ابن الصيرفي حينما أنشد بيتاً لأحد الشعراء قائلاً: (٥)

مَـــنْ شَـــكَّ أنَّـــكَ مخلـــوقٌ لِتَمْلِكَـــهُ        كَمِثْـــلِ مِـــنْ شَـــكَّ أنَّ الله خَـــلاّقُ

ويرى ابن الصيرفي أن الناظر إلى كلِّ ما نظمت الخواطر وأنتج البيان يجد كثيراً من الأقوال المتسعة، وأصنافاً من المدح المتنوعة، والإنسان العادل يدعوه عدله إلى أنّ كلّ ما قيل في مدح الملوك كان في مدح الملك الأفضل، ولم يُقصدْ به غيره، كما أنه إذا أورد أبياتاً ليست في مدح الملك الأفضل، وإنّما كانت في غيره من الملوك، فهذا من باب ردِّ الحقوق إلى أهلها.

أما منهج ابن الصيرفي الذي سلكه في اختيار الأشعار والمِدَح التي يستشهد بها في مدح الأفضل بن بدر الجمالي فقوامه ترك كل ما ابتذل وتقديم كل جديد، يقول: "واعتمدنا على ما لم

(١) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٣٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٣٥.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ٣٥، هـ٢.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ٣٦.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ٣٦.

يبتذلْهُ الاشتهارُ وقصدْنَا ما لم يكن للألسنِ به استهتار، واجتَهدْنَا في إيرادِ ما لم تخلقِ الأسماعُ جِدَّتَه، وَخَدْمنا بما لم تسلب الرواية رواءَهُ وبَهْجَتَهُ"(١)، والملاحظ، هنا، يجد أن ابن الصيرفي عنون رسالته هذه بـ **"ردِّ المظالم"** إلا إنَّها جاءت في مدح الأفضل، والسبب في ذلك أنَّ ردَّ المظالم من حق الأفضل وحده، فالعدل وإعادة الحقوق إلى أصحابها من حسن سيرته، وهذا ما أراد ابن الصيرفي إثباته.

ويأتي ابن الصيرفي بالكثير من المِدَح التي أنشدها الشعراء في الملوك وأمثالهم، ويجعلها في مدح الملك الأفضل، ويعلل هذا بأن كلَّ من ذكر صفة من صفات الملوك في شعره إنما قصد الملك الأفضل، ويجعل هذا من باب حكم المآل، ويفسر قصده بالمآل مستشهداً بآيتين قرآنيتين، فقوله تعالى:﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾(٢)، ويعلّق ابن الصيرفي: "والخمر لا يُعصرُ، وإنما يعصرُ العنب، لكنّه لما كان المآل إلى الخمر سُمِّي المعصور خمراً"، ويرى أن مثل ذلك يتأتى من قوله تعالى:﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾(٣)، فالتقطوه ليكون لهم سرورا وولدا، ولكنه لما كان مآله إلى العداوة جعل علمه للالتقاط.(٤)

ولم يلتزم ابن الصيرفي في حديثه موضوعاً واحداً، بل نجده يتنقل من موضوع لآخر، مظهراً سعة محصوله الشعري، ودقة فهمه، وحسن تذوقه، فنجده يتحدَّث عن المدح، فيأتي بشعر المادحين، وينتقل بعد ذلك إلى عقد موازنة بين شاعرين، ويتبعه حديثا عن المعاني التي توارثها القائلون، ويختم بمعارضة شعرية بين المعاني نفسها.

ولهذه الرسالة قيمة مضافة إلى المادة الأدبية التي يستشهد بها في مدحه للأفضل، وهي أنه يأتي بتراجم وأخبار لمجموعة من الأعيان والأدباء، فيقول في أبي بكر محمد بن عمار(٥): "وأبو بكر هذا من الأعيان المشهورين، والمجيدين المذكورينَ، والمحسنينَ في خطابِ الملوكِ، والمُطلعينَ باستعطافِهِم شمساً آمنةً من الدُّلُوكِ"(٦). ويقول في محمد بن عثمان المعروف بالحداد

(١) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٣٨.
(٢) سورة يوسف، ٣٦.
(٣) سورة القصص، ٨ .
(٤) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٤٠.
(٥) ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار المهري الأندلس الشلبي، الشاعر المشهور، ولد سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، قتله المعتمد لأنه هجاه. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤: ٤٢٥- ٤٢٩).
(٦) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٥٨.

القيسي[١]: "وقَدْ سَمّاهُ قومٌ سليل الصاعقةِ، وسمَّاهُ آخرون طبيبَ النِّفاقِ"[٢]، ويقول عنه في موضع آخر:"ومحمدٌ بنُ عثمانَ من المكثرينَ المبدعينَ والمتصرِّفينَ المتوسِّعينَ"[٣]، ويقول في مسعود بن محسن[٤]: "ومسعودٌ هذا مقلٌ في شعرِهِ، مطربٌ بَغزله مفتنٌ".[٥]

ويختم رسالته بتكرار الدعاء للملك الأفضل، راجياً منه العفو والشفاعة، وحَمَد الله تعالى.

**-٣-**

## رسالة لُمَح المُلَح

ويستهل ابن الصيرفي رسالته بحمد الله والصّلاة على سيّدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى ابن عمه علي بن أبي طالب، والأئمة من بعده، والكاتب يسير في هذا على نحو ما سبق من الابتداء بالحمد والصلاة، لأنه في هذا يخاطب الأفضل بن بدر الجمالي، وهو من أركان الدولة الفاطمية التي قويت به وبأبيه من قبله، إلا إن الابتداء في هذه الرسالة تختلف عن سابقاتها من حيث لجوء ابن الصيرفي إلى المعاني الدينية والاصطلاحات الفاطمية[٦]؛ وكأنه يريد أن ينزل الرحمة والعفو في قلب الأفضل من الجانب الديني، وهذه إحدى الوسائل التي لجأ إليها ابن الصيرفي لبلوغ منتهاه، وهو عفو الأفضل عنه، فيتخلص من سوء الحال الذي وقع به.

ثم يأتي بحديث عن أهمية الخلافة، فيحمد الله على استخلاف الأرض بهؤلاء الأئمة، الذين خصَّهم الله تعالى بالدرجة الرفيعة العالية يقول: "الحمدُ للهِ الذي أطْلَعَ منْ ملوكِ الأرضِ شموساً لا تتمُّ المصلحةُ إلاَّ بِهم، وحَفِظَ أسلافهم مُذْ تنقَّلوا أنواراً في ظهورِهِم وأصلابِهِم، وأرشَدَ بهم من الضَّلالةِ، وجعلَ آيتَهُم مبصرة، وأوضحُ المعذرةِ لمن كانت قوَّتُهُ في صفاتهم مقصِّرة، وخصَّ على طاعتِهِم شعوبَ الأممِ، وفرَّقهم وفضَّلهُمْ على كافةِ بريتِهِ، ولذلك خلقَهُم، وجعلَ هذا العصرَ مخصوصاً بأرفعِهِم لديه رتبة"[٧]، ثم يتبع ذلك حديثا عن فضل الأفضل بن بدر الجمالي على الدولة الفاطمية، فحسن أوصافه، وكرمه الغامر، وقوته، وعدله، ومهابته، وسعة فضله، واتفاق أبناء الأمة في أيَّامه، قوَّى الخلافة العلوية، وزادَ العقيدة الفاطمية ثباتاً وتفرعاً.

---

[١] محمد بن أحمد بن عثمان، كان من جلة الشعراء، عاش ستاً وثمانين سنة، توفي سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة، (ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ط١، دار إحياء التراث العربي، (تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وزكي مصطفى، بيروت، ٢٠٠٠م، ٢: ٦٨).

[٢] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٦٢

[٣] المصدر نفسه، ٧٥.

[٤] أبو جعفر مسعود بن عبد العزيز بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق، من الشعراء المجيدين المتأخرين، له ديوان شعر صغير، ليس فيه من المديح إلا اليسير. (ينظر: الحنبلي عماد الدين أبو الفلاح، شذرات الذهب في أخبار من ذهب،٤: ٢١-٢٢).

[٥] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٨٥.

[٦] المصدر نفسه، ١٠١.

[٧] المصدر نفسه، ١٠٢.

ويشير ابن الصيرفي إلى القوة العسكرية التي امتلكها الملك الأفضل، و استطاع أن يزرع بها المهابة في نفوس الأمم كلّها، ليعلم كافة الناس بما لا عهد لهم بمعرفته وهو حسن سيرة هذا الملك الأفضل.

ولا يكتفي ابن الصيرفي بهذا، وإنّما يبالغ في خدمة الأفضل حيث يجعلها من أنواع العبادات وأسباب الطاعات، ويضعها في مرتبة الحج، وعلى كلِّ إنسان أن يؤدي هذه الطاعة والعبادة بحسب إمكاناته وحدود قدرته، ويشير إلى أن اللمع الأدبية التي يوردها في رسالته **"لمح الملح"** خدمة للأفضل وتقديرا واعتراف بفضله ومكانته.

ويشير ابن الصيرفي في هذه الرسالة إلى جانب مهم من ثقافة الملك الأفضل، فقد كان أديباً يُحبُّ قراءة الأدب وسماعه، وكانت له خزانة يحتفظ فيها بالموروث الأدبي القديم والحديث في عصره، يقول: "إذ كانت خزائنُ مولانا قد اشتملت على مصنَّفِ القديمِ ومقولِه"(١)، ولذا نجد ابن الصيرفي يعتذر للأفضل إن وجد شيئا بين هذه اللمع وكان بحكم المكرر أو المعاد.

ويجعل ابن الصيرفي حديثه، في فصول: الفصل الأول بعنوان: "من المحاسن العصرية في الممالك المصرية"، وهذا الفصل في مدح الأفضل، وابن الصيرفي يعمد فيه إلى اللمع الأدبية التي قيلت في غرائب المدح وبدائع القول، محاولاً من خلالها أن يعيد الوصل مجدداً بينه وبين الملك الأفضل، ويرسم ابن الصيرفي طريقه التي يسلكها في هذا الفصل، يقول: "فهو يَذْكُرُ غُرَراً، لا يتحيَّز إلى فنٍّ منفردٍ، ويورد مُتخيَّراً يُعْرِبُ عن حسنِ المطلَب، وجُودةِ المقصد"(٢)، فالخِدم التي جاء بها ابن الصيرفي من غُرر الأدب،لا يثبت فيها على فنٍّ واحد، ومعيار ابن الصيرفي في إيرادها واختيارها حسن معناها، وجُودة مبناها، ويبدأ هذا الفصل بما قيل بمدح الأفضل في عصره وهو مقدم كما يرى على غيره من العصور.

والفصل الثاني في هذا الكتاب وسمه بـ: "في الإشارة إلى مدائح مولانا وفضائله وما ازدانت به الأرض من قصوره ومنازله"، ويصدِّرهُ بالإشادة بالملك الأفضل، فهو: "آيةُ اللهِ التي أبْداها لعبادِهِ وأَظهرها، ورحمتُهُ التي بعثها على بلادِهِ ونشرها، ومعجزتُهُ المُوْضِحةُ مستورَ الحكمةِ ومكنونِها"(٣)، ولما كان الملك الأفضل هو ملك الأرض، وجب أن لا تخلو الدنيا من آثاره، التي يجب على المملوك أن يمجِّدَها ويعظِّمها.

ويظهر مما سبق مبالغة ابن الصيرفي في مدح الأفضل بن بدر الجمالي فيجعله آية الله، ورحمته، ومستور الحكمة، ومكنونها، وهذه الأوصاف لا تليق لدي الفاطميين إلا لمن كان إماما،

---

(١) ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ١١٤.

فابن الصيرفي يجعل الملك الأفضل بمثابة الإمام، وهذا الأمر إن دلَّ فإنما يدل على ضعف الأئمة الفاطميين آنذاك، وسطوة الوزراء عليهم.

ويجعل ابن الصيرفي آثار الملك الأفضل في قسمين: الأول فضائله المسموعة من عدله، وشامل فضله، ووصفه ،وذكر مواقفه وسيرته. والثاني فضائله الظاهرة للعيان المشهودة، وهي المباني التي اهتم الأفضل بإنشائها، فلبست بها الدنيا أفخر زينة، وهذه إشارة إلى اهتمام الملك الأفضل بنهضة المجتمع الفاطمي في عصره وتطويره، ويرى ابن الصيرفي أن هذه الفضائل والآثار التي توقف عليها، موهبة من مواهبه، فقد جمع فيها بين فضيلتي ملوك العرب والعجم، إذ كان ملوك العرب يسعون إلى تدوين مآثرهم بالفصاحة والبيان، وملوك العجم يخلدون ذكرهم بإتقان العمارة وتشييد البنيان، وهذا حال الملوك عامة، أمّا الأفضل فقد أحاطت فضائله بكل هذا، فمنها المسموع المحفوظ، ومنها ما يستوقف الأبصار على بدائعه وحسن عمارته، وما أن ينتهي ابن الصيرفي من حديثه حتى يأتي بأبيات من الشعر نظمها الشعراء في مآثر الملك، فمنها ما كان في وصف تاج الأفضل(١)، ومنها ما كان في وصف فَوَّارةٍ في المباني الشريفة.(٢)

ويُتمّ ابن الصيرفي حديثه بجولات نقدية، يعكس مدى معرفته بالنقد، مضمِّناً هذه الجولات آراءً نقدية حول القوافي والمعاني التي يتجاذبها ضدان، وكانت القوافي هي حديثه الأول، وتناولها من جانبين: الأول جعله في القوافي التي يُتحدَّى بها ويصعب على متلمسها أن يأتي بمثلها. والثاني كان حول القوافي المتمكنة التي يسهل على ناظم لشعر أن يأتي بمثلها، ثم يأتي بجولة أخرى عن المعاني التي يتجاذبها ضدّان، وهي المعاني التي يحتملها معنيان متضادان، مثل المدح والهجاء.

ويأتي ابن الصيرفي أثناء جولاته النقدية برقعةٍ كتبها إلى صديق طلب منه إنشاءها لصديقه في عيد الغطاس يستهديه نبيذاً، فكتب: "جَرتْ العادةُ في الغِطاسْ بإعمالِ الكاسِ والطّاس، وهذه الآلةُ إذا فقدتِ الرَّاح، بمنزلةِ أجسامٍ عُدِمَتِ الأرواح فَدَاوِ بإحيائها قلباً لي قريحاً، وإذا كانت عازر فكن مسيحاً"(٣).

ويذكر ابن الصيرفي أن الأفضل بن بدر الجمالي اهتم كثيرا بشعر المتنبي، ولو أدركه لكانت خدمته من أبهر الآيات، فلقد كان الملك الأفضل يسعد بما يرويه من شعره. ويورد طرفة نثرية للمتنبي، ويشير إلى أن المتنبي وإن كان مشهوراً في النظم، فقد كانت له معان يجيدها في النثر، ومن ذلك أنه كتب لصديق له، لازمه فترة المرض، فلما شفي من المرض فارقه، فكتب

(١) ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات،١١٦.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ١١٧.
(٣) المصدر نفسه،١٤١.

يقول:"واصلتني معتلاً، وقطعتني مُبْتَلاً ، فإنْ رأيتَ ألا تنكّدَ الصِّحةَ عليَّ، ولا تحبِّبَ العلَّة إليَّ فعلت إنْ شاء الله".[1]

ويتحدَّث ابن الصيرفي عن جوانب أخرى في رسالته هذه، فنجده يأتي بأشعار تتحدث عن علوم الشرعيات[2]، كما تحدث عن النسب[3]، ويشير أثناء حديثه عن النسب إلى أنه كتب منشوراً يخاطب به السيّدة الملكة والدة الإمام المستعلي بالله، يقول فيه: "إنَّ أوْلَى من ارْتفع محلُّهُ عن مُتعارَفِ المِنَح، وجلَّ خطرُهُ عن مُتعالَمِ المِدَح، من ظهرتْ بأميرِ المؤمنينَ آياتُ شرفِهِ ومجدِهِ، وعلا ذروةَ الشرفِ به، كما علاها عدنانُ بجَدِّهِ"، "وهذا من باب مدح السلف بالخلف"[4]. ويأتي بمجموعة من الأبيات تحوي في باطنها مجموعة من الأخبار، أطلق عليها الإخباريَّات[5]، وأبيات أخرى يعرض بها شيئا من النحو سمّاها النحويات[6]. ويذكر أبياتاً نظمها الشعراء في الطب ووصف الأمراض يطلق عليها الطبيّات[7]، وفي الهندسة والأشكال الهندسية يأتي ابن الصيرفي ببيتين يطلق عليهما الهندسيات[8]، وفي الفلسفة وتفنن الشعراء بالكلام وأغراضه يأتي بمجموعة من الأبيات سمّاها الفلسفيات.[9]

ولعلَّ ابن الصيرفي حين جاء بهذه الجولات النقدية والملامح الثقافية في جوانب الحياة المختلفة، أراد أن يكشف مهارته وسعة معرفته التي أهلته للعمل في ديوان الإنشاء وتولي رئاسة الديوان فيما بعد، وهذا ما يبحث عنه الوزراء في دواوينهم، فالكاتب الجيد المتفوق في رئاسته، يعينهم في نشر أفكارهم وسياساتهم، فأراد ابن الصيرفي أن يكشف حاجة الأفضل له في ديوان الإنشاء، ولعلَّهُ الطريق الآخر الذي سلكه في إرضاء الأفضل، إضافة إلى طلب العفو والرحمة وهو الطريق الأول الذي سلكه في الوصول إلى عفو الأفضل، وهذا ما يشير إليه ابن الصيرفي في ختام رسالته، فيرى أن هذه اللمع الأدبية التي جاء بها شاهدٌ على بلاغته وصنعته التي تمكّن منهما، يقول: "وقصدُهُ مِنْ ترتيبِها وتحريرِها سفيراً بينَ مقاصدِهِ وبين النُّجحِ، وسبيلاً إلى رغبةِ الأيامِ إليه في السِّلْم والصُّلْح؛ إذ كان السَّعْدُ مضموناً للذين لاذوا برجاء مولانا وتحرَّموا، والحظُّ محتوماً للذين تبسَّطوا على تأميله وتحكموا".[10]

---

[1] ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٤٢-١٤٣.
[2] ينظر: المصدر نفسه، ١٦٨-١٧١.
[3] ينظر: المصدر نفسه، ١٧١- ١٧٦.
[4] المصدر نفسه، ١٧٢.
[5] ينظر: المصدر نفسه، ١٧٦.
[6] ينظر: المصدر نفسه، ١٧٧.
[7] ينظر: المصدر نفسه، ١٧٨.
[8] ينظر: المصدر نفسه، ١٧٩.
[9] ينظر: المصدرنفسه، ١٨٠.
[10] المصدر نفسه، ١٨٢.

ويبدو أن ابن الصيرفي استطاع أن يحقق مراده من خلال الرسائل الثلاث الأولى، رسالة "العفو" التي يطلب فيها العفو من الأفضل بن بدر الجمالي، ورسالة "ردّ المظالم"، و"لُمح المُلح"، التي يمدح فيهما الأفضل، ويستعرض من خلالهما "لملح الملح" الثقافة الديوانية التي تسلح بها في ديوان الإنشاء، فناسخ هذه الرسائل يصرح في نهاية هذه الرسالة الثالثة **"لمح الملح"** أن الملك الأفضل عفا عن ابن الصيرفي وأعاده إلى ديوان الإنشاء، بعدما عرضت عليه هذه الرسالة، يقول: "وعندَ عرضِ هذهِ الرسالةِ رضِيَ عنه، وأعادَهُ إلى ديوانِ الإِنشاء"(١). وهذا دليل على أن هذه الرسالة لم تكن مجموعة في كتاب واحد، بل كانت متناثرة وهنالك من قام بجمعها وتسميتها بالأفضليات، أو نسخها، لأن الرسائل الأربعة المتبقية متنوعة من حيث الغرض، فمنها ما جاء في الشكر وهي رسالة "منائح القرائح"، ومنها ما جاء في شهر رمضان وهي رسالة "مناجاة شهر رمضان"، ومنها ما جاء في المدح وهي رسالة "عقائل الفضائل"، ومنها ما جاء في التعزية وهي رسالة "التدلي على التسلي". وهذا ما دفع الدارس إلى أن يتناولها ضمن الرسائل الأدبية. فهي لا تدور حول موضوع بعينه في الجغرافيا أو غير ذلك وإنما تتعدد موضوعاتها، وهي موضوعات أدبية.

**-٤-**

## رسالة مَنَائِح القَرَائِح

بعد أن نال ابن الصيرفي عفواً وشفاعةً كان يرجوهما من الملك الأفضل بن بدر الجمالي، وثَبَتَ ذلك في ختام رسالة "لُمح المُلح"، كتب ابن الصيرفي رسالة "مَنائِح القرَائِح" في شكر الأفضل. بدأها بحمد الله والإقرار بربوبيته، والصلاة على نبيه محمد، صلى الله عليه وسلم، والثناء عليه، ومن ثمَّ يذكر صراحة الغرض من هذه الرسالة، يقول: "ثم التوسُّلُ إلى ملوكِ كُلِّ وقتٍ بشكرِ نعمَهِم ومواصلةِ خِدَمِهم، ونشرِ خصائِصِهم التي امتازوا بها عن العباد، وَذِكْرِ مناقبِهم التي سارت في الأقطارِ ونقَّبتْ في البلاد، والاجتهادِ فيما نفقَتْ بشريفِ مقاماتِهم سُوقُهُ، والاعتمادِ على ما ظَهَر سموقُهُ في البلاغةِ وبُسوقُه"(٢)، فشكر الأفضل بن بدر الجمالي سيكون بمواصلة خدمته، والوقوف عند مناقبه التي امتاز بها عن غيره، وبثِّ هذه الصفات بين العباد في مختلف الأقطار، وبذل الجهد في بيان شرف مقامه، ومدحه بما عرف عنه من المناقب والفضائل التي خُصَّ بها في عصره، ويرى ابن الصيرفي أن هذا العمل واجبٌ على كل من صفا فكره وصحَّتْ فِطرتُهُ، ويؤكد أنَّه صنّف هذه الرسالة وأودعها مختار ما سمعه وأضاف إليها ما استنبطه وابتدعه خدمة للأفضل.

---

(١) ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٨٣.
(٢) المصدر نفسه، ١٨٧.

وجاءت الرسالة في عدة محاور: الأول في الشكر وكيف أنه يصون النعم من الانتقال، ويرى أنَّه واجبٌ، ثم يتحدَّث عن أهميته، يقول: "فإحسَانُ مجاورتِها مُقَرِّبٌ لقصيِّها، وإجمالُ مصاحبتِها مُليِّنٌ لعصيِّها، والتضرُّعُ لمُولِيها في حراستِها يؤكِّدُها ويجدِّدُها، والتوسُّلُ إلى مسبغِها في إدامتِها يقيِّدُها ويخلِّدُها".[١]

ويجعل ابن الصيرفي النعم التي أولاها الله تعالى لخلقه في نوعين: نِعَم خاصة وهيَ ما تعلَّق بالمرء ذاتِه، ونعم عامة وهي ما كان شاملاً لنوعه شائعاً في جنسه، ويرى أن العموم هذا لا يكون إلا في الملوك، فهم أولياء النعم، ووجب على كلِّ مكلّفٍ شكرُه وشكرُ النعمة به[٢]، فالأفضل ملكُ عصرِهِ، وسيّدُ قومِهِ، وأشرف سلاطين العالم برأي ابن الصيرفي، وقد خصَّه الله تعالى بعموم النعم، وهذا ما يوجب له الشكر، ثمَّ يختم ابن الصيرفي حديثه بالإشادة المعهودة بالأفضل والمبالغة في الثناء عليه.

و ينتقل بعد ذلك إلى حديث آخر بعنوان: "من المعاني التي استنبطها المملوك وابتدعها، واستخرجها فكرُهُ واخترعها"، ولمّا انتهى ابن الصيرفي إلى أن شكر الملك الأفضل واجبٌ، رأى أن يخدمه ويشكره بحديث لم يسبقه أحدٌ إليه في علمه وصنعه، ويخصّه الأفضل دون غيره، فإن جاء أحدٌ من أدباء عصره بمثله فقد نهج نهجَ ابن الصيرفي، وإن تعرّض إليه أحدٌ وأحسن فيما جاء به وأجاد، كان له مزية البداية والابتكار.

وأوّل ما ابتدعه ابن الصيرفي ولم يقتفِ به أحداً ما خلصَّ به الألثغ من عيبه أثناء القراءة، فتكون قراءته كقراءة السليم، فقد رُوى أن واصل بن عطاء[٣] كان فصيحاً، بعيد الغور، ألثغ، لذلك اشتهر بحذف الراء من كلامه لكي لا يكشف ضعفَه ونقصَه، وأخذ الناس هذا عليه وذمّوه في كثيرٍ من أشعارهم، ورأوا أنّ المتعرّض إلى هذا الفن إنما يكشف عن عجزه وضعفه مثل واصل بن عطاء.[٤]

ولاحظ ابن الصيرفي هذا، فأراد أن يأتي بكلام لم يتجنب فيه الراء، وإذا قرأه الألثغ أفاد معنىً مستحسناً، فلا يكشف ضعف قارئه، ولا تفسد اللثغة المراد، وتماثل في قراءته السليم والألثغ، فأنشا نصاً يصف به الملك الأفضل، ويتساوى في قراءته السليم والألثغ، يقول ابن الصيرفي: " مَلِكٌ أبانَ اللهُ إعلاءَ رايتهِ، فازدانتْ بأَوصافِها المَحافِلُ، وتاهَ الزَّمنُ بِمَحاسِنِهِ، فَهُوَ عنِ الإساءةِ لاهٍ رافل، قد سارتْ بالأَلْسِنةِ والأفواهِ مدائحُهُ، وَصارتْ حُلَى المَجامِعِ والأنديةِ منائحُهُ،

---

[١] ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٩٠.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٩١.
[٣] أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي المعروف بالغزّال، أحد الأئمة البلغاء المتكلّمين في علوم الكلام، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً، له العديد من التصانيف، وُلد سنة٨٠هـ بالمدينة وتوفي سنة ١٨١هـ. (ينظر: ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ٦: ٧-١١).
[٤] ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٩٣- ١٩٥.

وأصبحَ الكافَّةُ من ظِلِّهِ في رياضٍ أنيقةٍ، ورامتْ السماءُ إحياءً للأرضِ فخدمْتَهُ بذاك على الحقيقة"[١]، فإذا قرأ الألثغ النص السابق ، فإنه سيقرأ حرف الراء غيناً في كل الكلمات التي تحتوي حرف الراء، وفي هذه القراءة يستوي المعنى، ويبقى الكلام متسقاً يدور في فلكه، فمِثل هذا النص يستوي في قراءته الألثغ والسليم، وهذه من المعاني التي ابتكرها ابن الصيرفي، و تدلُّ على قدرته في توجيه الكلام.

و ينتهي ابن الصيرفي إلى مدح الملك الأفضل، ويرى أن أدوات النطق على اختلافها وتعدد حالاتها أحسنت في مدحه وخدمته، يقول:[٢]

لمَّاغَدَوْتَ مَلَيْكَ الأرْضِ أفْضَلَ مَنْ ... جلّتْ مَفَاخِرهُ عَنْ كُلِّ إطراءِ

تَغَايَرْت أدَوَاتُ النُطقِ فَيكَ عَلى ... ماَ يْصنَعُ النْاسُ من نَظْمٍ وإنِشَادِ

وتقتضي فكرة ابن الصيرفي بعد ذلك أن يجعل هذين البيتين في ثمانية وعشرين تغيُّراً في القافية، مبتدئا من الهمزة منتهياً إلى الياء، ويرى أنَّه عمل هذا متأثراً بما رآه منسوباً إلى ابن نباته[٣]، والشريف الرَّضي، حين جعلا قولهما الآتي على ستة تغيرات:[٤]

لا يَبْلُغُ الغايةَ القصوى بهمتّه ... إلا المقسَّمُ بينَ الخَيْلِ والإبلِ

يَطْوي حشاهُ إذا ما الليلُ عانَقَهُ ... عَلىَ وشِيْج مِن الخطَيِ مُعْتدِلِ

فقد جعلا هذين البيتين على ستة وجوه من الروي[٥]، وحريٌّ أن يشير الباحث إلى أن ابن الصيرفي ينسب هذين البيتين للشريف الرَّضي وابن نباته، في حين نجد الحموي في معجم الأدباء ينسبهما لابن الصيرفي.[٦]

واشتملت الرسالة على ثلاثة فصول؛ الأول منها كان في ذكر خيمة الفرج[٧]، فيصفها ثم يأتي بأشعار وصف بها الشعراء خيمة الفرج، ويبين كيف أنهم أحكموا الوصف وأجادوا وأحسنوا. ويختم الفصل بمناظرة دارت بينه وبين راوي قول ابن سورين فيما كتب عن الإمام الحاكم بأمر

---

[١]ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٩٧.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٩٧.
[٣] ابن نباته السعدي، أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباته المتوفَّى سنة ٤٠٥هـ. (ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢: ٣٦٢).
[٤] ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٩٨.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٩٨-٢٠٠.
[٦] الحموي، معجم الأدباء، ٥: ١٩٧٢.
[٧] ينظر: ابن ميسر في المنتقى من أخبار مصر، صفحة ٨٥، وقد سمّاها خمية الفرج، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٣: ٥٤٤-٥٩٢، والمقريزي، الخطط، ١: ٤٧٠-٤٧١، باسم خيمة القاتول، وسمّياها خيمة القاتول، وهي من أعظم خيم الفاطميين طول عمودها سبعون ذراعاً، وسعتها تزيد عن فدانين في التدوير، سميّت بالقاتول لأن فراشاً سقط من أعلاها.

الله إلى عامل القدس في إخراب قُمامة، وهو: "صِرْ إلى قُمامة، فأجعل طولها عرضاً وسماءها أرضاً"[١]، فلم يقنع ابن الصيرفي بهذا فقال: لوقال: "صِرْ إلى قُمامة فأزل باطلها، واجعل عاليها سافلها"، أو قال : فعفِّها بالمحو والطمس، واجعلها حصيداً لم تغن بالأمس، لكان أشرف لترصيعه اللفظ بالقرآن، فقال راوي فصل ابن سورين: فضيلة هذا الفصل قلّة الحروف، والإيجاز، وإن من تحدى به علم حقيقة تعذره وإعجازه، فقال ابن الصيرفي: أنا أذكر هذا المعنى بلفظٍ أصنع وأقصر، ومعنى أجمل وأحصر، فقال: "صِرْ إلى قمامة فعجّل لها القيامة"[٢]، فقد استطاع ببلاغته وبيانه أن يتحدى راوي القول، ويأتي بأفضل مما كتب ابن سورين إيجازاً وبياناً.

وفي الفصل الثاني من رسالة "منائح القرائح" يأتي ابن الصيرفي على ضروب أدبية أبدع البلغاء فيها وأحسنوا، ونوَّعوا في أصنافها، وتفننوا في خدع البيان وتمويه الفصاحة، فيورد أفضل ما أبدع البلغاء والأدباء تقديراً وخدمة للملك الأفضل.

ويختم ابن الصيرفي رسالته معتذرا عن إيراد القليل من خدم الأفضل بن بدر الجمالي معللاً ذلك بأنه أراد بهذا الحجم من الخدم إبعاد الملل والسأم عنه، داعيا له بالسعادة الدائمة في مجلسه، مكررا شكره على إحسانه له وشموله بنعمه.

-٥-

## رسالة مناجاة شهر رمضان[٣]

جاءت الرسائل الأفضليات التي مرَّت بنا أنها في غرضين: الأول طلب العفو والاسترحام، وتمثل هذا الغرض في الرسائل الأفضليات الثلاثة الأولى، أما الغرض الثاني وهو الشكر فيتمثل في الرسائل الأربعة المتبقية ومنها "رسالة مناجاة شهر رمضان" التي كتبها ابن الصيرفي؛ خدمة للأفضل بن بدر الجمالي، يقول: "فلذلك خَدَمَ المملوكُ بهذه المناجاةِ، التي عَظُمَ بها القَدْرُ عندَ اللهِ تعالى والجاه"[٤]، ويرى ابن الصيرفي أن هذه المناجاة تختلف عن غيرها؛ ولذا خصَّ بها الأفضل، فالمناجاة، كما يرى ابن الصيرفي، نوعان: مناجاة الطالب، ومناجاة معدد النعم والمنائح، والنوع الثاني مناجاة معدد النعم أفضل من مناجاة الطالب، وهذه المناجاة التي كتبها للأفضل خدمة له هي من الصنف الثاني، أي مناجاة معدد النعم والمواهب.

وابن الصيرفي في هذه المناجاة وكأنه يمدح الأفضل بن بدر الجمالي بما خصّه الله به دون غيره، فهو عندما يعدد النعم، وكأنه يذكر الصفات التي يتحلى بها دون غيره، فهو ملك زمانه،

---

[١] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢١٨.
[٢] المصدر نفسه، ٢١٨- ٢١٩.
[٣] تاريخ كتابة هذه الرسالة سنة ٥٠٩ هـ، ويشير محققا الرسائل الأفضليات في الصفحة (٢٣٣، هـ١) إلى أن هذا التاريخ ذكر في حاشية الرسالة، وفيما يبدو هو تاريخ كتابة الرسالة.
[٤] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٣٤.

مدبر أمور الخليقة، المدافع عن الدين، المتفق عليه من قبل الناس جميعا، معصوم عن نكران النعمة، لين بين الناس، والأهم، كما يرى الكاتب، أنه حفظ الدين في زمن فرَّط به الأئمة الفاطميون لضعف حالهم، فهذه صفات وجب على الأفضل أن يشكر الله عليها ويناجيه من باب الاعتراف بالنعم وعدم جحدها ونكرانها.

وبعد الثناء على الأفضل بن بدر الجمالي يتحدث ابن الصيرفي في المناجاة عن فضل شهر رمضان وشرفه دون غيره من الأشهر، فقد خصَّه الله تعالى بليلة القدر، لتأتي بعد ذلك المناجاة التي يتوجه بها الأفضل إلى ربِّه ويطلب منه العون على القيام والصيام كما تجب العبادة، وتستمر المناجاة في أن يحمي الله تعالى الدين، وأن يمدّه بالعلوم الإلهية التي أمدّ بها أنبياءه، والعون والتوفيق في تدبير شؤون الأمة.

ويختم المناجاة بحمد الله تعالى والصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله.[١]

-٦-

## رسالة عقائِل الفَضَائل

يظهر من عنوان الرسالة "عقائل الفضائل" أن ابن الصيرفي سيأتي فيها على ذكر أكرم الأحاديث التي وردت في مدح الأفضل بن بدر الجمالي والثناء عليه، فهو ما يزال مستمرا في خدمة الأفضل بن بدر الجمالي مبينا فضله، شاكرا له عفوه، ويشير ابن الصيرفي إلى أن الإطالة بالمدح والثناء قد يخرج الموضوع عن غرضه، ولا يحقق الغاية منه؛ لذا كان لا بدَّ له من خدمة يمتاز بها عن غيره، قليلها يغني عن كثيرها، يقول: "وحينَ عزَمَ المملوكُ على ذلك رأى أن الكلامَ يَشْرُفُ بمن يُنْسَبُ إليه ويُعْزَى، وجلالةُ المَوصوفِ تُكْسِبُ الواصِفَ افتخارا وعزًّا، وقد قيل إنَّ الكلامَ يُعظِّمُه قائلُه ولو قلَّت عقائلُه"[٢]. ويرى ابن الصيرفي أنَّ الأفضل بن بدر الجمالي جمع الأمرين معاً، فالمكاتبات التي يضمنها ابن الصيرفي هذه الرسالة "عقائل الفضائل" صادرة عن الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، يخاطب بها وزيره الأفضل بن بدر الجمالي، فالواصف والموصوف كلاهما أكسب المكاتبات قيمة كبيرة.

ويجعل ابن الصيرفي هذه المكاتبات في فصول، ففي الفصل الأول، يشيد الآمر بأحكام الله بالأفضل ويثني عليه، وفي الفصل الثاني يكرر الآمر بأحكام الله ثناءه على الأفضل، مشيراً إلى حسن تدبيره للدولة الفاطمية. وفي الفصل الثالث يرى الآمر بأحكام الله تعالى أن الله خصّ الأفضل بمناقب فاضل بها الملوك، وفي الفصل الرابع يشير الآمر بأحكام الله إلى أن الأفضل هو كفيله، فقد استطاع الأفضل بحسن تدبيره وسياسته أن يحتج للدولة الآمرية، ويثبتها أمام أعدائها، وفي الفصل

---

[١] ينظر: الأفضليات، ٢٣٤-٢٣٧.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٢٤٢.

الخامس يثني الآمر بأحكام الله على شجاعة الأفضل بن بدر وقوته حينما أقام بمدينة الفرما[١] لتقرير حكم الجهاد، ويرى ابن الصيرفي أن هذا الحدّ من ثناء أمير المؤمنين كافٍ لوصف الأفضل ونشر فضائله.

ويستشهد ابن الصيرفي ببعض الأحداث التي شهدتها الدولة الفاطمية في مصر، وكيف تعامل الأفضل بن بدر الجمالي بدقة نظر وحسن تدبيره، فهو من قام بتحويل السنة الشمسية إلى السنة القمرية، وقد أنشأ ابن الصيرفي سجلاً في نقل هذه السنة عن الأفضل.[٢]

ولا يخلي ابن الصيرفي رسائله من آرائه الأدبيَّة والنقدية، من ذلك حديث عن نثر المنظوم ونظم المنثور، ويجعلهما من أعلى مراتب البلاغة، وقلّ من يجيد هذا الفن لأن صاحبه بحاجة إلى دربة وفِطرة تؤهلانه للعمل به. وآخر عن طبقات الشعراء، والاحتجاج بشعرهم. [٣]

والفصل الأخير من رسالة "عقائل الفضائل" وسمه بقوله: "في محاسن أهل الوقت"، ويأتي فيه بمجموعة من الأشعار والأخبار التي رواها قاسم بن علي[٤]، حيث كان يمدح الشيء فيحسن مدحه، ثم يذمه فيكشف قبحه، وله بعض الحكايات التي صنَّفها على لسان غيره، ويرى أنَّ من محاسن أهل عصره تصرف الشعراء ببعض المعاني، ومدح الشيء وذمه، واهتمامهم ببعض المحسنات اللفظية مثل الجناس.[٥]

ويختم ابن الصيرفي رسالته بأبيات للشاعر محمود بن القاضي الموّفق، يمدح بها الملك الأفضل ويشيد به، إدراكاً لما لهذا الشاعر من الخدم الشريفة التي لا تنكر.

**-٧-**

## رسالة التَّدلِّي على التَّسلِّي[٦]

والرسالة تسلية ومواساة للأفضل بن بدر الجمالي بعد أن فقد أحد أقاربه كان قد كفله ورباه، يقول: "ولمَّا طُرِقَ، خلَّدَ اللهُ ملكَهُ، بالحادثِ الجَلَل، ودُهِمَ بالرُّزْءِ الذي لولاهُ لرُمِيَ عرشُ المملكةِ بالثلل، من وفاةِ أخيه من جهةِ نسبِه، وَوَلدِهِ لكفالتِهِ إياهُ وتربيتِه"[٧]، ويمضي فيها ابن الصيرفي على نهج الكتَّاب الفاطميين، حيث يصدرها بحمد الله والصلاة على نبيه محمد، صلى الله عليه

---

[١] مدينة ساحلية من ناحية مصر. ( ينظر: الحموي، معجم البلدان، ٤: ٢٥٥-٢٥٦).
[٢] ينظر: ما سبق، ٩٤-٩٥.
[٣] ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٥٤.
[٤] أبو محمد القاسم بن علي بن عثمان الحريري البصري، صاحب المقامات، كان أحد أئمة عصره، ولد سنة ٤٤٦ هـ، توفي سنة ٥١٦ هـ (ينظر :ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤: ٦٣- ٦٨).
[٥] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٦٩-٢٨١.
[٦] يقصد ابن الصيرفي بالتَّدلِّي على التَّسلي، التوصل إلى السلوة بأسبابها من التأسي وطلب الثواب (ينظر:المصدر نفسه، ٣٢٥).
[٧] ينظر: المصدر نفسه، ٢٩٣.

وسلم، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والأئمة من بعده، مضمناً هذا البدء دعوة إلى الصبر والابتعاد عن الوهن والضعف، وترك الاستكانة في حالة وقوع مصيبة.

ثم يأتي ابن الصيرفي بحديث عن الموت، يكشف خبرته في الحياة، وفلسفته في التعامل مع الحوادث الفاجعة كالموت، فهو حكم الله تعالى في خلقه، وسرٌّ من أسراره الإلهية، التي لا يعلمها إلا هو، ومن حكمته تعالى أنه فاضل بين خلقه في الحياة، وساوى بينهم في الممات، فجعل كلَّ الخلق سواء في هذا الحكم، ومن الحكمة أن يتجاوز الإنسان البكاء ويترك عنه الجزع في حادث الموت، وأن يرضى بحكم الله فيما سرَّه وساءه، ففي هذا الرضا تسلية للإنسان، وتجاوز للهموم والأحزان.

ويورد ابن الصيرفي بعد ذلك ما يعنُّ له ويخطر بباله من أقوال الكتاب والشعراء، التي كتبوها ونظموها في التأسي بالمصاب، فنجده مرة يستشهد بأقوال من يرى أن التأسي يخفف المصاب مؤكدا بذلك فكرته التي جاء بها، ومرة أخرى نجده يرد بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث نبوية شريفة، على من يرى أن التأسي لا يخفف المصاب، مثبتا أن التأسي بابُ من أبواب الصبر.

ويذكر ابن الصيرفي أن الكتّاب والشعراء صنعوا في هذا المقام ما يزيد على من سبقهم، إلا إن خدمة الأفضل فرض عليه وحقٌّ لا يمكن التخلف عن تأديته؛ لذا بادر إلى إنشاء رسالة[1] يواسي فيها الأفضل و يعزيه به على فقد عزيز، لعلّه يخفف عنه الحزن، متبعاً الرسالة لمعاً من الأدب شعراً ونثراً جاءت في باب التعازي، يحاول من خلالها تسلية الأفضل. ويختم ابن الصيرفي رسالته بالحمد والصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم.

ويظهر مما سبق أن الرسائل "الأفضليات" تحظى بقيمة أدبية ونقدية بالغة، ولا يمكن لدارس الأدب الفاطمي في مصر إلا أن ينظر فيها ويتأملها لمعرفة حجم التطور الذي وصلت إليه الكتابة في مصر في عهد الفاطميين، فكاتبها ابن الصيرفي، أحد أشهر كتاب الفاطميين، ضمنها الكثير من أخبار العرب المنتقاة وأشعارهم وكتاباتهم وأورد فيها الكثير من الآراء النقدية، والقضايا البلاغية التي تهم كل من أراد أن يطرق باب الشعر أو النثر، كما أن هذه الرسائل تسلط الضوء على أحد أهم الكتّاب الفاطميين، عرف بحسن كتابته، وسعة إطلاعه، فهو أديب يحفظ الأشعار، ويرويها عن غيره، وينظم شعرا في بعض الأحيان، كما أنه يتمتع بروح الناقد، فله العديد من الملامح النقدية التي نلمحها في هذه الرسائل، وله اهتمامات بلاغية تظهر من خلال القضايا البلاغية التي تناولها.

---

[1] ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٩٦- ٢٩٨.

## ثانيا: رسائل الوصف:

تعد رسائل الوصف أوسع أبواب الرسائل الأدبية، حيث كان كثير من موضوعات الرسائل الفنية على تنوعها بين الديوانية والإخوانية والأدبية تنضاف إلى رسائل الوصف، فباب الوصف لم يكن مستقلا بذاته في بداية الأمر، ومع مقدم القرن الرابع بدأ الكتَّاب ينتجون نماذج من رسائل الوصف مقتصرة على الوصف دون غيره.[(١)]

ولأن الأدب الفاطمي أدب مذهبي بالدرجة الأولى، فإن رسائل الوصف الأدبية التي بين أيدينا قليلة جدا، فهي لا تتجاوز بضع رسائل، وهي من القطع الصغيرة، إلا إن الندرة في مثل هذا الغرض الأدبي وفي غيره مثل الرثاء والهجاء تدفع الباحث إلى قراءتها وتحليلها وبيان ما فيها من ملامح النثر الأدبي في العصر الفاطمي في مصر.

-١-

ومن رسائل الوصف التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر رسالة ما أنشأه ابن الصيرفي في وصف خيمة الفرج، ويستهلها الكاتب بالإشارة إلى أن هذه الخيمة لا تبنى إلا بأمر من الوزير أو الملك، والمقصود بالملك في هذه الرسالة الأفضل بن بدر الجمالي، وقد أراد ابن الصيرفي بهذه الرسالة تمجيده وبيان حسن تصرفه ونظره بمصالح الناس، يقول: "لمَّا خرجَتْ أوامرُ مولانا، ثبَّتَ اللهُ دولتَهُ، بإنشاءِ خَيمةٍ للنظرِ، وعملِ فازةٍ تتكفَّلُ بمصالحِ البدو والحضر، امْتُثِلَتْ مراسمُه الساميةُ في إنشائِها"[(٢)]، ثم ينتقل مباشرة إلى وصف خيمة الفرج في سعتها، وارتفاعها، وجلال قدرها، وشرفها، ومظاهر الحسن التي أحاطت بها من ناطق الحيوان وصامته، ولكثرة ما حوت من مظاهر الجمال، و من مختلف الحيوان، ويشبه ابن الصيرفي الأفضل بن بدر الجمالي في هذا المشهد بالنبي سليمان، عليه السلام، وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير، ويظهر من خلال هذا التشبيه المبالغة التي كان الكتَّاب الفاطميون يقعون بها أثناء تمجيد ملوكهم ووزرائهم، ولعله أراد من هذه المبالغة أن يقول: إن الإنس والجن والحيوان مجتمعون ينتظرون جلوس الملك الأفضل واستقراره في هذه الخيمة، ليكونوا شهداء على الأعمال التي سيقوم بها الملك الأفضل في هذه الخيمة، وهذا أمر لا يمكن تجاوزه في مثل هذه الرسالة دون الإشارة إليه، فالخلفاء الفاطميون ووزراؤهم اعتمدوا أساليب في استقطاب الناس إليهم وكسب تأييدهم، وهذا ما يظهر من خلال الرسالة، فنصب خيمة الفرج بناء على أوامر الملك الأفضل، هو استقطاب للناس وكسب لتأييدهم، لتقوى شوكة الدولة الفاطمية وتثبيت أركانها، يقول: "وفي يومِ إظهارِها ونَصْبِها، واستقرارِ جلوسِهِ الأشرفِ الأسنى بها، وَهَبَ الأموالَ الجمَّة، وعمَّ بالإحسانِ الأمَّة، ونشَرَ الرأفةَ

---

(١) ينظر: الدروبي، محمد، الرسائل الفنية في العصر العباسي الثاني حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ٣٩٠.
(٢) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٠٩.

والرحمةَ، وسامحَ بالكبائرِ والعظائمِ، وصفحَ عن الجرائرِ والجرائمِ، وأنعَمَ بما لم يُنْعِمْ به أحدٌ من ملوكِ الدَّهر"[١]، ولعل هذا الإنعام والتفريج الذي يحظى به الناس في هذه الخيمة هو سبب تسميتها بـ"خيمة الفرج".

ويختم ابن الصيرفي رسالته مبينا أن "خيمة الفرج" لم تنل استحسان الكتَّاب دون غيرهم، وإنما هناك من الشعراء من وصفها وأحسن الوصف، مبديا رأيه النقدي، مبينا مواطن الإجادة فيما نظموا، معللا الحشو الذي وقع فيه بعضهم بأنه مستحسن لتعلقه بالأفضل بن بدر الجمالي، وهنا تجدر الإشارة إلى أن شدَّة الميل للأفضل يدفع ابن الصيرفي وأمثاله من الكتّاب والأدباء الفاطميين إلى الابتعاد عن الموضوعية في طرح الآراء النقدية، لذا قد يدخل الشك في كثير من آرائهم النقدية والأدبية، خاصة عندما يسخِّرون الأدب والنقد لإرضاء ملوكهم ووزرائهم الذين يدينون لهم.

**-٢-**

ومن رسائل الوصف ما أنشأه ابن الصيرفي في الأفضل بن بدر الجمالي، وهذه الرسالة لا تتجاوز بضعة أسطر، حرص ابن الصيرفي في صياغتها على أن تلفظ الراء غينا عند نطق الألثغ لها؛ فيبقى الكلام متسقا، ذا فائدة، فيكون وصفا يمكن قراءته من قبل صحيح اللسان والألثغ معا، دون أن يقع ألثغ اللسان في حرج بسبب ما يعانيه، يقول: "ملكٌ أبانَ اللهُ إعلاءَ رايتِهِ فازدانَتْ بأوصافِها المحافِلُ، وتاهَ الزمنُ بمحاسنِهِ فهو عنِ الإساءةِ لاهٍ رافل، قد سارتْ بالألسنةِ والأفواهِ مدائحُهُ، وصارتْ حُلَى المجامعِ والأنديةِ منائحه، وأصبحَ الكافةُ من ظِلِّهِ في رياضٍ أنيقة، ورامتِ السماءُ إحياءً للأرضِ، فخدمَتْه بذاك على الحقيقة"[٢]، وإذا تأملنا الكلمات التي اشتملت على حرف الراء، وهي: (رايته، رافل، سارت، صارت، رياض، ورامت)، فإن الألثغ إذا قرأها تصبح، (غايته، غافل، ساغت، صاغت، غياض، وغامت)، فالكلام عند السليم والألثغ ذا فائدة، وابن الصيرفي في هذا خدم الأفضل عندما يجنبه حرج تغير المعنى في كلام الألثغ من جانب، وأثبت قدرته في التصرف في الكلام من جانب آخر.

**-٣-**

وقد اعتاد ابن الصيرفي في الرسائل الأفضليات أن يضمنها بعضاً من نثره أو نظمه، الذي لا نجده في كتب الأدب والتراجم، و يستشهد بها لتأكيد معنى أراد الوصول إليه، أو لمضاهاة كاتب في وصف ما، ومن ذلك ما جاء به في وصف سيف مُرصَّع[٣]، حيث أراد ابن الصيرفي أن

---

[١] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢١٠.
[٢] المصدر نفسه، ١٩٧.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٦٦.

يضمن "رسالة العفو" كل وصف لم يبتذله الاشتهار، ولم ينل منه الاستهتار[١]، ولعله أراد بها الوصف سيف الأفضل بن بدر الجمالي، خاصة أنه من وزراء السيف وليس من وزراء القلم، يقول: "سيفٌ تُقَامُ الحدودُ بحدِّهِ، ويجتمعُ الماءُ والنَّارُ في غِمدِهِ، ويَتَنَازَعُ ذوو الوصفِ في جوهَرِي ترصيعِهِ، وفِرِنْدِه"[٢]، وهذه رسالة قصيرة لابن الصيرفي أرادها أن تكون أجمل وصف وأقصره، بعيدا عن الإطالة والمبالغة في تقديم المعنى، فهو يرى أن السيف لقوته وحدِّه تجتمع فيه الحياة والموت معا، ولكثرة زينته فقد تنازع الواصفون في وصف ما رصع به من جواهر، فهو قوي من جانب، ولا يمكن الحصول عليه لغلائه من جانب آخر، ويذكر ابن الصيرفي أنه أخذ معنى الرسالة من بيت لابن المحترق في وصف سيف، يقول فيه:

صِيغَ من الماءِ وصِيغَتْ له    من لهبِ النِّيرانِ حدَّان

**-٤-**

ومن رسائل الوصف التي بين أيدينا رسالة في وصف حالة جدب[٣]، أنشأها ابن الصيرفي في مضاهاة رسالة كتبها محمد بن أبي سعيد القيرواني، فقد كتب محمد القيرواني رسالة جوابا لأحدهم، سأل عما آل إليه حال البلاد في إحدى السنوات بعد أن دخلتها الجيوش[٤]، فوصف تلك السنة بأنها سنة جدب وهلاك، بعد أن كانت سنين خير وثراء، إلا أن هذا الجواب لم يعجب ابن الصيرفي فكتب رسالة ينكر فيها وصف محمد بن القيرواني، ويبين أن حال البلاد بعد أن دخلتها الجيوش، ولعلها الجيوش الأفضلية، تبدَّلت من ميته إلى حيية، ومن مجدبة إلى مجدية، يقول: "وأما استقراؤُك حالَ سَنتِنَا التي وَصَفْتَهَا بالمُجْدبَةِ وهي المُجْديةِ، ووسَمْتَهَا بالمُهْلِكةِ وهي المُحْيية؛ فقد كانتِ البلادُ مُغْبَّرةً مُقْشَعرَّةً، وجاءَ، من كرمِ اللهِ، ما يُذْهِبُ عنها الشدائدَ، وينفيها، فأَتَتْ جيوشُ النعمِ مُتوافرةً مُقْتحمة، ودنَتْ ضروبُ المِنَحِ مُتكاثرةً مُزدحمة"[٥]، ثم يأتي ابن الصيرفي بوصف للحال التي آلت إليه البلاد، وأثر رحمة الله تعالى بها والعباد، يقول: "فتأمَّلِ الألطافَ كيفَ تستَبِقُ ولا يُخَافُ من فوتِها، وأنظرْ إلى أثرِ رحمةِ اللهِ كيفَ يُحيِي الأرضَ بعدَ موْتِها، وذلك أنَّ السحابَ أنْجَمَ ثم أثْجَم، والغيثَ ارتفعَ ثم اندفَع، بهطلٍ لا يُخْشى ضيمه"[٦]، وبما أن أحوال السنين من الجدب والعطاء لا تخفى على أحد، فالباحث يرى أن ابن الصيرفي أشار بالخير والرحمة إلى ذلك الظلم الذي يدفع عن الناس بعد أن قدمتها الجيوش، وقرينة ذلك قوله: "بهطل لا يخشى ضميه"، وبهذا فابن القيرواني لم يخطئ الخبر، فالجيوش لا تدخل مكانا إلا بدلت معالمه، ونهبت خيراته،

---

[١] ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ٣٨.
[٢] المصدر المصدر نفسه، ٦٦.
[٣] المصدر المصدر نفسه، ٢٦٧.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ٢٦٧.
[٥] المصدر المصدر نفسه، ٢٦٧.
[٦] المصدر المصدر نفسه، ٢٦٧.

ولكنه لم يحسن التقدير، فكان من الأجدر أن يبرر دخول تلك الجيوش للناس، وهذا الأمر لم يغب عن ابن الصيرفي الذي اعتاد أن يمجد خلفاء الفاطمية ووزراءها خاصة الأفضل بن بدر الجمالي، لذا قدم ابن الصيرفي تعليلا لدخول الجيوش إلى البلاد، وأراد أن يقنع الناس بأن اقتحام الجيوش وفرة في النعم وكثرة في المنح والعطايا، ويكون بهذا خدم ملكه.

وتجدر الإشارة بعد استعراض رسائل الوصف التي وصلت إلينا من مصر الفاطمية من إنشاء ابن الصيرفي أنها قصيرة القطع، تخلو من المقدمة والخاتمة، يدخل الكاتب بالوصف مباشرة دون التقدمة إلى ذلك، وسرعان ما ينتهي من وصفه بعد أن يدرك الغاية منه.

**ثالثا: رسائل الرثاء.**

والرثاء من فنون الأدب العربي، الذي اختصّ الشعر العربي بالتعبير عن معانية مدة طويلة، ولم يعرف هذا الفن مبكرا في الأدب العربي إلا من خلال الشعر وقد ارتبطا معا، حيث كان القوم لا يعرفون ذكر مناقب الميت رثاء إلا من خلال الشعر[١]، إلا إن هذه الخصوصية لم تعد موجودة مع دخول الأدب القرنين الثالث والرابع الهجريين، حيث تمكن الكتَّاب من نقل محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال إلى النثر، وأخذوا بعد ذلك بالكتابة في الموضوعات الأدبية الخاصة بالشعر ومنها الرثاء.[٢]

وعندما نطالع العصر الفاطمي في مصر، ونتأمل حال الكتابة والكتَّاب، نجد أن الفاطميين نجحوا في استقطاب مشاهير الكتَّاب إلى مصر الفاطمية، وتمكنوا من إرساء قواعد ديوان الإنشاء عندما ضمَّ أبلغ الكتَّاب وأكثرهم فصاحة، وساهموا بعنايتهم وإغداقهم على الكتَّاب برفد الأدب العربي بالكثير من المواد الأدبية النثرية التي تكشف خصوصية العصر الفاطمي في مصر دون غيره من العصور. ويمكننا أن نجد هذا في الرسائل الديوانية و الإخوانية التي مرت بنا، إلا أنهم لم يتمكنوا من الحفاظ على الموروث الأدبي كاملا للعصر الفاطمي في مصر، فضاع كثير من نتاجهم الأدبي، ونلمح الأثر هذا في الرسائل الأدبية تحديداً رسائل الرثاء، فالباحث لم يجد إلا رسالة واحدة في الرثاء، أنشأها ابن أبي الشخباء يرثي فيها ولد كافي الكفاة وقد مات غريقاً. [٣]

ولعلَّ رسالة واحدة لا تكفي لرسم ملامح الكتابة الأدبية في مجال الرثاء في العصر الفاطمي في مصر، إلا إن دراسة الرسالة السابقة وتحليلها أفضل من تركها وإهمالها، كما أنها تشهد على صاحبها بطرق هذا الغرض الأدبي، وهو من مشاهير الكتاب الفاطميين.

---

[١] ينظر: الدروبي، الرسائل الفنيَّة في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ٣٧١.

[٢] ينظر: مبارك زكي ، النثر الفني في القرن الرابع، ج١: ١٢٩-١٣٠.

[٣] ينظر: الأفضليات، ٣٢٠- ٣٢١، وينظر: الشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٢٨٧- ٢٨٨.

يبدأ ابن أبي الشخباء هذه الرسالة باستنكار ما حل بهم، وفاة ولد كافي الكفاة، ويتضمن هذا الاستنكار تعزية بالدعاء لأبيه كافي الكفاة بالبقاء، وثناء على الغريق وهو الابن يقول: "غير بدع من الزمان، أطالَ اللهُ بقاءَ حضرةِ سيِّدِنا، أن ينكِثَ حبالَه، ويُصرِّدَ نبالَه، وتُراشَ في قصد الكريم سهامُه"[١]، فهو يستنكر على الزمان أنه أصاب كافي الكفاة بفقده أحد أبنائه، ويجعله مرة كالحبل الذي يقوى ويشتد به كافي الكفاة، وأخرى كالسَّهم الذي فقده وقد كان يواجه بها الأعداء.

ويرى ابن أبي الشخباء أن مصائب الدهر وحوادثه كثيرة، وقليل منها ما يوقع الهلع والجزع في قلوب الناس، ومن المصائب التي خرجت عن المألوف وأوجبت لوم الزمان موت ولد كافي الكفاة.

ويتحدث ابن أبي الشخباء صراحة عن سبب وفاة ابن كافي الكفاة، وهو الغرق، يقول في أبيات من نظمه:[٢]

| | |
|---|---|
| شمسُ العُلا غَرُبت بحيث تُرى | أبدا غروب الشمس والبدر |
| وكأنما هو درةٌ دُفِنَت | في جيبِ ما وَلِيت من البحر |
| وتنزَّهَت عن أن يصافحَها | صمُّ الصفيحِ وظلمةُ القبر |

وكثيرا ما يحرص الكتَّاب على استعراض قدرتهم على الكتابة وتصرفهم بالنَّثر والنَّظم، ونجد هذا فيما سبق، فالكاتب ابن أبي الشخباء يداخل بين النثر والنظم، فيبدأ الرسالة بالاستنكار واللوم وبيان عظمة المصاب وأثره، معتمدا بذلك على النثر، لينتقل إلى بيان سبب الوفاة، ووصف المتوفى معتمدا على النظم، كما أنه يواسي ويسلِّي أهل المتوفى على ما حلَّ بهم بإقناعهم أن وفاته غرقا شكل من أشكال التنزُّه، فهو لم يغط بالصفيح، كما أنه لا يرى من ظلمة القبر شيئا، وهذا ما يدلّ على ذكاء الكاتب، وقدرته على الوصول إلى المخاطب وإقناعه.

ويمضي ابن أبي الشخباء بعد ذلك في بيان أثر الحادثة في نفوسهم، يقول: "هذا والله هو المصاب الذي تستعذب فيه النفوس فواتها، وتفارق له القلوب سويدواتها، وتستخف النفوس حمل الأوزار، وتأنف الجفون من لقائه بالدموع الغزار، حتى تجعل ذلك دأبها، وتخضب بالنجيع أهدابها"[٣]، ولأن المتوفى ابن كافي الكفاة قضى وهو صغير السنّ؛ فنجد الكاتب لا يذكر محاسنه، وإنما يكتفي بوصفه مرة بالبدر، وأخرى بالشمس، ويجعل منه درة، ويشبهه بالزهر، والنبل، والحبل، وهذه الأوصاف دليل على أنه توفي قبل أن يبلغ ويتمكن من المسؤولية بين يدي أبيه كافي الكفاة.

---

[١] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٣٢٠، والشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٢٨٧- ٢٨٨.

[٢] الشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٢٨٧، هذه الأبيات غير موجودة في نسخة الأفضليات، أوردها صاحب الجمهرة.

[٣] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٣٢١، والشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٢٨٧- ٢٨٨.

ويحاول ابن أبي الشخباء في نهاية رسالة رثائه أن يواسي كافي الكفاة ويسليه في مصابه، ويدعوه إلى تسليم أمره إلى الله تعالى بالدعاء، يقول: "فلذلك شاعَ بل وجَبَ أن لا يحلِّي خادمُ الحضرةِ العاليةِ ما كتَبَ به من الحضِّ على الإرشادِ إلى مواقفِ التسليمِ، والصبرِ عندَ الحادثِ الأليم، ويقتصرُ على الرغبةِ إلى الله، تعالى، أن يهبَ له عُقبى الدار، ويعقلَ عنها جوامحَ الأقدار"[١].

ويختم ابن أبي الشخباء رسالته بمجاملة كافي الكفاة، فهو يرى أن بقاء المتوكل على قيد الحياة بينهم هو ما يهون على الناس كافة مصابهم، وينسيهم كلَّ خطب.

**رابعا: رسائل الهجاء.**

والهجاء من الأغراض الأدبية التي عبر عنها الشعراء، وهو نقيض المدح، ويعنى دائما بإبراز النقائص والمعايب، وهو من الموضوعات الأدبية التي جارى بها الكتَّاب الشعراء، حيث وجدوا في النثر طواعية واتساعا مكَّنهم أن يعبروا عن أفكارهم بكثير من المعاني دون قيد.

ورسائل الهجاء التي بين أيدي الباحث ووصلت إلينا عن العصر الفاطمي في مصر رسالتان، وهما من إنشاء ابن أبي الشخباء، وكلا الرسالتين تخلو من المقدمات، التي اعتاد الكتاب على الابتداء بها، وتعتمد على السخرية من المهجو.

**-١-**

الرسالة الأولى جاءت في هجاء مضيف ومائدته[٢]، يبدأها بالحديث عن المهجو، ويبين فيها سلبيته، التي دفعت الكاتب إلى هجائه، يقول: "فولجتُ منزلاً قد استعارَ من قلبِ العاشِقِ حرَّاً وَرَهَجَا، ومن أخلاقِ مالِكِه ضيقاً وحَرَجَا، كأنَّما زَفَرَتْ فيهِ النَّارُ، ونُقِّطَ على جدرانِهِ بالقار"[٣]، فالكاتب يرى أن ضيق أخلاق صاحب البيت تمثلت في بيته، فالبيت حارٌّ، تنتشر فيه الغبار؛ فصاحبه يكره أن يلجه أحد، وكأنها كناية عن البخل الشديد، وانعدام النظافة، ويكني بهذا بقوله: "رهجا"، ثم ينتقل الكاتب بعد ذلك ليصف المائدة التي طال انتظارها، يقول: "فرأيتُ أرغفةً قد أُحْكِمَتْ في الصِّغرِ والإلطَاف، ولمْ تتعوَّذْ قطُّ من الأضياف، قد مرَّت عليها أيام... وثلاثةِ صحافٍ واسعةِ الأكنافِ بعيدةِ الأوساطِ من الأطراف، قد جُعِلَ في قرارةِ كلٍ منها مالا يَدْفَعُ السَّغَبَ، ولا تجدُهُ اليدُ إلا بالتَّعب"[٤]، فالكاتب يعتمد على الوصف الحسِّي كشكل الطعام المقدم، ويرسم لنا صورة في قالب من السخرية، ليحطّ من شأن المهجو. ويبين لنا مدى بخله، فالخبز يكاد أن يختفي

---

[١] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٣٢١، وينظر: الشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٢٨٨.
[٢] ابن بسام، **الذخيرة**، القسم الرابع، ٢: ٦٥١.
[٣] المصدر نفسه، ٢: ٦٥١.
[٤] المصدر نفسه، ٢: ٦٥١.

لصغر حجمه، وقد مرّت عليه أيام، وقد وضع ثلاثة أصناف من الطعام، اتسعت أوعيتها، وقلت مادتها، فما فيها من طعام لا يدرك به تعب اليد وهي تبحث عن الطعام فيها.

ويمضي ابن أبي الشخباء في هجاء المضيف معتمدا على الوصف الساخر، فيصف القهوة التي قدمت لهم، وكم كان الماء كدرا، ويصور شربها بشرب الحميم الآني، والقانية التي يحرم لها السماع، فهي لا تحسن الغناء. ويختم بحمد الله أن صدَّ أحد الوزراء أو الأمراء عن هذا المجلس.

ويبدو أن الهجاء جاء بعد أن فشل أحد المضيفين في ترتيب مجلس من المجالس التي يجتمعون فيها ليرفهوا عن أنفسهم، وابن أبي الشخباء في هجائه وقف عند تفاصيل ما يدور في مجالس اللهو الفاطمية، فهو يعبِّر عن مظهر اجتماعي سادَ خلال العهد الفاطمي في مصر، يلتقي فيها كبار موظفي الدولة، فقد كان تناول الطعام، واحتساء القهوة، والاستمتاع بالمغنيات، وتناول المشروب، أبرز ما يدور في تلك المجالس، ولعل هذه المجالس أحد أسباب سقوط الدولة الفاطمية في مصر، فهي لم تعقد من أجل مناقشة أمور الدولة الفاطمية، وإدارتها، بقدر ما كانت تعبِّر عن المجون الذي أنهى الدولة، والترف الذي عاش وتنعم فيه كبراء الدولة.

**-٢-**

والرسالة الثانية من إنشاء ابن أبي الشخباء في هجاء أحد الكتَّاب، نظر إليه نظرة فيها استعلاء وتكبر، يستهلها الكاتب ببيان السبب الذي دفعة إلى هجائه، يقول: "رأيتُ فلاناً عندَ نظرتِهِ لي بالأمسِ قَدْ قطَّبَ حاجبَهُ، وزعزعَ مناكِبَه، وأوسَعَ الغلامَ من سبِّه وشتمه ذيل كمِّه"(١)، ثم ينتقل بعد ذلك لوصفه والسخرية منه لبيان كثرة جهله، وقلة إدراكه، معتمدا على أسلوب الاستفهام في تقرير هذا، يقول: "فقلتُ: ماله؟ أَأُنْزِلَ إليه وحيٌ؟ أم عُصِبَ به أمرٌ ونهي؟ أم حصلَ من الخلافةِ على وعد؟ أم قلَّ عقلُه فعقَّ نفسَهُ وظلَمَها، وجَهِلَ مقاديرَ الأشياءِ وقيمَها؟ أم رأى الملائكةَ المقربينَ تتشفَّعُ به، والحورَ العينَ تشكو لاعِجَ حبِّه، وثمارَ الجنَّةِ تدلَّت إلى يده"(٢)، وعلى هذا النحو يمضي الكاتب يسخر من هذا القائد بسخريات متعاقبة، فلا هو نبي مرسل، ولا من أصحاب الأمر والنهي، ويرى أنه فقد عقلة فلم يعد يميز ويقدر قيمة الأشياء، حتى ظن أنه نبي تتشفع به الملائكة، وتشكو الحور العين شدَّة حبه.

ولم يكتفِ ابن أبي الشخباء بهجاء رئيسه، كما يبدو من النص، وإنما يهجو مجموعة من الكتَّاب، ويشبههم بالحيوانات التي تملك صوتا عاليا ولكنها لا تعرف قول الحقّ، ويختم هجاءه بالطلب من رئيسه أن يتواضع ويتراجع عن خطئه؛ فهو إن لم يفعل سيقابل منه بمثل ما فعل.

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣٠-٦٣١، والشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٣٢٧.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣٠-٦٣١، والشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٣٢٧.

ويبدو من النصِّ أنَّ ابن أبي الشخباء يعتمد في هجائه على الثقافة الدينية ، فيتساءل ساخرا إن كان المهجو ظن نفسه أحد الأئمة الموحى إليهم، أو إن كان وصيًّا، أو من كتب له السجل بولاية العهد، ومرة أخرى يستمر في سخريته إن كان المهجو ظن نفسه، من الملائكة المقربين، الذين سخر لهم كل شيء في الوجود، والكاتب هنا يعتمد على أسلوب الحوار في ترسيخ السخرية والتقليل من شأن المهجو، والحوار هنا داخلي، فمرة يسأل نفسه وأخرى يجيب، يقول: "فقلت ما له... فأجبت... وقلت..."(١)، ويبدو من ذلك أن المكانة التي احتلتها القيادات الدينية، هي أكثر ما طغى على المجتمع الفاطمي في مصر، فالكاتب عندما أراد أن يسخر من المهجو، ويبين مكانته الاجتماعية بينهم، توجه مباشرة للاستشهاد بالرتب الدينية، الإمام، الوصي، ولي العهد، وهي الرتب الأولى في المجتمع الفاطمي التي لا يمكن وصولها، أو التشكيك بها.

كما يعتمد الكاتب في سخريته على ثقافته الواسعة، فنجده يسخر من جهل المهجو، فيقارنه مرة بـ"أرسطو طاليس" في الحكمة، وأخرى بـ"بطليموس" في العقل. (٢)

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣١. والشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٣٢٧.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣٠. والشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٣٢٧.

# الفصل الرابع:

# أثر التّشيّع في الرسائل الفنيّة في مصر في العصر الفاطميّ

بدا أثر التشيع واضحا في الرسائل الفنية تحديدا الرسائل الديوانية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، ومن يعمِّق النظر في الرسائل الديوانية يدرك تماما سبب عناية الفاطميين بديوان الإنشاء والكتَّاب، فقد أدركوا دور الأدب في تثبيت أركان دولتهم والترويج لها، فالرسائل الديوانية تحمل مزيجا من الدين والسياسة في قالب أدبي، يقلُّ استخدامه في الرسائل الأدبية والإخوانية، كما أن الرسائل الديوانية هي الأكثر تأثرا بالتشيع أو العقيدة الفاطمية من غيرها من الرسائل الفنية، بل نجد الأثر العقدي على الرسائل الإخوانية والأدبية يكاد يختفي، حيث تسيطر عليها العلاقات الشخصية من جانب، وبيان القدرة الأدبية من جانب آخر، مبتعدة عن رسم سياسة الدولة وإقناع الناس بالزعامة الإسلامية التي طمح الفاطميون إليها.

والرسائل الديوانية التي بين يدي الباحث تكشف العلاقة القائمة بين التشيع "العقيدة الفاطمية" والسياسة فكلاهما لا ينفصلان، وقد ظلت العقيدة على مدار ما يزيد عن قرنين ترسم المشهد السياسي للدولة الفاطمية خلال وجودهم في مصر، ومن هنا فإن دراسة الأثر العقدي أو أثر التشيع في الأدب الفاطمي سيدور في فلك الرسائل الديوانية؛ فالتشيع بدا حاضرا في كل ما يصدر عن ديوان الإنشاء، ولا يخفى علينا أهمية الديوان في الترويج للعقيدة الفاطمية والدعوة إلى التشيع لمذهب الفاطميين والدفاع عنه في مصر؛ لأن دعوة الناس وإقناعهم وكسب تأييدهم كان يعينهم على الاستمرار في بناء الدولة بناء دينيا.

ولتشعب موضوع أثر التشيع، وامتزاجه بالأدب العربي، والتاريخ الإسلامي، والسياسة، فمن الصعب أن يحيط به الباحث في هذا المقام، ولذا سيحاول أن يتعرض، ومن خلال الرسائل الفنية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي من مصر، لأهم الجوانب التي بدا من خلالها أثر العقيدة الفاطمية واضحا في الرسائل الفنية في العصر الفاطمي في مصر، وهي: الإمامة، والتأويل، والموضوعات الجديدة التي طرأت على النثر العربي كالدعوة إلى الدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها، وتولِّي نقابة العلويين.

**الإمامة:**

قامت الدولة الفاطمية في مصر على أساس الدعوة إلى التشيع، فاتشح الخلفاء الفاطميون بثوب الإمامة، وردُّوا نسبتهم إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه وفاطمة بن محمد، صلى الله عليه وسلم، ومساق إمامتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، من ولد الحسن بن علي، رضي الله عنهما، وكانت الإمامة على هذا الأساس أهم مبادئ الفاطمية، فهي عماد الدولة وسيادتها في مصر.[١]

---

[١] ينظر: عنَان، محمد عبدالله، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض، ١٩٨٣م، ٣٥٢.

ولقد حرص الخلفاء الفاطميون على صفة الإمامة وتثبيتها ونشرها في مختلف الوسائل الفكرية والسياسية[١]، ومن أهم الوسائل السياسية والفكرية التي اتَّخذها الخلفاء الفاطميون ديوان الإنشاء الفاطمي، حيث تثبت السجلات والرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي في مصر ووصلت إلينا مدى حرص الخلفاء الفاطميين على الإمامة، فكانت تتضمن مجموعة من الأسس والمفاهيم التي تتعلق بالإمامة[٢] والإمام وفضلهما على الناس أجمعين. ودافعوا من خلال هذه السجلات عن حقِّهم في الإمامة، معتمدين على التأويل والأحداث التاريخية التي تؤيد، من وجهة نظرهم، هذا الحقّ. وقد حاول الكتَّاب الفاطميون بما امتلكوا من بلاغة وبيان في خطاباتهم استقطاب عواطف الناس وإقناعهم للنفاذ إلى ما يريده الأئمة الفاطميون، وتثبيت حقِّهم في الإمامة.

ومن الأسس التي اهتم بها الكتَّاب الفاطميون وحرصوا على بثِّها في كل سجل صادر عن ديوان الإنشاء العلاقة التي ربطت النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بابن عمه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فلا يوجد سجل إلا أكَّد كاتبه تلك العلاقة التي تشكل المنطلق الأول، إن صحَّ الوصف، في الدفاع عن حقِّهم في الإمامة بعد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وأنهم هم الأولى بها بعد وفاته، ومن ذلك ما جاء به ابن الصيرفي في سجل كتبه عن الآمر بأحكام الله وقد استقر في الخلافة بعد وفاة أبيه المستعلي بالله، يقول بعد الحمد والثناء: "ويسألُهُ أنْ يصليَ على جدِّهِ محمدٍ الذي ثبَتَتْ حجتُهُ، ووضَحَت محجتُهُ، وعلَتْ كلمتُهُ، وأنافَتْ على دَرَجِ الأنبياءِ درجتُهُ، صلى الله عليه وعلى أخيهِ وابنِ عمِّهِ أميرِ المؤمنينَ عليِ بنِ أبي طالب، الذي جعلَ الإمامةَ كلمةً في عقبِهِ باقيةً، وحُبَّه جُنَّةً يومَ الفزعِ الأكبرِ واقيةً، وعلى الأئمةِ من ذريتهِما الطاهرينَ، صلاةً دائمةً إلى يومِ الدين"[٣]، فحرص الكاتب واضح وهو يؤكد متانة العلاقة التي تجمع النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بابن عمه علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وهذا حال الكتَّاب الفاطميين الذين عملوا في ديوان الإنشاء، فهم يهتمون في كل ما يصدر عنهم بتأكيد صحة نسب علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، من النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وهذا ما يحتجون به في أحقيِّة علي ابن أبي طالب بالخلافة- الإمامة- من النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وبناء عليه تصحُّ وتثبت الإمامة للخلفاء الفاطميين من بعده.

ويفسر الدكتور محمد كامل حسين اهتمام الكتَّاب الفاطميين وكثرة إلحاحهم على ذكر نسبهم إلى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وأنه جدُّهم، وبيان العلاقة التي تربطه بعلي بن أبي

---

(١) ينظر: عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، ٢٥٢- ٢٥٣.

(٢) جعل الإسماعيلية للإمامة شروطا وخصائص يجب أن تتوافر في الإمام، منها أن يكون قد تربَّى وتثقف في مدرسة الدعوة، وأن يكون من آل بيت الرسول الكريم، وأن يكون صحيح الجسم من دون عاهات، وأن يكون وقورا، ومهابا، وكريما، وعالما، وغيورا، وساهرا على اتباعه، يوفر لهم السعادة والخير. (ينظر: تامر، عارف، الإمامة في الإسلام، ٧٧- ٧٨).

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٢٤٠-٢٤١.

طالب، كرم الله وجهه، في مستهل سجلاتهم، أنه ردٌّ على العباسيين، الذين حاولوا من خلال كتَّابهم دحض نسب الفاطميين إلى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم[1]، إلا إن الباحث يضيف إلى هذا أنَّ الكتَّاب الفاطميين حرصوا على ترسيخ مبدأ الإمامة عند الناس، والكاتب ابن الصيرفي يشير إلى هذا في النص السابق، فهو يأتي ببيان صلة الآمر بأحكام بالرسول الكريم، صلى الله عليه وسلم، عندما يقول على لسان الآمر: "ويسأله أن يصليَ على جدِّه"، ثم يتبع ذلك حديثا عن مبدأ الإمامة، يقول: "الذي جعل الإمامةَ كلمة في عقبةِ باقية"، والإمامة عند الفاطميين،هي أهم أركان العقيدة ، فهم يرون أن الإمامة تمثلت بالرسول، صلى الله عليه وسلم، ومن بعده انتقلت إلى على بن أبي طالب، كرم الله وجهه، ومن بعده لأبنائه وأئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكلُّ إمام منهم وصيٌّ لسلفه طبقا للترتيب الإلهي في خلافته أو ولايته الربانية على أمور الأمة.

ومن الأفكار التي تتعلق بالإمامة وحرص الكتَّاب الفاطميون على ترويجها من خلال سجلاتهم التي حبروها في ديوان الإنشاء فكرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام– كما يعتقدون– أوصى بالخلافة والإمامة لعلي بن أبي طالب من بعده، وقد ثبت هذا المعنى في الكثير من السجلات الفاطمية التي بين أيدينا، ومن ذلك السجل الذي أنشأه علي بن خلف الكاتب في الدعوة للدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها، يقول: "ويسألُهُ الصلاةَ على سيدنا محمدٍ نبيِّه الذي ابتَعَثَه رحمةً للعالمينَ، فأوضحَ معالمَ الدين، وشرَعَ ظواهرَهُ للمسلمين، وأودَعَه بواطنَهُ لوصيِّه سيِّدِ الوصيين: علي بنِ أبي طالب أميرِ المؤمنين "[2]. والكاتب يشير في مثل هذا النص إلى فلسفة الإسماعيلية في علوم الدِّين، فهو على ترتيبين: علم ظاهرة يتعلق بالتشريع والمعاملات وترتيب حياة الناس، وهو مختص بالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلم باطن خفي، يتمثل بالأسرار الإلهية، وهي مختصة بعلي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وصي رسول الله.

ويستشهد الكتَّاب الفاطميون في رسائلهم بأحاديث يحمِّلونها معنى الوصية وينثرونها في رسائلهم، ومن ذلك ما جاء في رسالة من إنشاء علي بن خلف الكاتب في سجل تقليد بإمارة الحج، يقول بعد الحمد: "ويسأله أن يصلي على سيدنا محمد رسوله، صلى الله عليه وعلى وصيه وخليفته وباب مدينة علمه وحكمته: علي بن أبي طالب سيد الوصيين، وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين"[3]، وفي هذا النص إشارة لما روي عن الرسول الكريم أنه قال: "أنا مدينة العلم وعلي بابها" و" أنا دار الحكمة وعلي بابها".

---

[1] ينظر: الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، ٢١٤.
[2] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٤- ٥٨٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٢- ٤٤٣.
[3] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٤٩، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٢.

وقد كان الكتَّاب الفاطميون يلجئون إلى كل المواقف والأحاديث التي تثبت صحة معتقدهم، وحقَّ أئمتهم في الإمامة دون غيرهم ومن ذلك اللجوء إلى حادثة المؤاخاة وحديث الموالاة المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما ورد في سجل البيعة الذي كتب عن الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله أورده القلقشندي في مصنفه، فبعد التحميد والصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، يقول الكاتب: "وعلى أبينا أميرِ المؤمنينَ علي بنِ أبي طالب أولى الناسِ بالنبي، وأول من اتَّبَعَه من ذوي قرابةٍ وأجنبي، وابنِ عمِّه الذي اختصَّه بمؤاخاتِهِ، وجعلَهُ خليفةً على النَّاسِ بعد مؤاخاتِهِ، وتحمَّلَ بأمرِ اللهِ، فيما وَلَّاه وأوْلَاه، وخطبَ الناس في حَجَّة الوداع: من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه"(١)، فالكاتب يرى أن حادثة المؤاخاة التي جاءت بعد حجة الوداع أكبر دليل على صحة إمامتهم، فهم يرون أن النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، بعد حجة الوداع نصَّ صراحة بالخلافة من بعده لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكثيرا ما يردد الكتَّاب الفاطميون كلمة "أخيه" ويرمز بها إلى النور الذي خُلق منه سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، كما يزعم الفاطميون، فقد جاء في ديوان المؤيد من قول الفاطميين: "أنَّ محمداً وعلياً خُلِقا من نورٍ واحد"(٢) ويرى الباحث أنَّ هذه الكلمة "أخيه" إشارة إلى ما جاء في حديث الرسول، صلَّى الله عليه وسلَّم: "أنت منِّي بمنزلةِ هارون من موسى"(٣) فهارون أخو موسى، عليهما السلام، وهم يركزون على هذه الأخوة في جلِّ رسائلهم مؤكدين أن عليا هو وارثُ مقام الرسول وعلمه.

ومن المسائل العقدية التي برز من خلالها أثر التشيع في الأدب صحة الإمامة، التي يُشترط لها "الوصية" أو "النص"؛ بمعنى أن ينصَّ الإمام السابق على الإمام اللاحق من أولاده، وهو بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الإمام؛ لذا فهو من أهم شروط صحة الإمامة(٤)، وقد اهتم الكتَّاب الفاطميون في مثل هذه المسائل، تحديدا تلك السجلات التي تتحدث عن انتقال الإمامة والدفاع عنها، ومن أهم تلك السجلات الرسالة الموسومة بـ"الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية- إيقاع صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام"(٥)، حيث يشير كاتبها ابن

(١) صبح الأعشى، ٩: ٣٠٢.
(٢) ينظر: مقدمة ديوان المؤيد، ٧٦.
(٣) ينظر: أبو حنيفة بن محمد بن منصور، دعائم الإسلام،١: ٥٧.
(٤) ينظر: الشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٥٧.
(٥) تعد رسالة "الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية وإيقاع صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام" التي أنشأها ابن الصيرفي من أهم السجلات التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، لأنها تلقي أضواءً كثيرةً على أول انقسام مذهبي وسياسي أصاب الدولة الفاطمية، وهو الانقسام الذي حدث بعد موت الخليفة المستنصر بالله، وأدى إلى إبعاد ابنه الأكبر نزار عن الخلافة، وتولية الابن الأصغر أبي القاسم أحمد المستعلي بالله، و انقسمت تبعا لذلك الشيعة الإسماعيلية إلى فرقتين: الإسماعيلية النزارية، التي نجح دعاتها في إقامة ملك لهم في "ألموت" في الشام، وقد لعبوا دوراً خطيراً في التاريخ الإسلامي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، والإسماعيلية المستعلية، أتباع الخلافة الفاطمية في مصر. وقد ناصب النزارية الفواطم في مصر العداء، و لم يلقِ

الصيرفي إلى ضرورة "نصِّ" الإمام على وصيه أو الإمام من بعده، يقول: "فإنَّهم ضيّعوا كلمةَ اللهِ ألحيَّة الناطقة، وحرّفوا حجَّتَه البالغة الصادقة، وناصبوا رحمةَ اللهِ الموجودةَ، ونقلوها من موضعها بغير نصٍ مشهور، ولا خبرٍ مأثور"[١]، فالنصُّ دالٌّ على صحة الإمامة وأحقيتها. ولا بدَّ للإمام من أن ينصَّ أو يوصي للإمام من بعده. ويشترط في النص أن يؤخذ عن الإمام وقت موته عن لسانه. ويكون على طريقتين: الإشارة الحقيقية، أو الفعل، يقول:"لم يكنْ تثبيتُ الإمامةِ إلا بنصٍ صحيحٍ يُؤخَذُ من لسانِ المؤيّدِ المرشدِ إلى الحقِّ في وقتِهِ وزمانِهِ، لايُكتفى في ذلك بمجرد قوله، دون ما يعمُّهُم من حقيقةِ إشارتِهِ وفعلِهِ، ولا يُعتمدُ في ذلك إلا على ما يقررُهُ في وقتِ انفصالِهِ ودقيقةِ انتقالِهِ"[٢]، فيشترط في النص المأخوذ عن الإمام أن يكون مأخوذا عن لسانه في زمانِه ولحظة انتقاله إلى الملأ الأعلى، لأنَّ الإمام قد ينصُّ على شيء تقتضيه الحكمة والسياسة في وقت، ثم يغيره في مقام آخر.

ومن الرسائل التي تشير إلى مسألة نصِّ أحد الأئمة الفاطميين على أحد أبنائه ليكون وارث مقامه نسخة عهد كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي لولده حيدرة بأن يكون ولي عهد الخلافة بعده، يقول في ختامها: "رأى أميرُ المؤمنين أنْ يختصَّهُ بولايةِ عهدِ أميرِ المؤمنين تمييزاً له بهذا النعْتِ الشريفِ، وسُمُوّاً إلى ما يجبُ لمجدِهِ الشامخِ ومحلِّهِ المُنيف، واقتداءً بأسلافِهِ الأئمةِ الأطهارِ فيما يُشرِّفونَ به أبناءَهم الأكْرَمين، وتخصيصاً له بما يبقي فخرُه على متجدد الأزمان ومُتطاوِل السِّنين"[٣]، فتخصيص أحد الأبناء بنعت أمير المؤمنين هو من باب النصِّ عليه وارثا لمقام أبيه الإمام، وهذا هو عهد الأئمة الفاطميين في اختيار من يأتي بعدهم في الإمامة.

ويعتقد الفاطميون أن لكلِّ نبي وصيًّا يكل إليه أمر المؤمنين بعد وفاته، وأن الله تعالى هو الذي يوحي إلى النبي بإعلان الوصي الذي اختار، فكان وصي آدم هابيل، ووصي نوح ابنه سام، ووصي إبراهيم ابنه إسماعيل، ووصي موسى أخاه هارون، ووصي المسيح شمعون الصفا، ويسمى كل نبي من هؤلاء "الناطق"[٤] يخلفه "الوصي" الذي توكل إليه مهمة هداية الناس، ويقيسون هذا على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم الذي هو بمنزلة "الناطق"، والذي لا بدَّ له من

---

= الخلفاء الفاطميون منذ عهد المستعلي أعداءً أشد قسوة من النزارية، بحيث نستطيع القول: إن تاريخ الحركة الإسماعيلية بوجه عام و تاريخ الدولة الفاطمية في مصر بوجه خاص، كان من الممكن أن يتخذ شكلاً آخر غير الذي عرفناه لو أن الإسماعيلية النزارية، الحشيشية، اتحدوا مع الفاطميين في مصر بدلاً من انتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة والإضرار بهم، ويبطل ابن الصيرفي بموجب هذا السجل الإمامة عن نزار ليثبتها لأخيه المستعلي. (ينظر: ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ٩٨- ١٠٠، والشيَّال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ٤٧-٤٨).

[١] ابن الصيرفي، الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٥.

[٢] المصدر نفسه، ٧- ٨.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٩٨- ٣٩٩.

[٤] اصطلاح إسماعيلي، أطلق على كلِّ رسول جاء برسالة ونطق بشريعة، ومجموعه "نطقاء"، وعددهم عند الإسماعيلية سبعة، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم ، وموسى، وعيسى ، ومحمد، والقائم المنتظر. (ينظر: ابن حيون، النعمان (٣٦٣هـ). أساس التأويل، (تحقيق: عارف تامر)، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٦٠م، ٤٠.

"وصي" وهو علي بن أبي طالب. وكل دور من أدوار الأنبياء في اعتقادهم لا يكتمل إلا باثنين "ناطق" وهو النبي و"صامت"[١] وهو الوصي، ويمكننا أن نلمح أثر المعتقد بوضوح في الرسالة أو السجل الذي كتبه أبو الحجاج يوسف بن الخَلَّال عن العاضد لرزِّيك بن الصالح طلائع ابن رزيك بولاية المظالم وتقدم العساكر، يقول فيه بعد السلام: "الحمدُ للهِ الذي أوْضَحَ بأنبيائِهِ سبلَ الهدى للأنامِ، وأنقذَ بإرشادِهم من عبادةِ الأوثانِ والأصنام، وأقامَ باجتهادِهم أحكامَ ما شَرَعَه اللهُ من المِلَلِ والأديان، وأذهَبَ بأنوارِهم ما غَمَرَ الأممَ من غَيَاهِبِ الظلمِ والعُدْوان، وقفَّى على آثارِهِم بمن لا نُبوَّةَ بعد نُبُوَّته، ولا حُجَّةَ أقطعُ من حُجَّته، ولا وُصْلَةَ أفضلُ من وُصْلةٍ ذخرَهَا لأمَّتِهِ، ولا ذُرِّيَّة أقومُ بحقِّ اللهِ في حِفظِ نظامِ الأيمانِ من عِتْرته وذُرِّيَّته"[٢]، فالكاتب يتحدث صراحة عن الأنبياء "النطقاء"، ويبين فضلهم على الخلق، ودورهم في إقامة أحكام الله تعالى، ويشير إلى العلوم الظاهرة "أحكام ما شرعه الله" والباطنة "نظام الإيمان"، ويفرق بينها، فإقامة الأحكام التي شرعها الله وهي العلوم الظاهرة من مهام الأنبياء، أما ما يتعلق بـ"نظام الإيمان" وهو الجانب القائم على التأويل، فهي متعلقة بعترة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وذريته وهم الأئمة الذين ورثوا أنوار الإمامة.

وبناء على هذا فهم يعتقدون في علي بن أبي طالب من حيث الرتب هو "الصامت" الوصي، وابنه الحسن هو أول أئمتهم، وبعده كانت الإمامة[٣] في الحسين، والإمامة بعد الحسين لا تكون إلا في ولد بعد والد وهذا أصل من الأصول في الكلام على انتقال الإمامة في الأئمة من ذرية علي[٤]. ولذا فهم يؤولون قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٥]، أنه أمرٌ من الله

---

[١] اصطلاح إسماعيلي، أطلق على أساس الناطق الذي هو خليفته من بعده، والذي تتسلسل منه الأئمة، وهو المولج بشؤون الدعوة الباطنية في حياته، والأسس لدى الإسماعيلية سبعة، وهم: شيث، وسام، واسحق، وهاورن، وشمعون، وعلي، والمهدي. (ينظر: النعمان بن حيون، أساس التأويل، ٤٠).

[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٣٥.

[٣] تعتقد الإسماعيلية أن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء، ولا تنتقل من أخ إلى أخ، أو من جد إلى حفيد. و انتقالها عن طريق الميلاد الطبيعي، ويكون ذلك بمثابة نصٍّ من الأب إلى الابن. ويقولون: إن الإمام بما أوتي من معرفة خارقة للعادة يستطيع أن يعرف أيَّ أبنائه نالها بالنصّ، والإمام عند الإسماعيلية لا يخطئ بهذا المجال بحال من الأحوال، وإلا لما عدَّ إماما. (ينظر: تامر عارف، الإمامة في الإسلام، ط١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٨م، ٦٨).

[٤] ينظر: ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تقديم وتحقيق: محمد كامل حسين، الطبعة الأولى، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م، ٧٢-٧٤.

[٥] سورة المائدة: ٦٧.

تعالى إلى نبيه الكريم للنص على وصاية علي بن أبي طالب[١]، وبهذا اعتقد الفاطميون بوصاية علي وأن الله تعالى لم يبعث نبيا ولا إماما إلا وهو يُنَصِّب له خليفة يخلفه في حياته ويقوم بأمر الأمة بعد وفاته.

ومن أشكال التأثر أنَّ الكتَّاب الفاطميين يستهلون رسائلهم بحديث عن شرف الأئمة وبيان فضلهم على الأمة، ويكثرون من بيان هذا الفضل، ويربطون الإمامة وفضلها بشخص الإمام، ومن الأمثلة على ذلك سجل البيعة الذي أنشأه الموفق بن الخلَّال لولي عهد بعد موت العاهد، يقول فيه: "الحمدُ للهِ الذي مَنَحَ أميرَ المؤمنينَ من خَصَائِصِ الإمامةِ وأنوارِها، وحازَ له من ذخائِرِها وأودَعَه من أسرارِها، ما خوَّله فاخِرَ تراثها، وأصارَ له شَرَفَ ميراثِها، وجعلَهُ القائمَ بحقِّه، والمرشدَ لخلقه، والماحي بُهداهِ ليلاً من الضلالِ بهيما، والحاوي بخلافتِهِ مجداً لا يزالُ ثناؤُه عظيما"[٢]، فالثناء الذي يناله الإمام مبني على أنوار الإمامة، وذخائرها، وأسرارها، ويراد بها العلوم الباطنة الإلهية، بحسب معتقد الفاطميين، التي يرثها الإمام عن آبائه وأجداده، فتجعل منه مرشدا للخلق، يُخرِج الناسَ بما أوتي من علوم باطنة من الظلمات.

ولا ينحصر أثر التشيع في استهلال الرسائل، بل نجد ذلك جليا في ختامها، حيث يتضمن في كثير من الرسائل طلب الجواب في الدخول في البيعة للإمام الحاضر، ومشايعته، وإخلاص النية له، ومن الرسائل التي تمثل ذلك بيعة كتبت لولي عهد بعد موت العاهد الفاطمي، يقول الكاتب في ختامها: "فتعزَّوا جميعَ الأولياءِ وكافةَ الأمراءِ وجميعَ الأجنادِ والحاضرَ من الرعايا والبَّادَ عن إمامِكِم المنقولِ إلى دارِ الكرامةِ بإمامِكم الحاضرِ الموجودِ الذي أورَثَه اللهُ مقامَه، وادخُلُوا في بيعتِهِ بصدورٍ مشروحةٍ نقيَّةٍ وقلوبٍ على محضِ الطاعةِ مطويَّةٍ ونِيَّاتٍ في الولاءِ والمشايعةِ مرضية"[٣]، فالبيعة تؤخذ من الأولياء، والأمراء، والأجناد، وتنتهي بالرعية من سكن منهم الحاضرة والبادية ضمن ترتيب الدولة الفاطمية.

ومن المعاني التي يحرص الكتَّاب الفاطميون على ترسيخها في أذهان المخاطبين، ويبرز من خلالها الأثر العقدي في الرسائل الفاطمية وجوب طاعة الإمام، حيث يؤكدون في كثير من رسائلهم بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى ابن عمه علي بن أبي طالب، وجوبَ طاعة إمام العصر، ومن ذلك ما ورد في سجل بشارة بركوب الخليفة في عيد النحر من إنشاء ابن الصيرفي، يقول فيه بعد الحمد والصلاة: "وعلى الأئمةِ من ذرِّيتهِما نجومِ الأرضِ وهداةِ أهلها، والواجبةِ طاعتُهُم على من في وعرِها وسهلِها، والذَّابِّين

---

[١] ينظر: القاضي النعمان بن حيون، دعائم الإسلام، (تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م، ١: ١٥.
[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٩٧.
[٣] المصدر نفسه، ٩: ٣٠٠.

بالمَشْرَفِّيةِ عن حِمى الشريعة، والذين مُتابَعتُهم من أَوْجَه ذَرِيْعَة"[١]، فطاعة الإمام، كما يرون، واجبة على الأمة، والدفاع عنهم هو بمثابة الدفاع عن الشريعة، وهي من أعظم الأعمال التي يتقرب بها العبد للإمام.

ويعتقد الفاطميون أن كلَّ من ائتم بالإمام فقد خلص ونجا من الفزع الأكبر، وهذا المعنى يردده الكتّاب الفاطميون في كثير من الرسائل الديوانية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي، محاولين من خلاله أن يحافظوا على الهيبة التي يرسمونها لخلفائهم وأئمتهم، من ذلك ما كتبه ابن الصيرفي في سجل بالبشارة بركوب الخليفة في الجمعة الأولى من شهر رمضان، يقول فيه بعد الحمد وشكره على سلامة الخليفة: "وضامِناً لأمَّةِ ائتمَّتْ به خلاصَها يومَ الفزعِ الأكبر ونجاتها"[٢]، فهذه الشفاعة التي تنالها الأمة نتيجة تبعيتها وولائها المطلق للإمام من النعم الكبرى التي يضفيها الإمام على الأمة، وتستحق الشكر.

ولشدة حرص الكتّاب الفاطميين على حثِّ المخاطبين على طاعة الإمام فإنهم يسعون دائما لترسيخ مبدأ الشفاعة، فنجدهم يتجاوزون الطاعة الظاهرة إلى الباطنة، فحبُّ الإمام يكفيك لتشملك كفالته يوم القيامة، من ذلك ما جاء في سجل من إنشاء ابن الصيرفي بعد أن استقر الآمر بالخلافة بعد وفاة أبيه المستعلي، يقول بعد الحمد والصلاة على النبي: "الذي جعلَ الإمامةَ كلمةً في عقبِهِ باقيةً، وحُبَّه جُنَّةً يومَ الفزعِ الأكبرِ واقيةً"[٣]، وكأنهم يريدون القول: إن الله تعالى أنقذ البشر بخلافة الفاطميين لهم[٤]، فكل من يشايع الفاطميين ويعلن حبَّه وتشيعَه لعلي ابن أبي طالب والأئمة من بعده آمنٌ يوم القيامة من الفزع الأكبر.

ومن الأمور التي يظهر من خلالها أثر التشيع في الأدب أن الكتّاب يذكرون بالواجبات التي يجب على المُستجيب القيام بها تجاه الإمام، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء به ابن الصيرفي في السجل الذي أنشأه لولاة الأقاليم بعد استقرار الآمر بالخلافة، يقول: "ولأميرِ المؤمنين عليكم أنْ تعتقِدوا موالاتهُ بخالصِ طويَّة، وتجمعوا له في الطَّاعةِ بينَ العملِ والنيَّةِ، وتدخلوا في البيعةِ بصدورٍ منشرحةٍ، وآمالٍ منفسحةٍ، وضمائرَ يقينيَّة، وبصائرَ في الولاءِ قويَّة، وأنْ تقوموا بشروطِ بيعتِهِ، وتنهضوا بفروضِ نعمتِهِ، وتبذلوا الطَّارفَ والتَّالدَ في حقوقِ خدمتِهِ، وتتقربوا إلى اللهِ تعالى بالمناصحةِ لدولتِهِ"[٥]، فموالاة الإمام والإخلاص من الأمور التي يتقرَّبُ بها المُستجيب إلى الله

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٢٩.
[٢] المصدر نفسه، ٨: ٣٢١.
[٣] المصدر نفسه، ٨: ٢٤٠-٢٤١.
[٤] ينظر: حماده، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية دراسة ونصوص، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت،١٩٨٠م، ٣٣.
[٥] السيوطي، حسن المحاضرة، ١: ٥٢٥- ٥٢٦.

تعالى، في اعتقاد الفاطميين، والبيعة للإمام لا بدَّ أن تكون خالصة يقينيَّة لا شكَّ فيها، والطاعة لا تكون إلا إذا جمعت بين العمل والنية.

**التأويل:**

يعدُّ التأويل الأساس الذي تقوم عليه دعوة الفاطميين وفكرهم الفلسفي الباطني، وقد اهتمت العقيدة الفاطمية بالمحافظة على أسراره بعيدا عن عامة النَّاس، واقتصر العلم به على الإسماعيليين من أئمة الفاطميين ودعاة عقيدتهم. و"التأويل" في معتقد الفاطميين يختلف بمعناه عن "التفسير" لدى عامة الفرق الإسلامية؛ فالتفسير يُراد به جلاء المعنى لكلِّ كلمة غامضة لا يفهم القارئ معناها، فتحتاج إلى التوضيح وهذا هو التفسير. أما التأويل فيراد به باطن المعنى، أو رمزه، أو جوهره، وهو حقيقة متسترة وراء لفظة لا تدلُّ عليها، وهو من العلوم التي خَصَّ بها الفاطميون أئمتهم وسمّو لأجله بـ"الباطنية"، فقد جعلوا النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، هو صاحب التنزيل للقرآن الكريم، وعليًا، كرّم الله وجهه، صاحب التأويل؛ أي أن القرآن أنزل على محمد، صلى الله عليه وسلم، بلفظه ومعناه الظاهر للناس، أما أسراره التأويلية الباطنية فقد خُصَّ بها علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه والأئمة من بعده، ويستشهدون على صحة اعتقادهم هذا بآيات من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[(١)]، ويرون أن الظاهر وجد للدلالة على الباطن، وقد اعتبروه ممثولا، وفي هذا يقول داعي الدعاة المؤيد في الدين: خلق الله الأمثال والممثولات، فجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول، والدنيا مثل والآخرة ممثول.[(٢)]

ويتحدث الدكتور محمد كامل حسين في مقدمة ديوان المؤيد في الدين عن مسألة الباطن والظاهر عند الفاطميين وتأثرهم بهذا في الفلسفة الأفلاطونية القديمة المتمثلة بنظرية "المثل الإلهية"، وهم يحاولون استخلاص المعنى الباطن من الظاهر؛ أي أنهم دائما يبحثون عن الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويماثلها من الأمور المحسوسة أو الجثمانية، فنظرية "المثل والممثول"، كما يسميها الدكتور محمد كامل حسين، هي قوام العقيدة الفاطمية في التأويل وفي

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) ابن حيون، أساس التأويل، ٦- ٩.

جميع مناسك الدين، ومن خلالها استطاع الفاطميون أن يؤولوا القرآن الكريم تأويلا يختلف عن تأويل أهل السنة.[١]

وقد بدت فكرة الظاهر والباطن[٢] وعلاقتها بالإمام والمفارقة بين مهام الناطق والوصي في معتقدهم واضحة في السجلات الفاطمية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، فنجد الكتَّاب الفاطميين يحرصون على ترسيخ اختصاص التأويل ومعرفة الباطن من العلوم الإلهية بالإمام. ومثل هذا المعنى أشار إليه علي بن خلف الكاتب في سجله الذي أنشأه في الدعوة للدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها عندما قال: "ويسألُهُ الصلاةَ على سيدنا محمدٍ نبيِّه الذي ابتَعَثَه رحمةً للعالمينَ، فأوضحَ معالمَ الدين، وشرَعَ ظواهرَهُ للمسلمين، وأودَعَه بواطنَهُ لوصيِّه سيّدِ الوصيين: علي بنِ أبي طالب أميرِ المؤمنين"[٣]، فهذه مفارقة واضحة بين النبي، محمد صلى الله عليه وسلم، وعلي ابن أبي طالب، كرم الله وجهه، تؤكد معتقد الفاطميين في كلِّ واحد منهما، فالنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، في اعتقاد الفاطميين، مختص بتوضيح ما ظهر من أحكام الدين للمسلمين، في حين نجد الوصي وهو علي بن أبي طالب مختص بتأويل ما خفي من بواطن الدين.

ومن الأمور التي يعتقدها الفاطميون أن الله تعالى أودع أسرار دينه للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وقد نقلت من بعده لوصيه علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وانتقلت هذه العلوم الإلهية من الوصي إلى الأئمة من بعده في عقبه، وهم الوحيدون الذين يملكون علم تأويل القرآن بما لديهم من علوم باطنه، وقد حرص الكتَّاب الفاطميون على تضمين سجلاتهم مثل هذا المعنى لما له أثر في تقبل الأمة للأئمة وتأويلاتهم، وإقناعهم بأن كلَّ ما يصدر عن الإمام غير قابل للنقاش. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء به أحد الكتَّاب في سجل بيعة لولي عهد بعد موت العاهد، يقول: "والحمدُ للهِ الذي مَنَحَ أميرَ المؤمنينَ من خصائصِ الإمامةِ وأنوارِها، وحازَ له من ذخائرِها، وأودَعَهُ من أسرارِها، ما خوَّله فاخرَ تراثِها، وأصارَ له شرَفَ ميراثِها"[٤]. وفي سجل بيعة من إنشاء علي بن خلف الكاتب، يقول: "يحمدُه أميرُ المؤمنينَ أن أفْضى إليه بتراثِ الإمامةِ والرّسالة، وهَدى به كما هدى بجَدِّه من الزَّيغِ والضلالة، واختَصَّهُ بميراثِ النُبوَّةِ والخلافة"[٥]. ويشير علي ابن خلف الكاتب إلى هذه العلوم واختصاصها بالإمام في سجل لمبايعة الدولة والمشايعة لها، يقول:

---

[١] ينظر: مقدمة ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ١٠٦- ١٠٨.

[٢] قال الفاطميون: إنَّ لكل ظاهر باطنا، وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن، وكفَّروا من يعتقد بالظاهر دون الباطن، فمن عمل بالباطن والظاهر فهو منَّا، ومن عمل بالظاهر دون الباطن فالكلب خير منه، وهو ليس منا، وما فاز عند الله إلا من عمل بالحالتين ظاهرا وباطنا. (ينظر: مقدمة ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، ١٠٥- ١٠٦).

[٣] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٤- ٥٨٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٢-٤٤٣.

[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٩٧.

[٥] علي بن خلف، مواد البيان، ٦٦٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٤٣.

"يحمدُهُ أميرُ المؤمنينَ أن اصطفاهُ لخلافتِهِ، وخصَّه بلطائفِ حكمتِهِ، وأقامَهُ دليلاً على مناهِجِ هدايتِهِ، وداعياً إلى سبيل رحمته"[١]. ومن السجلات التي برز فيها أثر التشيع في الرسائل واضحا من خلال فكرهم في التأويل واختصاصه بالإمام السجل الذي أنشأه ابن الصيرفي والذي يعلن فيه وفاة المستعلي وولاية الآمر مكانه، يقول فيه: "وقد كان الإمامُ المستعلي قدّسَ اللهُ روحَهُ عند نُقْلتِهِ جعلَ لي عَقْدَ الخلافةِ من بعدِهِ، وأودعني ما حازَهُ من أبيه عن جَدِّهِ، وعَهِدَ إليَّ أنْ أخْلِفَهُ في العالمِ، وأجري الكافَّةُ في العدلِ والإحسان على منهجِهِ المتعالم، وأطلعني من العلومِ على السرِّ المكنون، وأفضى إليَّ من الحكمة بالغامضِ المصون"[٢]، فـ"خصائصِ الإمامةِ وأنوارِها" و"ذخائرها" و"أسرارها" و"شرَف ميراثِها" و"تراث الإمامةِ والرّسالة" و"لطائفِ حكمتِهِ" و"ما حازَهُ من أبيه عن جَدِّهِ" و"السرِّ المكنون" و"بالغامضِ المصون"، كلُّها رموز يراد بها العلوم الإلهية التي خُصَّ بها الإمام دون غيره من الناس، وبناء عليها خُصَّ بالتأويل، وهي السبب الرئيس في اختياره إماما للأمة وراعيا لها، بحسب المعتقد الفاطمي؛ لذا نجدها مسبوقة بالحمد، وهذا ما نلاحظه في النصوص السابقة.

ولا يشترط أن تنتقل العلوم الباطنة الإلهية أو الأسرار أو الحكمة، كما يطلقون عليها، من الأب إلى الابن المنصوص عليه، فهي تنتقل في غير الأبناء، ويؤكد ذلك سجل بيعة كتب عن الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الآمر من إنشاء ابن الصيرفي، يقول فيه: "يحمدُهُ أميرُ المؤمنينَ أن جعلَهُ خليفةً دونَ أهلِ زمانِه... وأوزَعَهُ الشّكرَ على ما استرْعَاهُ إيَّاهُ من أمرِ هذهِ الأمة، ونقلَهُ إليهِ من تراثِ آبائِهِ الهداةِ الأئمة"[٣]، فابن الصيرفي يشير صراحة إلى أن الإمام يكون إماما من خلال العلوم الإلهية الباطنة التي تنقل إليه. واختصاصها بالشخص يعني إمامته للأمة، فهذه العلوم تتسلسل بين الأئمة نقلا ولا يشترط أن تكون ميراثا من الأب إلى الابن الموصى له.

وقد شكلت هذه الحادثة وهي انتقال الإمامة من الآمر بأحكام الله إلى ابن عمه الحافظ لدين الله نقطة حرجة في حياة الدولة الفاطمية، وابن الصيرفي لا يترك الأمر كما هو بل يجد له مخرجا ليقنع الناس بهذا الانتقال، فيشير في النص ذاته إلى العلاقة التي تربط النبي محمد، صلى الله عليه وسلم بابن عمه علي بن أبي طالب، ويقيس انتقال الإمامة من الآمر بأحكام الله إلى ابن عمه الحافظ لدين الله بانتقالها من النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى ابن عمه علي بن أبي طالب[٤]، وكأنه يريد القول: إن انتقال الإمامة من الآمر بأحكام الله إلى الحافظ لدين الله سينقذ الأمة ويبتعد

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٤، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٢.
[٢] السيوطي، حسن المحاضرة، ١: ٥٢٤- ٥٢٥.
[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٠٢.
[٤] المصدر نفسه، ٩: ٣٠٢.

بها عن حدوث أي فاجع، يقول: "وكشفه بإمامته من أفجع نائبة، وأفضع ملمة"[١] مبررا ذلك بالحرص على عدم وقوع الأمة في فاجعة أخرى، عندما لم يلتزموا بنص الرسول الكريم بالإمامة من بعده إلى علي بن أبي طالب، وأوكلت إلى أبي بكر وعمر من بعده ثم عثمان، فهو يريد أن يجنب الأمة الوقوع بالخطأ مرة أخرى.

فالإشارات إلى وجود العلوم الباطنة التي يعتمد عليها التأويل عند الفاطميين كثيرة في الرسائل الفاطمية، وقد بدا حرص الكتَّاب الفاطميين على الربط بينها وبين اختيار الأئمة واختصاصها بهم، وراثة أو نقلا، واضحا في تلك الرسائل الفاطمية، ولعلَّ الغرض من هذا هو إقناع الناس بالأئمة، والتأويل الصادر عنهم، ولعل هذا الاختصاص هو من الأسباب التي تصعِّب على الباحث التعمق في دراسة العقيدة عند الفاطميين تحديدا التأويل؛ ومرد هذه الصعوبة والاستحالة في كثير من الأحايين إلى أن التأويل يختلف من إمام لآخر، ومن عصر لآخر، فاللفظة الواحدة تحتمل الكثير من التأويلات، التي ترتبط بفلسفة الإمام في الحياة و اطلاعه وسعة فكرة.

فكلمة "شجرة" على سبيل المثال قد يؤولها الإمام أو المسؤول المباشر عن التأويل بقوله: هي حجرة، أو بقرة، أو صخرة، أو غير ذلك مما يتلاءم مع الحقيقة والواقع والعقل، فلا يكون التأويل غريبا عن التصديق، ولا بعيدا عن الفكر.[٢]

ويبدو أثر التشيع جليًّا من خلال تأويل آيات القرآن الكريم، ومن الرسائل التي اشتملت على مثل هذا النوع من التأويل الرسالة الموسومة بـ "الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية"، حيث تكثر فيها الآيات القرآنية المؤولة، ولا غرابة في ذلك فهي تناقش ركنا هامًّا من أركان العقيدة الفاطمية وهو "الإمامة"، وتتناول الشروط التي تثبت صحتها في كل زمان ومكان، وآلية انتقالها من الإمام السابق إلى الإمام اللاحق، لذا كان لا بدّ للكاتب من خطاب لا يقبل الشكَّ أو التكذيب، وهذا الخطاب هو خطاب التأويل، فالكاتب ابن الصيرفي يسعى من خلال مناقشة هذا الموضوع لإثبات صحة إمامة المستعلي بالله أصغر أبناء الخليفة المستنصر، وإنكارها عن ابنه الأكبر نزار.

ويبدأ الكاتب رسالته بمناقشة موضوع الإمامة، واثبات حقِّ الفاطميين بها من خلال الإشارة إلى تلك العلاقة التي تربط النبي محمد، صلى الله عليه وسلم بابن عمه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ثم يتحدث عن كيفية انتقال الإمامة في عقب علي بن أبي طالب.

وينتقل بعد ذلك إلى مهاجمة الذين يجحدون أئمة دينهم، ويتخذون أئمة الضلال، وهذا الهجوم لم يخلُ من تأويل نصٍ قرآني، فالكاتب يستشهد بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى ، ٩: ٣٠٢.

[٢] ينظر: ابن حيون، أساس التأويل، ٦-٧.

﴿تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [1]، إلا إن هذه الآية لا بدَّ أن تخضع إلى مبدأ التأويل عند الفاطميين، فابن الصيرفي يشير إلى تأويل هذه الآية فهي خطاب موجه لكل من جحد إمام عصره، فالردَّة بعد الإيمان يراد بها إنكار إمام الزمان، ومن ينكر الإمام فقد أصبح كافرا واستحق الخسران[2]، ولا يقتصر التأويل على الآيات القرآنية التي تخلو من القصص القرآني، بل أوَّلوا آيات القصص القرآني بما يتناسب مع أفكارهم ويخدم مذهبهم، فابن الصيرفي يرى أن الذين ينكرون إمامة المستعلي بالله وبالتالي إمامة الآمر بأحكام الله هم من عناهم الله بقوله:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[3].

ويرى أن كلَّ من صدَّ عن حدود الله وأنكر علومه الإلهية، وحكم هواه في الإمامة، ولم يبايع إمام زمانه، فقط هبط من مرتبة الإيمان الخاصة "هو خير"، إلى رتبة الغواية العامة "هو أدنى"، ولذا استحقوا الذّلة والمسكنة لكفرهم بالإمام المنصوص عليه؛ أي عدم الاعتراف به، ومبايعته، ويرى الكاتب أن هؤلاء أخلُّوا بـ"العزة" وهي مرتبة الإيمان التي لم يتمسكوا بسببها فوقع عليهم غضب الله؛ لأنهم فارقوا "رحمته" وهي عصمة إمام الزمان. أما قتل الأنبياء في قوله تعالى: "وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ" فهو سلب مرتبة الإمامة من أصحابها ممن نُصَّ على إمامتهم، وإقامتها في غير أهلها.[4]

وتكشف مثل هذه الرسائل سعة الثقافة التي تسلح بها كتَّاب الفاطميين، فالثقافة الديوانية وحدَها لا تكفي الكاتب الفاطمي، بل لا بدَّ له من معرفة واسعة في التأويل، فالتأويلات التي نوردها ليست من وحي الكاتب، وإنما هي ما اتفق عليه أهل التأويل في عصره، ولذا يشير ابن الصيرفي عندما ذكره تأويل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ

---

[1] سورة آل عمران: ١٠٠.
[2] ينظر: الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٣.
[3] سورة البقرة: ٦١.
[4] ينظر: الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٤.

ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾[١]، يقول فيها: "هذه الآيةُ عندَ أهلِ التأويلِ هي بيانُ أمثالِ هؤلاءِ الذين يعملونَ في اختيارِ الأئمةِ على آرائِهم جهلا... والكتابُ الذي كَتَبوه بأيديهم مثلُ الإمامِ الذي اختاروه برأيِهم ورأيِ الماكرين من مُقدِّمِيهم"[٢]، ويشير ابن الصيرفي في تأويله لما سبق إلى رمزية "الكتاب" الذي يؤول بـ"بالإمام"، أما كلمة الفعل "كتبوه" فيؤول بـ "اختاروه"[٣]. ويلاحظ الباحث أن ابن الصيرفي لجأ في بداية تأويله إلى استخدام عبارة "عند أهل التأويل" ولعل مرده هذا أن المصريين لم يتأثروا بالمذهب الفاطمي، كما كان يجب، ولم تكن العقيدة الفاطمية حاضرة لديهم، لذا كانت تأويلات الفاطميين للنصوص القرآنية تتنافى مع التفسيرات الموجودة لديهم، فكان لا بدَّ لهم أن يتقبلوه لأنه من أهل التأويل، فالدافع لتقبل هذه التأويلات من قبل المخاطبين والقناعة بتنفيذها هو الدافع السياسي، فهم يستمعون إلى تأويلاتهم لأنها مدعومة بقوة الخلافة أو الزعامة التي يسعى من أجلها الفاطميون والشيعة عامة في كلِّ مكان وزمان.

ونلمح أثر التشيع في الرسائل أو السجلات الفاطمية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، من خلال تأويل الفاطميين لقصص الأنبياء التي جاء بها القرآن الكريم، ويرى الباحث أن ما دفع الفاطميين لمثل هذا النوع من التأويل هو سعيهم وراء كل ما ينسجم مع أفكارهم ويرغِّب الناس فيها ويحققها لهم، وهم بهذا يسلكون طرقا عدة لإقناع الناس بما يعتقدون، ومن ذلك ما سلكه الكاتب ابن الصيرفي في سجل الهداية الآمرية، حيث سعى بكل ما أوتي من خبرة في الكتابة وبما يملك من مسائل التأويل أن يثبت صحة إمامة المستعلي بالله، ويدحضها عن أخيه الأكبر نزار، فيلجأ إلى تأويل القصص القرآني تأويلا ينسجم وموضوع حديثه، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه الباحث، التأويل بمقتضى الحاجة، إن صحَّ له ذلك، فهو يرى أن الإمام المستنصر بالله الفاطمي من حيث الدور بمنزلة دور النبي سليمان، عليه السلام، من بني إسرائيل ويستشهد على صحة قوله بتأويل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾[٤]. ويبين بعد ذلك أن "سليمان" رمزٌ للمستنصر بالله، و"الشياطين" رمزٌ للمارقين، وبالتالي فقوله تعالى: "وما كفر سليمان" يراد به ما جَحَدَ المستنصر بالله حقيقة علمه في

---

[١] سورة البقرة: ٧٩.
[٢] ينظر: الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٥- ٦.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٤.
[٤] سورة البقرة: ١٠٢.

معنى الإمام من بعده، وهو المستعلي بالله، وأما قوله تعالى: "ولكن الشياطين كفروا" فيراد به أن المارقين هم من أنكر حقيقة العلم بالإمام، عندما ساروا وراء أخيه نزار، و"تسخير" الشياطين للنبي سليمان، عليه السلام، هو "انقياد" أتْبَاع نزار للإمام المستعلي بالله.

ولم يكتفِ ابن الصيرفي بإيراد التأويل الذي نقله عن أهله كما أشار في بداية النص السابق، بل نجده يسعى لإثبات صحة هذا التأويل، ويعتمد في ذلك على شاهدين: الأول حديث النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، عن تبعية أمته لبني إسرائيل، "كائن في أمتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذَّة بالقذة". والثاني ما ورد في أسفار بني إسرائيل، من قصة أبناء النبي سليمان "رجيعون" و "بريعون"، ويسقطها على ما حدث، فالحسد والغيرة التي كانت عند نزار، وأخرجته على أخيه المستعلي بالله، على الرغم من أن المستنصر بالله نصَّ بالإمامة على "المستعلي بالله"، هي نفسها التي كانت عند "بريعون"، وأخرجته على أخيه "رجيعون"، على الرغم من أن النبي سليمان نصَّ بالإمامة على "رجيعون".(١)

وقد يتمثل أثر التشيع في السجلات الفاطمية من خلال العلاقة التي يحاول أن يبنيها الكتَّاب بين الأئمة والطبيعة؛ فهم يحاولون أن يقنعوا الناس بصحة معتقدهم بتأويلهم الطبيعة تأويلا يتلاءم مع أفكارهم، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الصيرفي في سجل الهداية الآمرية: "وتبيَّنَ بأن الأئمةَ في تتابعِ وجودِهم، وتواصلِ جُودِهم، كالشمسِ التي لا تخلو من آفاقِ سمائِها، ولا تعدمُ من مجاري أفلاكِها، فهي أبدا ظاهرةٌ للنُّظَّار مواصلةٌ لإفاضةِ الأنوار، ولا يصحُّ خلوّ زمانٍ من ظهورِها، ولا يُفقَدُ مكانُ إشراقِ نورها"(٢)، فالشمس في الطبيعة تمثل الأئمة في البشر، وكما أنها لا تخلو من زمان أو مكان، كذلك الأئمة لا يصحَّ أن يخلو منهم زمان أو مكان، وفضل الشمس في الإشراق، بمثابة فضل الأئمة في تبصير الناس بأمور دينهم ودنياهم.

فأثر التشيع في الرسائل التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر واضح، ولا غرابة في ذلك؛ فالكتَّاب الفاطميون أرادوا إرضاء أئمتهم ونشر مذهبهم، فجاءت كتابتهم تخدم هذه الأهداف، فأخضعوا كل ما جاء في القرآن الكريم والطبيعة التي تحيط بهم إلى مبدأ التأويل، بما ينسجم مع فكرهم والواقع الذي يعيشون فيه، وقد حاول الباحث بهذا أن يقدم تصورا لمبدأ التأويل لدى الفاطميين من خلال الرسائل الفاطمية التي بين يديه، وتجدر الإشارة إلى أن الفاطميين لم يتعاملوا مع التأويل على أساس ثابت، بل استمر الأمر مرهونا بالإمام القائم أو المعني من أهل الدعوة الفاطمية، فلكل عصر أئمته ودعاته وبالتالي له تأويلاته.(٣)

---

(١) ينظر: الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ١٥- ١٦.
(٢) المصدر نفسه، ٩.
(٣) ينظر: ابن حيون، أساس التأويل، ٦-٧.

## الأغراض النثريّة الجديدة:

لقد كان لتشيع الفاطميين وفكرهم وحياتهم في العصر الفاطمي في مصر الأثر الكبير في المادة الأدبية التي وصلت إلينا، فمنذ أن دخلوا مصر أقاموا دولتهم على أساس ديني شيعي، ظل مدة طويلة ملاذ السيادة الفاطمية[١]، ودفعهم هذا الأساس الديني الشيعي، الذي لم يعرفه المصريون، لاختيار حياة مترفة، محاولين بذلك بثَّ هيبة دولتهم الدينية من جانب، وكسب تأييد وعرفان الناس من جانب آخر[٢]، كما أجبرهم تشيعهم على الحفاظ على صحة أنسابهم وإثباتها، ورعاية شؤونها، وقضاء مصالحها بما يكفل بقائها.[٣]

وقد انعكس الفكر الديني الشيعي الذي قامت على أساسه الدولة الفاطمية على النثر الفني الذي أنتجه الكتاب الفاطميون، حيث توسع الكتَّاب الفاطميون في الأغراض النثرية توسعا فرضه عليهم فكر التشيع الذي يروجون له، فظهرت أغراض نثرية جديدة تنسجم مع حياة الفاطميين وحاجتهم في مصر، يقول القلقشندي: "واعلم أن المواسِمَ التي كانَ يَعتَادُ الخُلفاءُ الركوبَ فيها والكتابةَ بالسلامةِ منها، هي: عيدُ الفطر، وعيدُ النَّحر. وكان الخلفاءُ الفاطميونَ بالدِّيارِ المصريةِ يعتادونَ مع ذلك الركوبَ في غُرَّةِ السنة، وفي أوَّلِ رمضان، وفي الجمعةِ الأولى، والجمعةِ الثانية، والجمعةِ الثالثة منه[٤]... وكذلك عيد الغدير وهو من أعياد الشيعة".[٥]

وقد تمكن الكتَّاب الفاطميون في مصر من التعبير عن التقاليد والرسوم التي يركب بها الخلفاء الفاطميون مواكبهم الخاصة بهم من خلال الرسائل حبَّروها ووصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، من ذلك ما أنشأه ابن الصيرفي بسلامة ركوب الخليفة الفاطمي أول العام أو غرة السنة[٦]، وأول رمضان[٧]، والجمعة الأولى والثانية والثالثة من شهر رمضان[٨]، وركوب الخليفة في عيدي الفطر والنحر.[٩]

ويفسر علي بن خلف الكاتب الدافع وراء الكتابة في مثل هذه المواسم التي يركب فيها الخلفاء، خاصة الفاطميين منهم، أنهم كانوا حريصين على تثبيت الدولة الفاطمية في مصر من خلال إقناع الناس بوجودها ودورها في إحلال الأمن والأمان على الرغم من اختلاف ذوي الآراء، وتعدد أصناف الرعايا، وكثرة المذاهب المتباينة، والقلوب المتعادية والمتصاحبة في أمور

---

[١] ينظر: عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدولة الفاطمية، ٢٥٢.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٣٥٨.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٣٤٢.
[٤] ينظر: ما سبق، ٤١.
[٥] صبح الأعشى، ٨: ٣١٨.
[٦] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣١٩.
[٧] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٢٠.
[٨] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٢١.
[٩] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٢٤.

الدين والدنيا، لذا كانت المكاتبة في مثل هذه المواسم تمنع من وقوع أية فتن أو أحداث منكرة في البلاد[(١)]، وتوسُّع الفاطميين في المواسم والمكاتبة بها، أشبه بحملة إعلامية مكثفة، الغرض منها كسب تأييد الناس وإقناعهم بالدولة الفاطمية، وكم كانوا بحاجة لمثل هذه الحملات الإعلامية آنذاك؛ لإثبات ذاتهم بأي شكل من الأشكال، خاصة أنهم لم يكونوا من أهل البلاد.

ومن الموضوعات الجديدة التي طرأت على النثر الفني في العصر الفاطمي في مصر وجاءت نتيجة لتشيع الدولة الفاطمية في مصر الدعوة للدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها، وهي ثاني أخطر المهام في الدولة الفاطمية، ويشرف على تنظيمها وتلقينها داعي الدعاة الذي يلي قاضي القضاة في الرتبة، ويتمتع بكل امتيازاته، وينتخب من بين أكابر فقها الشيعة المتمكنين من العلوم الدينية، وأسرار الدعوة الفاطمية.[(٢)]

ومن الرسائل الفاطمية التي انتهت إلينا عن العصر الفاطمي في مصر وتتضمن موضوع الدعوة إلى الدولة الفاطمية والمشايعة لها والموافقة على مذهبها سجل واحد[(٣)]، ويراعي السجل الترتيبات التي اعتمدتها الدولة الفاطمية عند إقامة داعي الدعاة، فوقف عند مهام داعي الدعاة، واختصاصاته، وما يجب عليه فعله عند الدعوة إلى الدولة الفاطمية وطلب المشايعة لها والموافقة على مذهبها، وشرح السجل واجبات داعي الدعاة وطرق تلقين الدعوة، وسريتها، والفئة التي يجب أن تلقَّن علومها.[(٤)]

ويعد تقليد نقابة العلويين من الموضوعات الجديدة التي طرأت على النثر الفني في العصر الفاطمي في مصر، والذي نلمح من خلاله أثر التشيّع في الرسائل الفنية التي بين أيدينا. فقد أنشأت الدولة الفاطمية في مصر لأول مرة هيئة رسمية خاصة في النظر في شؤون العلويين ومن ينتسب إليهم من آل البيت، وكان يتولى النظر عليها واحدٌ من أكبر شيوخهم، وأجلهم قدراً، يحافظ على صحة أنسابهم، ويقضي لهم مصالحهم، ويعامل أسوة بأصحاب المناصب الدينية الكبيرة، ويعين بسجل خاص يصدر عن ديوان الإنشاء.[(٥)]

ومن الرسائل الفاطمية التي وصلت إلينا عن العصر الفاطمي في مصر، وتعبِّر عن هذا المضمون الجديد السجل الذي أنشأه علي بن خلف الكاتب[(٦)]. والسجل يؤكد الخصوصية التي يحظى بها الفاطميون من هم من نسل علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وضرورة العناية بهم والحفاظ على

---

[(١)] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٧٢، والقلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣١٨.
[(٢)] ينظر: عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدولة الفاطمية، ٢٥٤-٢٥٥.
[(٣)] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٨٤- ٥٨٩، وينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٢- ٤٤٧.
[(٤)] ينظر: ما سبق، ٨١.
[(٥)] ينظر: محمد عبدالله عنان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدولة الفاطمية، ٣٤٣.
[(٦)] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٦٤٢– ٦٤٦، والقلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٠٥- ٤٠٩.

سلامة أنسابهم من الاختلاط، ويعرض صفات من يتولى الإشراف على هذه النقابة، والمهام التي يكلَّف بها، وصلاحياته التي تشمل كافة الأعمال في الديار الفاطمية في مصر.[١]

[١] ينظر: ما سبق، ٨٥.

## الفصل الخامس:

## التقويم الفنيّ للرسائل الفنيّة في مصر في العصر الفاطميّ

**أولا: بناء الرسالة:**

لقد كان لديوان الإنشاء أثر كبير في إرساء الملامح البنائية للرسائل الفنية في العصر الفاطمي في مصر، وفي غيره من العصور الأدبية، حيث كان ميدانا يتنافس فيه الكتَّاب في مختلف العصور الأدبية ومنها العصر الفاطمي في مصر. وكانت مادة التنافس تنحصر في أمرين: أولا الثقافة الديوانية؛ أي مخزون الكاتب مما يحفظ من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وشعر العرب وأخبارهم وغير ذلك، والصفات الخُلقية والخَلقية، وكل يمكن الكاتب من النصِّ ويجعله الأكثر قدرة على التعبير وإقناع الآخرين؛ لذا نجد من المتخصصين بديوان الإنشاء من صنَّف في تنظيم ديوان الإنشاء، ومنهم في العصر الفاطمي في مصر كتاب ابن الصيرفي "القانون في ديوان الرسائل" الذي تطرق فيه إلى كل الصفات الخُلقية والخَلقية التي يجب أن تتوافر في كاتب ديوان الإنشاء.

والأمر الثاني هو الإلمام بالقوالب النثرية، أوالنماذج الكتابيَّة المحددة، التي تصدر بمقتضاها المكاتبات الرسمية، ولأهمية الالتزام بهذه النماذج الكتابية كان لا بدَّ لكبار الكتَّاب أن يضعوا منهاجا يوضِّح لكتَّاب الديوان الأشكال التي تحرر فيها المكاتبات الصادرة عن الدولة، ولذا لم يكن الأمر ميدانا متاحا للكاتب كيفما شاء، بل كانت هنالك قواعد ونماذج كتابية لا بدَّ للكاتب من الالتزام بها ومراعاتها عند الكتابة. ومن الكتَّاب الفاطميين الذين اهتموا بهذا الجانب وصنَّف فيه علي بن خلف الكاتب الذي صنف في هذا الجانب كتابه الموسوم بـ "مواد البيان"، فقد ضمَّن الكاتب مصنفه نماذج نثرية تشتمل على الأغراض والمقاصد والمعاني التي يقتفي الكتَّاب أثرها في مكاتباتهم الصادرة عن ديوان الإنشاء. ويفسِّر علي بن خلف الكاتب الحاجة لمثل هذه النماذج النثرية بقوله: "وأتينا في كتبِ التَّقاليدِ والعهودِ بأمثلةٍ تتضمنُ التصديرَ والأوامرَ التي جَرَتِ العادةُ أن يَعهدَ بها السلطانُ لكلِّ مَنْ يعملُ عملاً من أعماله؛ لأنها محصورةٌ محددةٌ لا عذرَ للكاتبِ في الإخلالِ بشيءٍ منها ليستوفيها على حقِّها ويضعَها في مواضعِها، فإنَّه إن أغفلَ بعضَها سقطتِ الحُجةُ على العاملِ متى لم يعمل به"[١]، فالحرص على خروج الأوامر السلطانية قوية الحجة، واضحة البيان، من الأسباب التي قيَّدت بناء الرسالة الفنية تحديدا الديوانية منها، ولا تخفى أهمية هذا النوع من الرسائل؛ فهي رسائل تحمل خطابا يعالج كبائر الأمور، ويرسم سياسة الجمهور، وبناء عليه ترتِّب أمور الدنيا، ويقوم نظام الدين، لذا كان لا بدَّ من تنظيم المكاتبات التي تشكل الأساس الذي تقوم عليه الدولة.[٢]

---

[١] علي بن خلف، مواد البيان، ٥٠٨.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٥٠٨.

ويشير علي بن خلف الكاتب إلى قضية الاختصاص في الكتابة، وهي من الأسباب التي دفعته لإنشاء الرِّقاع والفصول التي تندرج ضمن المكاتبات المشتركة، ويمكن للكاتب أن ينشئ مثلها، فهو يرى أنه لا يوجد كاتب مطبوع في تأليف الرسائل كلِّها، فمن الكتَّاب من يحسن الكتابة الديوانية على اختلاف مجالاتها، ومنهم من يتخصص في الإخوانية دون الديوانيَّة، ومنهم من يكون ماهرا في معنى دون الآخر.(١)

ولذا فقد وجد الكتَّاب المجال أوسع في الرسائل الأدبية والإخوانية حيث الأكثر تحررا من قيود البناء في الرسائل الديوانية، فكانت الميدان الذي يعرضون فيه قدرتهم الأدبية، ومهارتهم الكتابية، ويعيدون من خلاله ترتيب علاقاتهم الاجتماعية، ومثال ذلك الرسائل الأدبية الموسومة بـ"الأفضليات" التي أنشأها ابن الصيرفي للأفضل بن بدر الجمالي. أما في الرسائل الديوانية فهناك بناء نثري، ذو سمات وعناصر شكلية مخصوصة، ونماذج محددة، لا بدَّ للكاتب أن يلتزم بها.

وللرسائل الفنيَّة في العصر الفاطمي في مصر خصوصية لا نجدها في العصور الأدبيَّة الأخرى، وهو الأساس الديني، عقيدتهم، الذي أقام الفاطميون دولتهم عليه في مصر، حيث تركت العقيدة الفاطمية أثرا واضحا في بناء الرسائل الفنيَّة في هذا العصر، وخاصة في المقدمات، فأثر التشيع بدا واضحا في جلِّ الرسائل الفنيِّة الصادرة عن ديوان الإنشاء، وهذا ناجم عن الجهد الكبير الذي بذله الكتَّاب الفاطميون في الدفاع عن فكرهم العقدي والترويج له في مستهلِّ رسائلهم، في حين نجد أن بناء الرسائل الفنيَّة لم يخرج عن عناصر الشكل التى جاء بها الكتَّاب العباسيون، حيث ورثوها على مرور عصور متتالية، فقد كانت مصر في مختلف العصور تستقطب الكتَّاب العباسيين وتوليهم العناية التي تليق بمكانتهم الأدبية والديوانية.

وسيحاول الباحث دراسة الملامح الشكلية الأساسية لبناء الرسائل الفنية في العصر الفاطمي في مصر، من حيث المقدمة والمضمون والخاتمة.

**المقدمة:**

عني الكتَّاب الفاطميون في مصر بمقدمات رسائلهم عناية بالغة؛ فالابتداء أول ما يطالع المخاطَب، وهو أساس البناء النثري الذي تبنى عليه الرسالة، وقد حثَّ النقاد الكتَّاب على العناية بمقدمات رسائلهم، ووضعوا لها القواعد، يقول أبو هلال العسكري في ذكر مبادئ الكلام: "أحسنوا معاشرَ الكتَّابِ الابتداءاتِ فإنَّهُن دلائلُ البيان"(٢)، فالكاتب لا بدَّ له من العناية الجادة في مقدمة رسالته؛ لتكون القرينة أو الدالة على مضمون الرسالة، يقول شهاب الدين الحلبي في حسن

---

(١) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٥٠٨.

(٢) أبو هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**، الطبعة الأولى، (تحقيق: علي محمد البجلاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢م، ٤٣١.

الابتداء: "والكاتبُ أشدُّ ضرورةً إلى ذلك من غيرِه، فيبني كلامَه على نسقٍ يُستدَّلُ منه على مقصدِهِ من أوَّلِ وهلةٍ إما في خطبة تقليدٍ أو دعاءِ كتاب"[١]، فعلى الكاتب أن يجعل المقدمة مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض.

وتعتمد المقدمات في طولها وقصرها على معرفة الكاتب بما يلزم كلَّ نوعٍ من المكاتبات، فالأمور الخاص لها مقدمات خاصة، والأمور العامة لها مقدمات عامة، وعلى الكاتب أن لا يختصر في مواضع الإطالة، ولا يطيل في مواضع الإيجاز، وعليه أن يتجنب ما يصعب فهمه من الكلام في المقدمات ليصيب غرضه من بداية الكلام.[٢]

وقد جاءت مقدمات الرسائل الفنيَّة التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر قائمة على مجموعة من العناصر الشكليَّة التي ساهمت في تكوينها، وأول هذه العناصر **"البسملة"**. فقد اعتاد الكتَّاب، على اختلاف العصور الأدبية، استفتاح رسائلهم بالبسملة؛ وهي أول ما يجب أن يفتتح به، فكانوا في الجاهلية يفتتحون بقولهم: "باسمك اللهم"، وبقيت العبارة متداولة حتى نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [٣] فاستفتح بها النبي، صلى الله عليه وسلم، وصارت سنة من بعده[٤]. وقد درج الكتَّاب الفاطميون على هذا الرسم، إذ يصدرون كتبهم بالبسملة، ويؤكد هذا ما ذكره علي بن خلف الكاتب في مصنفه، يقول في ترتيب الصدور في المكاتبات في العصر الفاطمي: "فإن كانت المُكاتبةُ من الخليفةِ فينبغي للكاتبِ أن يفصلَ من الدَّرْجِ[٥] قدرَ ذراعٍ ثم يَستفتحُ ببسم الله الرحمن الرحيم في سطرٍ أول"[٦]، ويقول في موضع آخر: "فالرسمُ في الدولةِ العلويةِ أن يُقالَ بعد البسملة: أفضلُ صلواتِ الله وبركاته "[٧]، فعادة الكتَّاب الفاطميين أن يستفتحوا رسائلهم بالبسملة، إلا أن الملاحظ من خلال الرسائل التي بين يدي الباحث من العصر الفاطمي في مصر أن البسملة سقطت من مقدمات الرسائل مجتمعة إلا ثلاث، وهي: رسالة الهداية الآمرية في إبطال الدعوى النِّزارية، ورسالة إيقاع صواعق الإرغام في إدحاض

---

[١] أبو الثناء، شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الحنفي، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، مطبعة أمين أفندي هندية، ١٣١٥هـ، مصر، ٩٣.
[٢] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٢٦٨.
[٣] النمل: ٣٠.
[٤] ينظر: الكلاعي، إحكام صَنعة الكلام، ٥٥.
[٥] الورق الذي يكتب فيه، وهو مستطيل الشكل مركب من عشرين وصلا متلاصقة لا غير. (ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١: ١٧٣).
[٦] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٤٩٢.
[٧] ينظر: المصدر نفسه، ٤٩٤.

حجج أولئك اللئام[١]، والرسالة التي كتبت في تحويل السنة الخراجيَّة القبطية إلى الهلالية العربية[٢]، وجميعها من إنشاء ابن الصيرفي.

ويرى أحمد أمين أن خلوَّ البسملة من الرسائل من باب اختصار المؤرخين للرسائل، فافتتاح الرسائل، كما يرى، أمر معروف لا حاجة لتأكيده، فالكتَّاب لا علاقة لهم بهذا الأمر، وإنما هو شأن جامعي الرسائل والمؤرخين.[٣]

وثاني العناصر الشكلية التي تُبنى عليها مقدمات الرسائل الفنية بعد البسملة **"العُنوان"،** ويرى الكلاعي أنَّ تسمية العُنوان عنوانا لسببين: الأول لدلالته على الغرض من الكتاب، إن كان في الشكر، أو التعزية، أو غير ذلك من الأغراض الأدبية. والثاني أنه يدلّ على جهة الخطاب الذي يحمله الكتاب، من كَتَبَه وإلى من أَرْسَله.[٤]

ويرى علي بن خلف الكاتب أن العنوان يميِّز مرتبة الكاتِب من المكاتَب، فالأصل في الكتاب أن لا يكون مجهولا، وأن يبتدئ باسم الكاتب ويثني باسم المكتوب إليه، وهذا هو الترتيب الذي يقبله العقل؛ فالكتاب يخرج من ابتداء إلى انتهاء، وعلى ذلك فلفظة "مِن" تتقدم لفظة "إلى"، فمِن حرف ينبئ عن المنشأ، وإلى حرف يُخبر عن الانتهاء، وعلى هذا كانت كتب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلا أن التفريق بين مرتبة المتكاتبينِ من الرؤساء والعظماء، والأتباع والخدم، دفعهم إلى تقديم اسم المكتوب إليه إذا أرادوا إجلاله وتكريمه، وتأخير اسمه إن أرادوا التعبير عن ضعة منزلته.[٥]

وقد جرت العادة لدى الكتَّاب الفاطميين على بيان مرتبة المتخاطِبَيْنِ، وبيان قدر كلٍّ منهما من خلال العُنوان، فجاءت صيغ العناوين متعددة، فالكتب التي تكون صادرة عن الأئمة الفاطميين يقال فيها: "من عبد الله ووليه فلان أبي فلان الإمام الكَذَا أمير المؤمنين" فإن كان المخاطب من الطبقة العليا؛ أي ممن ينعت ويكنى، بدأ بنعته ثم بكنيته ثم باسمه واسم أبيه[٦]، ومن الأمثلة على ذلك عهد بالوزراة كتبه القاضي الفاضل لأسد الدين شِيركوه عن العاضد لدين الله الفاطمي، يقول: "من عبدِ الله ووليِّه عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيِّدِ، الأجلِّ الملك، المنصور، سلطان الجيوش، وليِّ الأمَّة، فخرِ الدولة، أسدِ الدين، كافلِ قضاةِ

---

[١] ينظر: الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٣، ٣٧.
[٢] ينظر: المقريزي، الخطط ، ٧٥٧.
[٣] ينظر: أحمد أمين مصطفى، الرسائل في مصر الإسلامية، مطبعة السعادة، ١٩٩٠، ٢٥٥.
[٤] ينظر: الكلاعي، إحكام صَنعة الكلام، ٥٢.
[٥] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٤٩٦- ٤٩٧.
[٦] ينظر: المصدر نفسه، ٤٩٧- ٤٩٨.

المسلمين، وهادي دعاةِ المؤمنين، أبي الحارث شِيركوه العاضديِّ، عضَّد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أميرَ المؤمنين، وأدام قدرتَه، وأعلى كلمتَه".(١)

وإن كان المخاطَب من الطبقة السفلى فإنه يقال: إلى فلان بن فلان(٢). ومن الأمثلة على ذلك الأمان الذي كتبه الحافظ لدين الله الفاطمي لبهرام الأرمني وأقاربه حين صرف عن وزارته وهرب إلى بلاد الأرمن وأهله، يقول: "هذا أمانٌ تقدَّمَ بكتبه عبد الله ووليه، لبسيلَ وزرقا، وبهرامَ ابن اختهما".(٣)

وقد تخلو العناوين من ذكر الكنية ويكتفى بذكر الاسم، على الرغم من مكانة المخاطب الجليلة، ومن الأمثلة على ذلك، نسخة العهد الذي كُتِبَ عن الحاكم بأمر الله الفاطمي للحسين بن علي بن النعمان بقضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب، يقول: "هذا ما عَهِدَ عبدُ الله ووليُّه المنصورُ أبو علي الحاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين، للقاضي حسين بنِ علي بنِ النعمان حين ولَّاه الحكمَ بالمُعزِّيةِ القاهرة ومصر"(٤)، ويفسِّر علي بن خلف الكاتب هذا أنه لا يجوز أن يُكنَّى أحدٌ على الخليفة أو الإمام وإن جلَّ قدره إلا إن شرَّفه بذلك.(٥)

ومن صيغ العناوين التى حملتها الرسائل الفنية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر ما كان الخطاب فيها موجها من أحد الأئمة الفاطميين إلى كافة الرعية، ومثل هذا الخطاب لا يكون إلا في طلب البيعة من عامة الناس إلى أمير المؤمنين الجديد، ومن الأمثلة على ذلك سجل البيعة الذي كُتِبَ عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله، يقول: "من عبدِ اللهِ ووليِّهِ عبدِ المجيد أبي الميمون، الحافظِ لدين الله، أميرِ المؤمنين، إلى كافَّةِ أهلِ الدولةِ شريفِهم ومشروفِهم، وأميرِهم ومأمورِهم، وكبيرِهم وصغيرِهم، وأحمرِهم وأسودِهم".(٦)

أما ما يكتب عن الوزير، فإن كان المخاطَب من الأعالي، فإن العنوان يبدأ بتقديم المخاطَب على المخاطِب لعلوِّ مكانته، فيتقدم ذكرُ الأمير على الوزير، ويبدأ العنوان بقولهم: "الأمير فلان" ثم بالنعت إن كان مُؤمَّرا منعوتا، وفي الجانب الآخر يقال: "من الوزير" ويأتي على ذكر نعوته وكنيته واسمه، وكذلك الأمر فيمن يخاطب بالشيخ أو القاضي، فإن كان الخطاب موجها إلى من هم دون، قيل: "لفلان بن فلان"(٧). و إن كان الكتاب موجها من العامة إلى الإمام، قيل في العنوان: "عبد مولانا وسيدنا الإمام الكَذَا، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٨١
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٤٩٧- ٤٩٨.
(٣) المصدر نفسه، ١٠: ٣٢٥.
(٤) المصدر نفسه، ١٠: ٣٩٢.
(٥) ينظر: مواد البيان، ٤٩٨.
(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٠١.
(٧) ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٤٩٨.

وأبنائه الأكرمين"، ثم يقال بعد فضاء يسير: "ومملوكه فلان بن فلان" ويذكر نعته إن كان الإمام قد شرفه بذلك النعت.[١]

وإن كان الخطاب موجها إلى الوزير ممن هو أدنى منه مرتبة، فإن الأعلى وهو المخاطَب يتقدم في العنوان على الأدنى وهو المخاطِب، ومثل ذلك رسالة العفو التي كتبها ابن الصيرفي ووجهها إلى الأفضل بن بدر الجمالي، يقول فيها: "مما خَدَمَ به المجلسَ العاليَ المالكيَ الأفضليَّ مملوكُه فلان"[٢]، وتعدُّ هذه الرسالة الوحيدة التي وصلتنا تحمل خطابا من الأقل مرتبة إلى الأعلى، فكلُّ الرسائل التي اشتملت على العناوين تتعلق بالخطاب من الأئمة الفاطميين إلى من هم دونهم في الدولة، ولعل ذلك مرده إلى السلطة التي حظي بها الوزراء في عهد الخلفاء الفاطميين، فهم عبر مرحلتين تاريخيتين من عمر الدولة الفاطمية كانوا أصحاب النفوذ والقرار، ففي الفترة الأولى كان الوزراء من أرباب الأقلام، وفي الثانية من أرباب السيوف، وكانوا عبر الفترتين يصدرون الكتب باسم الأئمة الفاطميين الذين عانوا الضعف، تارة وصغر السن تارة أخرى.

ومن العناصر الشكلية التي تبنى عليها المقدمات **"التحية"**، وقد مضى الكتَّاب الفاطميون في مصر على درب من سبقهم من كتاب العصور الأدبية في ترتيب التحية، فهي تأتي بعد العنوان مباشرة، وقبل البعدية والحمد والصلاة. أما صيغة التحية التي درجت بين الكتاب الفاطميين فهي "سلام عليك"، وقد اعتاد الكتَّاب على جعل "السلام" تحية ابتداء كتبهم؛ لما لها من أهمية في تأليف القلوب، ونشر معاني الرحمة. ومن الأمثلة على ذلك الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل عن العاضد لدين الله الفاطمي في ولاية قاض[٣]، والعهد الذي كتبه القاضي الفاضل عن العاضد لدين الله الفاطمي بتولية أسد الدين شِيركوه الوزارة[٤]، والبيعة التي كُتِبَ بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمه الآمر.[٥]

وأغلب النصوص التي بين يدي الباحث ترتبط التحية "السلام" فيها بالعُنوان، فحيثما نجد العنوان مثبتا في صدر الرسالة نجد التحية تليه، إلا إن هناك القليل من الرسائل التي اشتملت على العنوان في مقدماتها لكنها خلت من التحية، ومن الأمثلة على ذلك العهد الذي كتبه القاضي الفاضل عن العاضد لدين الله الفاطمي في تولية الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة[٦]،

[١] ينظر: علي بن خلف، مواد البيان، ٤٩٨.
[٢] الأفضليات، ٣.
[٣] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٥١.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٨١.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ٩: ٣٠١.
[٦] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٩٢.

وما كتبه القاضي الفاضل بولاية قاض بثغر عسقلان[1]، فالكاتب في الرسالتين ينتقل مباشرة من العنوان إلى البعدية والحمد دون أن يتعرض للتحية.

ومن العناصر الشكلية التي تساهم في بناء المقدمات في الرسائل الفنية صيغة **"أما بعد"**، وهو فصل الخطاب الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز في ذكره النبي داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[2]، وهي صيغة مركبة من لفظين أحدهما "أمَّا" حرف الشرط، والثاني "بعد" ظرف زمان، وقد عمد الكتَّاب إلى استخدامها لإشعار القارئ أو المستمع بالانتقال من المقدمات إلى الغرض من المكاتبات، واستخدم الكتَّاب الفاطميون هذه الصيغة في الرسائل الديوانية في موضعين: الأول في مقدمات رسائلهم بعد البسملة والعُنوان والتحية وقبل الحمد، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه الموفق بن الخلال عن العاضد لدين الله الفاطمي بولاية ابن شاور السعدي الوزارة نيابة عن أبيه[3]. والثاني في ابتداء رسائلهم التي خلت من البسملة والعنوان والتحية، فجاءت تتقدم الحمد، ومن ذلك ما كُتبَ إلى وزير الحافظ لدين الله الأفضل بن ولخشي في إقرار نعوته، يقول في مطلعها: "أما بعد، فالحمد لله الذي تفرَّدَ بالإلهية"[4]، فقد بدأها الكاتب بصيغة فصل الخطاب يليها الحمد، وقد خلت المقدمة من البسملة والعنوان والتحية.

ويعد **"التحميد"** من العناصر الشكلية والمعنوية التي لا تكاد تخلو منها مقدمة رسالة ديوانية أو إخوانية أو أدبية، فقد حافظ الكتَّاب الفاطميون على الحمد في جلِّ الرسائل الفنيَّة التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، فالرسائل الفنية على اختلافها وإن خلت من البسملة أو العنوان أو التحية فإنها لم تخلُ من الحمد، والحمد في ابتداء الرسائل يأتي من باب التَّيمن والتَّبرك[5]، ووجود الحمد في ابتداء الرسائل له دلالتان، كما يشير القلقشندي في مصنفه، الأول أن الرسالة تحمل خطابا ذا قيمة؛ كمخاطبة الملوك أو الرعية، في أمور الدولة والدين، و الثاني دليل على كثرة النعم التي توجب الحمد، وربما في غير موضع في الرسالة الواحدة.

وقد جرت العادة في الرسائل الفاطمية التي بين يدي الباحث على أن يأتي الحمد بعد البسملة والعنوان والتحية وفصل الخطاب، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه الموفق بن الخلَّال عن العاضد لدين الله في وزارة شاور السعدي، فالكاتب بعد أن يأتي بالعنوان ويحدد جهة الخطاب،

---

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٦١.
[2] سورة ص، ٢٠.
[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٢٧.
[4] ينظر: المصدر نفسه، ٨: ٣٤٦.
[5] ينظر: المصدر نفسه، ٦: ٢١٥.

ويلقى التحية على المخاطب يأتي بالبعدية والحمد، يقول: "أما بعد، فالحمدُ للهِ مانحِ الرغائبِ ومنيلِها، وكاشفِ المصاعبِ ومزيلِها". [١]

وقد يأتي الكتَّاب بالحمد مرة واحدة في رسائلهم، ومنهم من يبالغ بالحمد، والأمر مبني على طول المقدمة وقصرها، ومن الأمثلة على الرسائل التي بالغ الكتَّاب في الحمد في مقدماتها نسخة بيعة لولي عهد بعد موت الخليفة العاهد الفاطمي[٢]، فالكاتب يبدأ بالعنوان وتحديد جهة الخطاب، ثم يأتي بالتحية، ويلي ذلك أما بعد، لينتهي إلى الحمد، إلا أنه لا يكتفي بحمد الله مرة واحدة بل يأتي به خمس مرات، ولا يستخدم صيغة واحدة، فمرة يحمد الله في بناء الفعل "يحمده أمير المؤمنين"، وأخرى بصيغة المصدر"الحمد لله"، فالكاتب وعلى لسان الخليفة يحمد الله نيابة عن الأمة، بصفته الإمام والشفيع لهم في الاعتقاد الفاطمي، ويحمد الله على عظيم نعمة الصبر عند وقوع الموت، ويحمد الله أن بعث الأنبياء، وهم النطقاء في العقيدة الفاطمية، ويحمد الله أن أورثه الإمامة وأنوارها وأسرارها الإلهية، ثم يعاود ويحمد الله أن جعل الإمامة في نسل آبائه من قبله؛ ويرى الباحث أن كثرة الحمد في مثل هذا النص وغيره من النصوص الفاطمية جاء نتيجة للتشيع الذي شهدته مصر في العصر الفاطمي، فهم يعتقدون أن الإمامة وبقاءها في نسل علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، من أكبر النعم التي توجب الشكر والحمد، لذا نجدهم كثيرا ما يحمدون الله أن وصل النبوة بالإمامة، ويحمدون الله أن جعل الإمامة في نسل علي بن أبي طالب، ويحمدون الله على إمام العصر، ويحمدون الله على شفاعته لهم، وغير ذلك من المعاني التي تدفعهم لكثرة الحمد، وهذا ما يتفق مع ما جاء به القلقشندي في تفسير كثرة الحمد على أنه كثرة النعم التي توجب الحمد، فموضوع الإمامة من بعد الإمام المتوفى ذو قدر عظيم، والنعمة فيه متعددة.[٣]

وقد تبدأ الرسالة بالحمد وتخلو من البسملة والعنوان والتحية وفصل الخطاب، ومن ذلك ما أنشأه القاضي الفاضل بولاية بعض القضاة، يقول في مستهل السجل: "الحمد لله الواسع عطاياه"[٤]، فالكاتب يجعل الحمد ابتداء السجل ومقدمته.

ورغم ضرورة تقديم الرسائل بحمد الله إلا أن بعضا منها يخلو تماما من الحمد ومن كل عناصر المقدمات التي تحتفل بها الرسائل الفنية، ومن الأمثلة على ذلك التقليد الذي كُتِبَ في ولاية الحكم لأحد القضاة في مدينة قُوص.[٥]

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٢٠.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٥١.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٩: ٢٧٦.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٢.
[٥] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٥٨.

وإن كان الكتَّاب الفاطميون في مصر قد التزموا في الرسائل الديوانية الصيغتين النمطيتين التي اعتاد الكتَّاب على استخدامهما في موضع الحمد، وهما المصدر"الحمد لله" والفعل "يحمد أمير المؤمنين"، فإنهم في مواضع أخرى توسعوا في الحمد وأخرجوه عن الصورة النمطية في الرسائل الأدبية، ومن ذلك ما جاء به ابن الصيرفي في رسالة ردِّ المظالم، يقول: "لا إلهَ إلا هوَ له الحمدُ في الأولى والآخرةِ وله الحكمُ وإليه ترجعون"[١]، وفي رسالة منائِح القرائِح نجد ابن الصيرفي الكاتب يخرج مرة أخرى عن النمط الذي اعتاد عليه الكتاب الفاطميون في الحمد، يقول: "أولى ما تُقُرِّبَ به إلى اللهِ الإكثارُ من تحميده"[٢]، وفي رسالة التَّدليّ على التَّسلِّي يقدم لنا ابن الصيرفي صيغة ثالثة يقول فيها: "سبحانَه يُحمَدُ على ما يَسلُبُه كما يُحمَدُ على ما يَهَبُه"[٣]، ولعل طبيعة الرسائل الأدبية التي يكون فيها الكاتب أكثر تحررا وانطلاقا في تأليف نصِّه الأدبي هو ما ساعد الكتَّاب على التوسع في الحمد والخروج عن القالب الإنشائي الذي حددهم به ديوان الإنشاء الفاطمي، فالرسائل الديوانية الصادرة عن ديوان الإنشاء محكومة بقالب نثري معين لا يجوز للكاتب أن يخرج عنه.

ولا ينتهي الغرض من الحمد عند حدِّ التيمن والتبرك، فقد ضمَّن الكتَّاب الحمد إشارات إلى الغرض الذي جاءت الرسالة من أجله، وقد بدا ذلك جليًا في الرسائل الأدبية التي أنشأها ابن الصيرفي، ففي رسالة "العفو" يقول: "الحمدُ للهِ راحمِ خلقِهِ وإن عَظُمَتْ ذنوبُهم"[٤]، وفي رسالة "ردِّ المظالم" يقول: "الحمدُ للهِ العادلِ في أحكامه"[٥]، وفي رسالة "لُمَح المُلح" التي جاءت في الرحمة يقول: "الحمدُ للهِ الذي كتبَ على نفسِه الرحمةَ لأهلِ طاعته"[٦]، وفي رسالة "منائح القرائح" التي جاءت في الشكر يقول: "أول ما تُقرِّب به إلى اللهِ الإكثارُ من تحميده"[٧]، وفي رسالة "التَّدلِّي على التَّسلِّي" التي جاءت في المواساة يقول: "سبحانه يُحْمَدُ على ما يَسْلُبُه كما يُحمَدُ على ما يَهَبُه"[٨]، ولا يقتصر تضمين الحمد الإشارة للموضوع على الرسائل الأدبية، بل نجد الكتاب قد عمدوا إلى هذا الأسلوب في الرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء، ومن ذلك ما كُتب في البيعة لولي عهد بعد موت العاهد الفاطمي، حيث يحمد الكاتب الله ثلاث مرات ويضمنه إشارات تدلُّ على الغرض وهو طلب البيعة، يقول: "الحمد لله الذي نَصَب الأنبياءَ لمراشدِهِ أعلاما"، ثم يحمد الله ثانية فيقول: "الحمد لله الذي منح أمير المؤمنين من خصائص الإمامة

---

(١) الأفضليات، ٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ١٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ٢٨٧.
(٤) المصدر نفسه، ٣.
(٥) المصدر نفسه، ٢٣.
(٦) المصدر نفسه، ١٠١.
(٧) المصدر نفسه، ١٨٧.
(٨) المصدر نفسه، ٢٨٧.

وأنوارها"، وفي الثالثة يقول: "يحمده أمير المؤمنين على أن أوضح بآبائه الأئمة سبل الحقائق" [١]، فالإشارات التي استخدمها الكتَّاب الفاطميون في صدور رسائلهم الأدبية والديوانية بينة، وتحمل معاني الأغراض التي جاءت بها المكاتبات، وهذه مما التمييز بين الكاتب المجيد لصنعته من غير ذلك.[٢]

أما **"الصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم"**، في أوائل الكتب بعد الحمد، فهي من الأمور التي تطلب في ابتداء المكاتبات، مثلها مثل الحمد، فكلاهما مطلوب من باب التيمُّن والتَّبرك، فإذا أتي بالحمد في أول الكلام أتبع بالصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، فذكره يأتي بعد ذكر الله تعالى[٣]، وقد اقتصرت الصيغ التي عمد إليها الكتَّاب على صيغتين أساسيتين، فمنهم من قال في الصلاة على النبي: اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته، ومنهم من اختصرها بقولهم: وصلواته على سيدنا محمد وأله وصحبه، فالأمر برمته من باب التبرك بالنبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، وربط ذكره بذكر الله تعالى تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.[٤]

وبعد استقراء النصوص التي بين يدي الباحث، تبين أن الكتَّاب الفاطميين في مصر حافظوا بالصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، في ابتداء رسائلهم، إلا إن الصلاة لديهم اكتسبت أهمية تجاوزت مفهوم التيمُّن والتبرُّك، لتحمل في طياتها أهمية دينية سياسية، فالصلاة لم تعد مقتصرة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وصحبه وآله وزوجاته وذريته، فالتوابع في مثل هذا السياق لا يخدم المعتقد الفاطمي، إذ يصلُّون على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ويتبعونه بصلاة على علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، والأئمة الفاطميين من بعدهم، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه ابن الصيرفي في ابتداء رسالة الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، يقول بعد البسملة والحمد: "ونصلِّي على جدِّنا سيدِنا محمدٍ رسولِه الذي أسبَلَ ببلاغهِ من سماءِ الحكمةِ غَمَامَا، ونسخَ بأحكامِ دينِهِ أنصَابَا وأزلامَا، وعلى أبينا وصيِّه ووارثِ مقامِه وعلمِه عليّ بنِ أبي طالب أعظمِ الخلقِ قرباً وإلماما، وأولهم إيمانا وإسلاما، وعلى الأئمةِ من ذرِّيتِهما الذين احتووا بهدايتِهم من الحكمةِ زماما، وأزاحُوا بأنوارِهم من الضلالةِ ظلاما، صلَّى اللهُ عليهم صلاةً دائمةً ولقَّاهم تحيةً وسلاما"[٥]، فالأثر العقدي واضحٌ في بناء الصلاة، فهم يحرصون على تأكيد صحة

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٢٩٧- ٢٩٨.
[٢] ينظر: الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ٦٦- ٦٧.
[٣] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٢١٨.
[٤] سورة الشَّرح: ٤.
[٥] الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٣.

نسبهم من النبي محمد صلى الله عليه وسلم بين بقولهم "جدنا"، وتأكيد حقهم في زعامة المسلمين بعد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بزعمهم أن النبي محمد أوصى بالخلافة من بعده إلى علي بن أبي طالب، واستخدام المصطلحات التي تحمل مضامين فاطمية دينية كـ"الحكمة، ووارث مقامه، ووصيه، وأنوارهم"، وهي مصطلحات فاطمية ترمز إلى العلوم الإلهية التي يرثها الأئمة، كل ذلك من المعاني التي حرص الكتاب الفاطميون على تضمينها الصلاة.

ويشير الكتَّاب الفاطميون في مصر في الصلاة على النبي إلى حادثة المؤاخاة وعلاقة القرابة التي ربطت النبي محمد صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب، مؤكدين بذلك حقَّهم في الإمامة، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه ابن الصيرفي في رسالة إيقاع صواعق الإرغام، يقول: "وصلَّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ نبيِّه الذي بلَّغَ رسالاتِ ربِّه وأوضحَ غامضا وقرَّبَ مُتباعِدا، وعلى أخيه وابنِ عمِّه أميرِ المؤمنينَ علي بنِ أبي طالب"[١]، ومن الصيغ التي استخدمها الكتاب الفاطميون في مصر للصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، في رسائلهم الديوانية والأدبية قولهم: "ويسأله أن يصلي على جده"[٢] و"يسأله الصلاة على سيدنا محمد"[٣] و"صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين"[٤] و"صلى الله على جدنا محمد"[٥] و"صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه".[٦]

أما الرسائل الإخوانية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، فقد سلك الكتَّاب الفاطميون في مقدماتها أساليب عدة، ومن ذلك أن تفتتح المكاتبة بالدعاء، من ذلك الدعاء بطول البقاء، مثال ذلك تهنئة أنشأها علي بن خلف الكاتب يقول فيها: "أطالَ اللهُ بقاءَ داعي الدُّعاةِ لصباحٍ من الرحمةِ يبلجُه"[٧]، أوالدعاء بتخليد الأيام، ومن ذلك تهنئة بالإبلال من المرض من إنشاء المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء، يقول: "خلَّد اللهُ أيامَ الحضرة الأفضلية".[٨]

وقد تفتتح المكاتبات الإخوانية بالدعاء مسبوقا بلفظ "رقعتي"، من ذلك قولهم: "رقعتي- أطاالله بقاء سيدي"[٩] ، أو لفظ "هذا"، من ذلك قولهم: "هذا – أطال الله بقاء مولانا"[١٠]، أو لفظ "كتبت"، من ذلك قولهم: "كتبت- أطال الله بقاء سيدي"[١١]، أو "الخِيَرة"، من ذلك قولهم: "الخِيَرة-

---

[١] الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية،٣١.
[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٦١.
[٣] المصدر نفسه، ١٠: ٤٤٢.
[٤] المصدر نفسه، ٨: ٣٢١.
[٥] المصدر نفسه، ٨: ٣٢٨.
[٦] الخطط، ٤٣٧.
[٧] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٩.
[٨] ابن بسام، الذخيرة، القسم ٤، ٢: ٦٤٠.
[٩] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ١٥٢.
[١٠] المصدر نفسه، ٩: ١٥٣.
[١١] المصدر نفسه، ٩: ١٥٤.

أطال الله بقاء سيدي- تجيء من غير الأمرِ المُختار"[١]،أو "أنبئت"، من ذلك قولهم: "أنبئتُ- أطال الله بقاء مولاي"[٢] ولا يقفون عند مثل هذه الألفاظ، فهنالك الكثير من الألفاظ التي تقدمت الدعاء في مكاتباتهم الإخوانية.

ومن الأساليب التي سلكها الكتَّاب الفاطميون في افتتاح رسائلهم الإخوانية ابتداؤها بآية من القرآن الكريم، ومن ذلك ما كتبه المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء في العتاب والاستعطاف[٣]، يقول: "قال الله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٤]، وله رسالة في التهنئة[٥] بكسر أتسز الغزِّي يبدأوها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾. [٦]

وقد يفتتح الكتَّاب الفاطميون رسائلهم الإخوانية ببيت من الشعر مع الإتيان بالدعاء بعده، ومن ذلك ما كتبه المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء في العتاب، يقول في ابتدائها:

فوالله لو خُيرتُ بين فراقِكم وبينَ حِمامي لقلتُ يدركُني نحبُ

ولكن الملَلَ- أطال الله بقاءَ مولاي الأجلِّ – داعي الفسادِ ومطيةُ البعاد". [٧]

وقد تأتي مقدمات الرسائل الإخوانية خالية من كلِّ هذه الأساليب، ويأتي الكاتب بموضوع رسالته مباشرة دون مقدمات، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه ابن أبي الشخباء في الاعتذار لبعض إخوانه شُغل عن وداعه، يقول: "ما أخَّرني عن خدمةِ مولاي بالوداعِ أنِّي متأخرٌ في حَلبةِ ولائِهِ، ولا عارٍ من ملابسِ إخائِهِ وآلائِه"[٨]، فالكاتب يبدأ رسالته بالاعتذار، ويبين سبب التأخر دون مقدمات.

---

[١] ابن بسام، الذخيرة، القسم٤ ، ٢: ٦٣٢.
[٢] المصدر نفسه، القسم٤ ، ٢: ٦٤٨ .
[٣] أبو الغنائم الشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٤٣٨.
[٤] سورة النور، ٢٢.
[٥] الحموي، معجم الأدباء، ٣: ١٠٠٤- ١٠٠٦.
[٦] سورة آل عمران: ١٧٣،١٧٤.
[٧] أبو الغنائم الشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٤٣٧.
[٨] ابن بسام، الذخيرة، القسم٤ ، ٢: ٦٢٩.

**المضمون:**

يشكل المضمون أهم أجزاء الرسالة الفنيَّة، ففيه يقدم الكاتب آراءه، ويعالج موضوعاته، ويعرض بوضوح التنظيم الإداري الذي انتظمت به الدولة، كما يقدم صورا اجتماعية تعبِّر عن أدقِّ التفاصيل التي تتعلق بنمط الحياة، ويعتمد في ذلك على ثقافته الديوانيَّة التي تسلَّح بها، والأساليب الكتابيَّة التي سار على دربها وطوَّرها في بعض الأحايين، ومن خلال دراسة ما وصل إلينا من رسائل من العصر الفاطمي في مصر، فإن مسار الحديث عن مضمون الرسائل يتفرَّع في جانبين: أحدهما التَّنوع في الموضوعات، والآخر وحدة الموضوع.

**١. التنوُّع:**

ينبى الحديث عن التنوع على مجموع ما بين يدي الباحث من الرسائل التي وردتنا من العصر الفاطمي في مصر، وبناء على ذلك فلا بدَّ لنا أن نعترف بأن ما وصل إلينا من العصر الفاطمي في مصر من الرسائل الفنية لا يقاس بغيره من العصور الأدبية، لا السابقة ولا اللاحقة، وعلى الرغم من قلَّة الرسائل التي بين أيدينا عن العصر الفاطمي في مصر، إذا ما قيست بالعصور الأخرى، إلا إن استقراء الرسائل المتوافرة لدى الباحث يشير إلى أن التنوع في الأغراض من أبرز السمات الموضوعية التي تتسم بها، والباحث يستطيع أن يعرض، من خلال ما تم دراسته، تصورا أوَّليًا عن هذه السمة الأدبية، وهذا التصوُّر مبني، في جزء منه، على خصوصية العصر الفاطمي في مصر، حيث كان لظاهرة التشيع أثر كبير في الأدب بشقيه: النثر والشعر.

لقد قدمت الرسائل الديوانية التي وصلت إلينا عن العصر الفاطمي في مصر صورة واضحة عن سياسة الفاطميين في الحكم والسيطرة على البلاد والعباد، وبينت الأسباب التي كانت وراء ضعف الدولة في وقت ما، ويتضح ذلك من خلال المخاطبات الإعلامية التي بين أيدينا. فالمنشورات، والبشارات، والمبايعات، والأمانات، وسجلات انتقال الخلافة، أثبتت أن الفاطميين أدركوا أهمية تلك المخاطبات في تثبيت دعائم الدولة، والدفاع عن العقيدة الفاطمية والترويج لها، وإثبات صحتها؛ ولذا كانت هذه السجلات أشبه بالمادة الإعلامية التي سخَّرها الفاطميون للترويج إلى كل ما يريدون الوصول إليه، فبثُّوها في مختلف أعمال الدولة، وعملوا على ترسيخها في أذهان الناس.

واستطاعت الرسائل الديوانية أن تعبِّر عن الترتيبات الإدارية التي اتخذها الفاطميون في تنظيم بلادهم، والتقسيمات الجغرافية التي شهدتها مصر الفاطمية، وقيمة كل تقسيم في الدولة الفاطمية، وقدمت لنا صورة واقعية لحال الخلفاء الفاطميين وعلاقتهم بالوزراء، وتفاوت السلطة

لدى الوزراء بين التنفيذ إلى التفويض. فالعهود، وسجلات الولاية، والتوقيعات كلُّها حامت حول هذا المعاني، وكشفت عن بعض الترتيبات التي عمل من خلالها الفاطميون في البلاد.

وتعد الوظائف الدينية من أهم الموضوعات التي تناولتها الرسائل الديوانية، وقد استطاعت سجلات القضاء، وداعي الدعاة، والنظر في المظالم، والحسبة، ونقابة العلويين، والإمارة على الجهاد، وإمارة الحج، أن تبين لنا ترتيب القضاء، وداعي الدعاة، وغيرها من المؤسسات الدينية التي اتسعت صلاحياتها لتشمل كثيرا من المهام الإدارية، وهذا من باب ثقة الفاطميين بمن يشايعهم. كما تمكنت السجلات التي تناولت الوظائف الدينية أن تقدم للقارئ فكرة عن المعتقد الفاطمي، من حيث فلسفتهم في الإمامة، وفكرهم في التأويل.

وقد تناولت الرسائل الديوانية التي بين أيدينا الترتيبات المالية التي اهتم الفاطميون بها في مصر، فسجلات تصحيح السنة الخراجية، والإقطاعات، وتولية الدواوين المتعلقة بالشؤون المالية كديوان الاستيفاء، وديوان المرتجع، وسجلات المواريث الحشرية، وما كان يخرج منها في حماية الرِّباع السلطانية، ساهمت في خلق سمة التنوع في مثل هذا النوع من الرسائل الفنية.

ومن مظاهر التنوع في الرسائل الديوانية في العصر الفاطمي توسع الفاطميين في المكاتبات المبني على التوسع في المناسبات الاجتماعية التي احتفل بها الفاطميون، فقد اعتاد الخلفاء على ركوب المواكب في عيدي الفطر والأضحى، وهما العيدان الوحيدان عند المسلمين، وكانت السجلات تخرج بسلامة الخلفاء في هاتين المناسبتين، وترسل إلى كل أعمال الدولة، إلا إن الخلفاء الفاطميين توسعوا في هذا الباب، فاحتفلوا بغرَّة السنة، وأول شهر رمضان، والجمع الأولى والثانية والثالثة منه، وكذلك في عيد الغدير، وهو من أعياد الشيعة، والركوب في فتح الخليج، وهذه من المناسبات التي استحدثها الفاطميون في مصر، وكانت السجلات تكتب فيها وتخرج إلى كافة أعمال الدولة.[١]

أما الرسائل الإخوانية والأدبية، فقد كانتا أقل حجما قياسا مع الرسائل الديوانية التي وصلت إلينا عن العصر الفاطمي في مصر، إلا إن سمة التنوع الموضوعي ظهرت بوضوح في هذين النوعين، فقد عبرت الرسائل الإخوانية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر عن مختلف وجوه الحياة الاجتماعية التي سادت المجتمع المصري في عهد الفاطميين، وقدمت لنا صورة لحياة الأفراد ومشاعرهم. فرسائل التهنئة، والتعزية، والتهادي، والاستزارة، والشكر، والعتاب، والاعتذار، واستماحة الحوائج، عرضت لنا مشاهد من الحياة الاجتماعية التي سادت المجتمع المصري في العصر الفاطمي.

---

[١] ينظر: ما سبق، ٣٧.

وأمَّا الرسائل الأدبية فقد ظهر التنوع فيها من خلال نوعين من الرسائل الأدبية، النوع الأول الرسائل أدبية المضمون وهي التي يبث فيها الكاتب الموضوعات، والأخبار، والطرف، وتحتوي مجموعة من النصوص الشعرية والنثرية، ومثال هذا النوع من الرسائل الأدبية رسائل "الأفضليات" التي أنشأها ابن الصيرفي إلى الأفضل بن بدر الجمالي يطلب فيها العفو. والنوع الثاني الرسائل الأدبية الغرض، وقد جاءت في موضوعات الوصف، والرثاء، والهجاء، وهي موضوعات شعرية بالدرجة الأولى، إلا إن دائرة الكتابة النثرية اتسعت وشملت مثل هذه الأغراض الشعرية وغيرها، ويعد هذا التوسع في الكتابة النثرية من أبرز أشكال تطوِّر النثر الأدبي في القرن الرابع الهجري.[١]

## ٢. وحدة الموضوع:

يبنى الحديث عن وحدة الموضوع ضمن إطار الرسالة الفنيَّة الواحدة، وقد جاءت الرسائل الفنية التي وصلت إلينا عن العصر الفاطمي في مصر متفاوتة في الطول والقصر، معتمدة في ذلك على الموضوعات التي تُكتَب فيها، فالرسائل الفنيَّة، الديوانية، المتعلقة بالأمور الرسمية والدعوة الفاطمية امتازت بالطول لأنها تعالج أمورا إدارية وسياسية عدة، كما أنها تتضمن أوامر كثيرة يوجهها الإمام إلى أحد الأمراء أو القضاة أو الدعاة الفاطميين. وكذلك الرسائل الفنية، الأدبية المضمون، فقد اتسمت بالطول لرغبة الكاتب تضمينها كل ما يُلِّمُ من الأخبار والأشعار والأقوال التي تتعلق بغرض الرسالة، في حين نجد الرسائل الفنية، الأدبية الغرض، جاءت قصير لا تتحمل إلا قضية واحدة دار الحديث حولها، أما الرسائل الإخوانية فهي على الأغلب لا تعالج إلا موضوعا واحدا لا تتجاوزه، فكان قصرها هو السمة الفنية التي غلبت عليها.

وقد حرص الكتاب الفاطميون على وحدة بناء رسائلهم، خاصة الرسائل الفنيَّة، التي اتسمت بالطول وكثرت فيها محاور النقاش، ولذا لجأ الكتاب الفاطميون لاستخدام بعض الوسائل الفنية لربط أجزاء الرسالة الواحدة ببعضها، ومن هذه الأساليب التدرج المنطقي والتّنقّل بين أجزاء الموضوع تنقلا ذهنيا يعتمد على الحجج والبراهين التي تقنع المخاطبين من جانب، وتحافظ على تماسك الخطاب من جانب آخر، ومن الأمثلة على ذلك رسالة "الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية"، فالكاتب ابن الصيرفي يبدأ الرسالة ببيان كبر الإثم الذي لحق بالطائفة النزارية نتيجة إنكارها الإمامة في نسل الإمام المستعلي بالله الفاطمي والطعن بها، ثم ينتقل بعد ذلك إلى إثبات صحة النصِّ على الإمام المستعلي بالله إماما من بعد أبيه المستنصر بالله الفاطمي، معتمدا على الحجج والبراهين، والمواقف الحياتية التي تنفي ما ادَّعاه النزاريون، ولا يقف عند هذا بل نجده

---

[١] ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ١: ١٢٩- ١٣٠.

يعرض حجج النِّزارية واحدة تلو الأخرى ويكشف زيفها معتمدا على معرفته بالعقيدة الفاطمية التي تشيع لها.

ولم يكتف ابن الصيرفي بالتدرج المنطقي للحفاظ على تماسك الرسالة ووحدة موضوعيتها بل يلجأ إلى أسلوب فني آخر، فنجده يستخدم أسلوب الشرط معتمدا على أداة الشرط "إنْ" في مواضع كثيرة ناقش فيها الحجج التي تقدم بها النزاريون للطعن في خلافة المستعلي بالله، من ذلك يقول: "فإن قال بعضُهم: إن الإمامَ المستنصرَ بالله قد كَاتَبَ بعضَ الناسِ مشيرا إلى تقليدِ نزار ولايةَ العهدِ قلنا: فلا فرقَ بينَ مكاتبتِهِ ومشافهته، بل الكتابةُ أضعفُ ولا عملَ بها عندَ أهلِ البيتِ في البيوعاتِ والمعاملات"[١]. ويعتمد الكتاب الفاطميون في رسائلهم على أسلوب الشرط في حالة تفنيد الآراء والردِّ على الشبهات، وهذا ما يطالعنا في رسالة "إيقاع صواعق الإرغام"[٢]، حيث يأتي الكاتب ابن الصيرفي بأقوالهم التي تضمنتها رسالة الرد على رسالة "الهداية الآمرية"، ثم يثبت خطأ تلك الردود مستخدما أسلوب الشرط والأداة "أمَّا"، من ذلك قوله: "وأمَّا قولُهم أنا رجلٌ إسماعيلي، تَدري ما معنى أني رجلٌ إسماعيلي؟ ذلك أن النصَّ الذي كان على إسماعيل لم يُنسَخ بالنصِّ على موسى ولم يضرَّ ذلك إسماعيلَ شيئا"[٣]. فأسلوب الشرط من الأساليب الفنية التي ضمنت للكُتَّاب وحدة موضوعهم.

ومن الأساليب التي لجأ إليها الكتاب الفاطيون في مصر للحفاظ على ترابط أجزاء الرسالة استخدام صيغة الأمر في ابتداء كل فقرة، ومن الأمثلة على ذلك نسخة تقليد كُتب عن العاضد لدين الله الفاطمي لرزيك بن الصالح طلائع بن رزيك بولاية ديوان المظالم[٤]، فما أن ينتهي الكاتب من مقدمة رسالته ويبدأ بالمضمون حتى نجد صيغ الأمر تتوالى في ابتداء كل فقرة من التقليد، يقول: (واستثمرْ، فَبلِّغْ، ففاوضْ، وقرّرْ، واعلمْ، وانظرْ، واستكثرْ، فتلقّه)، فالتقليد حوى مجموعة من الأوامر التي يجب على متولي ديوان المظالم رزيك بن الصالح أن ينهض بها، لذا تناسب أسلوب الأمر والغرض من التقليد.

وقد لا يلجأ الكاتب إلى صيغ تتضمن معنى الأمر للربط بين أجزاء الرسالة لا سيما الرسائل الطويلة، وإنما نجده يستخدم بعض الصيغ التي تتضمن معنى الأمر، ويبدو ذلك جليا في نسخة عهد كُتبت عن الحاكم بأمر الله الفاطمي في تولية الحسين بن علي بن النعمان قضاء الديار

---

[١] الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٢١.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ٢٧- ٣٩.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٣٥.
[٤] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٣٣٤- ٣٤٦.

المصرية[١]، فالكاتب يكثر من استهلال الفقرات بصيغة المضارع "وأمُرُهُ"، وهذا ما يحقق نوعا من التماسك والترابط بين أجزاء الرسالة ، فكل فقرة تفضي إلى الفقرة التي تليها.

ومن الأساليب التي انتهجها الكتَّاب الفاطميون في الربط بين أجزاء الرسالة استخدام لفظ "ولمَّا" في مستهل أغلب الفقرات للوقوف عند الأسباب التي دفعت لاختيار أحدهم لتولي مهمة ما، ويظهر ذلك في السجل الذي كتبه القاضي الفاضل عن العاضد لدين الله بولاية بعض القضاة.[٢]

**الخاتمة:**

لقد كان لديوان الإنشاء الأثر الكبير في الحفاظ على شكل القوالب النثرية، حيث ساهم في ترسيخ الأنماط الكتابيَّة التي يمضي من خلالها الكاتب في إنشاء رسالته. وكما ضمنت هذه الأنماط ابتداءات تتناسب مع مضمون الرسالة وتأخذ بيد القارئ لتعبر به إلى المضمون وتهيئه لتقبل ما تحمله الرسالة من خطاب، فقد أدركت أهمية انسجام الخواتم وارتباطها مع تلك الابتداءات والمضامين معا، فالكاتب يحسن من خلالها الانتهاء من الخطاب محافظا على التواصل بينه وبين المتلقي، لذا كانت الخواتم بما تحتويه من عناصر كطلب الجواب، والحمد، والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، والتعليق بالمشيئة والتحية، تحقق للمتلقي الراحة النفسية وتحثُّه على التفاعل معها.[٣]

وقد تنوَّعت أساليب الكتَّاب الفاطميين في ختام رسائلهم، فجاءت متفاوتة من حيث الطول والقصر، والعناصر التي يتكون منها الختام، إلا إن الأغلب لم يخل من عنصرين أساسيين من مكونات الختام، وهما: طلب الجواب والاستثناء بمشيئة الله، لما لهما من أهمية للمخاطب في تلقي الأمر أو تحديد المطلوب منه، أو تقبل إرشاد، وأما الاستثناء بمشيئة الله فهذا مما يستحبُّ للكاتب أن ينهي به رسالته من باب التبرك والرغبة في نجاح المقصد.[٤]

ومن الأساليب التي سلكها الكتَّاب الفاطميون في ختام رسائلهم الابتداء بطلب الجواب، ويليه الاستثناء بمشيئة الله، ثم التحية والتاريخ. ومن الرسائل التي تمثل هذا النمط من الاختتام ما كُتب عن الإمام العزيز بالله إلى عامله بمصر يبشره بالفتح، يقول: "أمرَ أميرُ المؤمنينَ بتعريفِك ذلك، وتلخيصِ الكتابِ إليك، لتقفَ عليه وتذيعَهُ، وتشهِّرَ فيما قِبَلك، وتحمدَ الله على ما مَنَحَ أميرَ المؤمنينَ من النَّصرِ، ومكَّنَه من الظَّفر، فاعلمْه إن شاءَ اللهُ تعالى والسلامُ عليكَ ورحمةُ الله وبركاتُه، وكتِبَ يوم الخميس لخمس ليالٍ بقينَ من المحرم سنة سبع وستين وثلثمائة"[٥]. وقد ضمَّن

---

[١] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٢- ٣٩٧.
[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١٠: ٤٣٢- ٤٤٢.
[٣] ينظر: الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ٥٠١.
[٤] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٢٢٣.
[٥] القلقشندي، صبح الأعشى، ٦: ٤٢٨.

الكاتب الختام التاريخ الذي كتب فيه، وهذا نهج الكتَّاب عامة حيث يؤرخون المكاتبات والولايات وغيرها مما يصدر عن الملوك والنواب والأمراء والوزراء والقضاة؛ لضرورة ذلك في تثبيت الأخبار والتحقق منها ومعرفة بعدها وقربها من تاريخ كتابها.[١]

ومن الكتاب من يختتم رسالته بطلب الجواب، والاستثناء بمشيئة الله، والتحية، ولعل العهد الذي كُتب عن العاضد لدين الله بتولية رُزِّيك بن الصالح طلائع ولاية ديوان المظالم من الرسائل التي تمثِّل هذا النمط في الاختتام يقول: "هذا عهدُ أميرِ المؤمنينَ إليك، وإنعامُهُ عليك؛ فتلقَّه من الشكرِ بما يكونُ للمزيدِ سبباً مؤكَّدا، ويغدو الإحسانُ معه مُرددا مُجددا ...، والله يعضدُكَ بالتوفيق، ويسهِّلُ لك إلى السعادةِ أسهلَ طريق إن شاء الله. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته"[٢]. وقد يأتي ختام الكتاب مشتملا على طلب الجواب والتاريخ فقط، ومن ذلك ما اختتم به سجل نقل السنة الشمسية إلى العربية الذي أنشأه ابن الصيرفي، يقول: "فليُعْتَمَد ذلك في الدواوينِ بالحضْرةِ وفي سائرِ أعمالِ الدولةِ قاصيها ودانِيها، وقريبا ودانيها، ولينتبَّه كافةُ الكتَّابِ والمستخدمين وجميعُ العمال والمتصرفين إلى اقتفاءِ هذا السَّنَن واتِّباعه، وليحذروا الخروجَ عن أحكامِه...، وكُتب في محرم سنة إحدى وخمسمائة"[٣].

وربما يأتي الختام مكونا من طلب الجواب والاستثناء بمشيئة الله، ويمثل هذا النمط ما أنشأه القاضي الفاضل بولاية قاض بثغر الاسكندرية، يقول: "فاعلمْ هذا واعملْ به، وطالِعْ مجلسَ النَّظرِ بأمورِ خِدمتك، وما تحتاجُ إلى عملِهِ من جهتِك، إن شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ"[٤].

وقد يأتي الختام مشتملا على طلب الجواب تليه آية من القرآن الكريم يختم الكاتب بها. ويتمثل هذا النمط فيما كُتب عن الحاكم بأمر الله الفاطمي من عهد بقضاء، يقول: "هذا ما عَهِدَ أميرُ المؤمنين فأوْفِ بعهدِهِ تَهْتَدِ بهدْيِه، وترْشُدْ برشْدِهِ وهذا أولُ أمرةٍ أمَّرَها لك، فاعملْ بها، وحاسبْ نفسَكَ قبلَ حسابِها، ولا تدْعُ من عاجِل النظرِ لها أن تنظرَ لمآبها: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥]"[٦]، ثم يأتي الكاتب بعد ذلك بالتاريخ.

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى ، ٦: ٢٢٦.
[٢] المصدر نفسه، ١٠: ٣٤٦.
[٣] المقريزي، الخطط، ٧٦١- ٧٦٢.
[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٦٥.
[٥] سورة النحل: ١١١.
[٦] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٩٧.

وقد يقتصر بعض الكتَّاب الختام على طلب الجواب دون اللجوء إلى أيٍّ من مكونات الخاتمة. ومن المكاتبات التي تمثل هذا ما أنشأه ابن الصيرفي بالبشارة بالسلامة في ركوب الخليفة موكبه في الجمعة الأولى من شهر رمضان، يقول: "أُعْلِمْتَ ذلكَ لتذيعَه في أهلِ عملِك وتطالعَ بكائنك".[١]

ورغم اهتمام الكتَّاب الفاطميين بالصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى علي بن أبي طالب، والأئمة من بعدهم، وحفاظهم عليه بوصفه مكوناً رئيساً في مقدمات رسائلهم، والدفاع عن حقهم في الإمامة، وتأكيد صحة نسبهم بها، إلا إن خواتم رسائلهم لم تكن تحتفي بها، فلم ترد الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وعلي بن أبي طالب والأئمة إلا في رسالتين ديوانيتين من إنشاء ابن الصيرفي هما: رسالة "الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية"، يقول في ختامها: "والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين، وسلم تسليما"[٢]، والصلاة هنا تابعة للحمد. والرسالة الأخرى رسالة "إيقاع صواعق الإرغام"، يقول في ختامها: "وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وآله الطاهرين وسلم تسليما"[٣]، مكتفيا بالصلاة وحدها. وعلى الرغم من أن الكتَّاب حافظوا في ختام رسائلهم الديوانية على طلب الجواب، إلا إن الرسالتين السابقتين تخلوان من طلب الجواب في الختام، ولعل مرد ذلك، كما يرى الباحث، أن كل رسالة من الرسالتين السابقتين تمثل ردًّا على إدعاءات الطائفة النزارية، فكل رسالة تمثل جوابا بحدِّ ذاته، من جانب آخر تخلو الرسالتان من أي تكليف أو تعيين في أية وظيفة دينية أو إدارية وغير ذلك من الأوامر السلطانية التي تتطلب العمل بها أو الردِّ عليها.

## ثانيا: الأسلوب:

### ١. توظيف الموروث الدينيّ:

لقد كان للثقافة الديوانية التي تسلح بها الكتاب الفاطميون الأثر الكبير على المادة الأدبية التي أنتجوها، حيث تجلت هذه الثقافة من خلال الأساليب التي سلكها الكتاب في تحبير مكاتباتهم، ومن أهم المواد الديوانية التي توصل بها الكتَّاب إلى ديوان الإنشاء الموروث الديني، فالكاتب الديواني يحتاج إلى ما يحفظه من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ليثبت قدرته على الكتابة ويرفد معين بلاغته؛ ولذا فإن الرسائل الفاطمية التي بين يدي الباحث تبين مدى حرص الكتَّاب على هذين المعينين في البلاغة، فجاءت الرسائل زاخرة بالاقتباسات من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف؛ ولعلَّ مردّ ذلك عناية الكتَّاب الفاطميين بالموروث الديني بما يخدم عقيدتهم التي

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى ، ٨: ٣٢٢.
[٢] الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٢٧.
[٣] المصدر نفسه، ٣٩.

لم يتأخروا يوما في الدفاع عنها أو الترويج لها في أيِّ مكاتبة صادرة عن الديوان الفاطمي؛ لذا كانت المادة الدينية بما تحويه من بلاغة وقدرة على الإقناع هي المعين الأول للكتَّاب الفاطميين في رسائلهم الفنية.

**التأثر بالقرآن الكريم:**

بعد استقراء النصوص التي بين يدي الباحث يتبين أن الكتَّاب الفاطميين سلكوا أساليب فنيَّة متنوعة، في توظيف القرآن الكريم بما يتلاءم والسياق الأدبي في الرسائل الفنية.

ومن الأساليب الفنية التي شاعت لدى الكتَّاب الفاطميين في رسائلهم اقتباس النصَّ القرآني بنصه، وقد جاء الاقتباس بالنص على غير نمط، من ذلك أن يكون الاقتباس موضوعا في السياق الذي جاء من أجله، فلم يخرج إلى سياق وظيفي جديد. ومن الأمثلة على ذلك ما أورده علي بن خلف الكاتب في سجل بالدعوة للدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها، يقول: "فتقلَّدْ ما قلَّدَكَ أميرُ المؤمنينَ مُستشعِراً للتقوى، عادِلاً عن الهوى، سالكاً سبيلَ الهُدى؛ فإن التقوى أحصَنُ الجُنَن، وأزينُ الزِّين، و﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[1]"[2]، فالنص يتناول مجموعة من الأوامر التي يوجهها الكاتب على لسان الإمام إلى أحد الدعاة الفاطميين، فجاء الاقتباس القرآني سائراً في المضمون الذي جاء من أجله، متضمنا أحد الأوامر السلطانية التي يجب على الداعي أن يتمثلها. فالكاتب يقتبس النص القرآني نفسه في بيان صفة الدعوة التي يجب على داعي الدعاة أن يتمثّلها.

ومن الأساليب التي وظَّفَ الكتَّاب من خلالها الاقتباس القرآني، أن يكون النصّ المقتبس في سياق المعنى الذي سبقه، كأن يكون تأكيدا. ويتمثل ذلك فيما أورده علي بن خلف الكاتب في سجل الدعوة للدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها، يقول: "وحضَّهم على الوفاءِ بما تُعاهِدهُم عليه، فإن الله تعالى يقول:﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾[3]"[4]، فالكاتب لا يكتفي بما خاطب به داعي الدعاة، وإنما يتبع ذلك نصًّا قرآنيا يؤكد المضمون الذي حمله خطاب الكاتب من حيث الإخلاص للإمام الذي يبايع والوفاء له. وقد لا يكتفي الكاتب باقتباس قرآني واحد للتعبير عن المعنى الذي يريد إيصاله أو الفكرة التي يسعى لترسيخها، بل يتبع الاقتباس اقتباسا آخر، فالكاتب

---

[1] سورة النحل: ١٢٥.
[2] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٣- ٤٤٤.
[3] سورة الإسراء: ٣٤.
[4] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٤.

لضرورة الوفاء بالبيعة، يقول مرة أخرى بقوله تعالى: "ويقول جلَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[1]"[2]، فالكاتب يوظِّف النصَّ القرآني المقتبس لتوضيح ما سبق، وهذا يتأتى من أهمية الموضوع الذي يتحدث عنه الكاتب وهو أخذ البيعة من المستجيبين للدعوة، مؤكدا ضرورة إخلاصهم وتمام ولائهم.

وقد يأتي النصّ المقتبس متمما للمعنى الذي جاء به السياق، ويتمثل ذلك فيما أنشأه القاضي الفاضل في نسخة ولاية عهد، يقول: "الحمدُ للهِ الذي وَصَلَ النبوَّةَ بالإمامةِ، وجعلَهَا كلمةً باقيةً في عقبِهِ إلى يومِ القيامةِ، وخصَّها بالخصائصِ التي لا تنبغي إلَّا لتامِّ الكرامةِ، وأجارَ بِها خلقه من متآلف الطامَّة وبوادي الندامة... وأحسنَ بما أجرَاهُ من نظرِ النَّظرِ للخاصَّة والعامَّة، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[3]"[4]، فالكاتب يأتي بالنصِّ المقتَبس ليتمم الحديث عن النعم التي خص بها الله تعالى الأئمة دون غيرهم من الخلق، ففي بداية الفقرة يبدأ بالحمد، وينهيها بقوله تعالى لبيان سعة الفضل، ومدى النعمة والخصوصية التي حلت بشخص الإمام.

وقد يكون النص المقتبس وصفا لما قبله، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في البيعة التي كتبت عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمة الآمر بأحكام الله الفاطمي، يقول الكاتب مبررا انتقال الإمامة من الآمر بأحكام إلى ابن عمه الحافظ: "وفي ضمنِ ذلكَ باطنٌ لا يعقلُهُ إلا العالِمونَ ولا يُنْكِرُهم إلا من قال فيهم: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾"[5]، فالكاتب ينسب صفة الظالمين، معتمدا على الاقتباس القرآني، لكل من ينكر حقيقة الإمامة في الحافظ لدين الله الفاطمي.

وقد يورد الكاتب الاقتباس في معرض مقول القول، كما جاء عند القاضي الفاضل في نسخة ولاية عهد كتبها، يقول: "واشكر اللهَ على نعمةِ خلقكَ لها بقدرٍ، ومزية لا يوفي حقَّها من أضمر فأغرقَ أو نطقَ فشكَر، وقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا

---

(1) سورة الفتح: ١٠.
(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٤٤.
(3) سورة النمل: ١٦.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٠٠- ٤٠١.
(5) سورة العنكبوت: ٤٩.

ٱللَّهُ ﴾[1]، وقل: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2]"[3]، فالكاتب على لسان الإمام يأمر وليّ عهده بحمد الله تعالى وشكره أن اختاره وليًا لعهد المؤمنين من بعده، ويجعل الأوامر تتمثل بالنصّ القرآني المقتبس.

ومن الطرق التي سلكها الكتَّاب الفاطميون في اقتباس النص القرآني، أن يأتي ينثر الكاتب النص القرآني في أول الاقتباس وبنصِّه في آخره، ومن ذلك ما جاء به القاضي الفاضل في نسخة ولاية عهد، يقول في محضر وصف الأئمة الفاطميين وبيان فضلهم على الأمة: "واستَصْرَف بهم عن الخلقِ عذابَ جهنم ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[4]"[5]. فالكاتب يأتي بهذا الاقتباس موظفا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[6]، ويجعل الاقتباس بالنصّ وصفا للاقتباس بالمعنى، وهذا إنما يدَّل على قدرة الكتَّاب الفاطميين في التصرف بالنصّ القرآني، بحيث يقتبس الآية الواحدة بأكثر من أسلوب، مرة بالمعنى وأخرى بالنص ذاته.

ولم يكن اقتباس الكتَّاب الفاطميين لآيات القرآن الكريم ينحصر في الاقتباس الصريح، بل عمدوا إلى اقتباس معاني القرآن الكريم ومفرداته ، ووظفوها بما يخدم السياق الأدبي ويتلاءم معه. ومن ذلك ما ورد في تقليد الإمارة على الجهاد، يقول الكاتب: "لا تأخذُهم في الحقِّ لومةُ لائم"[7]. فهو يستخدم تركيب "لومة لائم" موظفا بذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ

---

[1] سورة الأعراف: ٤٣.
[2] سورة النمل: ١٩.
[3] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٠٣.
[4] سورة الفرقان: ٦٥.
[5] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٠١.
[6] سورة الفرقان: ٦٥.
[7] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٤.

فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾.[١]

وقد لا يكتفي الكاتب بأخذ تركيب أو مفردة يقتبسها من النص القرآني، وإنما يأتي بأكثر من مفردة يأخذها كما هي من النص القرآني. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في تقليد الإمارة على الجهاد، يقول الكاتب بعد الحمد: "وإبادةِ من عَنَد عن طاعتِهِ، واتَّخَذَ معهُ إِلَهاً آخرَ إلا هو سبحانَه وتعالَى عما يقولُ المُشْرِكونَ عُلُوًّا كبيرا"[٢]، فالكاتب يوظِّف في هذا السياق قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾[٣]، وهو لم يأت بالنصّ القرآني نصا وترتيبا وإنما اعتمد في الاقتباس على مفردات قرآنية منتقاة وظّفها بما يتلاءم والسياق.

وقد يلجأ الكاتب إلى التقديم والتأخير في المادة المُقتبَسَة. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في تقليد إمارة الحج، يقول الكاتب: "الحمد لله الذي طهَّر بيته من الأرجاس، وجعله مثابةً للناس"[٤]، فالكاتب يوظِّف في هذا السياق قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[٥]، فالكاتب يقدم طهارة البيت على جعله مثابة للناس، وفي النص القرآني المقتبس منه يقدم الله تعالى جعل البيت مثابة للناس على طهارته.

وقد يلجأ الكاتب إلى تتابع الاقتباس بالمعنى من أكثر من آية واحدة وفي غير سورة في السياق الأدبي الواحد، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في تقليد الإمارة على الجهاد، يقول الكاتب: "وقلوب على الكفار قاسية، وعلى المؤمنين رؤوفة حانية، فلما صدقوا ما عاهدوا الله عليه"[٦]،

---

[١] سورة المائدة: ٥٤.
[٢] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٤.
[٣] سورة المؤمنون، ٩١.
[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٢.
[٥] سورة البقرة، ١٢٥.
[٦] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٤.

فالكاتب يوظف في هذا السياق قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾.[٢]

ومن الكتَّاب الفاطميين من يلجأ إلى حلِّ الآيات القرآنية مع الحفاظ على ألفاظ النص المقتبس لفصاحتها في موضعها. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة "منائِح القرائِح" لابن الصيرفي، حيث يقول في مناظرة تدور بينه وبين راوي قول ابن سورين: "صِرْ إلى قمامة فأزلْ باطلَها، واجعلْ عاليَها سافلَها، أوقال: فعفِّها بالمحوِ والطمس واجعلها حصيداً لم تغنِ بالأمس"[٣]، فيقول: واجعلها حصيداً لم تغن بالأمس وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ ﴾[٤]. ومن ذلك أيضا ما جاء به القاضي الفاضل في سجل بولاية عهد، يقول: "ولو أنَّك طلعْتَ على الأوَّلينَ لمَا تَسَاءَلوا ولا اخْتَلَفُوا في النبأِ العظيم"[٥]، وهو بهذا يحلُّ قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[٦]، ويلاحظ أن الكاتبين السابقين عند حلِّهما آيات القرآن الكريم قد حافظا على الألفاظ القرآنية لفصاحتها وقوة دلالتها على المعنى الذي يعبران عنه، وهذا ما أشار إليه ابن الأثير، إذ يرى أنَّ الكاتب حينما يحلُّ آيات القرآن الكريم عليه المحافظة على ألفاظه لعدم القدرة على مماثلتها، فكتاب الله أفصح الكلام.[٧]

ومن الأساليب التي أفاد منها الكتاب الفاطميون في توظيف النصِّ القرآني نثر القصص القرآني بما يخدم الفكرة التي يعبِّر عنها الكاتب، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء به ابن الصيرفي في رسالة "الهداية الآمرية" حيث نثر قصة النبي سليمان عليه السلام، ووظفها في شخص الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الفاطمي، يقول: "فسليمان هذه الأمة هو مولانا المستنصر بالله؛ لأنَّه واقعٌ في الرتبةِ والعددِ من أئمةِ دورِهِ موقعَ سليمان في الرتبةِ والعددِ من أئمةِ دوره، وأيضا فإنه أوتي ملكا لم يُؤْتَ مثله أحد من آبائه طولا وتمكينا كما أوتي سليمان، وسُخِّرت له الريح والشياطين، كما

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.
(٢) سورة الأحزاب: ٢٣.
(٣) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢١٨.
(٤) سورة يونس ، ٢٤.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٠٣.
(٦) سورة النبأ، ١- ٣.
(٧) ينظر: ابن الأثير، الوشي المرقوم في حلِّ المنظوم ، ١٧٤ .

سُخِّرَ لسليمان"[١]، ويبدو أن توظيف القصص القرآني في مثل هذا الموضع جاء متأثرا بالعقيدة الفاطمية، وقائما على التأويل، فالكاتب يؤول قصة سليمان النبي بقصة المستنصر بالله الفاطمي.

ويوظف ابن الصيرفي قصة النبي سليمان، عليه السلام، لخدمة أكثر من فكرة، وفي غير موضع، حيث يؤتى بها بحسب الغرض الذي يريد أن يعبِّر عنه. فنجده في رسالة "منائِح القرائِح"، يتحدث عن خيمة الفَرَج التي بناها الأفضل بن بدر الجمالي، واصفا سعتها، وطولها، وكثرة احتوائها على الكائنات من بشر وحيوانات، ويشير في وصفه هذا إلى قصة النبي سليمان عليه السلام، يقول: " قد حَوَتْ آفاتها متضادَّ الحيوان بلا أذىً ولا ضَيْر، فكأنّه فيها سليمان وقد حُشِرَ له من جنودِهِ من الجنِّ والأنسِ والطير"[٢]، وقد جاء توظيف القصص القرآني في الموضعين السابقين محكوما بمشهدين من قصة النبي سليمان،عليه السلام، وهذا دليل على أن الكتَّاب لجأوا إلى القصص القرآني بما يسعفهم في التعبير عن مكنوناتهم التي يريدون الوقوف عندها، لذا جاء هذا الأسلوب من الموروث الديني محكوما بمواقف منتقاة، يسقطها الكاتب على مبتغاه.

ولم يقف توظيف القصص القرآني عند قصة بعينها، بل نجد الكتاب يلجئون إلى مختلف القصص الواردة في القرآن الكريم، من ذلك توظيف مشهد من قصة النبي موسى، عليه السلام مع بني إسرائيل، يقول ابن الصيرفي في محضر الردِّ على النزارية في نص رسالة "الهداية الآمرية": "وقد أعطى اللهُ السببَ في ضربِ الذّلة والمسكنة على من جَحَدَ حقَّ الوصيِّ والإمامِ ومالَ إلى الضَّلالةِ ولم يصبرْ على صنفٍ واحدٍ من الطَّعام"[٣]، فابن الصيرفي يسقط قصة بني إسرائيل عندما لم يصبروا على صنف واحد من الطعام، على من جحد وأنكر الخلافة عن المستعلي بالله الفاطمي، وادّعاها في أخيه نزار.

ومن الأمثلة والشواهد على توظيف القصص القرآني ما جاء به القاضي الفاضل في سجل بولاية عهد، يقول: "ولو أنَّ يَدَكَ البيضاء تجسَّدتْ للناظِرينَ، لأَعَدْتَ آيةَ موسى الكليم"[٤]. وما جاء به ابن الصيرفي في نص "الهداية الآمرية" من قصة النبي يوسف، عليه السلام، يقول: "فحينئذٍ كرَّ مُنصرِفا وأقرَّ مُعترفا بأنه لحِقَهُ من الحسدِ ما لَحِق إخوةَ يوسف وأظهرَ النَّدمَ على ما فرَّط"[٥]، فالكاتب يسقط قصة الحسد الذي لحق أخوة يوسف عليه السلام وكأنه الحسد الذي لحق بنزار بن المستنصر على أخيه المستعلي بالله الفاطميين.

---

[١] الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ١٥.
[٢] ابن الصيرفي، الأفضليَّات، ٢١٠ .
[٣] ابن الصيرفي، الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٤.
[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٤٠٣.
[٥] ابن الصيرفي، الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ١٠.

**التأثر بالحديث النبوي الشريف:**

تأثر الكتَّاب الفاطميون بالحديث النبوي الشريف ووظَّفوه في رسائلهم الفنية، إلا أن تأثرهم بالحديث النبوي الشريف كان أقل من تأثرهم بالنص القرآني، ولعل قدسية النص القرآني، وثبات نصوصه، وكونه المصدر الأول في التشريع، فقد جعل الكتاب ينظرون إليه كأنموذج يقتدى به في البلاغة والكمال، كما أن مسألة تأويل القرآن الكريم وأن له معاني ظاهرة وباطنة ساهم في اعتماد الكتَّاب الفاطميين على نصوص القرآن الكريم أكثر من اعتمادهم على الحديث الشريف خاصة أنها من المسائل التي خصَّ الله بها الأئمة الفاطميين دون غيرهم من الخلق، في معتقدهم، فحرصوا على الإتيان بها في كل مكاتباتهم، ولكن هذا لم يمنع من التأثر بالحديث النبوي الشريف وتوظيفه في مكاتباتهم، خدمة لأهدافهم التي يحرصون على تحقيقها لدى المتلقين.

وقد تباينت الأساليب التي لجأ إليها الكتاب الفاطميون في توظيف الحديث النبوي الشريف في رسائلهم، فمن ذلك أن يضمن الكتاب نصَّ الحديث في رسائلهم وهو الأكثر شيوعا. ومن ذلك ما ورد في تقليد الإمارة على الجهاد، يقول الكاتب: "وقد قال إمامُ الحربِ، وزعيمُ الطَّعن والضَّرب: الحَرْبُ خَدْعَةٌ"(١). موظفا ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: "الحَرْبُ خَدْعَة"(٢) في غزوة الخندق. ومن ذلك ما ورد في تقليد الإمارة على الجهاد، يقول الكاتب: "ورسوله، صلى الله عليه وسلم، يقول: الناسُ عندَ شروطهم "(٣). موظفا ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: "الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ".(٤)

ومن المعاني التي شاعت لدى الكتاب الفاطميين وقد برزت من خلال توظيف نص الحديث الشريف ما ورد في بيعة كتبها ابن الصيرفي عن الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله، يقول فيها بعد الصلاة: "وخطَبَ النَّاسَ في حَجَّةِ الوداعِ فقال: "من كنتُ مولاه فعليٌ مولاه(٥)"(٦). مستشهدا بنصِّ ما قاله النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، على صحة اعتقادهم بنص الخلافة والولاية بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، في اعتقادهم، إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٩.

(٢) الحديث صحيح. (ينظر: البخّاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ). صحيح البخّاري، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ٢٠٠٢م، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، رقم:٣٠٢٧، و٣٠٢٨، و٣٠٢٩، و٣٠٣٠، صفحة ٧٤٥).

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤٢٢.

(٤) الحديث حسن. (ينظر: صحيح البخّاري، كتاب الإجارة، باب أجر السَّمسرة، صفحة ٥٤٣).

(٥) الحديث حسن صحيح. (ينظر: التِّرمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٧٩هـ). **جامع التِّرمذي**، خمسة أجزاء، الطبعة الثانية، (تحقيق: إبراهيم عطوة عوض)، مطبعة مصطفى البَّاني الحلبي، مصر، ١٩٧٥م، كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي، حديث رقم: ٣٧١٣، الجزء ٥: صفحة ٦٣٢).

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٠٢.

ومن ذلك ما ورد في رسالة "العفو" إذ نجد ابن الصيرفي يوظف الحديث النبوي الشريف نصا محاولا التأثير في الأفضل بن بدر الجمالي ، فيعفو عنه، يقول : "وجاء في الحديث عن النبي، صلّى الله عليه وسلّم، أنّه قال: "إذا كان يومُ القيامةِ، ينادي مُنادٍ، ألا فليقُمْ من كان أجرُهُ على الله، فلا يقومُ إلا من عفا"[١]. وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو لم تُذْنبوا لجاءَ اللهُ بقومٍ يُذْنبون، ثم يستغفرون، فيغفرُ لهم"[٢].[٣]

وفي مثل هذا الأسلوب من توظيف الحديث الشريف، يلاحظ الباحث أن الكاتب لم يخلُ هذا الأسلوب من العبارات التي تشعر المتلقي بالكلام المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم، فـ "قال إمامُ الحربِ، وزعيمُ الطَّعن والضَّرب، ورسوله، صلى الله عليه وسلم، يقول، وخطَبَ النَّاسَ في حَجَّةِ الوداعِ فقال، إلا أن محمدا سيد المرسلين يقول لعلي صلى الله عليهما، وجاء في الحديث عن النبي، صلّى الله عليه وسلّم، أنّه قال" كلها عبارات استخدمها الكتاب عندما وظفوا الحديث النبوي الشريف نصًّا.

ومثل ذلك ما جاء في رسالة "التَّدلي على التَّسلي"، يقول ابن الصيرفي في الامتناع عن قتل النفس: "وإن علَّةَ الامتناعِ ما جاءَ في الحديثِ من أنَّ قاتلَ نفسِهِ في النَّار"[٤]، موظِّفا ما جاء في الحديث الشريف من قول النبي، صلى الله عليه وسلم: "من تردَّى من جبلٍ فقَتَلَ نفسَه فهو في نارِ جهنَّم يتردَّى فيه خالداً مخلَّدا فيها أبداً. ومن تحسَّى سُمًّا فقتلَ نفسَه فسُمُّه في يده يتحساهُ في نارِ جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبدا. ومن قتلَ نفسَه بحديدةٍ فحديدتُه في يده يجأُ بها في بطنِه في نار جهنَّم خالداً مخلَّدا فيها ابداً".[٥]

وقد يعمد الكتاب الفاطميون إلى توظيف الحديث النبوي الشريف من خلال أخذ المعاني والتعبيرات وبثِّها في ثنايا رسائلهم دون تضمين نص الحديث الشريف، ودون التمهيد بالعبارات المشعرة بالنقل، بل يأتي التوظيف ضمن السياق. ومن ذلك ما ورد في تقليد إمارة الحج، يقول الكاتب بعد الحمد والصلاة: "وباب مدينة علمه وحكمته"[٦]، موظفا ما قاله النبي، صلى الله عليه

---

[١] الحديث ضعيف. (ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيّئ في الأمة، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، ٢٠٠٠م، ٦: ٩٢-٩٣).

[٢] الحديث صحيح، ونصه: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم". (ينظر: مسلم، الإمام الحافظ أبو الحسين النَّيسابوري (٢٦١هـ). صحيح مسلم، الطبعة الأولى، دار طيبة، الرياض، ٢٠٠٦م، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، توبه، حديث رقم: ٢٧٤٩، صفحة: ١٢٦٠).

[٣] ابن الصيرفي، الأفضليات ، ١٨.

[٤] المصدر نفسه، ٢٩٠.

[٥] الحديث صحيح. (ينظر: البخّاري، صحيح البخّاري، كتاب الطب، باب شرب السُّم والدواء به وما يخاف منه والخبيث، رقم:٥٧٧٨، صفحة ١٤٦٢).

[٦] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٢.

وسلم: "أنا مدينة العلم، وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه"(١). وما ورد في تقليد بولاية ديوان المظالم، يقول الكاتب: "ولا ذريّةَ أقومُ بحقِّ الله في حفظِ نظامِ الإيمانِ من عِتْرته وذرِّيَّته"(٢)، موظفا ما قاله النبي، صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي"(٣).

### توظيف الموروث الأدبي:

يعد الموروث الأدبي الرافد الثاني للرسائل الفنية، بعد القرآن الكريم والحديث الشريف، حيث لجأ إليه الكتَّاب الفاطميون في زخرفة رسائلهم ومدِّها بكثير من المعاني والألفاظ. ويعد الشعر المعين الأدبي الأول للكتاب من التراث الأدبي؛ لما يحتوى من معان يحتاجها الكاتب، يقول ابن الأثير: "فباعثي إذا على حفظِ الأشعارِ دونَ الكلامِ المنثورِ كثرةُ الشعرِ واستغراقُهُ للمعاني، ولأن الأخذَ منه أسترُ وأخفى"(٤). أما المعين الثاني للكتاب من الموروث الأدبي فهو النثر، متمثلا في الرسائل، والحكم، والأمثال، وأقوال البلغاء.

وجاء توظيف الموروث الأدبي في الرسائل الفنية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر على نحوين: الأول يتمثل في محاولة الكاتب إبراز مدى حفظه الموروث الأدبي وإلمامه به، وقدرته على التصرف به كيفما شاء، ويتمثل هذا النوع من التوظيف في الرسائل الأدبية المضمون"الأفضليات" التي أنشأها ابن الصيرفي يتلمس بها عفو الأفضل بن بدر الجمالي، فالكاتب ابن الصيرفي يضمن الرسائل الأدبية "الأفضليات" جلَّ ما يحفظ من أشعار العرب، وأقوالهم، وأمثالهم، وأخبارهم، وهو توظيف قائم على الانتقاء، يقول: "فلذلك خدَمَ المملوكُ بلُمْعَةٍ من الأدبِ الذي نَفَقَتْ في أيامِ مولانا سوقُه، ووضَحَتْ للمتوسلينَ به سبيلُه وطريقُه...، وكان اعتمادُهُ على البدائعِ التي ظهرت في دولتِهِ كوامنُها...، فإن أوْرَدَ قديماً فلما هو عليهِ من بديعِ المعنى وحسنِ السَّبكِ، وأنه مما لم يبتذِلْهُ الاشتهارُ كما ابتذلتِ الروايةُ: قفا نبك"(٥). وعادة ما يُنوِّع الكاتب بتوظيف التراث في غير معنى في الرسالة الواحدة من رسائل الأفضليات، لذا نجد المادة التراثية التي يأتي بها الكاتب في الرسائل مكثفة؛ لأنها هدف بذاتها قبل أن يقدم بها المعنى، والباحث يرى أن ابن الصيرفي لجأ لهذا في الرسائل الأدبية محاولا إقناع الأفضل بن بدر الجمالي

---

(١) الحديث موضوع. (ينظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيّئ في الأمة، ٦: ٥١٨-٥١٩).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى ، ١٠: ٣٣٥.

(٣) الحديث صحيح. (ينظر: التِّرمذيّ، **جامع التِّرمذيّ**، كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي، حديث رقم: ٣٧٨٦، الجزء ٥: صفحة ٦٦٢).

(٤) ابن الأثير، ضياء الدين، الوشي المرقوم في حل المنظوم، تحقيق: د جميل سعد ، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٨، ٥١- ٥٢.

(٥) ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٠٥.

بمدى تمكنه من الكتابة لإخراجه من السجن، وإعادته إلى ديوان الإنشاء، الذي أُبعد عنه فترة سجنه؛ وهي فترة كتابة الرسائل الأفضليات.

والشكل الآخر من توظيف الموروث الأدبي يتمثل في الرسائل الإخوانية والأدبية الغرض، حيث جاء التوظيف قائما على تزيين الرسائل ومدِّها بالمعاني والألفاظ، وعادة في هذا النوع من التوظيف لا يتجاوز الكاتب في توظيف الموروث المعنى الواحد الذي يعبر عنه الكاتب.

وعلى الرغم من التباين بين الكتَّاب الفاطميين في توظيف الموروث الأدبي، إلا أنهم وجدوا فيه حاجة لهم تعبر عما يجول في خواطرهم، وترفد أفكارهم، فكانوا دائما يستحضرون مادة الموروث الأدبي على اختلافها فيما يكتبون من رسائل.

وفي ضوء اسقراء الرسائل الفنية التي بين يدي الباحث، خلال المدة المدروسة، تبين أن الموروث الشعري أكثر ما تأثر به الكتَّاب الفاطميون وضمنوه في رسائلهم الفنية.

كما يبدو أن تضمين الشعر والاستشهاد به في الرسائل الإخوانية والأدبية أكثر من الرسائل الديوانية؛ ولعل السبب في ذلك أن الرسائل الديوانية محكومة بالنماذج الرسمية التي فرضها ديوان الإنشاء على الكتَّاب، فكانت بمثابة القيد الذي لا يمكن للكاتب أن يتخلص منه أو يتجاوز عنه في الكتابة، أما الرسائل الأدبية والإخوانية فالكاتب غير ملزم بأشكال ونماذج محددة، بل لديه الطاقة الأدبية الكاملة ليعبر عما يشاء بالطريقة التي يراها مناسبة.

وقد ذهب الكتاب الفاطميون في تضمين الشعر والاستشهاد به ضمن رسائلهم الفنية طرائق عدة، ومن ذلك أن يكون استشهاده بالشعر معبِّرا عن المعنى الآخر من فكرته التي جاء بها السياق، ومن هذا ما جاء به المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء في رسالة له في الاستعطاف، يقول: "وصرتُ أرى قولَه متناقضا، وماءَ البِشْرِ من وجهِهِ غائضا، من بعد ما عهدتُهُ:

تنبـــي طلاقـــةُ وجهِـــهِ عـــن وجهِـــهِ     فتكـــادُ تلقـــى الـــنُّجْحَ قبـــلَ لقائِـــهِ
وضــــياءُ وجـــهٍ لـــو تأمَّلـــه امـــرؤٌ     صـــادي الجوَانـــح لارتـوى مِن مـــائِهِ"[1]

وقد يأتي الاستشهاد بالشعر واصفا حالة الكاتب في رسالته، ومن ذلك ما جاء به المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء عندما وصف حالته في رسالة يعتذر فيها عن تأخره في وداع إخوة له: يقول: "وإذا استنقذَ البينُ هذه النوبةَ، وخفقَتْ بمشيئةِ اللهِ رياحُ الأوبةِ، وهبتُ وجهي للشحوب، وجسميَ للنَّصبِ واللغوب، وهتمتُ ثنايا الأرضِ إيضاعاً[2]وإرقالاً[3]، وجعلتُ مسافةَ اللقاءِ لمسافةِ

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٢٨.
(2) من وضع، وهو السير بين القوم عدوًا. (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ١٥: ٣٢٧).
(3) من رقل، وهو ضرب من العدو أو الإسراع. (ينظر: المصدر نفسه، ٥: ٢٩٠).

الوداعِ أميالا، وأطلتُ شكرَ الزَّمانِ على ما يجدِّدُه من مسرَّةٍ قد خَلَعَت بردها، واستطلتُ عهدَها، وأنشدت:

طربـــتُ وقـــد جـــاء البشـــيرُ بقـــربِكم وذو الشـــوقِ عنـــد اســـم الحبيـــبِ طَـــروبُ

وقمـــتُ إليـــهِ راشِـــفاً مـــن ترابـــه ثــــرىً لك يحـلـو رشفُـــهُ ويطـيـبُ"[١]

ويطـيـبُ"[١]

ويلجأ الكتَّاب الفاطميون إلى الاستشهاد بالشعر بغرض تأكيد المعنى وتوضيحه في نفس المتلقي. ومن ذلك ما جاء في رسالة "ردِّ المظالم" لابن الصيرفي، حيث يأتي بحديث عن الأخلاق، وكيف أنها تخلد ذكر صاحبها بعد الممات، ويتبع كلامه ببيت لأبي الطيِّب المتنبي، يقول: "وأفضلُ الحَسَن ما بقَّى ذكرَ المرءِ بعدَه، وجَعَلَه بالوصفِ قريبا وإنْ أَطَالَتِ الأيامُ عهدَهُ، إذْ كانَ بقاءُ ذكْرِ الإنسانِ عمراً يَستجدُّه، وكنزا يذخرُهُ لوارثِهِ ويعدُّه... وما أحسنَ قولَ أبي الطيب:

كَفَـــلَ الثنـــاءُ لـــه بـــردِّ حياتِـــهِ لمَّـــا انطـــوى فكأنَّـــه مَنْشـــورُ"[٢].

وقد يأتي الاستشهاد بالشعر من باب المبالغة في الثناء على المتلقي ومدحه. ومثل ذلك ما جاء في رسالة "لُمَح المُلَح"، حيث يشيد ابن الصيرفي بالأفضل بن بدر الجمالي، ويتبع هذا الثناء ببيت من الشعر يسعى الكاتب من خلاله أن يبين مكانة الأفضل وفضله عليه يقول: "فللهِ هو من مَلِكٍ أحيا من الآمالِ رفاتا رميما، وأَبْرَأَ من الأحوالِ عليلاً سقيما:

وبـــدا الزمـــانُ بِـــهِ أغَـــرَّ محَجَّـــلاً ولقـــد عَهِـــدناهُ أغـــرَّ بهيمـــا"[٣]

ولا يقف الكتَّاب الفاطميون عند تضمين أشعار من سبقهم من الأدباء، وإنما يلجئون إلى تضمين رسائلهم أشعارهم، ويبدو هذا جليا في رسالة "ردِّ المظالم" لابن الصيرفي، يقول مشيدا بالأفضل بن بدر الجمالي: "فإذا طالعتِ الأبصارُ نورَ بهائِهِ ارْتدَّتْ عنه وكلَّتْ، وإذا سَلَكَتِ القلوبُ نَهْجَ علائِه حارَتْ فيه وضلَّت، لأنَّ مناقبَهُ أعلى من أن يسموَ إليها المدحُ والصفة، ومفاخرَهُ أعظمُ من أن يحيطَ بها الإدراكُ والمعرفة:

هـــذي مناقِـــبُ قـــد أغنـــاهُ أيسَـــرُهَا عـــنِ الـــذي شَـــرَعَتْ آبـــاؤهُ الأوَلُ

قـــد جَـــاوَزَتْ مطلِـــعَ الجَـــوزاءِ وارتَفَعَـــت بحيث يَنْحَـــطّ عنـــها الحُـــوتُ والحَمَـــلُ" [٤]

(٤)

---

[١] ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣٠.

[٢] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٤.

[٣] المصدر نفسه، ١٠٣.

[٤] ابن الصيرفي، الأفضليات، ٣٤، وينظر: الحموي، معجم الأدباء، ٥: ١٩٧٢.

ومن الكتاب الفاطميين من يستشهد بالشعر تاركا الصدر وآخذا العجز، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده ابن الصيرفي في رسالة "التَّدلِّي على التَّسلِّي"، يقول: "ثم إنَّ التأسيَ يُسهلُ المصاعِبَ، ويُهوِّن المصائِبَ، فللهِ ابنُ دُريد في قوله:

وفي خُطوبِ النَّاسِ للنَّاسِ أُسَى"[١]

فابن الصيرفي يستشهد بعجز بيت من إنشاء الشاعر ابن دريد، يقول فيه:

مَن يطلُبِ الخَلاصَ نالَه الأسَى      وفي خُطوبِ الناسِ للناسِ أسَى

ولم يلتزم الكتَّاب الفاطميون في توظيفهم الشعر والاستشهاد به مساحة واحدة، ففي حين يأتون ببيت أو بيتين من الشعر للاستشهاد على ما جاؤوا به وتأكيده في ذهن المتلقي، نجدهم في رسائل أخرى يسهبون في توظيف الشعر، لدرجة المساواة بينه وبين النثر في الرسالة الواحدة، ومن ذلك ما جاء به المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء في رسالة في التهنئة في شهر الصيام، حيث يستهلها بالحديث عن فضل شهر الصيام وكرمه نثرا في عشرة أسطر، ثم يتبع ذلك عشرة أبيات من الشعر يتحدث فيها عن شهر الصيام.[٢]

وقد يسهب الكتَّاب الفاطميون في توظيف الشعر، ويقصرون من النثر في الرسالة الواحدة، ويتضح ذلك فيما أنشأه المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء في مدح أحد الخلفاء الفاطميين، حيث يفتتح الرسالة بستة أبيات من الشعر، ثم يتبعها نثرا في سطرين.[٣]

وإلى جانب توظيف الكتَّاب الفاطميين الموروث الشعري في رسائلهم، وظفوا الأمثال والحكم وكلام البلغاء، فكانت مصدرا ثالثا، إضافة إلى القرآن الكريم والشعر، يستمد منه الكتاب الفاطميون معانيهم، ويصلون بها إلى ذهن المتلقي دون ملل، يقول علي بن خلف الكاتب في توظيف الأمثال في الكتابة: "وهي من أحسنِ الطرقِ دلالةً على المعنى؛ لأنَّها تتضمنُ حسنَ البيانِ مع شدةِ الاختصار. والأمثالُ تقعُ في النثرِ والنظم، فما وقعَ منها في النثرِ فينبغي لمستعملِهِ أن يوقعَهُ في المعنى الذي يناسبُه والحالِ التي يشابهُها، ويوردَها بعبارتِه التي سبقَ المتمثلُ به إلى التعبيرِ عنه بها"[٤]. ومن الرسائل التي وظَّف بها الكتاب الأمثال ما جاء في "رسالة العفو"، يقول ابن الصيرفي موظفا الأمثال بنصها: "إذ كان بقاءُ ذكرِ الإنسانِ عمراً يستجدُّه، وكنزا يذخرُه لوارثِهِ ويعدُّه، ومن أمثالِهم: (البِشْرُ أحدُ الجودين، والذِّكرُ أحدُ الخُلودينِ، والبيانُ أحدُ السحرينِ، والثناءُ أحدُ العمرين)"[٥]. ومن الكتاب الفاطميين الذين وظفوا الأمثال في مكاتباتهم المجيد

---

[١] ابن الصيرفي، الافضليات، ٢٨٩.
[٢] ينظر: ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٤٦- ٦٤٧.
[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٢: ٦٤٧.
[٤] مواد البيان، ٢٤٥- ٢٤٦.
[٥] ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ٤.

العسقلاني ابن أبي الشخباء، ويتمثل ذلك في الجواب الذي كتبه إلى أبي الفرج الموفقي، يقول: "وأما قوله: يتضوَّعن النَّشر. فمن أمثال العرب" ويقول في الموضع ذاته: "وأما قوله: أعطش من ثعالة المجاشي. فمن أمثال العرب"(١). ولا يكتفي الكاتب بذكر الأمثال بل يأتي بعدها بقصتها التي ارتبطت بها، وهذا ما يؤكد سعة الثقافة والإحاطة بالموروث التي تحلَّى بها المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء.

وإلى جاني الأمثال وظَّف الكتَّاب الفاطميون في رسائلهم أقوال من سبقهم ممن كان لهم شأن في التاريخ، ومن ذلك ما جاء في رسالة "التَّدلِّي على التَّسلِّي" لابن الصيرفي، يقول: "ومن أَبَى في الرِّزءِ إلا الأسى كان بُكَاهُ منتهى جهدِهِ، وما أحسَنَ قولَ الحسن البصري: الحمدُ للهِ الذي كلَّفَنَا ما لو كلَّفَنَا غيْرُه لصرنَا فيه إلى معصيتِهِ، وآجَرَنا على ما لا بُدَّ لنا منه"(٢).

ومن أشكال توظيف الموروث والتأثر به استدعاء بعض المواقف الحياتية وتوظيفها للغرض الذي يحمله الخطاب، ومن الأمثلة على ذلك ما يرويه ابن الصيرفي في رسالة "التَّدلِّي على التَّسلِّي" من موقف سليمان بن عبد الملك عندما مات ابنه أيوب، وكيف أن بكاءه على ابنه خفف كثيرا من ألمه وحزنه على فراقه.(٣)

وقد يوظف الكتَّاب الفاطميون الموروث من خلال استدعاء بعض الشخصيات التاريخية، واسقاط ما عرفت به على المخاطب أو الممدوح، ومن ذلك ما جاء به ابن الصيرفي في "رسالة العفو"، يقول: "إنَّ كلَّ خَلَة شريفة، وكلَّ فضيلةٍ لملكٍ أو خليفة، مما يُتَدَاوَل بالروايات، ويُتَنَاقَل بالأخبارِ والحكايات، مثل ما اشتَهَرَ من عدلِ كِسرى أنوشروانَ، وانتشرَ من ورعِ عمر بنِ عبدِ العزيز بنِ مروان، ومثل ما ذُكِرَ من حزامة الجعديّ، وشُكِرَ من سماحةِ المهديّ، ووصِفَ من صبرِ المُعتَمَد، وعُرِف من سياسةِ المُعتَضِد، إلى غيرِ ذلك من الفضائلِ التي شَهِدت لهم بحسنِ الأثر"(٤). فهذه الصفات وغيرها مما عرف به الملوك والخلفاء متحققة في شخص الأفضل بن بدر الجمالي من وجهة نظر الكاتب ابن الصيرفي.

### ٢. الإيجاز والإطناب:

من الظواهر الأسلوبية التي تمثلت في الرسائل الفنية ظاهرتا الإطناب والإيجاز، وقد تعرض البلاغيون لظاهرتي الإطناب والإيجاز، فأبو هلال العسكري يرى أن الإيجاز يكون للخواص، والإطناب يكون للخواص والعوام معا، ويرى أن الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في

---

(١) ينظر: الحموي، معجم الأدباء، ٣: ١٠٠٤.
(٢) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٨٩.
(٣) المصدر نفسه، ٢٨٩.
(٤) المصدر نفسه، ٨- ٩.

جميع الكلام، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في موضعه[١]. ويرى ابن سنان الخفاجي أن الكلام من حيث الإيجاز والإطناب على نوعين: فمنه ما يحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات، ومنه ما يحسن فيه الإطالة كالخطب والتقليدات وكتب الفتوح وما يقرأ على عامة الناس[٢]، فهما يتفقان على أن الإيجاز والإطناب حاجة للكتّاب لا يمكن إهمال أحدهما، ولكل منهما فضله على الكلام.

ومن خلال استقراء الرسائل التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر يتبين أنها جمعت بين الإيجاز والإطناب، ويرد الباحث ذلك لعوامل عدة؛ أولها مكان صدور الرسالة، والمضامين التي تحملها، ومذهب الدولة الذي تسير عليه، والمتلقي، فالكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء يغلب عليها الإطناب؛ وذلك لأن ديوان الإنشاء ألزم الكتاب الفاطميين بنماذج كتابية معينة، لا يصلح أن يخرج عنها أو أن يوجز فيها، والكتب الديوانية الصادرة عن ديوان الإنشاء هي أكثر النماذج الكتابية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر، وهي تتضمن أوامر سلطانية موجهة من أمير المؤمنين أو الخليفة الفاطمي لكافة الناس، كما أن الكتاب الفاطميين حرصوا من خلال المكاتبات الرسمية التي حبروها على أن تحمل هذه الرسائل صبغة المذهب الفاطمي. ومن جانب آخر فهي رسائل وجهت للأمراء والولاة في مختلف أعمال الدولة الفاطمية، وتحمل مضامين رسمية، أو أوامر عليا، لا بدَّ من قراءتها على عامة الناس، للعمل بمضامينها، وعامة الناس لا تشترك في فهم واحد، لذا كان الإطناب ضرورة في مثل هذا النوع من الرسائل. ومن النماذج الكتابية التي يتمثل فيها هذا الاتجاه رسالة تقليد في الإمارة على الجهاد[٣]، فالكاتب في الرسالة يلتزم ببناء الرسالة الفنية من حيث المقدمة والمضمون والختام، وقد جاء الإطناب لزاما على الكاتب خلال هذا البناء، فلا يمكن للكاتب في المقدمة أن يمضي دون أن يحمد الله ويصلي على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وهما أكثر موضعين يحرص الكاتب من خلالهما على إظهار الصبغة الفاطمية، فلا بدَّ للكاتب من حمد الله في غير موضع يبين من خلالها فضل الإمام على الكون وعلى الأمة، وبيان ما خصهم الله تعالى به دون غيرهم، ثم الصلاة على النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، وعلى علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، والأئمة من بعده، وبيان الصلة القرابية والدينية التي تربط علي بن أبي طالب بالنبي الكريم، وتأكيد حقهم في الإمامة من خلال سوق الأدلة والبراهين التي تثبته. ثم الانتقال إلى المضمون وهي المحطة الثانية التي تفرض على الكاتب أن يطيل لما تحمله من أمر أمير المؤمنين بتقليد أحدهم إمارة الجهاد، وبيان الواجبات التي

---

[١] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ١٩٠.

[٢] الخفاجي، أبو محمد بن عبد الله بن سعيد بن سنان (ت ٤٦٦هـ)، **سرُّ الفصاحة**، الطبعة ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ٢٠٥.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٤١٤- ٤٢٤.

تترتب على المكلف بالإمارة، ومجموعة النصائح التي يقدمها أمير المؤمنين إلى المكلف لتكون عونا له على النهوض بالمهمة الجديدة، والأوامر التي يوجهها أمير المؤمنين إلى من يتقلد إمارة الجهاد.

وقد تصدر الرسائل عن ديوان الإنشاء، وتخلو من الأوامر السلطانية، وخطاب عامة الناس، وجاءت موجهة لفئة معينة، إلا أنها تمتاز بالإطناب، ويتمثل هذا الاتجاه في رسالتين هما: الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ورسالة إيقاع صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام[١]، وقد أطنب الكاتب ابن الصيرفي في هاتين الرسالتين كثيرا، لما يتطلبه مقتضى الحال من الردِّ على طائفة النزارية التي طعنت في خلافة المستعلي بالله الفاطمي من بعد أبية المستنصر بالله الفاطمي، ودحض الحجج التي تقدموا بها على صحة ما يدعون من القول، واثبات صحة إمامة المستعلي بالله الفاطمي معتمدا على تأويل القرآن الكريم، وآحاديث النبي الكريم، والقصص القرآني، وغير ذلك من الأمور التي فرضت الإطناب على خطاب الرسالتين.

ومن الرسائل ما يصدر عن ديوان الإنشاء الفاطمي ويكون الخطاب فيها موجها لعامة الناس، إلا إن الرسالة يغلب عليها الإيجاز، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه ابن الصيرفي إلى بعض الخطباء في عيد النصر[٢]، وما كتبه ابن قادوس إلى عمال الدولة الفاطمية بالبشارة بالبشارة في وفاء النيل[٣]، كذلك المناشير التي تصدر عن الديوان، نحو المنشور الذي كتب بمشارفة المواريث الحشرية والفروض الحُكْمية.[٤]

أما الرسائل الأدبية، فهي تجمع بين الإيجاز والإطناب، فأما الرسائل الأدبية المضمون التي تتمثل بالرسائل "الأفضليات" التي أنشأها ابن الصيرفي للأفضل بن بدر الجمالي فجميعها تتسم بالإطناب، ومردُّ ذلك هو حرص ابن الصيرفي على أن ينال عفو الأفضل، فكانت مهارته في الكتابة، وحفظه للموروث على اختلافه والإكثار من الإشادة بالأفضل بن بدر الجمالي وسيلته إلى ذلك. أمَّا الرسائل الأدبية الغرض فجميعها اتسمت بالإيجاز.[٥]

---

[١] ينظر: ابن الصيرفي، الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية يتبعها إيقاع صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام، صححها: آصف بن علي أصغر فيضي، بمبي، الهند، ١٩٣٨.
[٢] المقريزي، الخطط، ٥٩٣.
[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٣٢- ٣٣٣.
[٤] المصدر نفسه، ١٠: ٤٧٢- ٤٧٣.
[٥] ينظر: ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٥١- ٦٥٢، أبو الغنائم الشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ١: ٢١٤، ٢١٦، ٢٨٧، ٣٢٧، ٣٤٩.

أمَّا الرسائل الإخوانية فالإيجاز سمتها جميعا باستثناء رسالة واحدة إخوانية اتسمت بالإطناب وهي في التهنئة من إنشاء المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء كتبها لأمير الجيوش الفاطمية مهنئا بكسر أتسز بن أوق الغزيّ.[١]

## ثالثا: الصَّنعة الفنيَّة:

اعتمد الكتَّاب الفاطميون في مصر في مكاتباتهم على الزينة اللفظية والمعنوية، محافظين بذلك على سمة كتَّاب القرن الرابع، الذين جعلوا من البديع قصدا في كتاباتهم[٢]، إلا إن ما يسجل لكتَّاب العصر الفاطمي في مصر أنهم نهضوا بالكتابة في الديار المصرية حتى ضاهت بذلك بغداد؛ وكان الدور الكبير في تلك النهضة للخلفاء الفاطميين وعنايتهم بالكتَّاب والكتابة ومبالغتهم بذلك، فكان العصر الفاطمي في مصر بالنسبة للكتَّاب عصرا نضج فيه النثر، حتى أن كتاب العصرين الأيوبي والمملوكي مضوا على الطريق التي خطَّها الكتَّاب الفاطميون.[٣]

وفي ضوء دراسة الرسائل الفنية التي بين يدي الباحث يتبين أن الكتَّاب الفاطميين بالغوا في أساليب الصنعة الفنيَّة التي لجئوا إليها في مكاتباتهم، من سجع، وجناس، وطباق، التي سعوا من خلالها لمخاطبة العقول، والتأثير على الأحاسيس، ودفع الملل والسأم. كما أنهم سعوا من خلال هذه الصنعة الفنية إلى إثبات البراعة الأدبية التي تحلَّى بها من دخل مضمار الكتابة في عصر الفاطميين في مصر.

### السجع:

التزم الكتاب الفاطميون السجع في جميع مكاتباتهم، وأكثروا من استخدامه، وظل هو التقليد الأول في الكتابة طوال العهد الفاطمي في مصر من ابتدائه إلى انتهائه.[٤]

ولم يقف الكتَّاب الفاطميون في استخدامهم السجع عند نمط واحد، بل تباين توظيفهم السجع في النص الواحد، فمن دراسة الرسائل الفنية، وتتبع استخدام الكتاب الفاطميين السجع من خلالها، تبين أن السجع ظل مرهونا بالمعنى الذي يسعى الكاتب لتقديمه للمتلقي من خلال السياق، فنجد الكاتب في الرسالة الواحدة يتنقل بين سجعه، فمرة يعتمد على سجعة واحدة، فيأتي الكلام وكأنه قطعة موسيقية واحدة، ثم ينتقل إلى الازدواج، فيأتي التنوع بين حروف وفواصل الكلم مقتصراً على سجعتين، وربما يراوح بين السجعة الواحدة والازدواج في الفقرة الواحدة.

---

[١] ينظر: الحموي، معجم الأدباء، ٣: ١٠٠٤- ١٠٠٦، وأبو الغنائم الشيرزي، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، ٢: ٨٨٣- ٨٨٦.

[٢] ينظر: مبارك زكي، النثر الفني في القرن الرابع، الجزء ١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٢٧.

[٣] ينظر: محمد عبد الرحمن عطاالله، رسائل القاضي الفاضل دراسة تحليلية، الطبعة الأولى، دار الحضارة، طنطا، ٢٠٠٠م، ٢٤٥.

[٤] محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، ٢١٣.

ومن الرسائل الفنيَّة التي التزمت السجع ما كتبه أبو الفتح ابن قادوس في البشارة بسلامة ركوب الخليفة في عيد النحر، يقول في مستهلها: "فالحمدُ للهِ مَاحِي دَنَسِ الآثامِ بالحَجِّ إلى بيتِهِ الحرامِ، وموجبِ الفوزِ في المعادِ لمن عملَ بمراشدِ أئمةِ الهدى الكِرام، ومُضاعِفِ الثوابِ لمن اجتهدَ فيما أمرَ اللهُ به من التَّلبيةِ والإحرام، ومُخوِّلِ الغُفْرانِ لمن كانَ بفرائضِ الحَجِّ ونوافلِهِ شديدِ الولوعِ والغرام، وصلَّى اللهُ على جدِّنا محمدٍ الذي لبَّى وأحرم، وبيَّن ما أحلَّ اللهُ وحرَّم"(١)، فقد بدأ الكاتب ابن قادوس البشارة ملتزما سجعة واحدة وهي الميم بقوله: (الحرام، الكِرام، الإحرام، الغرام، أحرم، حرَّم)، فالكاتب حريص على توظيف السجع منذ بداية رسالته، ويتضح هذا الحرص من خلال التزامه سجعة واحدة وهي الميم، في الحمد والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم.

لكن المضي في سجعة واحدة لا يستمر في المقطع الثاني من الرسالة، فسرعان ما يبني الكاتب كلامه على لون آخر من السجع وهو الازدواج، يقول: "وإنَّ من الأيَّامِ التي كَمُلَت محاسنُها وتمَّتْ، وكَثُرَت فضائلُها وجَمَّت، ووَجَبَ تخليدُ عزِّ صفاتِها، وتعيَّنَ تسطيرُ تأثيراتِها، يومَ عيدِ النَّحْر من سنة كذا، وكانَ من قَصَصِه أنَّ الفجرَ لما سلَّ حسامَهُ، وأبدى الصَّباحُ ابتسامَه، نهضَ عبيدُ الدَّولةِ في جموعِ الأولياءِ والأنصار، وأولي العزيمةِ والاستبصار، مُيَمِّمين القصورَ الزاهرة مُتبرِّكينَ بأفنيتِها ومُسْتَمْلِينَ بسعادتِها، وتألَّفوا صفوفا تُبْهرُ النواظرَ، ويُخجِلُ تألُّفها تألُّفَ زهْرِ الرَّوضِ النَّاضر، مُستصحِبينَ فنونا من الأزياءِ تروقُ، ومُستَتْبعينَ أصنافاً من الأسلحةِ يَغُضُّ لمعُها من لمعِ اللَّهبِ والبُرُوق، والأعلامُ خافقة، والراياتُ بألسنةِ النَّصر على الإخلاصِ لإمامِ العصرِ مُتَوافقة، فأقاموا على تَشوُّفٍ لظهوره، وتطلُّعٍ للتَّبركِ بلامعِ نورِهِ"(٢)، فالكاتب يبني فواصل معتمدا في ذلك على سجعتين، يقول: (تمَّت، جمَّت) معتمدا على التاء، و(صفاتها، تأثيراتها) على الألف، و(حسامه، ابتسامه) على الهاء، و(الأنصار، الاستبصار) على الراء، و(بأفنيتها، بسعادتها) على الألف مرة ثانية، و(النواظر،الناضر)على الراء مرة ثانية، و(تروق، البروق) على القاف، و(خافقة، متوافقة) على التاء المربوطة، و(ظهوره، نوره) على الهاء مرة ثانية.

وفي المقطع الثالث من الرسالة نجد الكاتب ابن قادوس ينوِّع في سجعاته أثناء كلامه، فهو يحاول في بدايته أن يبني كلامه على الازدواج، ولكنه يتحول بعد ذلك إلى التنويع في السجع دون الالتزام عند لون بذاته، ويرى الباحث أن السبب وراء ذلك طول المقطع الكتابي الواحد "الفقرة"، فكلما كان المقطع الكتابي أطول كثرت الفواصل لكثرة المعاني التي يريد الكاتب أن

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ٨: ٣٣٠.

يوصلها، وهذا ما يدفعه إلى أن ينوع في فواصل كلامه، بما يتناسب والمعنى، يقول في بداية المقطع الثالث من رسالته: "ولمَّا بَزَغَت شَمْسُ سَعَادتِهِ، وجرتِ الأمورُ على إيثارِهِ وإرادتِهِ، وبدَتْ أنوارُ الإمامةِ الجَليةِ، وظهرتْ طلعتُها المعظمةُ البَهيةِ، خرَّ الأنامُ سُجُوداً بالدعاءِ والتَّمجيد، والاعترافِ بأنهم العبيدُ بنو العبيد"[١]، فمع بداية المقطع الثالث نجد الكاتب ابن قادوس يقيم سجعه على الازدواج، يقول: (سَعَادتِه، إرادتِه) معتمدا على الهاء، و(الجَليّة، البَهيّة) على التاء، و(التَّمجيد، العبيد) على الدال. وما أن يطول المقطع الكتابي الثالث حتى نجد الكاتب ابن قادوس يلجأ إلى التنويع في السجع الذي يبني كلامه عليه، يقول: "والجِيادُ المُسوَّمةُ تموجُ في أعنَّتِها، وتختالُ في مراكِبِها وأجلَّتِها، وتُسْرِعُ فتكسِبُ الرياحَ نشاطا، وتفيدُ المتعرضَ لوصفِها إفراطا، وتُهدي لمن يحاولُ مماثَلَتِها غُلُوًّا واشْتِطاطا، وأصواتٌ مرتفعةٌ بالتهليل، وأصواتُ الحديد تُسْمِعُ بشائرَ النَّصر بترجمةِ الصَّليلِ، ويكادُ يُرعِبُ الأرضَ تَزلزُلُ الصَّهيل، وتَرُّضُ سنابكَها الهضابُ وتغدو صِلابُها كالكثيبِ المهيل"[٢]، فالكاتب ابن قادوس ينوِّع في سجعه بشكل يضفي على النص نغماً صوتياً جميلاً، يشدُّ إليه القارئ فيقرِّب المراد إلى الأفهام، فهو يتنقل من الألف في قوله: (أعنتها، وأجلتها)، إلى التنوين في قوله: (نشاطاً، إفراطاً، اشتطاطاً)، فاللام في قوله: (التهليل، الصليل، الصهيل، المهيل).

ومن ألون السجع التي لجأ إليها الكتَّاب الفاطميون في رسائلهم السجع المرصَّع، وهو أن يأتي الكاتب في إحدى الفقرتين أو أكثر مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والقافية[٣]، يقول القلقشندي: "أن تكونَ ألفاظُ القرينتينِ مستويةَ الأوزان، متعادلةَ الأجزاءِ، ويسمَّى الترصيع، وهو أحسنُ أنواعِ السجع وأعلاها"[٤]، ومن الرسائل التي لجأ فيها الكتاب إلى مثل هذا اللون من السجع سجل بيعة كتبه ابن الصيرفي في إعلان خلافة الحافظ لدين الله بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله، يقول: "الحمدُ للهِ اللطيفِ بعبادِهِ وبريَّتِهِ، الرؤوفِ في أقدارِهِ وأقضيتِهِ، المهيمنِ فلا يخرجُ شيءٌ عن إرادتِهِ ومشيئتِهِ، ذي النِّعم الفائضةِ الغامرَة، والمننِ المتتابعةِ المتظاهرةِ، والآلاءِ المتواليةِ المتناصرةِ"[٥]، فالسجع المرصَّع في النص يظهر من خلال مقطعين في الكلام، المقطع الأول يتكون من ثلاث جمل يقيم سجعها على حرف الهاء، وقد وازن الكاتب بين فواصلها، فكل واحدة منها اشتملت على سجعتين في كل فاصلة من فواصل الكلام، فكأن كلامه سجع في سجع، يقول: (عباده، أقداره، إرادته)، وفي المقابل يقول: (بريَّته، أقضيته، مشيئته). أما المقطع الثاني من

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ٨: ٣٣٠.
[٢] المصدر نفسه، ٨: ٣٣٠.
[٣] ينظر: القزويني ، تلخيص المفتاح، ٣٦٠.
[٤] القلقشندي، صبح الأعشى، ٢: ٣٠٤.
[٥] المصدر نفسه، ٩: ٣٠١.

الكلام فقد أقام الكاتب سجعه على حرف التاء المربوطة، ووازن بين فواصله في ثلاث جمل، معتمدا أيضا على سجعتين في كل فاصلة من فواصل الكلام، يقول: (الفائضة، المتتابعة، المتوالية)، وفي المقابل يقول: (الغامرة، المتظاهرة، المتناصرة). ويرى أبو هلال العسكري أن هذا النوع من السجع إذا سلم من الاستكراه أحسنُ وجوه السجع.(١)

ولا يقتصر السجع لدى الكتَّاب الفاطميين على التوفيق بين فواصل الكلام المنثور، فمنهم من وفَّق بين فواصل الكلام المنثور وقوافي النظم الذي يضمِّنه نثره؛ أي أن النثر يشارك النظم حرف الروي. ومن الرسائل التي وفق الكاتب فيها بين النثر والنظم في حرف الروي ما أنشأه المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء في الاستزارة، يقول: **"**لو رآني مولاي وقد أُرْشِفْتُ الخمرةُ فوجدتُها مرارةً تُذَمُّ ولا تُحْمَدُ، وتُثِيْرُ كامنَ الحزنِ والكَمَد، وتصفحتُ النِّدامَ فعدمتُ منها أُنْسَا عن الناظرِ دونَ الخاطرِ، وعدم تلك المحامد والمآثر، فأمَّا الماءُ فالله يعلمُ أني أتجرعُهُ ولا أكادُ أسيغُهُ شوقاً إلى تلك الخلال، التي هي أنقى منه أديماً، وأرقُّ نسيماً، وأمسكُ للنفوسِ رَمَقَاً، وأكثر لذوي الحاجات تدفقا:

خلائقُ: إمَّا ماءُ كرمِ ترقرقَا ... أغادِي به أو ماءُ مزنٍ تصفَّقَا
كأن الصَّبا جرَّت عليه ذيولَهَا ... أصيلا وفأرُ المسكِ عنها تفتَّقا"(٢)

فقد جاء السجع في آخر الجمل النثرية متفقا مع قافية الأبيات الشعرية من حيث الروي، يقول في نهاية الجمل: (أديما، نسيما، رمقا، تدفقا)، ثم ينتقل إلى بيتين من الشعر يقول في رويها: (تصفقا، تفتقا)، ونهاية الجمل النثرية وقافية البيتين متفقة في حرف روي واحد أو سجعة واحدة هي ألف التنوين.

ولم يقتصر التوفيق بين نهاية الجمل نثرية والقوافي في حرف الروي على ما جاء به المجيد العسقلاني، بل يكثر في نتاج ابن الصيرفي، فهو يعتمد عليه في الرسائل الأفضليات، ومن ذلك ما جاء في رسالة "لُمَح المُلَح"(٣)، ورسالة "مَنائِح القَرائِح"(٤)، ويرى الدكتور محمود صالح عبد الرحيم أنَّ هذا اللون من التوفيق في السجع بين النثر والنظم في السياق الواحد هو من ابتكار المجيد العسقلاني، وقد تبعه فيه الفاطميون وغير الفاطميين. (٥)

ورغم التزام الكتّاب الفاطميين السجع، وحرصهم على توظيفه في رسائلهم التي حبّروها، ومبالغتهم في ذلك، يكاد السجع يختفي في بعض الرسائل الفنية، ويتمثل ذلك في رسالة "

---

(١) ينظر: أبو هلال العسكري، الصناعتين، ٢٨٨.
(٢) ابن بسام، الذخيرة، القسم الرابع، ٢: ٦٣٥.
(٣) ينظر: ابن الصيرفي، الأفضليات، ١٨٢- ١٨٣.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ١٨٨.
(٥) ينظر: د صالح محمود و د نعانعة إبراهيم، التداخل بين الرسالة والقصيدة عند الكتاب الفاطميين، مجلة دمشق، المجلد ٢٨، العدد الأول، ٢٠١٢، ١٠١.

الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية" ، ورسالة "إيقاع صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام"، ولعلَّ إنشغالَ كاتبها ابن الصيرفي بتبرير أحقيِّة المستعلي في الإمامة، وحرصه على مناقشة الفرقة النزاريَّة –الحشيشيَّة – والردِّ عليهم، دفعه إلى عدم الالتفات إلى المحسنات وقلَّة الاهتمام بها، وركَّز اهتمامَهَ على سوق الأدلِّة والبراهين التي يؤكد بها آراءه، فهاتان الرسالتان لهما من الخصوصية ما جنب كاتبها ابن الصيرفي بناءهما على السجع.

**الجناس:**

لجأ الكتَّاب الفاطميون إلى الجناس في مختلف رسائلهم، الديوانية، والإخوانية، والأدبية، حيث ساعدهم تقارب الألفاظ وتماثلها في تحسين الكلام وتنميقه، وتقريب المعنى إلى ذهن المتلقي، فالأقرب إلى السمع عادة ما يكون الأسرع في الفهم.

وقد لجأ الكتاب الفاطميون في رسائلهم التي حبروها إلى الجناس بنوعيه الناقص والتام. ومن الشواهد على هذا اللون من البديع ما جاء في التقليد الذي كتبه القاضي الفاضل عن العاضد لدين الله الفاطمي بولاية قاض، يقول: "وإنَّ أميرَ المؤمنينَ لمَّا أتاهُ اللهُ إيَّاهُ من نفاذِ حُكْمِهِ ومضاءِ حِكْمته، وفوَّضَهُ إليه من إمامةِ أمتِهِ، وأفاضَهُ عليه من أنوارٍ كشفَتْ غَمَامةَ كلِّ غُمَّة، وشرَّدَت بعدلِهِ من بَسْطَة ظُلمٍ وسَطوةِ ظُلمة، وأظهرهُ له من حقٍّ نَصَبَ للنَّصرِ عَلَمَه وللهدايةِ عِلْمَه، وأيَّده به من كلِّ عَزْمَة فتكَتْ بكلِّ أزمَةٍ، ووَكَّلَ به هِمَمه من إتمامِ نِعْمَةٍ وابتداءِ نِعْمة"[١]، فعناية القاضي الفاضل بالجناس جلية في النص السابق، حيث لجأ إلى الجناس الناقص، فجانس بين (حِكْمته، حُكْمِه)، و(إمامة، غَمَامة)، و(ظُلم، ظُلمة)، و(عَلَمه، عِلْمه)، و(عَزْمَة، أزمَة)، ولا تخفى أهمية مثل هذا النوع من الجناس في بناء إيقاع موسيقي للسياق، يعين الكاتب على تقريب المعنى إلى ذهن السامع، وتلقي الخطاب أو المضمون دون ملل. ومن الأمثلة على الجناس التام في الرسائل الديوانية ما جاء به القاضي الفاضل في تقليد بولاية المعونة والحسبة في مصر، يقول: "ومن أميزها قدرا، وأحقِّها بأن يكون صَدْرا، وأن يشرحَ لمن حلَّه صَدْرا"[٢]، فالكاتب يجانس بين (صدرا) الأولى المراد بها المتصدر بالمرتبة الأولى، و(صدرا) الثانية المراد بها العضو من جسد الإنسان، ويتضح من خلال الجناس التام الذي لجأ إليه الكاتب في إيصال المعنى، معتمدا على الإيقاع الموسيقي في البناء الصوتي، ولفت انتباه القارئ إلى المفارقة في المعنى بين المفردتين اللتين جانس بينهما.

ولا يقتصر استخدام الجناس لدى الكتاب الفاطميين على الرسائل الديوانية بل وظَّفوه في رسائلهم الأدبية، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة "عقائل الفضائل" التي أنشأها ابن

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٥١.

[٢] المصدر نفسه، ١٠: ٣٥٦.

الصيرفي للأفضل بن بدر الجمالي، يقول: "ولقد انتضى اللهُ، عزَّ وجلَّ، لإعزازِ الدين، وارتضى لتدبيرِ الدنيا من يُضاعِفُ جزاءَهُ يومَ الدين، الملكَ السيِّدَ الأجلَّ الأفضلَ، أميرَ الجيوش، سيفَ الإسلام، ناصرَ الإمام، كافلَ قضاةِ المسلمين، وهادي دعاةَ المؤمنين، الذي استَظْهَرَتِ المملكةُ بعزماتِهِ على كلِّ مخالفٍ ومعادٍ، وأَبَتْ مفاخرُهُ كلَّ مكررٍ من الصفاتِ ومعادٍ، وحفِظَ معاقِدَ الملَّةِ منْ أنْ تختلَّ أو تُحَلَّ، وصانَ محظوراتِ الشريعةِ منْ أنْ تُباحَ أو تُحلَّ، وساسَ أمورَ الكافَّةِ ببأسِهِ الشديد ورأيِهِ الصَّليب، وصَرَفَ عالي همتِهِ إلى إعزازِ التوحيدِ وإذلالِ الصَّليب، وأمضى في حياطة الإيمان مرهفاً إلى ماضي الغِرارِ، وأسهرَ جفنَهُ في مصالحِ الأمَّةِ فما يَطْعَمُ منَ الكَرى غير الغِرار، فالاجماعُ واقعٌ على أنَّه أشرفُ من رَفَعَ للمجدِ علماً ورايه، والاتفاقُ حاصلٌ في كونِه أفضلَ من وقف على الخيراتِ نظرُهُ ورايه، ولهذا نَجَحَ قصدُ راجيه وسائِله، وأصبح لديه تأميلُ مؤمَّلِهِ من أعظم وسائله، فلا زال بابُ اعترافِهِ في فلِّ الخطوبِ غير مُرْتَجٍ، وزندُ عطائِهِ غير كابٍ بعنانٍ ولا مُرْتَجٍ"(١)، فعناية ابن الصيرفي بالجناس التام واضحة في النص السابق، وحرصه على جلب انتباه القارئ دون تكلف؛ حيث قدم المعنى الذي يريد دون أن يشعر بالملل، والقارئ لمثل هذا النوع من النصوص يدرك مدى البلاغة التي حظي بها الكاتب، وقدرته على التصرف في الألفاظ بما يخدم المعاني، فجانس بين (الدِّين، الدِّين )، و(مُعَادٍ، مُعَادٍ)، و(تُحَلَّ، تُحَلَّ)، و(الصَّليب، الصَّليب)، و(الغرار، والغرار)، و (رايه، رايه)، و(وسائله، وسائله)، و(مرتج، مرتجّ).

كما لم تخلُ الرسائل الإخوانية من الجناس، بل إن الكتاب الفاطميين التزموا به وبالغوا في استخدامه، ومن النماذج الكتابية التي يتمثل فيها الجناس جليا ما كتبه المجيد العسقلاني لصارم الدولة بن معروف في التهنئة بالنصر، يقول: "أطالَ اللهُ بقاءَ الحضرةِ الصَّارميَّةِ، يُجْرِي القدرُ على حسبِ أهويتِها، ويُعقدُ الظفرُ بعزائمِ ألويتِها، وتُحَلِّي بذكرِها ترائبُ الأيَّامِ العاطلة، ويُنْجزُ بكرمِها عِداتُ الحظوظِ المماطلةِ، ما أصْحَبَ الجامح، وأضاءَ السماكُ الرامح، وعافتِ الماءَ الإبلُ القوامِح"(٢)، فحرص الكاتب على الجناس يظهر من خلا المقطعين الأولين اللذين يبدأ بهما الكلام، فيعتمد على الجناس الناقص للمجانسة بين (القدر و الظفر)، و(أهويتها و ألويتها)، وفي مثل هذا الموضع يتبين مدى الترابط الصوتي بين الجناس والسجع كأهم مكونين من مكونات الزينة اللفظية التي انساق وراءها الكتاب، فلا يستطيعون الاستغناء عن أحدهما، بل نجدهما يأتيان معا في بناء صوتي واحد، ويستمر الكاتب في بناء إيقاعه الموسيقي في المقطع الأول معتمدا على الجناس الناقص، فيجانس بين (العاطلة و المماطلة)، و( الجامح و  الرامح و الطامح).

---

(١) ابن الصيرفي، الأفضليات، ٢٤٣.
(٢) الحموي، معجم الأدباء، ٣: ١٠٠٩.

ورغم أن الكتَّاب الفاطميين لا يلتزمون الجناس في جلّ رسائلهم، وإنما يراوحون في استخدامه في الرسالة الواحدة، إلا أن المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء يعتمد على الجناس في تهنئته منذ بدايتها ويحافظ على إيقاع الجناس إلى ختامها، فيقول في المقطع الثاني من رسالة التهنئة بالنصر: "أيامُ الناسِ شهودٌ مختلفةُ الأقوال، وصنوفٌ متباينةُ الأحوال، فيومٌ تُؤرِّخُ السيّرُ بسؤدده وسنائِهِ، ويَنطِقُ بمحامدِ قومٍ ألسنةُ أبنائه، ويومٌ يخبو في موقفِ الجدِّ شهابُه، ويعبقُ بمسكِ المُدامِ أهابُه، فالحمدُ للهِ الذي جعلَ الحضرةَ السَّاميةَ عقالَ الخطوبِ العوارِم، ونظامَ المحاسنِ والمكارِم، يعتدها الزمنُ نسيمَ أصائلِهِ، وزهرَ خمائلِهِ، وشموسَ مشارقِه، وتيجانَ مفارقِهِ، فيجبُ على كلِّ من ضمَّ اليراعةَ بنانُهُ، وأطلقَ في ميدانِ البراعةِ عنانَه، أن لا يخلي مجلسَهُ من مدحٍ معروضةٍ، وخِدمٍ مفروضة، يسهبُ فيها الواصف، ويوجبُها الإنعامُ المتراصف"(١)، فيجانس بين (الأقوال والأحوال) و(سنائه وأبنائه) و(العوارم والمكارم) و(أصائله وخمائله) و(بنانه وعنانه) و(معروضة ومفروضة) و(الواصف والمتراصف).

ويبالغ المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء في استخدامه الجناس في المقطع الثالث من رسالته، حيث يحتال على الجناس بذكر القبائل الكثيرة، يقول: "ثم جاءت مناقبُ الحضرةِ العليةِ فتمَّ بها مناقبُ تَمِيم، وحكَمَ لآلِ القعقاعِ أمرَ حكيم، ونصرَ لواء بني نصر، وأبدرت أهلةُ بني بَدر، ونبَّه منبهٌ هوزِان، وظهرت مزينةُ ومازن، وضحكَ لعبسِ عابسُ الدهر، وراحت الكلمةُ كاملةَ الفخر، وزادتْ مغايظَ الأزد، وقشرت قُشيرا عن بلوغِ المجد، وأغْمِدت سيوفُ بني غامد، وصارت همدانُ كالجمرِ الهامِد، وعنسَ مذحجُ كالعنسِ مذللة، وحميرُ بالريةِ الحمراءِ متظللة، وطوت طيءُ عملَها استحذاء، وغضَّت جفنةُ جفونَها استحياء"(٢)، فالكاتب يجانس بين (تميم وحكيم)، و(بني نصر وبني بدر)، و(هوازن ومازن)، و(الدهر والفخر)، و(الأزد والمجد)، و(غامد وهامد)، و(مذللة ومتظللة)، و(استحذاء واستحياء).

**الطباق:**

اعتمد الكتَّاب الفاطميون في تزيين رسائلهم الفنية وإيصال معانيهم ونقل مضامين رسائلهم على الطباق؛ ذلك أن اجتماع الأضداد في السياق الواحد فيه شمول للأفكار وبلوغ للمعاني، ويجنب الكاتب الإطالة في السياق، الذي قد يؤدي في النهاية إلى الملل.

وقد لجا الكتَّاب الفاطميون إلى الطباق في رسائلهم لتحقيق الشمول من الخطاب، ومن النماذج الكتابية التي يظهر فيها الطباق جليا واضحا السجل الذي أنشأه ابن الصيرفي في إعلان وفاة الخليفة المستعلي وولاية الآمر، يقول: "من عبدِالله ووليِّهِ أبي علي الآمرِ بأحكامِ اللهِ أميرِ

---

(١) الحموي، معجم الأدباء، ٣: ٢١٢.
(٢) المصدر نفسه، ٣: ٢١٣- ٢١٤.

المؤمنين ابنِ الإمامِ المستعلي بالله إلى كافَّة أولياءِ الدولةِ وأمرائِها وقوَّادِها و أجنادِها ورعاياها ؛ شريفِهم ومشروفِهم، وآمرِهم ومأمورِهم مغربيِّهم ومشرقيِّهم، أحمرِهم وأسودِهم، كبيرِهم وصغيرِهم بارك اللهُ فيهم" [1]، فابن الصيرفي يوجه خطابه إلى كافة الرعية في الدولة الفاطمية، ويعتمد في شمول الخطاب على الطباق، فطابق بين (شريفهم، مشروفهم)، و(آمرهم، مأمورهم)، و(مغربيهم، مشرقيهم)، و(أحمرهم، أسودهم)، و (كبيرهم، صغيرهم).

ومن الأسباب التي تستدعي استخدام الطباق في الرسائل في جملة الأوامر الذي يجب على المخاطب أن ينهض بها بناءً على تولية أو تقليد ما، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تقليد على الجهاد، يقول الكاتب: "فتقلدْ ما قلَّدَكَ أميرُ المؤمنين مستشعرا تقوى اللهِ وطاعتَه في الإسرارِ والإعلانِ، معتقدا خيفتَهُ ومُراقبَتَه في الإظهارِ والإبطان"[2]، فمثل هذا التقليد يفرض على من تولى إمارة الجهاد أن يخلص في طاعته لأمير المؤمنين في كل حالاته، لذا نجد الكاتب يطابق بين (الإسرار و الإعلان)، ويطابق بين (الإظهار والإبطان)، شاملا به مفهوم الإخلاص في الطاعة الذي يريد أن يوصله لمن تقلد الإمارة، وقد لا يحيط بهذا القدر من الوضوح إن لجأ إلى التفصيل والبيان الممل.

ويلجأ الكتاب الفاطميون إلى الطباق بغرض بيان المهام التي أنيطت فيمن يتولى أمرا من أمور الدولة، أو ينال مكرمة من أحد الخلفاء والأئمة، ويبدو ذلك جليا في السجل الذي أنشأه ابن الصيرفي في إقرار نعوت رضوان بن وَلْخِشِي وزير الحافظ لدين الله الفاطمي، يقول : "ولك الإبرامُ والنقضُ، والرفعُ والخفض، والولايةُ والعزلُ، والتقديمُ والتأخيرُ، والتنويهُ والتأميرُ"[3]، فطابق ابن الصيرفي بين (الإبرام، النقض)، و(الرفع، والخفض)، و(الولاية، والعزل)، و(التقديم، والتأخير)، و(التنويه، والتأمير)، وكلها صلاحيات وكِّل بها رضوان بن ولخشي وزير الحافظ لدين الله الفاطمي، وتمكن الكاتب ابن الصيرفي في هذه المطابقة أن يحددها دون أن يطيل أو يلجأ إلى الشرح.

واعتمد الكتَّاب الفاطميون على الطباق في المبالغة والدلالة على القدرة، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في العهد الذي أنشاه القاضي الفاضل في تولي الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزراة في عهد الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، يقول: "فالحمدُ للهِ مُصرِّفِ الأقْدارِ ومُشرِّفِ الأقْدار، ومُحْصي الأعمالِ والأعمار، ومُبتَلي الأخيارِ والأبرار، وعالِمِ سرِّ الليلِ وجهرِ النهار، بين انقضاءِ سِرَارٍ واستقبالِ إبدار"[4]، فالكاتب يطابق بين (سر وجهر)، و(الليل

---

[1] ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ٢: ٢٤ .
[2] القلقشندي، صبح الأعشى،١٠: ٤١٧.
[3] المصدر نفسه، ٨: ٣٤٨.
[4] المصدر نفسه، ١٠: ٩٢- ٩٣.

والنهار)، و(انقضاء واستقبال)، فالمطابقة بين هذا الألفاظ يحمل معنى المبالغة والقدرة الإلهية، وهي من الأمور التي أوجبت الحمد في بداية كلامه.

ولا يقتصر الطباق بين الأسماء، فقد يأتي بين الأفعال والأسماء، من ذلك ما جاء في رسالة من إنشاء المجيد العسقلاني في الهجاء، يقول: "من أين خفَّ سيدنا وهو الهضَبُ الراسي المنيع، وضاقَ نطاقُ حكمِهِ وهو الفضفاض الوسيع، وحقق عن عبده الذي وسم نفسه بالعبودية سرًّا وعلنا"[١]، فالكاتب يطابق بين (خفَّ) الفعل، و(الراسي) الاسم، و(ضاق) الفعل و(الوسيع) الاسم، مستعينا بهذا الطباق في بيان الحالة التي وصلت بأمير المؤمنين من عدم إدراك الأمور وتقديرها بما يجب.

وقد يأتي الطباق بين الفعل والفعل، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الصيرفي في سجل "الهداية الآمرية": "أما تعجبونَ لطائفةٍ حالفَهَا الشيطانُ فخالفَتِ القرآن"[٢]، فالكاتب يطابق بين الفعلين (حالف، وخالف)، معتمدا على ذلك في بيان حجم الخطأ الذي ارتكبته هذه الطائفة النزارية.

### ٣. التصوير الفنِّيّ:

يعد الخيال عنصرا هامّا من عناصر العمل الأدبي، فهو الملكة التي تعين الأدباء على تأليف صورهم من خلال مجموعة من الأحاسيس التي تختزنها مخيلتهم[٣]، فهي إحدى الطرق التي يعبر الأديب بها عن تجربته وعواطفه. ومن خلال استقراء الرسائل الفنية التي وصلت إلينا من العصر الفاطمي في مصر يُلاحَظ ازدحام تلك الرسائل بالصور الفنية، وتنوع الأدوات الفنية التي استخدمها الكتَّاب الفاطميون في تشكيلها، فاعتمدوا على التشبيه، والاستعارة، والكناية، والتصوير اللفظي، والتشخيص. كما تنوعت المصادر التي استقوا منها صورهم، فمنها ما جاء مستمدا من العقيدة الفاطمية، ومنها ما جاء مبنيا على التأثر بالقرآن والحديث الشريف، ومنها ما اعتمد على المظاهر الحضارية التي حفلت بها الدولة الفاطمية، ومنها ما كان مستوحىً من عناصر الطبيعة المحيطة بالكاتب.

ومن الصور الأدبية المستوحاة من العقيدة الفاطمية ما أنشأه القاضي الفاضل في تقليد بولاية المعونة والحسبة في مدينة مصر، يقول في مستهله: "فإن رُتَبَ الولاياتِ مُتفاوتةُ الأقْدارِ، متباينةُ الأخطَارِ، وكلُ شيءٍ منها عندَ أميرِ المؤمنينَ بمِقْدار، ولها رجالٌ مشرفو الأقدار، ومحالُّها بحضرتِهِ مقدرةٌ تقديرَ مَنازلِ الأقمَار، ومحالُّ الأولياءِ بمقَامِهِ محالُّ الأهلَّةِ تتنقلُ بين أولِ النَّماء إلى

---

(١) أبو الغنائم، جمهرة الإسلام ذات النثر والنظم، ١: ٣٤٩.

(٢) ابن الصيرفي، الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية، ٦.

(٣) ينظر: شوقي ضيف، في النقد الأدبي، ١٦٧.

انتهاءِ الإبدار"[١]، فالكاتب يصور الولايات المصرية وما هي عليه من أهمية بالنسبة له بالأقمار التي لا تكون على منزلة واحدة، كما يصور الأولياء وما هم عليه من خبرة وقدرة بالأهلة التي تنمو حتى تكتمل فتصبح أبدرا، ويعتمد في تشكيل صورته الفنية على التشبيه، فالمشبه في الصورة الأولى الولايات والمشبه به الأقمار ووجه الشبه تفاوت في المنزلة. والمشبه في الصور الثانية الأولياء والمشبه به الأهلَّة ووجه الشبه التطور والنمو، أما المادة التي استمد منها الكاتب صورته الفنية فهي العقيدة الفاطمية، فمنازل الأقمار، والأهلة، والإبدار، كلها مصطلحات فاطمية، وكثيرا ما يرمزون إلى الأئمة الفاطميين وولاة العهد والأولياء قضاة ووزراء ودعاة بهذه المصطلحات.

وقد يستوحي الكتاب الفاطميون صورهم الأدبية من القرآن الكريم والعقيدة الفاطمية، ومن ذلك ما جاء في سجل "الهداية الآمرية" لابن الصيرفي، يقول: "ومولانا المستعلي بالله هو حبلُ اللهِ الممدود، فمن يقطعه؟ ومَشْرَع نجاتِه المورود، فمن يمنعه؟ وعلم الهدى المرفوع، فمن يطرحُه؟ وجبل الدين الراسي، فمن يزحزحُه؟ وبحرُ الحقِّ المسجور، فمن ينزفُه؟ وسراجُ الأمَّةِ الوهّاج فمن يسترُه؟ ومعنى الكتابِ المستور فمن يحرفه ؟"[٢]، فالكاتب ابن الصيرفي يصور الإمام المستعلي بحبل الله الممدود الذي لا ينقطع، ويكني بحبل الله الممدود إلى الإمامة المتوارثة من الآباء إلى الأبناء، ويصور الإمام المستعلي بعد ذلك بنبع الماء الذي لا ينقطع، ويكنِّي بالمورود عن العِلم الإلهي الذي ورثه عن أبيه المستعلي، ويصوره كذلك بالعلم المرتفع البارز في السماء، ويكنِّي بعلم الهدى عن صحة إمامته، ويصوره بالجبل الراسي، ويكنِّي بالجبل الراسي ثبات الإمامة في نسلهم وأحقيتهم بها دون غيرهم، ويشبهه بالبحر المتسع، ويكنِّى ببحر الحق عن سعة علمه، ويشبهه بالسراج المضيء، ويكنى بالسراج المضيء عن الأنوار الإلهية التي يهدي بها الناس، ويشبهه بالكتاب المستور، ويكنِّى بذلك عن اختصاصه بالتأويل وعلمه به دون غيره. فهذه مجموعة من الصور الأدبية المتلاحقة يأتي بها الكاتب معتمدا في بنائها على القرآن الكريم والعقيدة الفاطمية، فهو يشبه المستعلي بالله بـ"بحرُ الحقِّ المسجور"مستمدا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ [٣]، وبـ"علم الهدى المرفوع" مستمدا ذلك من قوله تعالى:﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ [٤]، وبـ"سراجُ الأمَّةِ الوهّاج" مستمدا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾[٥]. كما

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ١٠: ٣٥٦.
[٢] ابن الصيرفي، الهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية،١١.
[٣] سورة الطور، ٦.
[٤] سورة الطور، ٥.
[٥] سورة النبأ، ١٣.

يقول: "معنى الكتابِ، وسراجُ الأمَّةِ، وبحرُ الحقِّ، وجبل الدين، وعلم الهدى، ومَشْرَع نجاتِه، وحبلُ اللهِ، وكلها مصطلحات فاطمية يرمز بها إلى الإمام.

ومن الشواهد على الصور الأدبية المستمدة من عناصر البيئة المحيطة ما جاء به ابن الصيرفي في البيعة التي كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة ابن عمه الآمر بأحكام الله، يقول: "وكان والده الأمير أبو القاسم، قدّس اللهُ روحَهُ، بمنزلةِ الأشجارِ التي يُتأنى بها إلى أن يظهرَ زهرُها، والأكمامِ التي يُنتَظرُ بها إلى أن يخرجَ ثمرُها، والزَّرَجُونةِ التي نقلتِ الماءَ إلى العنقودِ، والسحابةِ التي حملتِ الغيثَ فعمَّ نفعُهُ أهلَ السهولِ والنجود"(١)، فيصوّر والد الإمام الحافظ بالشجرة التي تزرع فينتظر زارُعها ظهور زهرها، ويصوره بالأوعية التي تحفظ الثمر إلى أن يخرج، ويصوره بالسحابة التي تحمل الغيث، وفي المقابل يصور الحافظ لدين الله بالزهر الذي طال انتظاره، ويصوره بالثمار التي ينتظر خروجها من الأكمام، ويصوره بالغيث الذي يعمُّ نفعه كل الناس، ويعتمد في بناء صورته الأدبية على الكناية، فـ(الأشجار، والأكمام، والزرجونة، والسحابة) يكني بها عن والد الحافظ لدين الله الفاطمي، و(زهرها، وثمرها، والعنقود، الغيث) يكني بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي، ويستمد ابن الصيرفي مادة صوره الأدبية من الطبيعة، فالاشجار، والزهر، والاكمام، والثمر، والزرجونة، والعنقود، والسحابة، والغيث، والسهول، والنجود من مكونات الطبيعة التي تحيط بالإنسان وارتبطت به بعلاقة تأثرية ساهمت في رفد الكتَّاب بمادة الصورة الأدبية.

وقد تأتي الصورة الأدبية مستوحاة من وقت الفجر والصباح، وكثيرا ما يأتي هذا اللون في رسائل البشارات بسلامة ركوب الخليفة، ومن ذلك ما ورد في البشارة بسلامة الخليفة بعيد النحر من إنشاء ابن قادوس، يقول: "وكان من قَصَصِهِ أن الفجرَ لما سلَّ حسامَه، وأبدى الصَّباحُ ابتسامَه"(٢)، ويعتمد الكاتب في تشكيل صورته الأدبية على التشخيص والاستعارة، فيصور الفجر بالمقاتل الذي يسلَّ حسامه متهيئا لقتال، ويصور الصباح بالإنسان الذي يبتسم لأمر سرَّه، وكلاهما استَّعدَّا لليوم الذي سيركب فيه الخليفة الموكب، معلنا سلامة دولته من أي ضرر قد يلحق بها، والكاتب يعتمد في تشخيص الفجر والصباح على الاستعارة.

ويلجأ الكتَّاب الفاطميون في صورهم الأدبية إلى تقنية رسم الصورة الحيَّة، ومن ذلك ما جاء به ابن الصيرفي في سجله الذي أنشأه في إقرار الخليفة الحافظ لنعوت وزيره رضوان بن وَلْخِشِي، يقول: "والإيمانُ لو تجسّمَ لكان على السعي على شكرك أعظمُ مثابرٍ، والإسلامُ لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيباً على المنابر، فأمَّا الشِّركُ فلو أبقيتَهُ حيَّاً لتصدَّى وتعرَّض، ولكنك

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٩: ٣٠٥.
(٢) المصدر نفسه، ٨: ٣٣٠.

أنحيتَ عليه وأدلتَ التوحيد منه، فانهدَّ بناؤهُ بحمد الله وتقوّض"[1]، فيرسم للإيمان والإسلام صورا حية متحركة، فيجعلهما شخصين يتحركان وينطقان، فيشبِّه الإيمان بالإنسان الذي يسعى في الأرض ليشكر رضوان ابن ولخشي على مثابرته، ويشبِّه الإسلام بالخطيب الذي يصعد المنبر ويدعو لهذا الوزير، ثم يجعل الشرك في صورة أخرى هي صورة الجماد، يشبهه بالبناء الذي هدم، والكاتب يعتمد على الاستعارة في تشكيل صورته الأدبية. ويلاحظ الباحث في مثل هذا الموضع قوة الأسلوب وتمكن الكاتب في التصرف في الصور الأدبية التي يأتي بها، فالكاتب في بناء صورته الأدبية يراعي ما يجب أن تكون عليه الأمور، فالإسلام والإيمان حظيا بالصورة الحية الناطقة؛ لأنهما يتناسبان مع كل ما هو حي، أما الشرك فقد وضعه في صورة الجماد الصامت؛ مراعاة لما يجب أن يكون عليه.

## الخاتمة

تناولت هذه الدراسة الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطميّ، وقد جاءت في تمهيد وخمسة فصول.

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ٨ : ٣٢٣.

ويتبين في الدراسة مدى حرص الخلفاء الفاطميين على إرساء قواعد ديوان الإنشاء، وعنايتهم الفائقة بالكتَّاب الذين عملوا في هذا الديوان، حتى أصبح المؤسسة الأولى التي تُدار بها الدولة، ويتأهَّل فيها كلٌ من رغب بتعلم الكتابة، وقد تنافس الكتاب فيما بينهم لشغل أعلى المناصب في ديوان الإنشاء، فينال الواحد منهم السلطة والعناية التي منحها الخلفاء لمتولي الديوان، وهذا ما انعكس إيجابا على الكتابة في مصر خلال حكم الفاطميين، حيث بدا التنافس بين الكتَّاب واضحا في تطور أساليب الكتابة، فكلٌ كاتب يحاول أن يقدم أسلوبا كتابيا، يتفوق به على غيره من الكتَّاب، ويقدمه لينال تشريف وحظوة الخلفاء الفاطميين، ومن هؤلاء الكتَّاب المجيد العسقلاني ابن أبي الشخباء، وابن الصيرفي، والموفق ابن الخلَّال، والقاضي الفاضل البيسانيّ، وغيرهم.

وأظهر البحث مدى قدرة الرسائل على استيعاب المضامين الرسميَّة، وتعبيرها عن سائر صور العلاقات المتبادلة بين قصر الخلافة والرعية، وتمثل ذلك في رسائل المنشورات، والبشارات، والمبايعات، وانتقال الخلافة والأمانات، وقد حرص الخلفاء على وصول هذا النوع من الرسائل إلى كافة أعمال الدولة الفاطمية في مصر؛ لدورها في حفظ على هيبة الدولة وإعلاء شأنها لدى الرعية.

كما كانت الرسائل شاهدة على أبرز الأحداث الداخلية الخطيرة التي شهدتها الدولة الفاطمية في مصر، كالانقسام الأول في تاريخ الدولة إلى طائفتين، وهما: النزاريَّة والمستعلية، والانقسام الثاني، وهما: الطيبيَّة والحافظيَّة، ويظهر ذلك من خلال رسائل انتقال الخلافة، والهداية الآمرية، وايقاع صواعق الإرغام.

وتمكنت الرسائل أن تصور الحالة العامة للدولة الفاطميَّة في مصر، وكيف بدت قوية في النصف الأول من عهدها ثم أخذت تضعف حتى انتهى أمرها منتصف القرن الخامس، ويبدو ذلك واضحا في رسائل الوزارة والولاية التي تظهر مدى تفاوت السلطة بين الخلفاء والوزراء الفاطميين.

وقد ظلت الرسائل الفنية تحديدا الديوانيَّة محكومة بقوالب فنيَّة فرضها ديوان الإنشاء عليهم، كجزء من تنظيم الدولة وتوحيد خطابها للرعية، وضبط الكتَّاب للسيطرة عليهم.

ورغم قلة ما وصل إلينا من مصر في العصر الفاطمي من الرسائل الإخوانية إلا إنها بينت لنا مختلف المظاهر الاجتماعية التي سادت المجتمع الفاطمي في مصر من خلال تنوع الموضوعات التي عبَّرت عنها، فرسائل التهنئة، والتعزية، والتهادي، والاستزارة، واستماحة الحوائج، أفصحت عن الصلات الإنسانية في حياة الأفراد، والتي تشكل في نهاية المطاف صورة المجتمع الفاطمي في مصر. في حين تكشف رسائل العتاب، والاعتذار، والاستعطاف، والشكر، عن العلاقات الشخصية.

وقد شكلت الرسائل الإخوانية ميدانا حرًّا للكتَّاب الفاطميين للتعبير عن مشاعرهم، فهم أكثر تحررا فيها من الرسائل الديوانية، إضافة لذلك ولم يلتزم الكتَّاب فيها نهجا واحدا بل كانت المناسبة الاجتماعية والعلاقة بين طرفي الخطاب هو المعيار.

أما الرسائل الأدبية، فقد شكلت الميدان الأكبر للكتَّاب الفاطميين للتعبير عن قدرتهم الكتابية، واستعراض ثقافتهم الديوانية التي تسلحوا بها، ويتمثل هذا في النوع الأول من الرسائل الأدبيَّة التي وصلت إلينا من مصر في العصر الفاطمي، وهي الرسائل الأدبية المضمون، وتمثل الرسائل "الأفضليات" لابن الصيرفي هذا النوع، ويمتاز مثل هذا النوع من الرسائل بطولها، وتنوع المضامين التي تعبر عنها الرسالة الواحدة، بالإضافة إلى حرص الكاتب فيها على استعراض ثقافته الكتابية التي تسلح بها. أما النوع الثاني من الرسائل الأدبية فهي الرسائل الأدبية الغرض، وما وصلنا عن من مصر في العصر الفاطمي لا يتجاوز ثماني رسائل مجتمعة في ثلاثة أغراض، وهي: الوصف، والرثاء، والهجاء، إلا إنها تبين قدرة النثر لدى الكتَّاب الفاطميين على حمل المضامين الشعرية، والتعبير عنها.

وقد صبغت الرسائل الفنيَّة في مصر في العصر الفاطمي بالصبغة المذهبية، حيث تأثرت الرسائل بتشيُّع الكتاب الفاطميين لعقيدتهم وولائهم لأئمتهم، ويظهر هذا الأثر جليًّا في الرسائل الديوانية التي صدرت عن ديوان الإنشاء، حيث يتمثل الأثر العقدي الفاطمي في الرسائل في ثلاثة جوانب: الأول حرص الكتاب على تضمين الرسائل حديثا عن الإمامة، وعقيدتهم فيها، وتأكيد أحقيتهم بها دون غيرهم من الناس، وبيان فضلها على الأمة. والثاني التأويل لآيات القرآن الكريم وقصصه والأحاديث النبوية الشريفة ومختلف مظاهر الطبيعة تأويلا يخدم فكرة الإمامة عندهم، والثالث تلك المضامين الجديدة على النثر العربي نتيجة التشيع، مثل الدعوة للدولة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها، وتوسعهم في مضامين موجودة مثل الكتابة بسلامة الخليفة في الجمعة الأولى والثانية والثالثة من شهر رمضان.

وقد تباينت الأساليب الفنية بين فن أدبي وآخر، ففي حين نجد الكتاب يلتزمون في الرسائل الديوانية ببناء واحد لا يخرجون عنه من مقدمة ومضمون وخاتمة، ويوفون كل جزء من هذا البناء حقَّه، ولا يخرجون فيه عن التقاليد الرسمية التي فرضها عليهم ديوان الإنشاء، فقد ظل البناء في الرسائل الإخوانية والأدبية ميدانا حرًّا يأتيه الكاتب كيفما شاء.

وقد بدا في جلِّ الرسائل الفنية حرص الكتاب الفاطميين على أسلوبهم الفني الذي يبنون عليه رسائلهم الديوانية والإخوانية والأدبية، فتوظيف الموروث الديني والأدبي، والعناية بالبناء الصوتي من خلال الجناس والسجع والطباق، ومراوحتهم بين الإيجاز والإطناب، وعنايتهم

بالتصوير الفنيّ، من أبرز السمات الأسلوبيَّة التي وظَّفها الكتَّاب الفاطميون في رسائلهم التي بين أيدينا.

## قائمة المصادر المراجع

**القرآن الكريم.**

الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، الطبعة الثانية، مركز تحقيق التراث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

ابن الأثير، ضياء الدين، **الوشي المرقوم في حلّ المنظوم**، الطبعة الثانية، تحقيق: جميل سعيد، بغداد، ١٩٨٨م.

الاسكندري، أحمد، وآخرون، (١٩٤١م). **المنتخب من أدب العرب**، بولاق، المطبعة الأميرية.

الأصفهاني، العماد، **خريدة القصر وجريدة العصر** ( قسم شعراء مصر)، تحقيق: إحسان عباس وآخرون، الجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١م.

الألباني، محمد ناصر الدين، (٢٠٠٠م). **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيّئ في الأمة**، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف.

الأندلسي، ابن سعيد، **المُغرِب في حُلى المَغرب- القسم الخاص بمصر**، (تحقيق: شوقي ضيف وآخرون)، فؤاد الأول، ١٩٥٣م .

ــــــــــــــــ، **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة- القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب**، (تحقيق: حسين نصار)، مطبعة دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠م.

البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ). **صحيح البخاري**، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ٢٠٠٢م.

بدوي، أحمد أحمد، (١٩٥٤م). **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، الطبعة الثانية، القاهرة، دار نهضة مصر.

ابن بسام، أبو الحسن علي (ت٥٤٢هـ)، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسم الرابع، المجلد الثاني، (تحقيق: إحسان عباس)، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت.

البقلي، محمد قنديل (١٩٨٣م). **التعريف بمصطلحات صبح الأعشى**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

تامر، عارف، (١٩٩٨م)، **الإمامة في الإسلام**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الأضواء.

التِّرمذيّ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَورَة (ت٢٧٩هـ). **جامع التِّرمذيّ**، خمسة أجزاء، الطبعة الثانية، (تحقيق: إبراهيم عطوة عوض)، مطبعة مصطفى البانيّ الحلبيّ، مصر، ١٩٧٥م.

أبو الثناء، شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الحنفي، **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**، مطبعة أمين أفندي هندية، مصر، ١٣١٥هـ.

الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي (ت٣٣١هـ). **الوزراء والكتَّاب**، (تحقيق : مصطفى السقا وآخرون)، مطبعة مصطفى الباني، القاهرة، ١٩٣٨م.

ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ). **رفع الإصر عن قضاة مصر**، الطبعة الأولى، تحقيق: د علي محمد عمر، الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م.

حسين، محمد كامل، (١٩٥٠م). **أدبنا العربي في عصر الولاة**، القاهرة، دار الفكر العربي.

ـــــــــــــــــ، (١٩٥٠م). **الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدول الفاطمية**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

ـــــــــــــــــ، (١٩٥٠م). **في أدب مصر الفاطمية**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الفكر العربي.

حماده، محمد ماهر، (١٩٨٠م). **الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية دراسة ونصوص**، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ). **معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، الطبعة الأولى، (تحقيق: إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م .

ـــــــــــــــــ، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م.

ابن حيّون، النعمان (٣٦٣هـ). **أساس التأويل**، (تحقيق وتقديم: عارف تامر)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠م.

ـــــــــــــــ، **دعائم الإسلام**، المجلد١،( تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

الحنبلي، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي ابو أحمد (ت ١٠٨٩هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، الطبعة الأولى، (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

خسرو، ناصر، **سفرنامه**، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

الخطيب، محمد أحمد، (١٩٨٦م). **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها**، الطبعة الثانية، عمان، مكتبة الأقصى.

الخفاجي، أبو محمد بن عبد الله بن سعيد بن سنان (ت ٤٦٦هـ)، **سرُّ الفصاحة**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، (تحقيق: إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

داعي الدعاة، المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (ت٤٧٠هـ). **ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة**، الطبعة الأولى، (تقديم وتحقيق: محمد كامل حسين)، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م.

الدّروبي، محمد محمود، (١٩٩٩م). **الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري**، الطبعة الأولى، عمان، دار الفكر.

درويش، كفاح، (٢٠٠٧م). **اتجاهات الرسائل الفنية في العصر الأيوبي ٥٦٧هـ- ٦٤٨هـ**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

سرور، محمد جمال الدين، (١٩٧٩م)، **الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها**، دار الفكر العربي.

سلام، محمد زغلول، **الأدب في العصر الفاطمي الكتابة والكتاب**، الإسكندرية، منشأة المعارف.

سلطان، عبد المنعم، (١٩٨٥م). **المجتمع المصري في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية**، دار المعارف.

سيد، أيمن فؤاد، ٢٠٠٧م، **الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد،** القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن محمد بن عثمان (ت٩١١هـ )، **تاريخ الخلفا،** (تحقيق الشيخين: قاسم الرفاعي ومحمد العثماني)، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ٢٠٠٢م.

ـــــــــــــ، **حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة،** (وضع حواشيه: خليل منصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

ـــــــــــــ، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة،** (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٨م.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحيم بن إسماعيل(ت ٦٦٥هـ)، **الروضتين في أخبار الدولتين النُّورية والصلاحية،** الطبعة الأولى، تحقيق: إبراهيم الزِّيبق، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م.

الشَّيرزي، أبو الغنائم مسلم بن محمود (ت٦٢٢هـ). **جمهرة الإسلام ذات النَّثر والنِّظام،** الجزء الأول، (تحقيق: محمد إبراهيم حوَّر)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٥م.

الشيال، جمال الدين، (١٩٥٨م)، **مجموعة الوثائق الفاطمية،** المجلد الأول، القاهرة،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

صالح، محمود و نعانعة إبراهيم، (٢٠١٢م). **التداخل** بين الرسالة والقصيدة عند الكتاب الفاطميين، **مجلة دمشق،** المجلد ٢٨، العدد الأول.

الصالح، صبحي، (١٩٦٥م). **النظم الإسلامية نشأتها وتطورها،** الطبعة الأولى، بيروت، دار العلم للملايين.

الصفدي، خليل بن أيبك، **الوافي بالوفيات،** الطبعة الأولى، (تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وزكي مصطفى)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

ابن الصيرفي، علي بن منجب (ت ٥٤٢هـ)، **الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية ويتلوها إيقاع صواعق الإرغام في إدحاض حجج أولئك اللئام،** صححها: أصف بن علي أصغر فيضي، بمبي، الهند، ١٩٣٨م.

ـــــــــــــــ، **القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة،** ( تحقيق: أيمن فؤاد سيد)، الدار المصرية اللبنانية.

ـــــــــــــــ، **قانون ديوان الرسائل،** الطبعة الأولى، (تحقيق: علي بهجت)، مطبعة الواعظ، مصر، ١٩٠٥م.

ضيف، شوقي، (١٩٩٠م). **عصر الدول والإمارات مصر،** الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف.

عبد الحميد الكاتب، أبو غالب عبد الحميد بن يحيى (ت١٣٢هـ)، **من عبد الحميد الكاتب إلى الكتَّاب والموظفين،** الطبعة الأولى، (تحقيق: عبد العزيز الرفاعي)، المكتبة الصغيرة، ١٩٧٣م.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر،** الطبعة الأولى، (تحقيق: علي محمد البجلاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم)، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٢م.

عطاالله، محمد عبد الرحمن، (٢٠٠٠م)، **رسائل القاضي الفاضل: دراسة تحليلية،** الطبعة الأولى، دار الحضارة، طنطا.

العمري، ابن فضل الله أحمد بن يحيى، **التعريف بالمصطلح الشريف،** الطبعة الأولى، (تحقيق: سمير الدروبي)، الكرك، منشورات جامعة مؤتة، ١٩٩٢م.

عنَان، محمد عبدالله، (١٩٨٣م)، **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية،** الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة الخانجي، الرياض، دار الرفاعي.

العوفي، محمد سالم بن شديد، (١٩٨٢م). **العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية في العصر السلجوقي ٤٤٧ – ٥٦٧ هـ،** الطبعة الأولى.

القزويني، محمد بن عبد الرحمن الخطيب (٧٣٩هـ). **تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع،** الطبعة الأولى، مكتبة ومطبعة مصطفى الباني، القاهرة، ١٩٣٨م.

القضاعي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر( ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، **الحُلة السِّيراء،** الطبعة الأولى، ( تحقيق: حسين مؤنس)، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

ابن القَلَانِسيّ، أبو يَعلي حمزة، **تاريخ أبي يَعلي حمزة ابن القَلَانِسيّ المعروف بِذَيل تاريخ دمشق المعروف بذيل تاريخ دمشق،** مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

القلقشندي، أحمد بن علي ( ت٨٢١ هـ)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ١٥م ، (شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه : محمد حسين شمس الدين) ، دار الفكر، ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

الكاتب، علي بن خلف، **موادّ البيان**، (تحقيق: حسين عبد اللطيف)، ليبيا، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٨٢م.

الكتبي، محمد بن شاكر(ت ٧٦٤هـ). **فوات الوفيات**، (تحقيق: إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.

الكلاعي، ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن عبد الغفور، **إحكام صَنعة الكلام**، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٦٦م.

ماجد، عبد المنعم، (١٩٥٣م). **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر١**، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية.

مبارك، زكي، **النثر الفني في القرن الرابع**، الجزء١، بيروت، المكتبة العصرية.

الماوَرْدِيّ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ)، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، الطبعة الأولى، (تحقيق: أحمد مبارك البغدادي)، الكويت، دار ابن قتيبة، ١٩٨٩م.

مسلم، الإمام الحافظ أبو الحسين النَّيسابوري (ت٢٦١هـ). **صحيح مسلم**، الطبعة الأولى، دار طيبة، الرياض، ٢٠٠٦م.

مصطفى، أحمد أمين، (١٩٩٠م)، **الرسائل في مصر الإسلامية**، مطبعة السعادة.

المعلم، محسن علي، (١٩٩٩م)، **العقائد من نهج البلاغة**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الهادي.

المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ -١٤٤٢م)، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط**، (تحقيق: أيمن فؤاد سيِّد)، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن،٢٠٠٢م.

ــــــــــــــ، **اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا**، (تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة،٢٠٠٨م.

المناوي، محمد حمدي، **الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي**،مصر، دار المعارف.

ابن منظور (٦٣٠- ٧١١هـ). **لسان العرب،** الطبعة الثالثة، (تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م.

ابن مُيَّسر، تاج الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف، (ت٦٧٧هـ)، **المنتقى من أخبار مصر،** (تحقيق: أيمن فؤاد سيد)، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٠م.

النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب، **الفهرست،** (تحقيق : رضا – تجدد).

النووي، أبو زكريا محيي الدين بن شرف، **تهذيب الأسماء واللغات،** الطبعة الأولى، (تحقيق: الشيخ علي محمد معوّض و الشيخ عادل أحمد عبد الموجود)، دار النفائس، ٢٠٠٥م.

**THE ARTISTIC LETTERS OF EGYPT IN THE FATIMID ERA**

**BY**

Mohammed Mousa Alnaimat

**Supervisor**

Dr. AbdulJalil Abdul-Mahdi, prof

## ABSTRACT

The art letters in Egypt in the Fatimid Era is a literary study which the researcher examines through the letters that have reached us from Egypt in the Fatimid Era, trying to do so to submit initial Art concept specially for writing letters of art in that era.

The study comes in a preface and five chapters, the researcher in the preface tried to boot from which shows that the role of the court of construction in the development of technical writing letters Egypt in the Fatimid Era, where the court created the first enterprise which qualifies the writers under the supervision of the famous writers.

The first chapter of the study comes to from the *Diwaniya* letters that reached us from Egypt in the Fatimid Era. The researcher offers technical letters through them, the most prominent political events and the historical facts that took place in the court of the Fatimid dynasty in Egypt and what those letters included the administrate and financial arrangements and organized religious work of the Fatimid state in Egypt, and how the court imposed on the constriction of the Fatimid writers in this type of written models correspondence which cannot be free of them.

In the second chapter, the researcher studies the brotherhood letters that have reached us from the Egypt in the Fatimid Era. The writers were more liberal than in the letters of *Diwaniya*, they were in varied contents, they came in congratulations, condolences, strutting and fondling, and other contents which formed the free arena for the writers expressing through them what they free thinking and their feelings toward the others.

The third chapter was titled "the literary letters in Egypt in the Fatimid Era". This chapter was included two types of literary letters . The first one, the literary letters the content were represented in the letters that create "the preferences" were done by the son of Sirfi. The second are the literary letters , the purpose, were represented in the letters of spilling,

lamentation, description which reached us and reflect the ability of writers to express their culture and their literary ability in the Fatimid Era.

In the fourth chapter, the study focused on the privacy of literal prose in the Fatimid Era in Egypt, where they influenced on the doctrine of the Fatimid's in the technical letters especially the private letters of *Diwaniya* which issued by the office of construction and how was the shiasm was in those letters in terms of the idea of imamate, interpretation and where has been a new prose of topics on the prose in the Fatimid Era.

The study ends with chapter five which comes with its title "the technical evaluation of the technical studies in Egypt in the Fatimid era". The researcher explained through this chapter how much the Fatimid writer cared with their written letters , the took care of supplying them with all surrounding of literary and religious heritage. They exaggerated in toning voice based on alliteration, assonance, and counterpoint and looked after the depiction of art.

## نموذج ترخيص

أنا الطالب : محمد موسى ذياب الغنيمات أمنح الجامعة الأردنية و/ أو من تفوضه ترخيصاً غير حصري دون مقابل بنشر و / أو استعمال و / أو استغلال و / أو ترجمة و / أو تصوير و / أو إعادة إنتاج بأي طريقة كانت سواء ورقية و / أو إلكترونية أو غير ذلك رسالة الماجستير / الدكتوراه المقدمة من قبلي وعنوانها.

الرسائل الفنية في مصر في العصر الفاطمي

وذلك لغايات البحث العلمي و / أو التبادل مع المؤسسات التعليمية والجامعات و / أو لأي غاية أخرى تراها الجامعة الأردنية مناسبة، وأمنح الجامعة الحق بالترخيص للغير بجميع أو بعض ما رخصته لها.

اسم الطالب: محمد موسى ذياب الغنيمات .

التوقيع:

التاريخ: ٥/٨/٢٠١٤م